



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبحان

للغافل



عليه
صباح
الرمضان

WWW. **Ghaemiyeh** .com
WWW. **Ghaemiyeh** .org
WWW. **Ghaemiyeh** .net
WWW. **Ghaemiyeh** .ir

السيرة

نفسية القليل

للمعلمة تريا الشيد محمد حسين الطيب البستاني

المجلد التاسع

منشورات

مؤسسة الأمل للطبوعات

بغداد - العراق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الميزان فى تفسير القرآن

كاتب:

محمد حسين طباطبايى

نشرت فى الطباعة:

علامه طباطبايى

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
٨	تفسیر المیزان المجلد ٩
٨	اشاره
٨	اشاره
١٢	(٨) (سوره الأنفال مدنيه و هي خمس و سبعون آيه) (٧٥)
١٢	أسوره الأنفال (٨): الآيات ١ إلى ٦
١٢	اشاره
١٢	(بيان)
٢١	(بحث روائي)
٢٥	أسوره الأنفال (٨): الآيات ٧ إلى ١٤
٢٥	اشاره
٢٥	(بيان)
٣٠	(بحث روائي)
٣٠	اشاره
٤١	(فهرس أسماء شهداء بدر رض)
٤٣	أسوره الأنفال (٨): الآيات ١٥ إلى ٢٩
٤٣	اشاره
٤٤	(بيان)
٤٤	(بحث روائي)
٧٣	أسوره الأنفال (٨): الآيات ٣٠ إلى ٤٠
٧٣	اشاره
٧٤	(بيان)
٨٤	(بحث روائي)
٩٦	أسوره الأنفال (٨): الآيات ٤١ إلى ٥٤
٩٦	اشاره
٩٨	(بيان)
١١٢	(بحث روائي)
١١٩	أسوره الأنفال (٨): الآيات ٥٥ إلى ٦٦
١١٩	اشاره
١٢٠	(بيان)
١٣٥	(بحث روائي)
١٤٢	أسوره الأنفال (٨): الآيات ٦٧ إلى ٧١
١٤٢	اشاره
١٤٣	(بيان)
١٤٧	(بحث روائي)
١٤٩	أسوره الأنفال (٨): الآيات ٧٢ إلى ٧٥
١٤٩	اشاره
١٥٠	(بيان)
١٥٢	(بحث روائي)
١٥٣	(٩) (سوره التوبه مدنيه و هي مائه و تسع و عشرون آيه) (١٢٩)

١٥٣ (سوره التوبه (٩): الآيات ١ الى ١٦)
١٥٣ اشاره
١٥٥ (بيان)
١٧٠ (بحث روائي)
١٩٤ (كلام في معنى العهد و أقسامه و و هي من أحكامه أفي أربعة فصول)
٢٠١ (كلام في نسبه الأعمال إلى الأسباب طولاً)
٢٠٨ (سوره التوبه (٩): الآيات ١٧ الى ٢٤)
٢٠٨ اشاره
٢٠٩ (بيان)
٢١٩ (بحث روائي)
٢٢٧ (سوره التوبه (٩): الآيات ٢٥ الى ٢٨)
٢٢٧ اشاره
٢٢٨ (بيان)
٢٣٩ (بحث روائي)
٢٣٩ اشاره
٢٤٤ (فهرس أسماء شهداء حنين)
٢٤٧ (سوره التوبه (٩): الآيات ٢٩ الى ٣٥)
٢٤٧ اشاره
٢٤٨ (بيان)
٢٤٣ (بحث روائي)
٢٧٢ (كلام في معنى الكنز)
٢٧٧ (سوره التوبه (٩): الآيات ٣٦ الى ٣٧)
٢٧٧ إِنْ عَدَّ الشُّهُورَ عِنْدَ اللَّهِ إِيَّاهُ عَشْرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حَرْمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُم مَّا ظَلَمُوا فِيهِمْ أَنفُسَهُمْ وَ قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا يُجَلُّونَهُ عَمَّا وَ بَحْرَهُ
٢٧٧ (بيان)
٢٨٤ (بحث روائي)
٢٨٨ (سوره التوبه (٩): الآيات ٣٨ الى ٤٨)
٢٨٨ اشاره
٢٨٩ (بيان)
٣٠٢ (بحث روائي)
٣١٤ (سوره التوبه (٩): الآيات ٤٩ الى ٦٣)
٣١٤ اشاره
٣١٧ (بيان)
٣٣٠ (بحث روائي)
٣٣٥ (سوره التوبه (٩): الآيات ٦٤ الى ٧٤)
٣٣٥ اشاره
٣٣٨ (بيان)
٣٥٥ (بحث روائي)
٣٦١ (سوره التوبه (٩): الآيات ٧٥ الى ٨٠)
٣٦١ اشاره
٣٦٢ (بيان)
٣٦٥ (بحث روائي)

٣٦٩ [سورة التوبه (٩): الآيات ٨١ الى ٩٦]
٣٦٩ اشاره
٣٧٢ (بيان)
٣٧٨ (بحث روائي)
٣٨٣ [سورة التوبه (٩): الآيات ٩٧ الى ١٠٦]
٣٨٣ اشاره
٣٨٤ (بيان)
٣٩٥ (بحث روائي)
٤٠٠ (كلام في الزكاه و سائر الصدقه)
٤٠٢ [سورة التوبه (٩): الآيات ١٠٧ الى ١١٠]
٤٠٢ اشاره
٤٠٣ (بيان)
٤٠٥ (بحث روائي)
٤٠٧ [سورة التوبه (٩): الآيات ١١١ الى ١٢٣]
٤٠٧ اشاره
٤١٠ (بيان)
٤٢٠ (بحث روائي)
٤٢٣ [سورة التوبه (٩): الآيات ١٢٤ الى ١٢٩]
٤٢٣ اشاره
٤٢٤ (بيان)
٤٢٨ (بحث روائي)
٤٣٢ تعريف مركز

سرشناسه : طباطبائی، سید محمد حسین، ۱۲۸۱ - ۱۳۶۰.

عنوان و نام پدید آور : تفسیر المیزان / محمد حسین طباطبائی؛ ترجمه ناصر مکارم شیرازی... [و دیگران].

وضعیت ویراست : [ویراست ۲؟]

مشخصات نشر : قم: بنیاد علمی و فکری علامه طباطبائی؛ تهران: مرکز نشر فرهنگی رجاء: امیر کبیر، ۱۳۶۳-

مشخصات ظاهری : ۲۰ ج.

شابک : ۱۶۰۰۰ ریال (دوره کامل)

یادداشت : جلد ۱۱ و ۱۹ کتاب توسط سید محمد باقر موسوی همدانی ترجمه شده است.

یادداشت : ج. ۱۱ (چاپ صد و بیست و هشتم: ۱۳۶۳).

یادداشت : ج. ۱۹ (چاپ اول؟: ۱۳۶۳).

یادداشت : عنوان عطف: ترجمه تفسیر المیزان.

عنوان عطف : ترجمه تفسیر المیزان.

موضوع : تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده : مکارم شیرازی، ناصر، ۱۳۰۵ -، مترجم

رده بندی کنگره : BP۹۸/ط۲۵ م ۹۰۴۱ ۱۳۶۳

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۲۶

شماره کتابشناسی ملی : م ۶۳-۳۵۴۹

ص : ۱

(٨) (سورة الأنفال مدنيه و هي خمس و سبعون آيه) (٧٥)

[سورة الأنفال (٨): الآيات ١ الى ٦]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١) إِنَّمَا
الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَيَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ
وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ
بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهِونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦)

(بيان)

سياق الآيات في السورة يعطى أنها مدنيه نزلت بعد وقعه بدر، و هي تقص بعض أخبار بدر، و تذكر مسائل متفرقه تتعلق بالجهاد و الغنائم و الأنفال و نحوها، و أمورا أخرى تتعلق بالهجره و بها تختتم السوره.

قوله تعالى: «يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ» إلى آخر الآيه.

الأنفال جمع نفل بالفتح و هو الزيادة على الشيء، و لذا يطلق النفل و النافله على التطوع

ص: ٥

لزيادته على الفريضة، وتطلق الأنفال على ما يسمى فينا أيضا و هي الأشياء من الأموال التي لا مالك لها من الناس كرهوس الجبال، و بطون الأودية، و الديار الخربه، و القرى التي باد أهلها و تركه من لا- وارث له، و غير ذلك كأنها زياده على ما ملكه الناس فلم يملكها أحد و هي لله و لرسوله، و تطلق على غنائم الحرب كأنها زياده على ما قصد منها فإن المقصود بالحرب و الغزوه الظفر على الأعداء و استئصالهم فإذا غلبوا و ظفر بهم فقد حصل المقصود، و الأموال التي غنمه المقاتلون و القوم الذين أسروهم زياده على أصل الغرض.

و « ذات » فى الأصل مؤنث « ذا » بمعنى الصاحب من الألفاظ اللانزاهه الإضافه غير أنه كثر استعماله فى نفس الشىء بمعنى ما به الشىء هو هو فىقال: ذات الإنسان أى ما به الإنسان إنسان، و ذات زىء أى النفس الإنسانىة الخاصه التى سمىء بزىء، و كان الأصل فىها النفس ذات أعمال كذا ثم أفردت بالذكر فقيل ذات الأعمال أو ما يؤدى مؤءاه ثم قيل ذات، و كذلك الأمر فى ذات البىن فلكون الخصومه لا- تتحقق إلا بىن طرفىن نسب إليها البىن فقيل ذات البىن أى الحاله و الرابطة السىئه التى هى صاحبه البىن فالمراد بقوله: أَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ أى أصلحوا الحاله الفاسده و الرابطة السىئه التى بىنكم.

و قال الراغب فى المفردات: « ذو » على وجهىن: أحدهما يتوصل به إلى الوصف بأسماء الأجناس و الأنواع، و يضاف إلى الظاهر دون المضممر، و يثنى و يجمع، و يقال فى التثنىة: ذواتا، و فى الجمع: ذوات، و لا يستعمل شىء منها إلا مضافا.

قال: و قد استعار أصحاب المعانى الذات فجعلوه عباره عن عىن الشىء جوهرًا كان أو عرضا، و استعمالوها مفردة و مضافه إلى المضممر و بالألف و اللام، و أجروها مجرى النفس و الخاصه فقالوا: ذاته و نفسه و خاصته، و لىء ذلك من كلام العرب، و الثانى فى لفظ ذو لغه لطفىء يستعملونه استعمال « الذى » و يجعل فى الرفع و النصب و الجر و الجمع و التأنىء على لفظ واحد نحو:

و بثرى ذو حفرت و ذو طوىء.

أى التى حفرت و التى طوىء. انتهى.

و الذى ذكره من عدم إضافته إلى الضمير منقول عن الفراء، و لازمه كون استعماله مضافا إلى الضمير من كلام المولدين و الحق أنه قليل لا متروك، و قد وقع فى كلام على (ع) فى بعض خطبه كما فى نهج البلاغه.

و قد اختلف المفسرون فى معنى الآية و موقعها اختلافا شديدا من جهات: من جهة معنى قوله: «يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ» و قد نسب إلى أهل البيت ((ع)) و بعض آخر كعبد الله بن مسعود و سعد بن أبى وقاص و طلحة بن مصرف أنهم قرءوا:

«يسئلونك الأنفال» ف قيل: عن زائده فى القراءه المشهوره، و قيل: بل مقدره فى القراءه الشاذه، و قيل: إن المراد بالأنفال غنائم الحرب، و قيل: غنائم غزوه بدر خاصه بجعل اللام فى الأنفال للعهد، و قيل: الفىء الذى لله و الرسول و الإمام، و قيل:

إن الآية منسوخه بآيه الخمس، و قيل: بل محكمه، و قد طالت المشاجره بينهم كما يعلم بالرجوع إلى مطولات التفاسير كتفسيرى الرازى و الألوسى و غيرهما.

و الذى ينبغى أن يقال بالاستمداد من السياق: أن الآية بسياقها تدل على أنه كان بين هؤلاء المشار إليهم بقوله: «يَسْئَلُونَكَ» تخاصم خاصم به بعضهم بعضا بأخذ كل جانبا من القول لا يرضى به خصمه، و التفرغ الذى فى قوله: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَصِلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ» يدل على أن الخصومه كانت فى أمر الأنفال، و لازم ذلك أن يكون السؤال الواقع منهم المحكى فى صدر الآية إنما وقع لقطع الخصومه، كأنهم تخاصموا فى أمر الأنفال ثم راجعوا رسول الله ص يسألونه عن حكمها لتقطع بما يجيبه الخصومه و ترتفع عما بينهم.

و هذا- كما ترى- يؤيد أولا القراءه المشهوره: «يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ» فإن السؤال إذا تعدى بعن كان بمعنى استعمال الحكم و الخير، و أما إذا استعمل متعديا بنفسه كان بمعنى الاستعطاف و لا يناسب المقام إلا المعنى الأول.

و ثانيا: أن الأنفال بحسب المفهوم و إن كان يعم الغنيمه و الفىء جميعا إلا- أن مورد الآية هى الأنفال بمعنى غنائم الحرب لا غنائم غزوه بدر خاصه إذ لا وجه للتخصيص فإنهم إذ تخاصموا فى غنائم بدر لم يتخاصموا فيها لأنها غنائم بدر خاصه بل لأنها غنائم مأخوذه من أعداء الدين فى جهاد دينى، و هو ظاهر.

و اختصاص الآيه بحسب موردها بغنيمه الحرب لا يوجب تخصيص الحكم الوارد فيها بالمورد، فإن المورد لا يخصص، فإطلاق حكم الآيه بالنسبه إلى كل ما يسمى بالنفل في محله، و هي تدل على أن الأنفال جميعا لله و لرسوله لا يشارك الله و رسوله فيها أحد من المؤمنين سواء في ذلك الغنيمه و الفىء.

ثم الظاهر من قوله: «قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ» و ما يعظهم الله به بعد هذه الجملة و يحرضهم على الإيمان هو أن الله سبحانه فصل الخصومه بتشريع ملكها لنفسه و لرسوله، و نزعها من أيديهم و هو يستدعى أن يكون تخصمهم من جهه دعوى طائفه منهم أن الأنفال لها خاصه دون غيرها، أو أنها تختص بشىء منها، و إنكار الطائفه الأخرى ذلك، ففصل الله سبحانه خصومتهم فيها بسلب ملكهم منها و إثبات ملك نفسه و رسوله، و موعظتهم أن يكفوا عن المخاصمه و المشاجره، و أما قول من يقول:

إن الغزاه يملكون ما أخذوه من الغنيمه بالإجماع فأحرى به أن يورد في الفقه دون التفسير.

و بالجملة فنزاعهم في الأنفال يكشف عن سابق عهد لهم بأن الغنيمه لهم أو ما فى معناه غير أنه كان حكما مجملا اختلف فيه المتخاصمان و كل يجر النار إلى قرصته، و الآيات الكريمه تؤيد ذلك.

توضيحه: أن ارتباط الآيات فى السوره و التصريح بقصه وقعه بدر فيها يكشف أن السوره بأجمعها نزلت حول وقعه بدر و بعيدا حتى إن ابن عباس -على ما نقل عنه- كان يسميها سوره بدر، و التى تتعرض لأمر الغنيمه من آياتها خمس آيات فى مواضع ثلاثه من السوره هى بحسب ترتيب السوره، قوله تعالى: «يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ» الآية، و قوله تعالى: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِإِخْوَتِكُمُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمَسْكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقِي الْجَمْعَانِ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، و قوله تعالى: «مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَ اللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَوْ لَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

و سياق الآيه الثانيه يفيد أنها نزلت بعد الآيه الأولى و الآيات الأخره جميعا

لمكان قوله فيها إِنَّ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فهي نازله بعد الوقعه بزمان.

ثم الآيات الأخيره تدل على أنهم كلموا رسول الله ص فى أمر الأسرى و سألوه أن لا يقتلهم و يأخذ الفديه، و فيها عتابهم على ذلك، ثم تجوز أن يأكلوا مما غنموا و كأنهم فهموا من ذلك أنهم يملكون الغنائم و الأنفال على إبهام فى أمره: هل يملكه جميع من حضر الوقعه أو بعضهم كالمقاتلين دون القاعدین مثلا؟ و هل يملكون ذلك بالسويه فيقسم بينهم كذلك أو يختلفون فيه بالزيادة و النقصه كأن يكون سهم الفرسان منها أزيد من المشاه؟ أو نحو ذلك.

و كان ذلك سبب التخاصم بينهم فتشاجروا فى الأمر، و رفعوا ذلك إلى رسول الله ص فنزلت الآيه الأولى: «قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ» الآيه، فخطأتهم الآيه فيما زعموا أنهم مالکوا الأنفال بما استفادوا من قوله:

«فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ» الآيه، و أقرت ملك الأنفال لله و الرسول و نهتهم عن التخاصم و التشاجر، فلما انقطع بذلك تخاصمهم أرجعها النبى ص إليهم، و قسمها بينهم بالسويه، و عزل السهم لعدده من أصحابه لم يحضروا الوقعه، و لم يقدم مقاتلا على قاعد، و لا فارسا على ماش، ثم نزلت الآيه الثانيه: «وَ اعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ» الآيه، بعد حين فأخرج النبى ص مما رد إليهم من السهام الخمس و بقى لهم الباقي. هذا ما يتحصل من انضمام الآيات المربوطه بالأنفال بعضها ببعض.

فقوله تعالى: «يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ» يفيد بما ينضم إليه من قرائن السياق أنهم سألوا النبى ص عن حكم غنائم الحرب بعد ما زعموا أنهم يملكون الغنيمه، و اختلفوا فيمن يملكها، أو فى كيفية ملكها و انقسامها بينهم، أو فيهما معا، و تخاصموا فى ذلك.

و قوله: «قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ» جواب عن مسألتهم و فيه بيان أنهم لا يملكونها و إنما هى أنفال يملكها الله و رسوله، فيوضع حيثما أراد الله و رسوله، و قد قطع ذلك أصل ما نشب بينهم من الاختلاف و التخاصم.

و يظهر من هذا البيان أن الآيه غير ناسخه لقوله تعالى: «فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ»

إلى آخر الآيه، وإنما تبين معناها بالتفسير، وإن قوله: «فَكُلُّوا» ليس بكنايه عن ملكهم للغنيمه بحسب الأصل، وإنما المراد هو التصرف فيها و التمتع منها إلا أن يمتلكوا بقسمه النبي ص إياها بينهم.

و يظهر أيضا أن قوله تعالى: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِإِخْوَتِكُمُ الْمُؤْمِنِينَ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِلرَّسُولِ» الآية ليس بناسخ لقوله: «قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ» الآية فإن قوله: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ» الآية إنما يؤثر بالنسبه إلى المجاهدين منعهم عن أكل تمام الغنيمه و التصرف فيه إذ لم يكن لهم بعد نزول قوله: «الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ» إلا ذلك، و أما قوله: «الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ» فلا يفيد إلا كون أصل ملكها لله و الرسول من دون أن يتعرض لكيفية التصرف و جواز الأكل و التمتع، فلا يناقضه في ذلك قوله: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ» الآية حتى يكون بالنسبه إليه ناسخا، فيتحصل من مجموع الآيات الثلاث: أن أصل الملك في الغنيمه لله و الرسول ثم يرجع أربعه أخماسها إلى المجاهدين يأكلونها و يمتلكونها و يرجع خمس منها إلى الله و الرسول و ذى القربى و غيرهم لهم التصرف فيها و الاختصاص بها.

و يظهر بالتأمل في البيان السابق أيضا: أن في التعبير عن الغنائم بالأنفال و هو جمع نفل بمعنى الزيادة إشاره إلى تعليل الحكم بموضوعه الأعم، كأنه قيل: يسألونك عن الغنائم و هي زيادات لا مالك لها من بين الناس، و إذا كان كذلك فأجبهم بحكم الزيادات و الأنفال، و قُلِ: الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ، و لازم ذلك كون الغنيمه لله و الرسول.

و بذلك ربما تأيد كون اللام في لفظ الأنفال الأول للعهد و في الثاني للجنس أو الاستغراق، و تبين وجه الإظهار في قوله: «قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ» الآية حيث لم يقل: قل هي لله و الرسول.

و يظهر بذلك أيضا: أن قوله: «قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ» حكم عام يشمل بعمومه الغنيمه و سائر الأموال الزائده في المجتمع نظير الديار الخاليه و القرى البائده و رعوس الجبال و بطون الأودية و قطائع الملوك و تركه من لا وارث له، أما الأنفال بمعنى الغنائم فهي متعلقه بالمقاتلين من المسلمين بعمل النبي ص، و بقى الباقي تحت ملك الله و رسوله.

هذا ما يفيد التامل في كرائم الآيات، وللمفسرين فيها أقاويل مختلفه تعلم بالرجوع إلى مطولات التفاسير لا جدوى في نقلها و التعرض المنقضى والإبرام فيها.

قوله تعالى: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ» إلى آخر الآيتين والآيات التي بعدهما بيان ما يتميز به المؤمنون بحقيقه الإيمان و يختصون به من الأوصاف الكريمة و الثواب الجزيل بينت ليتأكد به ما يشتمل عليه قوله تعالى:

«فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ» إلى آخر الآيه.

وقد ذكر الله تعالى لهم خمس صفات اختارها من بين جميع صفاتهم التي ذكرها في كلامه لكونها مستلزمه لكرائم صفاتهم على كثرتها و ملازمه لحق الإيمان، و هي بحيث إذا تنبهوا لها و تأملوها كان ذلك مما يسهل لهم توطين النفس على التقوى و إصلاح ذات بينهم، و إطاعه الله و رسوله.

و هاتيك الصفات الخمس هي: وجل القلب عند ذكر الله، و زياده الإيمان عند استماع آيات الله، و التوكل، و إقامة الصلاة، و الإنفاق مما رزقهم الله، و معلوم أن الصفات الثلاث الأول من أعمال القلوب، و الأخيرتان من أعمال الجوارح.

وقد روعى في ذكرها الترتيب الذي بينها بحسب الطبع، فإن نور الإيمان إنما يشرق على القلب تدريجاً، فلا يزال يشتد و يضاعف حتى يتم و يكمل بحقيقته، فأول ما يشرق يتأثر القلب بالوجل و الخشيه إذا تذكر بالله عند ذكره، و هو قوله تعالى:

«إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ».

ثم لا يزال ينسبط الإيمان و يتعرق و ينمو و يتفرع بالسير في الآيات الداله عليه تعالى، و الهاديه إلى المعارف الحقه، فكلما تأمل المؤمن في شىء منها زادت إيمانه، فيقوى الإيمان و يشتد حتى يستقر في مرحله اليقين، و هو قوله تعالى: «وَ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا».

و إذا زاد الإيمان و كمل كما لا عرف عندئذ مقام ربه و موقع نفسه، معرفه تطابق واقع الأمر، و هو أن الأمر كله إلى الله سبحانه فإنه تعالى وحده هو الرب الذى إليه يرجع كل شىء، فالواجب الحق على الإنسان أن يتوكل عليه و يتبع ما يريد منه بأخذه و كيلا فى جميع ما يهيمه فى حياته، فيرضى بما يقدر له فى مسير الحياه،

و يجرى على ما يحكم عليه من الأحكام و يشرعه من الشرائع فيأتمر بأوامره و ينتهي عن نواهيه، و هو قوله تعالى: «وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ .»

ثم إذا استقر الإيمان على كماله في القلب، استوجب ذلك أن ينعطف العبد بالعبودية إلى ربه، و ينصب نفسه في مقام العبودية و إخلاص الخضوع و هو الصلاة، و هي أمر بينه و بين ربه، و أن يقوم بحاجه المجتمع في نواقص مساعيهم بالإنفاق على الفقراء مما رزقه الله من مال أو علم أو غير ذلك، و هو أمر بينه و بين سائر أفراد مجتمعه، و هو قوله تعالى: «الَّذِينَ يُتِمُّونَ الصَّلَاةَ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ .»

و قد ظهر مما تقدم أن قوله تعالى: «زَادَتْهُمْ إِيمَانًا» إشاره إلى الزيادة من حيث الكيفيه و هو الاشتداد و الكمال، دون الكمية و هي الزيادة من حيث عدد المؤمنين كما احتمله بعض المفسرين.

قوله تعالى: «أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ» قضاء منه تعالى بثبوت الإيمان حقا فيمن اتصف بما عده تعالى من الصفات الخمس، و لذلك أطلق ما ذكره لهم من كريم الأجر في قوله: «لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ» الآية فلهؤلاء من صفات الكمال و كريم الثواب و عظيم الأجر ما لكل مؤمن حقيقى.

و أما قوله: «لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ» فالمغفرة هي الصفح الإلهي عند ذنوبهم، و الرزق الكريم ما يرتزون به من نعم الجنة، و قد أراد الله سبحانه بالرزق الكريم الجنة و نعمها في مواضع من كلامه، كقوله تعالى: «فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ.» الحج: ٥١ و غير ذلك.

و بذلك يظهر أن المراد بقوله: «لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ» مراتب القرب و الزلفى و درجات الكرامه المعنويه، و هو كذلك. فإن المغفرة و الجنة من آثار مراتب القرب من الله سبحانه و فروعه البته.

و الذى يشتمل عليه الآية من إثبات الدرجات لهؤلاء المؤمنين، هو ثبوت جميع الدرجات لجميعهم، لا ثبوت جميعها لكل واحد منهم فإنها من لوازم الإيمان، و الإيمان مختلف ذو مراتب فالدرجات الموهوبه بإزائه كذلك لا محاله، فمن المؤمنين من له

درجه واحده، و منهم ذو الدرجتين، و منهم ذو الدرجات على اختلاف مراتبهم فى الإيمان.

و يؤيده قوله تعالى: «يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ:» المجادل: -١١، و قوله تعالى: «أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَاؤَاهُ جَهَنَّمَ وَ بئْسَ الْمَصِيرُ، هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ:» آل عمران: ١٦٣.

و بما تقدم يظهر أن تفسير بعضهم ما فى الآيه من الدرجات بدرجات الجنة، ليس على ما ينبغى، و إن المتعين كون المراد بها درجات القرب؛ كما تقدم و إن كان كل منهما يلزم الآخر.

قوله تعالى: «كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ» إلى آخر الآيتين. ظاهر السياق أن قوله: «كَمَا أَخْرَجَكَ» متعلق بما يدل عليه قوله تعالى: «قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ» و التقدير: إن الله حكم بكون الأنفال له و لرسوله بالحق مع كراهتهم له، كما أخرجك من بيتك بالحق مع كراهه فريق منهم له، فلجميع حق يترتب عليه من مصلحة دينهم و دنياهم ما هم غافلون عنه.

و قيل: إنه متعلق بقوله: «يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ» و قيل: إن العامل فيه معنى الحق و التقدير: هذا الذكر من الحق كما أخرجك ربك من بيتك بالحق. و المعنيان - كما ترى - بعيدان عن سياق الآيه.

و المراد بالحق ما يقابل الباطل، و هو الأمر الثابت الذى يترتب عليه آثاره الواقعيه المطلوبه، و كون الفعل - و هو الإخراج - بالحق هو أن يكون هو المتعين الواجب بحسب الواقع، و قيل: المراد به الوحي، و قيل: المراد به الجهاد، و قيل غير ذلك، و هى معان بعيده.

و الأصل فى معنى الجدال شدة القتال: يقال: زمان جدل أى شديد القتال، و سمي الجدال جدالا لأنه فيه نزاعا بالقتل عن مذهب إلى مذهب كما ذكره فى المجمع.

و معنى الآيتين: أن الله تعالى حكم فى أمر الأنفال بالحق مع كراهتهم لحكمه كما أخرجك من بيتك بالمدينه إخراجا يصاحب الحق، و الحال أن فريقا من المؤمنين

لكارهون لذلك، ينازعونك في الحق بعد ما تبين لهم إجمالاً، والحال أنهم يشبهون جماعه يساقون إلى الموت، وهم ينظرون إلى ما أعد لهم من أسبابه و أدواته.

(بحث روائى)

فى جامع الجوامع للطبرسى، قرأ ابن مسعود و على بن الحسين زين العابدين و الباقر و الصادق (ع): يسألونك الأنفال:.

أقول: و رواه عن ابن مسعود و كذا عن السجاد و الباقر و الصادق غيره.

و فى الكافى، بإسناده عن العبد الصالح (ع) قال: الأنفال كل أرض خربه قد باد أهلها، و كل أرض لم يوجف عليها بخيل و لا ركاب- و لكن صالحوا صلحا و أعطوا بأيديهم على غير قتال- فقال-: و له- يعنى الوالى- رءوس الجبال و بطون الأودية و الآجام، و كل أرض ميتة لا رب لها، و له صوافى الملوك: ما كان فى أيديهم من غير وجه الغصب لأن الغصب كله مردود، و هو وارث من لا وارث له، و يعول من لا حيله له.

و فيه، بإسناده عن الصادق (ع): فى قوله تعالى: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ» قال: من مات و ليس له مولى فماله من الأنفال.

أقول: و فى معنى الروايتين روايات كثيرة مرويه من طرق أهل البيت (ع) و لا ضير فى عدم ذكرها الأنفال بمعنى غنائم الحرب، فإن الآيه بموردها تدل عليه على ما يفيدته سياقها.

و فى الدر المنثور، أخرج الطيالسى و البخارى فى الأدب المفرد و مسلم و النحاس فى ناسخه و ابن مردويه و البيهقى فى الشعب عن سعد بن أبى وقاص قال: "نزلت فى أربع آيات من كتاب الله: كانت أمى حلفت أن لا تأكل و لا تشرب- حتى أفارق محمدا ص فأنزل الله: و إن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم- فلا تطعهما و صاحبهما فى الدنيا معروفًا-.

و الثانى: أنى كنت أخذت سيفاً أعجبني- فقلت: يا رسول الله هب لى هذا فنزلت: يسألونك عن الأنفال-.

و الثالثه: أنى مرضت فأتانى رسول الله ص فقلت: يا رسول الله إنى أريد أن أقسم مالى أ فأوصى بالنصف؟ قال: لا، فقلت: الثلث؟ فسكت فكان الثلث بعده جائزا-.

و الرابعه: أنى شربت الخمر مع قوم من الأنصار- فضرب رجل منهم أنفى بلحىي جمل- فأتيت النبى فأنزل الله تحريم الخمر.

أقول: الروايه لا- تخلو عن شىء أما أولا- فلأن قوله تعالى: «وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِيْ» الآية ذيل قوله تعالى: «وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ» لقمان: ١٤ و هى بسياقها تأبى أن تكون نازله عن سبب خاص. على أنه قد تقدم فى ذيل قوله تعالى:

«قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا» الأنعام: ١٥١، إن الإحسان بالوالدين من الأحكام العامه غير المختصه بشريعه دون شريعته.

و أما ثانيا: فلأن ما ذكر من أخذ السيف و استيهابه من النبى ص إنما يناسب قراءه: «يسئلونك الأنفال» لا قراءه: «يسئلونك عن الأنفال» و قد تقدم توضيحه فى البيان المتقدم.

و أما ثالثا: فلأن استقرار السنه على الإيصاء بالثلث لم يكن بآيه نازله بل بسنه نبويه.

و أما رابعا: فلأن قصه شربه الخمر مع جماعه من الصحابه و شج أنفه بلحىي بعير و إن كانت حقه لكنه إنما شرب الخمر مع جماعه مختلطه من المهاجرين و الأنصار، و قد شج أنفه عمر بن الخطاب ثم أنزل الله آيه المائده، و لم ينزل للتحريم بل لتشديده، و قد تقدم ذلك كله فى ذيل قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ» المائده: ٩٠.

و فيه: أخرج أحمد و عبد بن حميد و ابن جرير و أبو الشيخ و ابن مردويه و الحاكم و البيهقى فى سننه عن أبى أمامه قال: سألت عباده بن الصامت عن الأنفال- فقال:

فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا فى النفل- فساءت فيه أحلامنا فانترعه الله من

أيدينا-و جعله إلى رسول الله ص قسمه رسول الله ص بين المسلمين، عن براء يقول: عن سواء.

وفيه: أخرج سعيد بن منصور و أحمد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن حبان و أبو الشيخ و الحاكم، و صححه و البيهقي و ابن مردويه عن عباده بن الصامت قال:

خرجنا مع رسول الله ص فشهدت معه بدرا-فالتقى الناس فهزم الله العدو-فانطلقت طائفه في آثارهم منهزمين يقتلون، و أكبت طائفه على العسكر يحوزونه و يجمعونه، و أحدقت طائفه برسول الله ص لا تصيب العدو منه غره-حتى إذا كان الليل و فاء الناس بعضهم إلى بعض-قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها و جمعناها، فليس لأحد فيها نصيب، و قال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق بها منا، نحن نفينا عنها العدو و هزمناهم، و قال الذين أحدقوا برسول الله ص: لستم بأحق منا نحن أحدقنا برسول الله ص- و خفنا أن يصيب العدو منه غره و اشتغلنا به فنزلت:

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ » فقسمها رسول الله ص بين المسلمين، الحديث.

وفيه: أخرج ابن أبي شيبه و أبو داود و النسائي و ابن جرير و ابن المنذر و ابن حبان و أبو الشيخ و ابن مردويه و الحاكم و صححه و البيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال:

لما كان يوم بدر قال النبي: من قتل قتيلا فله كذا و كذا-و من أسر أسيرا فله كذا و كذا- فأما المشيخه فثبتوا تحت الرايات، و أما الشبان فتسارعوا إلى القتل و الغنائم-فقلت المشيخه للشبان: أشركونا معكم فإننا كنا لكم رداء و لو كان منكم شيء-للجأتم إلينا فاختصموا إلى النبي ص فنزلت: « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ » فقسم الغنائم بينهم بالسويه.

أقول: و في هذه المعاني روايات أخر، و هنا روايات تدل على تفصيل القصة تتضح بها معنى الآيات سنوردها في ذيل الآيات التاليه.

و في بعض الروايات أن النبي ص وعدهم أن يعطيهم السلب و الغنيمه ثم نسخه الله تعالى بقوله: « قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ » و إلى ذلك يشير ما في هذه الروايه، و لذلك ربما قيل: إنه لا يجب على الإمام أن يفى بما وعد به المحاربين. لكن يبعده

اختلافهم في أمر الغنائم يوم بدر إذ لو كان النبي ص وعدهم بذلك لم يختلفوا مع صريح بيانه.

و فيه:، أخرج ابن جرير عن مجاهد: "أنهم سألوا النبي ص عن الخمس بعد الأربعة الأخماس - فتزلت: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ».

أقول: وهو لا ينطبق على ما تقدم من مضمون الآية على ما يعطيه السياق، و في بعض ما ورد عن المفسرين السلف كسعید بن جبیر و مجاهد و عكرمه و كذا عن ابن عباس أن قوله تعالى: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ» الآية منسوخة بقوله: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ» الآية، و قد تقدم في بيان الآية ما ينتفي به احتمال النسخ.

و فيه:، أخرج مالك و ابن أبي شيبه و أبو عبيد و عبد بن حميد و ابن جرير و النحاس و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن القاسم بن محمد، قال: "سمعت رجلا يسأل ابن عباس عن الأنفال فقال: الفرس من النفل و السلب من النفل - فأعاد المسألة فقال ابن عباس ذلك أيضا-.

ثم قال الرجل: الأنفال التي قال الله في كتابه، ما هي؟ فلم يزل يسأله حتى كاد يجرجه، فقال ابن عباس: هذا مثل صبيغ الذي ضربه عمر، و في لفظ:

ما أحوجك إلى من يضربك كما فعل عمر بصبيغ العراقي، و كان عمر ضربه حتى سالت الدماء على عقيه.

و فيه:، في قوله تعالى: «أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا» أخرج الطبراني عن الحارث بن مالك الأنصاري - أنه مر برسول الله ص فقال له: كيف أصبحت يا حارث؟ قال: أصبحت مؤمنا حقا. قال: انظر ما تقول - فإن لكل شيء حقيقه فما حقيقه إيمانك؟ فقال: عرفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي و أضمأت نهاري - و كأنني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، و كأنني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها، قال:

يا حارث عرفت فالزم، ثلاثا.

أقول: و الحديث مروى من طرق الشيعة بأسانيد عديده.

إشارة

وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَهِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨) إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصِيرُ إِلَّا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ اللَّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيَطَهِّرَ كُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَيُرِبْطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّثُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَالِقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاصْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذَلِكَم فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤)

(بيان)

تشير الآيات إلى قصة بدر، وهي أول غزوه في الإسلام، و ظاهر سياق الآيات أنهم نزلت بعد انقضائها على ما سيتضح.

قوله تعالى: «وَ إِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَهِ تَكُونُ لَكُمْ وَ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَ يَقَطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ» أى و اذكروا إذ يعدكم الله، و هو بيان منن الله و عد نعمه عليهم ليكونوا على بصيره من أن الله سبحانه لا يستقبلهم بأمر و لا يأتيهم بحكم إلا بالحق و فيه حفظ مصالحهم و إسعاد جدهم فلا يختلفوا فيما بينهم، و لا يكرهوا ما يختاره لهم، و يكلوا أمرهم إليه فيطيعوه و رسوله.

و المراد بالطائفتين العير و النفير، و العير قافله قريش و فيها تجارتهم و أموالهم و كان عليها أربعون رجلا منهم أبو سفيان بن حرب، و النفير جيش قريش و هم زهاء ألف رجل.

و قوله: «وَ إِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ» مفعول ثان لقوله: «يَعِدُكُمُ اللَّهُ» و قوله: «أَنَّهَا لَكُمْ» بدل منه و قوله «وَ تَوَدُّونَ» الآيه فى موضع الحال، و المراد بغير ذات الشوكه:

الطائفه غير ذات الشوكه و هى العير الذى كان أقل عدده و عدده من النفير، و الشوكه الحده، استعاره من الشوك.

و قوله: «وَ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ» فى موضع الحال، و المراد بإحقاق الحق إظهاره و إثباته بترتيب آثاره عليه، و كلمات الله هى ما قضى به من نصره أنبيائه و إظهار دينه الحق، قال تعالى: «وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِجَانِبِنَا الْمُؤْمِنِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَ إِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ» :الصفات: ١٧٣ و قال تعالى: «يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينَ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ» :الصف: ٩ و قرئ: «بكلمته»: و هو أوجه و أقرب و الدابر ما يأتى بعد الشىء مما يتعلق به و يتصل إليه و قطع دابر الشىء، كناية عن إفئائه و استئصاله بحيث لا يبقى بعده شىء من آثاره المتفرعه عليه المرتبطه به.

و معنى الآيه: و اذكروا إذ يعدكم الله أن إحدى الطائفتين لكم تستعلون عليها بنصر الله إما العير و إما النفير و أنتم تودون أن تكون تلك الطائفه هى العير لما تعلمون من شوكة النفير، و قوتهم و شدتهم، مع ما لكم من الضعف و الهوان، و الحال

أن الله يريد خلاف ذلك و هو أن تلاقوا النفي فيظهركم عليهم و يظهر ما قضى ظهوره من الحق، و يستأصل الكافرين و يقطع دابرهم.

قوله تعالى: «لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَ يَبْطِلَ الْبَاطِلَ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ» ظاهر السياق أن اللام للغايه، و قوله: «لِيُحَقِّقَ» الآية متعلق بقوله: «يَعِدُّكُمْ اللَّهُ» أي إنما وعدكم الله ذلك و هو لا يخلف الميعاد ليحق بذلك الحق و يبطل الباطل و لو كان المجرمون يكرهونه و لا يريدونه.

و بذلك يظهر أن قوله: «لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ» الآية ليس تكرارا لقوله: «وَ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ» و إن كان في معناه.

قوله تعالى: «إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُزْدِفِينَ» الاستغاثه طلب الغوث و هو النصره كما في قوله: «فَاسْتِغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ» القصص: ١٥ و الإمداد معروف، و قوله: «مُزْدِفِينَ» من الإرداف و هو أن يجعل الراكب غيره ردفا له، و الردف التابع، قال الراغب:

الردف التابع، و ردف المرأه عجيزتها، و الترادف: التابع، و الرادف: المتأخر، و المردف المقدم الذي أردف غيره. انتهى.

و بهذا المعنى تلائم الآية ما في قوله تعالى فيما يشير به إلى هذه القصة في سورة آل عمران: «وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ بَلَىٰ إِنْ تَصَبَرُوا وَ تَتَّقُوا وَ يَأْتُواكُم مِّنْ فَجْرِهِمْ هَذَا يُبَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَ مَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَ لِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ»:

آل عمران: ١٢٦.

فإن تطبيق الآيات من السورتين يوضح أن المراد بنزول ألف من الملائكه مردفين نزول ألف منهم يستتبعون آخرين فينطبق الألف المردفون على الثلاثة آلاف المنزليين.

و بذلك يظهر فساد ما قيل: إن المراد بكون الملائكه مردفين كون الألف متبعين ألفا آخر لأن مع كل واحد منهم ردفا له فيكونون ألفين، و كذا ما قيل:

ص: ٢٠

إن المراد كون بعضهم أثر بعض، وكذا ما قيل: إن المراد مجيئهم على أثر المسلمين بأن يكون مردفين بمعنى رادفين، وكذا ما قيل: إن المراد إردافهم المسلمين بأن يتقدموا عسكر المسلمين فيلقوا في قلوب الذين كفروا الرعب.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَ لِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصِيرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ الضميران في قوله: «جَعَلَهُ» وقوله: «بِهِ» للإمداد بالملائكة على ما يدل عليه السياق، والمعنى أن الإمداد بالملائكة إنما كان لغرض البشرى و اطمئنان نفوسكم لا- ليهلك بأيديهم الكفار كما يشير إليه قوله تعالى بعد: «إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَبَتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ .

وبذلك يتأيد ما ذكره بعضهم: أن الملائكة لم ينزلوا ليقتلوا المشركين ولا قتلوا منهم أحدا فقد قتل ثلث المقتولين منهم أو النصف على(ع)و الثلثين الباقين أو النصف سائر المسلمين.و إنما كان للملائكة تكثير سواد المسلمين حينما اختلطوا بالقوم و تثبيت قلوب المسلمين،و إلقاء الرعب في قلوب المشركين،و سيجيء بعض الكلام في ذلك.

وقوله: ﴿وَمَا النَّصِيرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ بيان انحصار حقيقه النصر فيه تعالى و أنه لو كان بكثرة العدد و القوه و الشوكة كانت الدائرة يومئذ للمشركين بما لهم من الكثرة و القوه على المسلمين على ما بهم من القله و الضعف.

وقد علل بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ جميع مضمون الآيه و ما يتعلق به من الآيه السابقه فبعزته نصرهم و أمدهم،و بحكمته جعل نصره على هذه الشاكلة.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ﴾ إلى آخر الآيه. النعاس أول النوم و هو خفيفه و التغطيه الإحاطه،و الأمانه الأمان،و قوله: «أَمَنَةً» أى من الله و قيل: أى من العدو، و الرجز هو الرجس و القذاره،و المراد برجس الشيطان القذاره التى يطرأ القلب من وسوسته و تسويله.

و معنى الآيه: أن النصر و الإمداد بالبشرى و اطمئنان القلوب كان فى وقت يأخذكم النعاس للأمن الذى أفاضه الله على قلوبكم فتمتم و لو كنتم خائفين مرتاعين لم

يأخذكم نعاس ولا نوم، وينزل عليكم المطر ليطهركم به و يذهب عنكم وسوسه الشيطان و ليربط على قلوبكم و يشد عليها-و هو كناية عن التشجيع-و ليثبت بالمطر أقدامكم فى الحرب بتلبد الرمل أو بنبات القلوب.

و الآيه تؤيد ما ورد أن المسلمين سبقهم المشركون إلى الماء فنزّلوا على كتيب رمل، و أصبحوا محدثين و مجنين، و أصابهم الضمأ، و وسوس إليهم الشيطان فقال:

إن عدوكم قد سبقكم إلى الماء، و أنتم تصلون مع الجنابه و الحدث و تسوخ أقدامكم فى الرمل فأمطر عليهم الله حتى اغتسلوا به من الجنابه، و تطهروا به من الحدث، و تلبدت به أرضهم، و أوحلت أرض عدوهم.

قوله تعالى: «إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَبَتُوا الَّذِينَ آمَنُوا لَمَّا لَقِيَ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ» إلى آخر الآيه حال الظرف فى أول الآيه كحال الظرف فى قوله: «إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبُّكُمْ» و قوله: «إِذْ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسَ» و معنى الآيه ظاهر.

و أما قوله: «فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ» فالظاهر أن يكون المراد بفوق الأعناق الرءوس و بكل بنان جميع الأطراف من اليدين و الرجلين أو أصابع الأيدي لثلا يطبقوا حمل السلاح بها و القبض عليه.

و من الجائز أن يكون الخطاب بقوله: «فَاضْرِبُوا» إلخ للملائكه كما هو المتسابق إلى الذهن، و المراد بضرب فوق الأعناق و كل بنان ظاهر معناه، أو الكنايه عن إذلالهم و إبطال قوه الإمساك من أيديهم بالإرعاب، و أن يكون الخطاب للمؤمنين و المراد به تشجيعهم على عدوهم بتثبيت أقدامهم و الربط على قلوبهم، و حثهم و إغراؤهم بالمشركين.

قوله تعالى: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» المشاقه المخالفه و أصله الشق بمعنى البعض كأن المخالف يميل إلى شق غير شق من يخالفه، و المعنى أن هذا العقاب للمشركين بما أوقع الله بهم، لأنهم خالفوا الله و رسوله و ألحوا و أصرّوا على ذلك و من يشاقق الله و رسوله فإن الله شديد العقاب.

قوله تعالى: «ذَلِكَ فَمَذُوقُهُ وَ أَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ» خطاب تشديدى للكفار يشير إلى ما نزل بهم من الخزى و يأمرهم بأن يذوقوه، و يذكر لهم أن وراء ذلك عذاب النار.

في المجمع، قال ابن عباس: "لما كان يوم بدر و اصطف القوم للقتال قال أبو جهل:

اللهم أولانا بالنصر فانصره، واستغاث المسلمون فنزلت الملائكة و نزل قوله: «إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ» إلى آخره.

وقيل: إن النبي ص لما نظر إلى كثره عدد المشركين - و قله عدد المسلمين استقبل القبلة و قال: اللهم أنجز لي ما وعدتني - اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض - فما زال يهتف ربه ماداً يديه - حتى سقط رداؤه من منكبته فأنزل الله:

«إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ» الآية: عن عمر بن الخطاب و السدي و أبي صالح و هو المروى عن أبي جعفر (ع).

قال: و لما أمسى رسول الله و جنه الليل - ألقى الله على أصحابه النعاس - و كانوا قد نزلوا في موضع كثير الرمل - لا تثبت فيه قدم فأنزل الله عليهم المطر رذاذاً - حتى لبد الأرض و ثبت أقدامهم - و كان المطر على قريش مثل العزالي، و ألقى الله في قلوبهم الرعب كما قال الله تعالى: «سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ».

أقول: لفظ الآية: «إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ» إلخ لا يلائم نزولها يوم بدر عقيب استغاثتهم بل السياق يدل على نزولها مع قوله تعالى: «يَسْتَمْلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ» و الآيات التالية له، و هي تدل على حكاية حال ماضيه و امتنانه تعالى على المسلمين بما أنزل عليهم من آيات النصر و تفاريق النعم ليشكروا له و يطيعوه فيما يأمرهم و ينهاهم.

و لعل المراد من ذكر نزول الآية بعد ذكر استغاثتهم انطباق مضمون الآية على الواقعة، و هو كثير النظير في الروايات المشتملة على أسباب النزول.

و في تفسير البرهان، عن ابن شهر آشوب: قال النبي ص في العريش: اللهم إنك إن تهلك هذه العصابة اليوم - لا تعبد بعد هذا اليوم فنزل: «إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ» فخرج يقول: سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ - فأيده الله بخمسة آلاف من الملائكة مسومين، و كثرهم في أعين المشركين، و قتل المشركين في أعينهم فنزل: «وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى» من الوادي خلف العقنقل - و النبي ص بالعدوه الدنيا عند القلب.

أقول: والكلام فيه كالكلام في سابقه.

و في المجمع، ذكر البلخي عن الحسن: " أن قوله: « وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ [□] «الآيه-نزلت قبل قوله: « كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ [□] -و هي في القراءه بعدها.

أقول: و تقدم مدلول إحدى الآيتين على مدلول الأخرى بحسب الوقوع لا يلزم سبقها نزولا، و لا دليل من جهة السياق يدل على ما ذكره.

و في تفسير العياشي، عن محمد بن يحيى الخثعمي عن أبي عبد الله (ع): في قوله تعالى: « وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ [□] إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ - [□] أَنَّهَا لَكُمْ وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَهِ تَكُونُ لَكُمْ [□] » -فقال: الشوكه التي فيها القتال:
أقول: و روى مثله القمي في تفسيره.

و في المجمع، قال أصحاب السير و ذكر أبو حمزه و علي بن إبراهيم في تفسيرهما -دخل حديث بعضهم في بعض- " : أقبل أبو سفيان بغير قريش من الشام-و فيها أموالهم و هي اللطيمه، و فيها أربعون راكبا من قريش-فندب النبي ص أصحابه للخروج إليها ليأخذوها، و قال: لعل الله أن ينفلكموها-فانتدب الناس فخف بعضهم و ثقل بعضهم، و لم يظنوا أن رسول الله ص يلقي كيدا و لا حربا- فخرجوا لا يريدون إلا أبا سفيان-و الركب لا يرونها إلا غنيمه لهم-.

فلما سمع أبو سفيان بمسير النبي ص-استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة، و أمره أن يأتي قريشا فيستنفرهم-و يخبرهم أن محمدا قد تعرض لغيرهم في أصحابه-فخرج ضمضم سريعا إلى مكة-.

و كانت عاتكه بنت عبد المطلب رأت فيما يرى النائم-قبل مقدم ضمضم بن عمرو بثلاث ليال-أن رجلا أقبل على بغير له ينادي يا آل غالب-اغدوا إلى مصارعكم ثم وافى بجمله على أبي قبيس-فأخذ حجرا فدهدهه من الجبل-فما ترك دارا من دور قريش إلا أصابته منه فلذه-فانتبهت فرعه من ذلك و أخبرت العباس بذلك-فأخبر العباس عتبه بن ربيعة-فقال عتبه: هذه مصيبه تحدث في قريش، و فشت الرؤيا فيهم و بلغ ذلك أبا جهل-فقال: هذه نبيه ثانيه في بني عبد المطلب، و اللات و العزى

لننظرن ثلاثة أيام-فإن كان ما رأته حقا وإلا- لنكتبن كتابا بيننا: أنه ما من أهل بيت من العرب-أكذب رجالا و نساء من بني هاشم-.

فلما كان اليوم الثالث أتاهم ضمضم يناديهم بأعلى الصوت:يا آل غالب يا آل غالب.اللطيمة اللطيمة.الغير الغير.أدركوا و ما أراكم تدركون-إن محمدا و الصباه من أهل يثرب قد خرجوا-يتعرضون لغيركم فتهيئوا للخروج،و ما بقى أحد من عظماء قريش-إلا- أخرج مالا- لتجهيز الجيش،و قالوا من لم يخرج نهدم داره،و خرج معهم العباس بن عبد المطلب،و نوفل بن الحارث بن عبد المطلب،و عقيل بن أبي طالب،و أخرجوا معهم القيان يضر بن الدفوف-.

و خرج رسول الله ص فى ثلاثمائة و ثلاثه عشر رجلا-فلما كان بقرب بدر أخذ عينا للقوم فأخبره بهم،و فى حديث أبى حمزه:بعث رسول الله ص أيضا عينا له على الغير اسمه عدى-فلما قدم على رسول الله ص فأخبره أين فارق الغير-نزل جبرائيل على رسول الله ص-فأخبره بنفير المشركين من مكة-فاستشار أصحابه فى طلب الغير و حرب النفير-فقام أبو بكر فقال:يا رسول الله-إنها قريش و خيلاؤها ما آمنت منذ كفرت،و لا- ذلت منذ عزت،و لم نخرج على هيئه الحرب؛و فى حديث أبى حمزه:أنا عالم بهذا الطريق فارق عدى الغير بكذا و كذا،و ساروا و سرنا فنحن و القوم على ماء بدر-يوم كذا و كذا كأننا فرسا رهان- فقال(ص):

اجلس فجلس.ثم قام عمر بن الخطاب فقال مثل ذلك،فقال(ص):اجلس فجلس-.

ثم قام المقداد فقال:يا رسول الله-إنها قريش و خيلاؤها،و قد آمنا بك و صدقنا و شهدنا أن ما جئت به حق،و الله لو أمرتنا أن نخوض جمر الغضا و شوكة الهراس لخضناه معك،و الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى:اذهب أنت و ربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون-و لكننا نقول:امض لأمر ربك فإننا معك مقاتلون، فجزاه رسول الله ص خيرا على قوله ذاك-.

ثم قال:أشيروا على أيها الناس-و إنما يريد الأنصار لأن أكثر الناس منهم، و لأنهم حين بايعوه بالعقبه قالوا:إنا برآء من ذمتك حتى تصل إلى دارنا-ثم أنت فى ذمتنا نمنعك مما نمنع أبناءنا و نساءنا،فكان(ص)يتخوف أن لا- يكون الأنصار ترى عليها نصرته-إلا على من دهمه بالمدينه من عدو،و أن ليس عليهم أن ينصروه خارج المدينه-.

فقام سعد بن معاذ فقال: بأبي أنت و أمى يا رسول الله كأنك أردتنا. فقال:

نعم. قال: بأبي أنت و أمى يا رسول الله- إنا قد آمنا بك و صدقناك- و شهدنا أن ما جئت به حق من عند الله فمرنا بما شئت، و خذ من أموالنا ما شئت، و اترك منها ما شئت، و الله لو أمرتنا أن نخوض هذا البحر لخضناه معك- و لعل الله عز و جل أن يريك منا ما تقر به عينك- فسر بنا على بركة الله.

ففرح بذلك رسول الله ص و قال:- سيروا على بركة الله- فإن الله عز و جل قد وعدنى إحدى الطائفتين- و لن يخلف الله وعده، و الله لكأنى أنظر إلى مصرع أبى جهل بن هشام- و عتبه بن ربيعة و شبيهه بن ربيعة و فلان و فلان (١) و أمر رسول الله ص بالرحيل، و خرج إلى بدر و هو بئر، و فى حديث أبى حمزه الثمالى: بدر رجل من جهينه- و الماء ماؤه فإنما سمي الماء باسمه، و أقيمت قريش و بعثوا عبيدها ليستقوا من الماء- فأخذهم أصحاب رسول الله ص و قالوا لهم: من أنتم؟ قالوا: نحن عبيد قريش. قالوا: فأين العير؟ قالوا: لا علم لنا بالعير فأقبلوا يضربونهم، و كان رسول الله ص يصلى فانفتل من صلاته- و قال: إن صدقوكم ضربتموهم و إن كذبوكم تركتموهم، فأتوه بهم فقال لهم: من أنتم؟ قالوا: يا محمد نحن عبيد قريش، قال: كم القوم؟ قالوا: لا علم لنا بعددهم، قال: كم ينحرون فى كل يوم من جزور؟ قالوا: تسعه إلى عشره، فقال رسول الله ص: القوم تسعمائه إلى ألف رجل، و أمر(ص) بهم فحبسوا- و بلغ ذلك قريشا ففرغوا و ندموا على مسيرهم-.

و لقي عتبه بن ربيعة أبا البختری بن هشام- فقال: أ ما ترى هذا البغى- و الله ما أبصر موضع قدمى خرجنا لنمنع عيرنا- و قد أفلتت فجئنا بغيا و عدوانا، و الله ما أفلح قوم بغوا قط، و لوددت أن ما فى العير من أموال بنى عبد مناف- ذهبت و لم نسر هذا المسير، فقال له أبو البختری، إنك سيد من سادات قريش- فسر فى الناس و تحمل العير التى أصابها محمد و أصحابه- بنخله (٢) و دم ابن الحضرمى فإنه حليفك-.

ص: ٢٤

١- ١) و قد كان صلى الله عليه و آله يشير بذلك إلى لقاء النفي و هم يرجون لقاء العير-.

٢- ٢) و قد تقدمت الروايات فى قصته فى الجزء الثانى من الكتاب فى ذيل قوله قوله تعالى: «يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه» الآية، البقره آيه ٢١٧.

فقال له: على ذلك، و ما على أحد منا خلاف إلا- ابن الحنظليه يعنى أبا جهل-فصر إليه و أعلمه أنى حملت العير-و دم ابن الحضرمى و هو حليفى و على عقله-.

قال:فقصدت خباءه و أبلغته ذلك،فقال:إن عتبه يتعصب لمحمد-فإنه من بنى عبد مناف و ابنه معه-يريد أن يخذل بين الناس لا و اللات و العزى-حتى نقحم عليهم يثرب أو نأخذهم أسارى-فندخلهم مكه و تتسامع العرب بذلك،و كان أبو حذيفه بن عتبه مع رسول الله ص-.

و كان أبو سفیان لما جاز بالعبير بعث إلى قريش:قد نجى الله غيركم فارجعوا و دعوا محمدا و العرب،و ادفعوه بالراح ما اندفع،و إن لم ترجعوا فردوا القيان- فلحقهم الرسول فى الجحفة،فأراد عتبه أن يرجع فأبى أبو جهل و بنو مخزوم-و ردوا القيان من الجحفة-.

قال:و فزع أصحاب رسول الله ص-لما بلغهم كثره قريش،و استغاثوا و تضرعوا،فأنزل الله عز و جل:﴿إِذْ تَسْتَعْيِثُونَ رَبَّكُمْ﴾ و ما بعده-.

قال الطبرسى:و لما أصبح رسول الله ص يوم بدر عبا أصحابه،فكان فى عسكره فرسان:فرس للزبير بن عوام،و فرس للمقداد بن الأسود،و كان فى عسكره سبعون جملا كانوا يتعاقبون عليها،و كان رسول الله ص و على بن أبى طالب(ع)- و مرثد بن أبى مرثد الغنوى-يتعاقبون على جمل لمرثد بن أبى مرثد،و كان فى عسكر قريش أربعمائه فرس،و قيل:مائتا فرس-.

فلما نظرت قريش إلى قله أصحاب رسول الله ص-قال أبو جهل:ما هم إلا-أكله رأس-لو بعثنا إليهم عبيدنا لأخذوهم أخذنا باليد،فقال عتبه بن ربيعه:

أ ترى لهم كميناً أو مدداً؟فبعثوا عمير بن وهب الجمحى و كان فارساً شجاعاً-فجال بفرسه حتى طاف على عسكر رسول الله ص-ثم رجع فقال:ليس لهم كمين و لا-مدد-و لكن نواضح يثرب قد حملت الموت الناقع-أ ما ترونهم خرساً لا يتكلمون-و يتلمظون تلمظ الأفاعى ما لهم ملجأ إلا سيوفهم،و ما أراهم يولون حتى يقتلوا،و لا يقتلون حتى يقتلوا بعددهم فارتثوا رأيكم،فقال له أبو جهل:كذبت و جنت-.

فأنزل الله تعالى:﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾-فبعث إليهم رسول الله

ص فقال: يا معشر قريش - إني أكره أن أبدأ بكم فخلوني و العرب و ارجعوا - فقال عتبه: ما رد هذا قوم قط فأفلحوا، ثم ركب جملا له أحمر فنظر إليه رسول الله ص - و هو يجول بين العسكرين و ينهى عن القتال - فقال (ص): إن يك عند أحد خير فعند صاحب الجمل الأحمر - و إن يطيعوه يرشدوا -.

و خطب عتبه فقال في خطبته: يا معشر قريش أطيعوني اليوم و اعصوني الدهر - إن محمدا له آل و ذمه و هو ابن عمكم - فخلوه و العرب فإن يك صادقا فأنتم أعلى عينا به - و إن يك كاذبا كفتكم ذؤبان العرب أمره - فغاض أبا جهل قوله و قال له: جنت و انتفخ سحر ك - فقال: يا مصفر استه مثلى يجبن؟ و ستعلم قريش أيننا الأم و أجبن؟ و أيننا المفسد لقومه -.

و لبس درعه و تقدم هو و أخوه شيبه و ابنه الوليد، و قال: يا محمد أخرج إلينا أكفءنا من قريش - فبرز إليهم ثلاثة نفر من الأنصار و انتسبوا لهم - فقالوا:

ارجعوا إنما نريد الأكفء من قريش - فنظر رسول الله ص إلى عبيده بن الحارث بن عبد المطلب - و كان له يومئذ سبعون سنه - فقال: قم يا عبيده، و نظر إلى حمزه - فقال: قم يا عم ثم نظر إلى علي بن أبي طالب - فقال: قم يا علي - و كان أصغر القوم - فاطلبوا بحقكم الذى جعله الله لكم - فقد جاءت قريش بخيلائها و فخرها - تريد أن تطفئ نور الله - و يابى الله إلا أن يتم نوره. ثم قال: يا عبيده عليك بعتبه بن ربيعه، و قال لحمزه عليك بشيبه، و قال لعلي: عليك بالوليد -.

فمروا حتى انتهوا إلى القوم فقالوا: أكفء كرام فحمل عبيده على عتبه - فضربه على رأسه ضربه فلقت هامته، و ضرب عتبه عبيده على ساقه فأطنها فسقطا جميعا، و حمل شيبه على حمزه فتضاربا بالسيفين حتى ائثلما، و حمل أمير المؤمنين على (ع) على الوليد - فضربه على جبل عاتقه فأخرج السيف من إبطه - قال علي: لقد أخذ الوليد يمينه بيساره - فضرب بها هامتى - فظننت أن السماء وقعت على الأرض -.

ثم اعتنق حمزه و شيبه فقال المسلمون: يا علي أ ما ترى أن الكلب قد نهز عمك - فحمل عليه على (ع) ثم قال: يا عم - طأطئ رأسك و كان حمزه أطول من شيبه - فأدخل حمزه رأسه فى صدره - فضربه على فطرح نصفه، ثم جاء إلى عتبه و به رمق فأجهز عليه -.

و فى روايه اخرى انه برز حمزه لعته، و برز عبيده لشييه، و برز على للوليد فقتل حمزه عته، و قتل عبيده شييه، و قتل على(ع) الوليد. فضرب شييه رجل عبيده-فقطعه فاستنقذه حمزه و على، و حمل عبيده حمزه و على حتى أتيا به رسول الله ص- فاستعبر فقال: يا رسول الله أ لست شهيدا؟ قال: بلى أنت أول شهيد من أهل بيتى-.

و قال أبو جهل لقريش: لا تعجلوا- و لا تبطروا كما بطر أبناء ربيعه- عليكم بأهل يثرب فاجزروهم جزرا، و عليكم بقريش فخذوهم أخذا حتى ندخلهم مكه- فنعرفهم ضلالتهم التى هم عليها-.

و جاء إبليس فى صوره سراقه بن مالك بن جعشم- فقال لهم: أنا جار لكم ادفعوا إلى رايتكم- فدفعوا إليه رايه الميسره، و كانت الرايه مع بنى عبد الدار- فنظر إليه رسول الله ص فقال لأصحابه: غضوا أبصاركم، و عضوا على النواجذ، و رفع يده فقال: اللهم إن تهلك هذه العصابه لا تعبد- ثم أصابه الغشى فسرى عنه و هو يسلك العرق عن وجهه- فقال: هذا جبرائيل قد أتاكم بألف من الملائكه مردفين.

و فى الأمالى، بإسناده عن الرضا عن آبائه(ع): أن رسول الله ص سافر إلى بدر فى شهر رمضان- و افتتح مكه فى شهر رمضان.

أقول: و على ذلك أطبق أهل السير و التواريخ، قال اليعقوبى فى تاريخه:

و كانت وقعه بدر يوم الجمعه لثلاث عشره ليله بقيت من شهر رمضان بعد مقدمه _ص- يعنى إلى المدينه-ثمانيه عشر شهرا.

و قال الواقدي: و نزل رسول الله ص وادى بدر عشاء ليله الجمعه لسبع عشره مضت من شهر رمضان فبعث عليا و الزبير و سعد بن أبى وقاص و بسبس بن عمرو يتجسسون على الماء فوجدوا روايا قريش فيها سقاؤهم فأسروهم و أفلت بعضهم و أتوا بهم النبى ص و هو قائم يصلى فسألهم المسلمون فقالوا: نحن سقاء قريش بعثونا نسقيهم من الماء فضربوهم فلما أن لقوهم بالضرب قالوا: نحن لأبى سفيان و نحن فى العير، و هذا العير بهذا القوز فكانوا إذا قالوا ذلك يمسون عن ضربهم. فسلم رسول الله ص من صلاته ثم قال: إن صدقوكم ضربتموهم و إن كذبوكم تركتموهم.

فلما أصبحوا عدل رسول الله ص الصفوف و خطب المسلمين فحمد الله و أثنى عليه

ثم قال:

أما بعد فإنى أحثكم على ما حثكم الله عليه، و أنهاكم عما نهاكم الله عنه-فإن الله عظيم شأنه، يأمر بالحق، و يحب الصدق، و يعطى على الخير أهله على منازلهم عنده-به يذكرون، و به يتفاضلون، و إنكم قد أصبحتم بمنزل من منازل الحق-لا يقبل الله فيه من أحد إلا- ما ابتغى به وجهه، و إن الصبر فى مواطن البأس-مما يفرج الله به الهم و ينجى به من الغم-تدركون به النجاه فى الآخرة، فيكم نبى الله يحذركم و يأمركم-فاستحيوا اليوم أن يطلع الله على شىء من أمركم-يمقتكم عليه فإنه تعالى يقول:

□ لَمَقَّتْ لِّلّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَّقْتِكُمْ أَنْفُسِكُمْ -انظروا فى الذى أمركم به من كتابه، و أراكم من آياته و ما أعزكم به بعد الذلة-فاستكينوا له يرض ربكم عنكم، و أبلوا ربكم فى هذه المواطن أورا-تستوجبوا به الذى وعدكم من رحمته و مغفرته-فإن وعده حق، و قوله صدق، و عقابه شديد، و إنما أنا و أنتم بالله الحى القيوم، إليه ألقنا ظهورنا، و به اعتصمنا، و عليه توكلنا، و إليه المصير، و يغفر الله لى و للمسلمين.

و فى المجمع: ذكر جماعه من المفسرين كابن عباس و غيره: أن جبرائيل قال للنبي ص يوم بدر-خذ قبضه من تراب فارمهم بها-فقال رسول الله (ص)لما التقى الجمعان لعلى: أعطنى قبضه من حصا الوادى-فناوله كفا من حصا عليه تراب فرمى به فى وجوه القوم-و قال: شأهت الوجوه-فلم يبق مشرك إلا-دخل فى عينه و فمه- و منخرية منها شىء-ثم ردهم المؤمنون يقتلونهم و يأسرونهم، و كانت تلك الرمية سبب هزيمة القوم.

و فى الأمالى، بإسناده عن ابن عباس قال: وقف رسول الله ص على قتلى بدر فقال: جزاكم الله من عصابه شرا-لقد كذبتمونى صادقاً و خونتهم أمينا، ثم التفت إلى أبى جهل بن هشام فقال: إن هذا أعتى على الله من فرعون-إن فرعون لما أيقن بالهلاك و حد الله، و إن هذا لما أيقن بالهلاك دعا باللات و العزى.

و فى المغازى، للواقدى: و أمر رسول الله ص يوم بدر بالقلب أن تغور-ثم أمر بالقتلى فطرحوا فيها كلهم إلا أميه بن خلف-فإنه كان مسمنا انتفخ من يومه-فلما

أرادوا أن يلقوه تزايل لحمه-فقال النبي ص: اتركوه، فأقروه و ألقوا عليه من التراب-و الحجارة ما غيبه-.

ثم وقف على أهل القلب فناداهم رجلا رجلا: هل وجدتم ما وعد ربكم حقا-فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقا-بئس القوم كنتم لبيكم كذبتموني و صدقني الناس، و أخرجتموني و آواني الناس، و قاتلتموني و نصرني الناس. فقالوا يا رسول الله أ تنادي قوما قد ماتوا؟ فقال: لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق، و في روايه أخرى: فقال رسول الله ص: ما أتم بأسمع لما أقول منهم-و لكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني.

قال: و كان انهزام قريش حين زالت الشمس-فأقام رسول الله ص بيدرا- و أمر عبد الله بن كعب بقبض الغنائم و حملها، و أمر نفرا من أصحابه أن يعينوه- فصلى العصر بيدرا ثم راح-فمر بالأثيل قبل غروب الشمس فنزل به و بات، و بأصحابه جراح و ليست بالكثيره، و أمر ذكوان بن عبد قيس أن يحرس المسلمين-حتى كان آخر الليل فارتحل.

و في تفسير القمي، في خبر طويل": و خرج أبو جهل من بين الصفيين و قال:

اللهم إن محمدا أقطعنا للرحم، و أتانا بما لا نعرفه فأحنه الغداة-فأنزل الله على رسوله:

« إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ -وَ إِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ -وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَ لَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ شَيْئاً -وَ لَوْ كَثُرَتْ وَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ».

ثم أخذ رسول الله ص كفا من حصي-و رمى به في وجوه قريش و قال:

شاهت الوجوه-فبعث الله رياح تضرب في وجوه قريش-فكانت الهزيمة فقال رسول الله ص: اللهم لا يفلتن فرعون هذه الأمه أبو جهل بن هشام-فقتل منهم سبعين، و أسر منهم سبعين-.

و التقى عمرو بن الجموع مع أبي جهل-فضرب عمرو أبا جهل على فخذه-و ضرب أبو جهل عمرا على يده-فأبانها من العضد فتعلقت بجلده-فاتكى عمرو على يده برجله ثم تراخى إلى السماء-حتى انقطعت الجلده و رمى بيده-.

و قال عبد الله بن مسعود: انتهيت إلى أبي جهل-و هو يتشحط بدمه فقلت:

الحمد لله الذى أخزأك فرفع رأسه-فقال:إنما أخزى الله عبدا،ابن أم عبد لمن الدبره ويلك؟قلت:لله و لرسوله و إني قاتلك،و وضعت رجلى على عنقه فقال:ارتقيت مرتقى صعبا يا روىعى الغنم-أما إنه ليس شىء أشد من قتلك إياى فى هذا اليوم-ألا تولى قتلى رجل من المطلبيين-أو رجل من الأحلاف؟فاقتلعت بيضه كانت على رأسه-فقتلته و أخذت رأسه و جئت به إلى رسول الله ص-و قلت:يا رسول الله البشرى هذا رأس أبى جهل بن هشام-فسجد لله شكرا.

و فى الإرشاد للمفيد: ثم بارز أمير المؤمنين(ع)-العاص بن سعيد بن العاص بعد أن أحجم عنه من سواه-فلم يلبث أن قتله،و برز إليه حنظله بن أبى سفيان فقتله، و برز إليه بعده طعيمة بن عدى فقتله،و قتل بعده نوفل بن خويلد و كان من شياطين قريش،و لم يزل يقتل واحدا منهم بعد واحد-حتى أتى على شطر المقتولين منهم و كانوا سبعين رجلا-تولى كاهه من حضر بدرا من المسلمين-مع ثلاثة آلاف من الملائكة المسومين-قتل الشطر منهم،و تولى أمير المؤمنين(ع)قتل الشطر الآخر وحده.

و فى الإرشاد:أيضا: قد أثبتت رواه العامه و الخاصه معا-أسماء الذين تولى أمير المؤمنين(ع)قتلهم بيد-من المشركين على اتفاق فيما نقلوه من ذلك-و اصطلاح فكان ممن سموه:الوليد بن عتبة كما قدمنا-و كان شجاعا جريا وقاحا فتاكا تهابه الرجال، و العاص بن سعيد و كان هولاء عظيمي تهابه الأبطال،و هو الذى حاد عنه عمر بن الخطاب-و قصته فيما ذكرناه مشهوره نحن نبينها فيما نورد،و طعيمة بن عدى بن نوفل-و كان من رءوس أهل الضلال،و نوفل بن خويلد و كان من أشد المشركين عداوه-لرسول الله ص،و كانت قريش تقدمه و تعظمه و تطيعه،و هو الذى قرن أبا بكر و طلحه قبل الهجره بمكه-و أوثقهما بحبل و عذبهما يوما إلى الليل-حتى سئل فى أمرهما،و لما عرف رسول الله ص حضوره بدرا-سأل الله أن يكفيه أمره-فقال:

اللهم اكفنى نوفل بن خويلد-فقتله أمير المؤمنين(ع)-.

و زمعه بن الأسود (1)و الحارث بن زمعه،و النصر بن الحارث بن عبد الدار، و عمير بن عثمان بن كعب بن تيم عم طلحه بن عبيد الله،و عثمان و مالك ابنا عبيد الله

ص: ٣٢

(١-١) فى بعض النسخ:و عقيل بن الأسود فيه فذلك سته و ثلاثون.

أخو طلحة بن عبيد الله، و مسعود بن أبي أمية بن المغيرة، و قيس بن الفاكه بن المغيرة- و حذيفة بن أبي حذيفة بن المغيرة، و [أبو] قيس (١) بن الوليد بن المغيرة، و حنظله بن أبي سفيان، و عمرو بن مخزوم، و أبو منذر بن أبي رفاعه، و منبه بن الحجاج السهمي، و العاص بن منبه، و علقمه بن كلده، و أبو العاص بن قيس بن عدى، و معاوية بن المغيرة بن أبي العاص، و لوزان بن ربيعة، و عبد الله بن المنذر بن أبي رفاعه، و مسعود بن أمية بن المغيرة، و حاجب بن السائب بن عويمر، و أوس بن المغيرة بن لوزان، و زيد بن مليص، و عاصم بن أبي عوف، و سعيد بن وهب حليف بني عامر، و معاوية بن [عامر بن] عبد القيس، و عبد الله بن جميل بن زهير بن الحارث بن أسد، و السائب بن مالك، و أبو الحكم بن الأخنس، و هشام بن أبي أمية بن المغيرة-.

فذلك خمسة و ثلاثون رجلا- سوى من اختلف فيه أو شرك أمير المؤمنين (ع) فيه غيره- و هم أكثر من شطر المقتولين بدر على ما قدمناه.

أقول: و ذكر غيره كما في المجمع أنه قتل يوم بدر سبعة و عشرين رجلا، و ذكر الواقدي: أن الذي اتفق عليه قول النقلة و الرواه من قتلاه تسعة رجال و الباقي مختلف فيه.

لكن البحث العميق عن القصة و ما يحتف بها من أشعارهم و الحوادث المختلفة التي حدثت بعدها تسيء الظن بهذا الاختلاف، و قد نقل عن محمد بن إسحاق أن أكثر قتلى المشركين يوم بدر كان لعلی (ع).

و قد عد الواقدي فيما ذكره ابن أبي الحديد من قتلى المشركين في وقعه بدر اثنين و خمسين رجلا و نسب قتل أربعة و عشرين منهم إليه (ع) ممن انفرد بقتله أو شارك غيره.

و من شعر أسيد بن أبي إياس يحرض مشركي قريش على على (ع) على ما في الإرشاد و المناقب قوله:

ص: ٣٣

(١-١) هو أخو خالد بن الوليد، و الثلاثة الذين قتلوا أبناء أعمامه.

فى كل مجمع غايه أخراكم

جزع أبر على المذاكى القرع

لله دركم أ لما تنكروا

قد ينكر الحر الكريم و يستحى

هذا ابن فاطمه الذى أفناكم

ذبحا و قتله قعصه لم تذبح

أعطوه خرجا و اتقوا تضريه

فعل الذليل و بيعه لم تريح

أين الكهول و أين كل دعامه

فى المعضلات و أين زين الأبطح

أفناهم قعصا و ضربا يفتري

بالسيف يعمل حده لم يصفح

و فى الإرشاد، روى شعبه عن أبى إسحاق عن حارث بن مضرب قال: سمعت على بن أبى طالب (ع) يقول: لقد حضرنا بدرًا - و ما فىنا فارس غير المقداد بن الأسود، و لقد رأيتنا ليله بدر - و ما فىنا إلا من نام غير رسول الله ص - فإنه كان منتصبا فى أصل شجره - يصلى فيها و يدعو حتى الصباح.

أقول: و الروايات فى قصه بدر كثيره جدا و قد اقتصرنا منها على ما يتضح به فهم مضامين الآيات، و من الأخبار ما سيأتى إن شاء الله فى تضاعيف البحث عن الآيات التالیه المشيره إلى بعض أطراف القصه.

(فهرس أسماء شهداء بدر رض)

فى البحار، عن الواقدى قال: حدثنى عبد الله بن جعفر قال: " سألت الزهرى كم استشهد من المسلمين ببدر؟ قال: أربعة عشر: ستة من المهاجرين، و ثمانية من الأنصار -.

قال: فمن بنى المطلب بن عبد مناف، عبيده بن الحارث قتله عتبه - و فى غير روايه الواقدى قتله شيبه - فدفنه النبى ص بالصفراء، و من بنى زهره عمير بن أبى وقاص - قتله عمرو بن عبد ود فارس الأحزاب، و عمير بن عبد ود ذو الشمالين حليف لبنى زهره - قتله

أبو أسامه الجشمي، و من بنى عدى عاقل بن أبى البكير-حليف لهم من بنى سعد قتله مالك بن زهير، و مهجع مولى عمر بن الخطاب قتله عامر بن الحضرمي- و يقال: إن مهجعا أول من قتل من المهاجرين، و من بنى الحارث بن فهر صفوان بن بيضاء-قتله طعيمة بن عدى-.

و من الأنصار ثم من بنى عمرو بن عوف، مبشر بن عبد المنذر قتله أبو ثور، و سعد بن خيثمه قتله عمرو بن عبد ود، و يقال: طعيمة بن عدى، و من بنى عدى بن النجار حارثه بن سراقه-رماء حنان بن العرقه بسهم فأصاب حنجرته فقتله، و من بنى مالك بن النجار-عوف و معوذ ابنا عفراء قتلها أبو جهل، و من بنى سلمه عمير بن الحمام بن الجموح قتله خالد بن الأعم، و يقال: إنه أول قتيل قتل من الأنصار، و قد روى: أن أول قتيل منهم حارثه بن سراقه، و من بنى زريق رافع بن المعلى- قتله عكرمه بن أبى جهل، و من بنى الحارث بن الخزرج يزيد بن الحارث-قتله نوفل بن معاوية فهؤلاء الثمانية من الأنصار.

و روى عن ابن عباس: " أن أنسه مولى النبى ص قتل ببدر،

و روى: " أن معاذ بن معاص جرح ببدر-فمات من جراحته بالمدينه، و ابن عبيد بن السكن جرح-فاشتكى جرحه فمات منه.

[سوره الأنفال (٨): الآيات ١٥ الى ٢٩]

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَ مَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ ذُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَ بَشَّ الْمَصِيرُ (١٦) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَ لِيُنذِرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلََاءٌ حَسِينًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذَلِكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨) إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَ إِنْ تَنْتَهُوا فهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَ لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَ لَوْ كَثُرَتْ وَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَ هُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَ أَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَ رَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَ اعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَ أَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَ أَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَ يُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)

أوامر و نواه متعلقه بالجهد الإسلامى مما ىناسب سوق القصبه، و حث على تقوى الله و إنذار و تخويف من مخالفه الله و رسوله و التعرض لسخطه سبحانه، و فيها إشارة إلى بعض ما جرى فى وقعه بدر من منن الله و أياديه على المؤمنین.

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمْ

« اللقاء مصدر لقي يلقى من المجرد و لاقي يلاقي من المزيد فيه، قال الراغب في مفردات القرآن: اللقاء مقابله الشيء و مصادفته معا، و قد يعبر به عن كل واحد منهما يقال: لقيه يلقاه لقاء و لقيا و لقيه، و يقال ذلك في الإدراك بالحس و بالبصر و بالبصيره قال: لَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ، و قال: لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصِيبًا، و ملاقاته الله عبارته عن القيامة و عن المصير إليه قال: وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ، و قال: الَّذِينَ يُظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ، و اللقاء الملاقاته، قال: وَ قَالَ الَّذِينَ لَا يُرْجُونَ لِقَاءَنَا، و قال: إِلَىٰ رَبِّكَ كَذْحًا فَمُلَاقِيهِ. انتهى.

و قال في المجمع: اللقاء الاجتماع على وجه المقاربه لأن الاجتماع قد يكون على غير وجه المقاربه فلا يكون لقاء كاجتماع الأعراس في المحل الواحد. انتهى.

و قال فيه: الزحف الدنو قليلا- قليلا، و التزاحف التدانى يقال: زحف يزحف زحفا و أزحفت للقوم إذا دنوت لقتالهم و ثبت لهم. قال الليث الزحف جماعه يزحفون إلى عدو لهم بمره و جمعه زحوف. انتهى.

و توليه الأعداء الأدبار جعلهم يلونها و هو استدبار العدو و استقبال جهه الهزيمة.

و خطاب الآيه عام غير خاص بوقت دون وقت و لا- غزوه دون غزوه فلا- وجه لتخصيصها بغزوه بدر و قصر حرمه الفرار من الزحف بها كما يحكى عن بعض المفسرين. على أنك عرفت أن ظاهر سياق الآيات أنها نزلت بعد غزوه بدر لا يومها، و أن الآيات ذيل ما فى صدر السوره من قوله: «يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ» الآيه، و للكلام تتمه ستوافيك فى البحث الروائى إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: «وَ مَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَ ذُبُرِهِ إِلَّا- مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ» إلى آخر الآيه. التحرف. الزوال عن جهه الاستواء إلى جهه الحرف و هو طرف الشيء و هو أن ينحرف و يعطف المقاتل من جهه إلى جهه أخرى ليتمكن من عدوه و يبادر إلى إلقاء الكيد عليه، و التحيز هو أخذ الحيز و هو المكان، و الفئه القطعه من جماعه الناس، و التحيز إلى فئه أن يعطف المقاتل عن الانفراد بالعدو إلى فئه من قومه فيلحق بهم و يقاتل معهم.

و البواء الرجوع إلى مكان و استقرار فيه، و لذا قال الراغب: أصل البواء

مساواه الأجزاء فى المكان خلاف النبوه الذى هو منافاه الأجزاء. انتهى فمعنى قوله:

بَاءٌ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ

أى رجع و معه غضب من الله.

فمعنى الآيتين: يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا لقاء زحف أو زاحفين للقتال فلا تفروا منهم و من يفر منهم يومئذ أى وقتئذ فقد رجع و معه غضب من الله و مأواه جهنم و بس المصير إلا أن يكون فراره للتحرف لقتال أو التحيز إلى فئه فلا بأس به.

قوله تعالى: «فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَى» إلى آخر الآيه، التدبر فى السياق لا يدع شكاً فى أن الآيه تشير إلى وقعه بدر و ما صنعه رسول الله ص من رميهم بكف من الحصى، و المؤمنون بوضع السيف فيهم و قتلهم القتل الذريع، و ذيل الآيه أعنى قوله: وَ لِيُثَبِّتَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسِيناً يدل على أن الكلام جار مجرى الامتنان منه تعالى، و قد أثبت تعالى عين ما نفاه فى جملة واحده أعنى قوله: «وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ».

فمن جميع هذه الشواهد يتحصل أن المراد بقوله: «فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَى» نفى أن تكون وقعه بدر و ما ظهر فيها من استئصال المشركين و الظهور عليهم و الظفر بهم جاريه على مجرى العاده و المعروف من نواميس الطبيعه، و كيف يسع لقوم هم شرذمه قليلون ما فيهم على ما روى إلا فرس أو فرسان و بضعه أدرع و بضعه سيوف، أن يستأصلوا جيشاً مجهزاً بالأفراس و الأسلحة و الرجال و الزاد و الراحله، هم أضعافهم عده و لا يقاسون بهم قوه و شده، و أسباب الغلبه عندهم، و عوامل البأس معهم، و الموقف المناسب للتقدم لهم.

إلا- أن الله سبحانه بما أنزل من الملائكه ثبت أقدام المؤمنين و أربع قلوب المشركين، و ألقى الهزيمة بما رماه النبى ص من الحصاه عليهم فشملمهم المؤمنين قتلاً و أسرا فبطل بذلك كيدهم و خمدت أنفاسهم و سكنت أجراسهم.

فبالحرى أن ينسب ما وقع عليهم من القتل بأيدي المؤمنين و الرمى الذى شتت شملهم و ألقى الهزيمة فيهم إليه سبحانه دون المؤمنين.

فما فى الآيه من النفى جار مجرى الدعوى بنوع من العناية، بالنظر إلى استناد

القتل بأطرافها إلى سبب إلهي غير عادي، ولا ينافي ذلك استنادها بما وقع فيها من الوقائع إلى أسبابها القريبه المعهوده في الطبيعه بأن يعد المؤمنون قاتلين لمن قتلوا منهم، والنبى ص راميا لما رماه من الحصاه.

وقوله: «وَ لِيُثَلِّىَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا» الظاهر أن ضمير «مِنْهُ» راجع إلى الله تعالى، والجمله لبيان الغايه وهى معطوفه على مقدر محذوف، والتقدير: إنما فعل الله ما فعل من قتلهم و رميهم لمصالح عظيمه عنده، وليثلى المؤمنين و يمتحنهم بلاء و امتحانا حسنا أو لينعم عليهم بنعمه حسنه، وهو إفناء خصمهم و إعلاء كلمه التوحيد بهم و إغناؤهم بما غنموا من الغنائم.

وقوله: «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» تلييل لقوله: «وَ لِيُثَلِّىَ الْمُؤْمِنِينَ» أى إنه تعالى يبلبهم لأنه سميع باستغاثتهم عليم بحالهم فيبليهم منه بلاء حسنا.

و التفریع الذى فى صدر الآيه: «فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ» إلخ متعلق بما يتضمنه الآيات السابقه: «إِذْ تَسْتَعْثُونَ رَبَّكُمْ» إلى آخر الآيات من المعنى، فإنها تعد من الله عليهم من إنزال الملائكه و إمدادهم بهم و تغشيه النعاس إياهم و إمطار السماء عليهم و ما أوحى إلى الملائكه من تأييدهم و تثبيت أقدامهم و إلقاء الرعب فى قلوب أعدائهم، فلما بلغ الكلام هذا المبلغ فرع عليه قوله: «فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَى».

و على هذا فقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ» إلى قوله: «وَ بئس المصير» معترضه متعلقه بقوله: «فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ» أو بمعناه المفهوم من الجمل المسروده، وقوله: «فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ» إلخ متصل بما قبله بحسب النظم.

و ربما يذكر فى نظم الآيه وجهان آخران:

أحدهما: أن الله سبحانه لما أمرهم بالقتل فى الآيه المتقدمه ذكر عقبيها أن ما كان من الفتح يوم بدر و قهر المشركين إنما كان بنصرته و معونته تذكيرا للنعمه.

ذكره أبو مسلم.

و الثانى: أنهم لما أمروا بالقتال ثم كان بعضهم يقول: أنا قتلت فلانا و أنا فعلت كذا نزلت الآيه على وجه التنبيه لهم لئلا يعجبوا بأعمالهم. و ربما قيل: إن الفاء فى

قوله: « فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ » لمجرد ربط الجمل بعضها ببعض. و الوجه ما قدمناه.

قوله تعالى: « ذَلِكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ » قال في المجمع: « ذَلِكُمْ » موضعه رفع، و كذلك « أَنَّ اللَّهَ » في موضع رفع، و التقدير: الأمر ذلكم و الأمر أن الله موهن، و كذلك الوجه فيما تقدم من قوله: « ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ »، و من قال: إن « ذَلِكُمْ » مبتدأ و « فَذُوقُوهُ » خبره فقد أخطأ لأن ما بعد الفاء لا يكون خبرا لمبتدأ، و لا يجوز: زيد فمنطلق، و لا: زيد فاضربه إلا أن تضمنر «هذا» تريد: هذا زيد فاضربه. انتهى. فمعنى الآية: الأمر ذلكم الذى ذكرناه و الأمر أن الله موهن كيد الكافرين.

قوله تعالى: « إِنْ تَشَاءُ تَفْتَحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ » إلى آخر الآية. ظاهر الآية بما تشتمل عليه من الجمل المسروده كقوله: « وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » و قوله:

« وَإِنْ تَعُودُوا نَعِيدُ » إلخ أن تكون الخطاب فيه للمشركين دون المؤمنين باشتمال الكلام على الالتفات للتهكم، و هو المناسب لقوله فى الآية السابقيه: « وَ أَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ».

فالمعنى: إن طلبتم الفتح و سألتم الله أيها المشركون أن يفتح بينكم و بين المؤمنين فقد جاءكم الفتح بما أظهر الله من الحق يوم بدر فكانت الدائره للمؤمنين عليكم، و إن تنتهوا عن المكيد على الله و رسوله فهو خير لكم و إن تعودوا إلى مثل ما كدتم نعد إلى مثل ما أوهنا به كيدكم، و لن تغنى عنكم جماعتكم شيئا و لو كثرت كما لم تغن فى هذه المره و إن الله مع المؤمنين و لن يغلب من هو معه.

و بهذا يتأيد ما ورد أن أبا جهل قال يوم بدر حين اصطف الفريقان أو حين التقى الفئتان: اللهم إن محمدا أقطعنا للرحم و أتانا بما لا- نعرف فانصر عليه، و فى بعض الروايات- و هو الأنسب- كما فى المجمع، عن أبى حمزه: قال أبو جهل: اللهم ربنا ديننا القديم و دين محمد الحديث فأى الدينين كان أحب إليك و أرضى عندك فانصر أهله اليوم.

و ذكر بعضهم: أن الخطاب فى الآية للمؤمنين و وجهوا مضامين جملها بما لا يرتضيه الذوق السليم، و لا جدوى للإطاله بذكرها و المناقشه فيها فمن أراد ذلك فعليه بالمطولات.

قوله تعالى: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ أَنْتُمْ تَشِيْمَعُونَ » الضمير على ما يفيدته السياق راجع إلى الرسول ص، و المعنى، و لا تولوا عن الرسول

و أنتم تسمعون ما يلقيه إلكم من الدعوه الحقه و ما يأمركم به و ينهاكم عنه مما فله صلاح دلك و دنياكم. و مصب الكلام أوامره الحربيه و إن كان لفظه أعم.

قوله تعالى: «و لا تكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَ هُمْ لَا يَسْمَعُونَ» المعنى ظاهر و فله نوع تعريض للمشركين إذ قالوا: سمعنا، و هو لا يسمعون، و قد حكى الله عنهم ذلك إذ قال بعد عده آيات: «وَ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا» الأنفال: ٣١، لكنهم كذبوا و لم يسمعوا و لو سمعوا لاستجابوا كما قال الله تعالى: «وَ لَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا»: الأعراف: ١٧٩، و قال تعالى حكاية عن أصحاب السعير: «وَ قَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ»: الملك: ١٠ فالمراد بالسمع فى الآيه الأولى تلقى الكلام الحق الذى هو صوت من طريق الأذن، و فى الآيه الثانية الانقياد لما يتضمنه الكلام الحق المسموع.

و الآيتان- كما ترى- خطاب متعلق بالمؤمنين متصل نوع اتصال بالآيه السابقه عليهما و تعريض للمشركين، فهو تعالى لما التفت إلى المشركين فذمهم و تهكم عليهم بسؤالهم الفتح، و ذكر لهم أن الغلبه دائما لكلمه الإيمان على كلمه الكفر و لدعوه الحق على دعوه الباطل، التفت إلى حزبه و هم المؤمنون فأمرهم بالطاعه له و لرسوله، و حذرهم عن التولى عنه بعد استماع كلمه الحق، و أن يكونوا كأولئك إذ قالوا:

سمعنا و هم لا يسمعون.

و من الممكن أن يكون فى الآيه إشاره إلى عده من أهل مكه آمنوا بالنبي ص و لما تخلص قلوبهم من الشك خرجوا مع المشركين إلى بدر لحرب رسول الله ص فابتلوا بما ابتلى به مشركو قريش، فقد ورد فى الخبر: أن فئه من قريش أسلموا بمكه و احتبسهم آباؤهم فخرجوا مع قريش، يوم بدر، و هم قيس بن الوليد بن المغيره، و على بن أميه بن خلف، و العاص بن منبه بن الحجاج، و الحارث بن زمعه، و قيس بن الفاكه بن المغيره و لما رأوا قله المسلمين قالوا: مساكين هؤلاء غرهم دينهم، و سيدكرهم الله بعد عده آيات بقوله: «إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ» الآيه.

و ربما قيل: إن المراد بالذين قالوا سمعنا و هم لا يسمعون هم أهل الكتاب من يهود قريظه و النصير. و هو بعيد.

قوله تعالى: «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ» إلى آخر الآيتين. تعريض و ذم للذين سبق ذكرهم من الكفار على ما يعطيه سياق الكلام و ما اشتملت عليه الآية من الموصول و الضمائر المستعملة فى أولى العقل، و على هذا فالظاهر أن اللام فى قوله: «الصُّمُّ الْبُكْمُ» للعهد الذكري، و يثول المعنى إلى أن شر جميع ما يدب على الأرض من أجناس الحيوان و أنواعها هؤلاء الصم البكم الذين لا يعقلون، و إنما لم يعقلوا لأنه لا طريق لهم إلى تلقى الحق لفقدهم السمع و النطق فلا يسمعون و لا ينطقون.

ثم ذكر تعالى أن الله إنما ابتلاهم بالصمم و البكمه فلا يسمعون كلمه الحق و لا ينطقون بكلمه الحق، و بالجمله حرمهم نعمه السمع و القبول، لأنه تعالى لم يجد عندهم خيرا و لم يعلم به و لو كان لعلم، لكن لم يعلم فلم يوفهم للسمع و القبول، و لو أنه تعالى رزقهم السمع و الحال هذه لم يثبت السمع و القبول فيهم بل تولوا عن الحق و هم معرضون.

و من هنا يعلم أن المراد بالخير حسن السريره الذى يثبت به الاستعداد لقبول الحق و يستقر فى القلب، و أن المراد بقوله: «و لَوْ أَسْمَعَهُمْ» الأسماع على تقدير عدم الاستعداد الثابت المستقر فافهم ذلك فلا يرد أنه تعالى لو أسمعهم و رزقهم قبول الحق استلزم ذلك تحقق الخير فيهم و لا وجه مع ذلك لتوليهم و إعراضهم و ذلك أن الشرط فى قوله: «و لَوْ أَسْمَعَهُمْ» على تقدير فقدهم الخير على ما يفيد السياق.

قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ» لما دعاهم فى قوله: «أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ» إلخ إلى إطاعه الدعوه الحقه و عدم التولى عنها بعد استماعها أكده ثانيا بالدعوه إلى استجابته الله و الرسول فى دعوه الرسول، ببيان حقيقه الأمر و الركن الواقعى الذى تعتمد عليه هذه الدعوه، و هو أن هذه الدعوه دعوه إلى ما يحيى الإنسان بإخراجه من مهبط الفناء و البوار، و موقفه فى الوجود، أن الله سبحانه أقرب إليه من قلبه و أنه سيحشر إليه فليأخذ حذره و ليجمع همه و يعزم عزمه.

الحياه أنعم نعمه و أعلى سلعه يعتقدها الموجود الحى لنفسه كيف لا؟ و هو لا يرى وراءه إلا العدم و البطلان، و أثرها الذى هو الشعور و الإراده هو الذى ترام

لأجله الحياه ويرتاح إليه الإنسان و لا- يزال يفر من الجهل و افتقاد حريه الإراده و الاختيار و قد جهز الإنسان و هو أحد الموجودات الحيه بما يحفظ به حياته الروحيه التي هي حقيقه وجوده كما جهز كل نوع من أنواع الخليقه بما يحفظ به وجوده و بقاءه.

و هذا الجهاز الإنساني يشخص له خيراته و منافعه، و يحذره من مواطن الشر و الضر.

و إذ كان هذه الهدايه الإلهيه التي يسوق النوع الإنسان إلى نحو سعادته و خيره و يندبه نحو منافع وجوده هدايه بحسب التكوين و في طور الخلقه، و من المحال أن يقع خطأ في التكوين، كان من الحتم الضروري أن يدرك الإنسان سعادته وجوده إدراكا لا يقع فيه شك كما أن سائر الأنواع المخلوقه تسير إلى ما فيه خير وجوده و منافع شخصه من غير أن يسهو فيه من حيث فطرته، و إنما يقع الخبط فيما يقع من جهه تأثير عوامل و أسباب أخر مضاده تؤثر فيه أثرا مخالفا ينحرف فيه الشيء عما هو خير له إلى ما هو شر، و عما فيه نفعه إلى ما فيه ضرر يعود إليه، و ذلك كالجسم الثقيل الأرضي الذي يستقر بحسب الطبيعه الأرضيه على بسيط الأرض ثم إنه يبتعد عن الأرض بالحركه إلى جهه العلو بدفع دافع يجبره على خلاف الطبع فإذا بطل أثر الدفع عاد إلى مستقره بالحركه نحو الأرض على استقامه إلا أن يمنعه مانع فيخرجه عن السير الاستقامي إلى انحراف و اعوجاج.

و هذا هو الذي يصر عليه القرآن الكريم أن الإنسان لا يخفي عليه ما فيه سعادته في الحياه من علم و عمل، و أنه يدرك بفطرته ما هو حق الاعتقاد و العمل قال تعالى: «فَطَرَتِ اللَّهُ التِّي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ»:

الروم: ٣٠ «و قال تعالى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى -X إلى أن قال X- فَذَكَّرْ إِنَّ نَفَعَتِ الذُّكْرَى سَيِّدًا كَرُمًا يَخْشَى وَ يَتَجَبَّبَهَا الْأَشْقَى» الأعلى: ١١ و قال تعالى: « وَ نَفْسٍ وَ مَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَ قَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا» الشمس: ١٠.

نعم ربما أخطأ الإنسان طريق الحق في اعتقاد أو عمل و خبط في مشيته لكن لا لأن الفطره الإنسانيه و الهدايه الإلهيه أوقعته في ضلاله و أوردته في تهلكه بل لأنه أغفل عقله و نسي رشده و اتبع هوى نفسه و ما زينه جنود الشياطين في عينه، قال

تعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾: النجم: ٢٣ و قال: «أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ: الجاثية: -٢٣.

فهذه الأمور التي تدعو إليها الفطرة الإنسانية من حق العلم والعمل لوازم الحياة السعيدة الإنسانية و هي الحياة الحقيقية التي بالحرى أن تختص باسم الحياة و الحياة السعيدة تستتبعها كما أنها تستلزم الحياة و تستتبعها و تعيدها إلى محلها لو ضعفت الحياة في محلها بورود ما يضادها و يبطل رشد فعلها.

فإذا انحرف الإنسان عن سوى الصراط الذى تهديه إليه الفطرة الإنسانية و تسوقه إليه الهداية، الإلهية فقد فقد لوازم الحياة السعيدة من العلم النافع و العمل الصالح، و لحق بحلول الجهل و فساد الإرادة الحرة و العمل النافع بالأموال و لا يحييه إلا علم حق و عمل حق، و هما اللذان تندب إليهما الفطرة و هذا هو الذى تشير إليه الآية التى نبحت عنها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

و اللام فى قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، بمعنى إلى، و هو شائع فى الاستعمال، و الذى يدعو إليه الرسول ص هو الدين الحق و هو الإسلام الذى يفسره القرآن الكريم باتباع الفطرة فيما تندب إليه من علم نافع و عمل صالح.

و للحياة بحسب ما يراه القرآن الكريم معنى آخر أدق مما نراه بحسب النظر السطحى الساذج فإننا نعرف من الحياة فى بادئ النظر ما يعيش به الإنسان فى نشأته الدنيوية إلى أن يحل به الموت، و هى التى تصاحب الشعور و الفعل الإرادى، و يوجد مثلها أو ما يقرب منها فى غير الإنسان أيضا من سائر الأنواع الحيوانية لكن الله سبحانه يقول: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾: العنكبوت ٦٤ و يفيد ذلك أن الإنسان متمتع بهذه الحياة غير مشغول إلا بالأوهام، و أنه مشغول بها عما هو أهم و أوجب من غايات وجوده و أغراض روحه فهو فى حجاب مضروب عليه يفصل بينه و بين حقيقته ما يطلبه و يبتغيه من الحياة.

و هذا هو الذى يشير إليه قوله تعالى و هو من خطابات يوم القيامة: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾: ق: -٢٢.

فلإنسان حياه أخرى أعلى كعبا و أعلى قيمه من هذه الحياه الدنيويه التى يعدها الله سبحانه لعبا و لهوا، و هى الحياه الأخرويه التى سينكشف عن وجهها الغطاء، و هى الحياه التى لا يشوبها اللعب و اللهو، و لا يدانيها اللغو و التأثيم، لا يسير فيها الإنسان إلا بنور الإيمان و روح العبوديه قال تعالى: «أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ» المجادله: ٢٢ و قال تعالى: «أَوْ مَنْ كَانَ مِنِّي فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا»: الأنعام ١٢٢.

فهذه حياه أخرى أرفع قدرا و أعلى منزله من الحياه الدنيويه العامه التى ربما شارك فيها الحيوان العجم الإنسان، و يظهر من أمثال قوله تعالى: «وَ أَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ»: البقره: ٢٥٣ و قوله: «وَ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا»:

X الآيه X الشورى: -٥٢ أن هناك حياه أخرى فوق هاتين الحياتين المذكورتين سيوافيك البحث عنها فيما يناسبها من المورد إن شاء الله.

و بالجمله فلإنسان حياه حقيقه أشرف و أكمل من حياته الدينيه الدنيويه يتلبس بها إذا تم استعداده بالتحلى بحليه الدين و الدخول فى زمره الأولياء الصالحين كما تلبس بالحياه الدنيويه حين تم استعداده للتلبس بها و هو جنين إنسانى.

و على ذلك ينطبق قوله تعالى فى الآيه المبحوث عنها: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ» فالتلبس بما تندب إليه الدعوه الحقه من الإسلام يجر إلى الإنسان هذه الحياه الحقيقه كما أن هذه الحياه منبع ينبع منه الإسلام و ينشأ منه العلم النافع و العمل الصالح، و فى معنى هذه الآيه قوله تعالى: «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَ لَنُجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»: النحل: -٩٧.

و الآيه أعنى قوله فيها: «إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ» مطلق لا يأبى الشمول لجميع دعوته (ص) المحييه للقلوب، أو بعضها الذى فيه طبيعه الإحياء أو لنتائجها التى هى أنواع الحياه السعيده الحقيقه كالحياه السعيده فى جوار الله سبحانه فى الآخره.

و من هنا يظهر أن لا- وجه لتقييد الآيه بما قيدها به أكثر المفسرين فقد قال بعضهم: إن المراد بقوله: «إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ» بالنظر إلى مورد النزول: إذا دعاكم إلى الجهاد إذ فيه إحياء أمركم و إعزاز دينكم.

وقيل: المعنى إذا دعاكم إلى الشهادة في سبيل الله في جهاد عدوكم فإن الله سبحانه عد الشهداء أحياء كما في قوله: «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ»: آل عمران-١٦٩.

وقيل: المعنى إذا دعاكم إلى الإيمان فإنه حياه القلب و الكفر موته أو إذا دعاكم إلى الحق.

وقيل: المعنى إذا دعاكم إلى القرآن و العلم في الدين لأن العلم حياه و الجهل موت و القرآن نور و حياه و علم.

وقيل: المعنى إذا دعاكم إلى الجنة لما فيها من الحياه الدائمه و النعمه الباقيه الأبدية.

و هذه الوجوه المذكوره يقبل كل واحد منها انطباق الآيه عليه غير أن الآيه كما عرفت مطلقه لا موجب لصرفها عما لها من المعنى الواسع.

قوله تعالى: «وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ» الحيلوله هي التخلل وسطا، و القلب العضو المعروف. و يستعمل كثيرا في القرآن الكريم في الأمر الذي يدرك به الإنسان و يظهر به أحكام عواطفه الباطنه كالحب و البغض و الخوف و الرجاء و التمني و القلق و نحو ذلك فالقلب هو الذي يقضى و يحكم، و هو الذي يحب شيئا و يبغض آخر، و هو الذي يخاف و يرجو و يتمنى و يسر و يحزن، و هو في الحقيقه النفس الإنسانيه تفعل بما جهزت به من القوى و العواطف الباطنه.

و الإنسان كسائر ما أبدعه الله من الأنواع التي هي أبعاض عالم الخلقه مركب من أجزاء شتى مجهز بقوى و أدوات تابعه لوجوده يملكها و يستخدمها في مقاصد وجوده، و الجميع مربوطه به ربطا يجعل شتات الأجزاء و الأبعاض على كثرتها و تفاريق القوى و الأدوات على تعددها، واحدا تماما يفعل و يترك، و يتحرك و يسكن، بوحدته و فردانيته.

غير أن الله سبحانه لما كان هو المبدع للإنسان و هو الموجد لكل واحد واحد من أجزاء وجوده و تفاريق قواه و أدواته كان هو الذي يحيط به و بكل واحد من أجزاء وجوده و توابعه، و يملك كلا منها بحقيقه معنى الملك يتصرف فيه كيف يشاء، و يملك الإنسان ما شاء منها كيف شاء فهو المتوسط الحائل بين الإنسان و بين كل

جزء من أجزاء وجوده و كل تابع من توابع شخصه: بينه و بين قلبه، بينه و بين سمعه، بينه و بين بصره، بينه و من بدنه، بينه و بين نفسه. يتصرف فيها بإيجادها، و يتصرف فيها بتمليك الأسنان ما شاء منها كيف شاء، و إعطائه ما أعطى، و حرمانه ما حرم.

و نظير الإنسان فى ذلك سائر الموجودات فما من شىء فى الكون و له ذات و توابع ذات من قوى و آثار و أفعال إلا- و الله سبحانه هو المالك بحقيقه معنى الكلمه لذاته و لتوابع ذاته، و هو المملك إياه كلا من ذاته و توابع ذاته فهو الحائل المتوسط بينه و بين ذاته و بينه و بين توابع ذاته من قواه و آثاره و أفعاله.

فالله سبحانه هو الحائل المتوسط بين الإنسان و بين قلبه و كل ما يملكه الإنسان و يرتبط و يتصل هو به نوعا من الارتباط و الاتصال و هو أقرب إليه من كل شىء كما قال تعالى: « وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ »: ق:- ١٦.

□
و إلى هذه الحقيقه يشير قوله: « وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » فهو تعالى لكونه مالكا لكل شىء و من جملتها الإنسان ملكا حقيقيا لا مالك حقيقه سواه، أقرب إليه حتى من نفسه و قوى نفسه التى يملكها لأنه سبحانه هو الذى يملكه إياها فهو حائل متوسط بينه و بينها يملكه إياها و يربطها به فافهم ذلك.

و لذلك عقب الجمله بقوله: « وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » فإن الحشر و البعث هو الذى ينجلي عنده أن الملك الحق لله وحده لا شريك له، و يبطل عند ذلك كل ملك صورى و سلطنه ظاهريه إلا ملكه الحق جل ثناؤه كما قال سبحانه: « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ »: المؤمن:- ١٦، و قال: « يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ »: الانفطار:- ١٩.

فكأن الآيه تقول: و اعلموا أن الله هو المالك بالحقيقه لكم و لقلوبكم و هو أقرب إليكم من كل شىء، و أنه ستحشرون إليه فيظهر حقيقه ملكه لكم و سلطانه عليكم يومئذ فلا يغنى عنكم منه شىء.

□
و أما اتصال الكلام أعنى ارتباط قوله: « وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ » إلخ بقوله: « اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ » فلأن حيلولته سبحانه بين المرء و قلبه، يقطع منبت كل عذر فى عدم استجابته لله و الرسول إذا دعاه لما

يحييه، و هو التوحيد الذى هو حقيقه الدعوه الحقه فإن الله سبحانه لما كان أقرب إليه من كل شىء حتى من قلبه الذى يعرفه بوجدانه قبل كل شىء، فهو تعالى وحده لا شريك له أعرف إليه من قلبه الذى هو وسيله إدراكه و سبب أصل معرفته و علمه.

فهو يعرف الله إليها واحدا لا شريك له قبل معرفته قلبه و كل ما يعرفه بقلبه، فمهما شك فى شىء أو ارتاب فى أمر فلن يشك فى إلهه الواحد الذى هو رب كل شىء و لن يضل فى تشخيص هذه الكلمه الحقه.

فإذا دعاه داعى الحق إلى كلمه الحق و دين التوحيد الذى يحييه لو استجاب له، كان عليه أن يستجيب داعى الله فإنه لا عذر له فى ترك الاستجابه معللا بأنه لم يعرف حقيه ما دعى إليه، أو اختلط عليه، أو أعيته المذاهب فى الإقبال على الحق الصريح فإن الله سبحانه هو الحق الصريح الذى لا يحجبه حاجب، ولا يستره ساتر إذ كل حجاب مفروض فالله سبحانه أقرب منه إلى الإنسان، و كل ما يختلج فى القلب من شبهه أو وسوسه فالله سبحانه متوسط متخلل بينه- مع ما له من ظرف و هو القلب- و بين الإنسان فلا سبيل للإنسان إلى الجهل بالله و الشك فى توحده.

و أيضا فإن الله سبحانه لما كان حائلا بين المرء و قلبه فهو أقرب إلى قلبه منه كما أنه أقرب إليه من قلبه فإن الحائل المتوسط أقرب إلى كل من الطرفين من الطرف الآخر و إذا كان تعالى أقرب إلى قلب الإنسان منه فهو أعلم بما فى قلبه منه.

فعلى الإنسان إذا دعاه داعى الحق إلى ما يحييه من الحق أن يستجيب دعاءه بقلبه كما يستجيبه بلسانه، و لا يضم فى قلبه ما لا يوافق ما لباه بلسانه و هو النفاق فإن الله أعلم بما فى قلبه منه و سيحشر إليه فينبئه بحقيقه عمله و يخبره بما طواه فى قلبه قال تعالى: «يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيَّ اللَّهُ مِنْهُمْ شَيْءٌ» المؤمن:- ١٦، و قال:

«وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا» النساء:- ٤٢.

و أيضا فإن الله سبحانه لما كان هو الحائل بين الإنسان و قلبه و هو المالك للقلب بحقيقه معنى الملك كان هو المتصرف فى القلب قبل الإنسان و له أن يتصرف فيه بما شاء فما يجده الإنسان فى قلبه من إيمان أو شك أو خوف أو رجاء أو طمأنينه أو قلق و اضطراب أو غير ذلك مما ينسب إليه باختيار أو اضطرار، فله انتساب إليه

تعالى بتصرفه فيما هو أقرب إليه من كل شيء تصرفا بالتوفيق أو الخذلان أو أي نوع من أنواع التريه الإلهيه، يتصرف بما شاء و يحكم بما أراد من غير أن يمنعه مانع أو يهدده ذم أو لوم كما قال تعالى: « وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ » الرعد: ٤١، و قال تعالى: « لَهُ الْمُلْكُ وَ لَهُ الْحَمْدُ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » التغابن: ١.

فمن الجهل أن يثق الإنسان بما يجد في قلبه من الإيمان بالحق أو التلبس بنيه حسنه أو عزيمة على خير أو هم بصلاح و تقوى، بمعنى أن يرى استقلاله بملك قلبه و قدرته المطلقة على ما يهم به فإن القلب بين أصابع الرحمن يقبله كيف يشاء و هو المالك له بحقيقته معنى الملك و المحيط به بتمام معنى الكلمه، قال تعالى: « وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ » الأنعام: ١١٠، فمن الواجب عليه أن يؤمن بالحق و يعزم على الخير على مخافه من الله تعالى أن يقبله من السعاده إلى الشقاء و يحول قلبه من حال الاستقامه إلى حال الانتكاس و الانحراف، و لا يأمن مكر الله، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

و كذلك الإنسان إذا وجد قلبه غير مقبل على كلمه الحق و العزم على الخير و صالح العمل، عليه أن يبادر إلى استجابته الله و رسوله فيما يدعوه إلى ما يحييه، و لا ينهزم عما يهجم عليه من أسباب اليأس و عوامل القنوط من ناحيه قلبه فإن الله سبحانه يحول بين المرء و قلبه، و هو القادر على أن يصلح سره و يحول قلبه إلى أحسن حال و يشمله بروح منه و رحمه فإنما الأمر إليه، و قد قال: « إِنَّهُ لَا يَنفَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ » يوسف: ٨٧، و قال: « وَ مَنْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ » الحجر: ٥٦.

فالآيه الكريمه - كما ترى - من أجمع الآيات القرآنيه تشتمل على معرفه حقيقه من المعارف الإلهيه - مسأله الحيلولة - و هي تقطع عذر المتجاهلين في معرفه الله سبحانه من الكفار و المشركين، و تقلع غره النفاق من أصلها بتوجيه نفوس المنافقين إلى مقام ربهم و أنه أعلم بما في قلوبهم منهم، و يلقي إلى المسلمين و الذين هم في طريق الإيمان بالله و آياته مسأله نفسه تعلمهم أنهم غير مستقلين في ملك قلوبهم و لا منقطعون في ذلك من ربهم فيزول بذلك رذيله الكبر عن من يرى لنفسه استقلالاً و سلطنه فيما يملكه فلا يغره ما يشاهده من تقوى القلب و إيمان السر، و رذيله اليأس و القنوط عن من يحيط بقلبه

دواهي الهوى و دواعى أعراض الدنيا فيثاقل عن الإيمان بالحق و الإقبال على الخير، و يورثه ذلك اليأس و القنوط.

و مما تقدم يظهر أن قوله: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ» إلخ تعليل لقوله تعالى: «إِسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ» على جميع التقادير من وجوه معناه.

و بذلك يظهر أيضا أن الآية أوسع معنى مما أورده المفسرون من تفسيرها:

كقول من قال: إن المراد أن الله سبحانه أقرب إلى المرء من قلبه نظير قوله: «وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ»، و فيه تحذير شديد.

و قول من قال: إن المراد أن القلب لا يستطيع أن يكتفئ الله حديثا فإن الله أقرب إلى قلب الإنسان من نفسه، فما يعلمه الإنسان من قلبه يعلمه الله قبله.

و قول من قال: إن المراد أنه يحول بين المرء و بين الانتفاع بقلبه بالموت فلا يمكنه استدراك ما فات فبادروا إلى الطاعات قبل الحيلولة و دعوا التسوية، و فيه حث على الطاعة قبل حلول المانع.

و قول من قال: معناه أن الله سبحانه يملك قلب القلوب من حال إلى حال فكأنهم خافوا من القتال فأعلمهم الله سبحانه أنه يبذل خوفهم أمنا بأن يحول بينهم و بين ما يتفكرون فيه من أسباب الخوف.

و قد ورد في الحديث عن أئمة أهل البيت (ع) أن المراد بذلك أن الله سبحانه يحول بين الإنسان و بين أن يعلم أن الحق باطل أو أن الباطل حق، و سيجيء في البحث الروائي إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: «وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» قرأ على و الباقر (ع) من أئمة أهل البيت و كذا زيد بن ثابت و الربيع بن أنس و أبو العالیه على ما في المجمع: لتصيين باللام و نون التأكيد الثقيله، و القراءه المشهوره: لا تصيين بلا الناهيه و نون التأكيد الثقيله.

و على أى تقدير كان، تحذر الآيه جميع المؤمنين عن فتنه تختص بالظالمين منهم، و لا- يتعداهم إلى غيرهم من الكفار و المشركين، و اختصاصها بالظالمين من المؤمنين و أمر

عامتهم مع ذلك باتقائها يدل على أنها وإن كانت قائمه ببعض الجماعه لكن السيئ من أثرها يعم الجميع ثم قوله تعالى: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» تهديد للجميع بالعقاب الشديد ولا دليل يدل على اختصاص هذا العقاب بالحياه الدنيا و كونه من العذاب الدنيوى من قبيل الاختلافات القوميه و شيوع القتل و الفساد و ارتفاع الأمن و السلام و نحو ذلك.

و مقتضى ذلك أن تكون الفتنة المذكوره على اختصاصها ببعض القوم مما يوجب على عامه الأمة أن يبادروا على دفعها، و يقطعوا دابرها و يطفئوا لهيب نارها بما أوجب الله عليهم من النهى عن المنكر و الأمر بالمعروف.

فيقول معنى الكلام إلى تحذير عامه المسلمين عن المساهله فى أمر الاختلافات الداخليه التى تهدد وحدتهم و توجب شق عصاهم و اختلاف كلمتهم، و لا تلبث دون أن تحزبهم أحزابا و بعضهم أبعاضا، و يكون الملك لمن غلب منهم، و الغلبه لكلمه الفساد لا لكلمه الحق و الدين الحنيف الذى يشترك فيه عامه المسلمين.

فهذه فتنة تقوم بالبعض منهم خاصه و هم الظالمون غير أن سيئ أثره يعم الكل و يشمل الجميع فيستوعبهم الذله و المسكنه و كل ما يترقب من مر البلاء بنشوء الاختلاف فيما بينهم، و هم جميعا مسئولون عند الله و الله شديد العقاب.

و قد أبهم الله تعالى أمم هذه الفتنة و لم يعرفها بكمال اسمها و رسمها غير أن قوله فيما بعد: «لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً» و قوله: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» - كما تقدم - يوضحها بعض الإيضاح، و هو أنها اختلاف البعض من الأمة مع بعض منها فى أمر يعلم جميعه وجه الحق فيه فيجمع البعض عن قبول الحق و يقدم إلى المنكر بظلمه فلا يرد عونه عن ظلمه و لا ينهونه عن ما يأتيه من المنكر، و ليس كل ظلم، بل الظلم الذى يسرى سوء أثره إلى كافه المؤمنين و عامه الأمة لمكان أمره سبحانه الجميع باتقائه، فالظلم الذى هو لبعض الأمة و يجب على الجميع أن يتقوه ليس إلا - ما هو من قبيل التغلب على الحكومه الحقه الإسلاميه، و التظاهر بهدم القطيعات من الكتاب و السنه التى هى من حقوقها.

و أيا ما كان ففى الفتن الواقعه فى صدر الإسلام ما ينطبق عليه الآيه أوضح

انطباع و قد انهدمت بها الوحده الدينيه، و بدت الفرقه و نفدت القوه، و ذهبت الشوكه على ما اشتملت عليه من القتل و السبى و النهب و هتك الأعراض و الحرمات و هجر الكتاب و إلغاء السنه، و قال الرسول: يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا.

و من شمول مشامتها و تعرق فسادها أن الأمه لا تستطيع الخروج من أليم عذابها حتى بعد التنبه منهم لسوء فعالهم و تفريطهم فى جنب الله كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدها فيها و ذوقوا عذاب الحريق.

و قد تظن بعض المفسرين بأن الآيه تحذر الأمه و تهددهم بفتنه تشمل عامتهم و تفرق جمعهم، و تشتت شملهم، و توعدهم بعذاب الله الشديد، و قد أحسن التظن غير أنه تكلف فى توجيه العذاب بالعذاب الدنيوى، و تمحل فى تقييد ما فى الآيه من إطلاق العقاب، و أنى لهم التناوش من مكان بعيد.

و لنرجع إلى لفظ الآيه:

أما على قراءه أهل البيت (ع) و زيد: «و اتقوا فتنه لتصيين الذين ظلموا منكم خاصه» فاللام فى «لتصيين» للقسم و النون الثقيله لتأكيد، و التقدير:

و اتقوا فتنه أقسم لتصيين الذين ظلموا منكم خاصه، و خاصه حال من الفتنه، و المعنى اتقوا فتنه تختص إصابته بالذين ظلموا منكم أيها المخاطبون و هم الذين آمنوا، و عليك أن تذكر ما سلف بيانه أن لفظ: «الَّذِينَ آمَنُوا» فى القرآن خطاب تشرىفى للمؤمنين فى أول البعثه و بدء انتشار الدعوه لو لا قرينه صارفه عن ذلك، ثم تذكر أن فتن صدر الإسلام تنتهى إلى أصحاب بدر، و الآيه على أى حال يأمر الجميع أن يتقوا فتنه تثيرها بعضهم، و ليس إلا لأن أثرها السيئ يعم الجميع كما تقدم.

و أما على قراءه المشهور: «وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً» فقد ذكروا: أن لا فى «لَا تُصِيبَنَّ» ناهيه و النون لتأكيد النهى، و ليس «لَا تُصِيبَنَّ» جوابا للأمر فى «اتَّقُوا» بل الكلام جار مجرى الابتداء و الاستيناف كقوله تعالى:

«يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سَيِّئَاتُكُمْ وَ جُنُودُهُ» النمل: -١٨ فقد قال أولا: «وَ اتَّقُوا فِتْنَةً» ثم استأنف و قال: «لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً» لاتصال الجملتين معنى.

و ربما جوز بعض النحاه أن يكون «لَا تُصَيِّنَنَّ» نهيا واردا في جواب الأمر كما يقال: اتق زيدا لا يضربك أو لا يضربنك و التقدير: اتق زيدا فإنك إن اتقيته لا يضربك و لم يشترط في نون التأكيد أن لا يدخل الخبر.

و ربما قال بعضهم: إن لا زائده و المعنى: اتقوا فتنه تصيين الآيه.

و ربما ذكر آخرون: «أن أصل لَا تُصَيِّنَنَّ» «لتصيين» أشبعت فتحه اللام حتى تولدت الألف، و إشباع الفتحة ليس بعزيز في الشعر قال:

فأنت من الغوائل حين ترمى

*و من ذم الرجال بمنترح

يريد: بمنترح، و الوجهان بعيدان لا يحمل على مثلهما كلامه تعالى.

و مآل المعنى على هذا الوجه أى على قراءه لَا تُصَيِّنَنَّ» أيضا إلى ما تفيده القراءه الأولى «لتصيين» كما عرفت.

و الآيه - كما عرفت - تتضمن خطابا اجتماعيا متوجها إلى مجموع الأمة و ذلك يؤيد كون الخطاب فى الآيه السابقه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ» خطابا اجتماعيا متوجها إلى كافة المؤمنين، و يتفرع عليه أن المراد بالدعوه إلى ما يحييهم الدعوه إلى الاتفاق على الاعتصام بحبل الله و إقامة الدين و عدم التفرق فيه كما قال: «وَ اغْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَ لَا تَفَرَّقُوا» آل عمران: - ١٠٣ و قال: «أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ» الشورى: - ١٣ و قوله: «وَ أَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَ لَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ» الأنعام: - ١٥٣.

و بهذا يتأيد بعض الوجوه المذكوره سابقا فى قوله: «إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ» و كذا فى قوله: «أَنْ اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ» و تختص الآيه به بحسب السياق و إن كانت تفيد معنى أوسع من ذلك باعتبار أخذها فى نفسها مفردة عن السياق، و الباحث الناقد لا يعوز عليه تمييز ذلك و الله الهادى.

قوله تعالى: «وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ» إلى آخر الآيه. الاستضعاف عد الشىء ضعيفا بتوهين أمره، و التخطف و الخطف و الاختطاف أخذ الشىء بسرعه انتزاع، و الإيواء جعل الإنسان ذا مأوى و مسكن يرجع إليه و يأوى، و التأييد من الأيد و هو القوه.

و السياق يدل على أن المراد بقوله: «إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ» الزمان الذي كان المسلمون محصورين بمكة قبل الهجرة و هم قليل مستضعفون، و بقوله:

تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ

«مشركو العرب و صناديد قريش، و بقوله «فَأَوَّاكُمْ» أى بالمدينه و بقوله «وَ أَيْدِكُمْ بِنَصْرِهِ» ما أسبغ عليهم من نعمه النصر ببدر، و بقوله:

«وَ رَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ» ما رزقهم من الغنائم و أحلها لهم.

و ما عدّه فى الآيه من أحوال المؤمنين و منته عليهم بالإيواء و إن كانت مما يختص بالمهاجرين منهم دون الأنصار إلا أن المراد الامتنان على جميعهم من المهاجرين و الأنصار فإنهم أمه واحده يوحدهم دين واحد. على أن فيما ذكره الله فى الآيه من منته التأييد بالنصر و الرزق من الطيبات و هما يعمان الجميع، هذا بحسب ما تقتضيه الآيه من حيث وقوعها فى سياق آيات بدر، و لكن هى وحدها و باعتبار نفسها تعم جميع المسلمين من حيث إنهم أمه واحده يرجع لاحقهم إلى سابقهم فقد بدا ظهور الإسلام فيهم و هم قليل مستضعفون بمكة يخافون أن يتخطفهم الناس فأوأمهم بالمدينه و كثرهم بالأنصار و أيدهم بنصره فى بدر و غيره و رزقهم من جميع الطيبات الغنائم و غيرها من سائر النعم لعلهم يشكرون.

قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» إلى آخر الآيتين. الخيانه نقض الأمانه التى هى حفظ الأمن لحق من الحقوق بعهد أو وصيه و نحو ذلك، قال الراغب: الخيانه و النفاق واحد إلا أن الخيانه تقال اعتبارا بالعهد و الأمانه، و النفاق يقال اعتبارا بالدين ثم يتداخلان فالخيانه مخالفه الحق بنقض العهد فى السر، و نقيض الخيانه الأمانه يقال: خنت فلانا، و خنت أمانه فلان و على ذلك قوله: لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ. انتهى.

و قوله: «وَ تَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ» من الجائز أن يكون مجزوما معطوفا على تخونوا السابق، و المعنى: و لا تخونوا أماناتكم، و أن يكون منصوبا بحذف أن و التقدير:

و أن تخونوا أماناتكم و يؤيد الوجه الثانى قوله بعده: «وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

و ذلك أن الخيانه و إن كانت إنما يتعلق النهى التحريمى بها عند العلم فلا نهى مع جهل بالموضوع و لا تحريم غير أن العلم من الشرائط العامه التى لا ينجز تكليف من التكليف المولويه إلا به فلا نكته ظاهره فى تقييد النهى عن الخيانه بالعلم مع

أن العلم لكونه شرطا عاما مستغنى عن ذكره، و ظاهر قوله: « وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » بحذف متعلقات الفعل أن المراد: و لكم علم بأنه خيانه لا ما قيل: إن المعنى:

و أنتم تعلمون مفسد الخيانه و سوء عاقبتها و تحريم الله إياها فإن ذلك لا دليل عليه من جهة اللفظ و لا من جهة السياق.

فالوجه أن تكون الجملة بتقدير: و أن تخونوا أماناتكم، و يكون مجموع قوله:

« لا- تَخُونُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ » نهيا واحدا متعلقا بنوع خيانه هي خيانه أمانه الله و رسوله و هي بعينها خيانه لأمانه المؤمنين أنفسهم فإن من الأمانه ما هي أمانه الله سبحانه عند الناس كأحكامه المشرعه من عنده و منها ما هي أمانه الرسول كسيرته الحسنه، و منها ما هي أمانه الناس بعضهم عند بعض كالأمانات من أموالهم أو أسرارهم، و منها ما يشترك فيه الله و رسوله و المؤمنون، و هي الأمور التي أمر بها الله سبحانه و أجزاها الرسول و ينتفع بها الناس و يقوم بها صلب مجتمعهم كالأسرار السياسيه و المقاصد الحربيه التي تضيع بإفشائها آمال الدين و تضل بإذاعتها مساعي الحكومه الإسلاميه فيبطل به حق الله و رسوله و يعود ضرره إلى عامه المؤمنين.

فهذا النوع من الأمانه خيانه الله و رسوله و للمؤمنين فالخائن بهذه الخيانه من المؤمنين يخون الله و الرسول و هو يعلم أن هذه الأمانه التي يخونها أمانه لنفسه و لسائر إخوانه المؤمنين و هو يخون أمانه نفسه، و لن يقدم عاقل على الخيانه لأمانه نفسه فإن الإنسان بعقله الموهوب له يدرك قبح الخيانه للأمانه فكيف يخون أمانه نفسه.

فالمراد بقوله: « وَ تَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ »-و الله أعلم- و تخونوا في ضمن خيانه الله و الرسول أماناتكم و الحال أنكم تعلمون أنها أمانات أنفسكم و تخونونها، و أى عاقل يقدم على خيانه أمانه نفسه و الإضرار بما لا يعود إلا إلى شخصه فتذليل النهى بقوله: « وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » لتهديج العصبيه الحقه و إثارة قضاء الفطره لا لبيان شرط من شرائط التكليف.

فكان بعض أفراد المسلمين كان يفشى أموراً من عزائم النبي ص المكتومه من المشركين أو يخبرهم ببعض أسرارهم فسماه الله تعالى خيانه و نهى عنه، و عدها خيانه الله و الرسول و المؤمنين.

و يؤيد ذلك قوله بعد هذا النهى: « وَ اعْلَمُوا أَنَّهَا أَمْوَالُكُمْ وَ أَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ » إلخ

فإن ظاهر السياق أنه متصل بما قبله غير مستقل عنه، ويفيد حينئذ أن موعظتهم في أمر الأموال والأولاد مع النهي عن خيانه الله و الرسول و أماناتهم إنما هو لإخبار المخبر منهم المشركين بأسرار رسول الله المكتومه، استماله منهم مخافه أن يتعدوا على أموالهم و أولادهم الذين تركوهم بمكة بالهجره إلى المدينة، فصاروا يخبرونهم بالأخبار إلقاء للموده و استبقاء للمال و الولد أو ما يشابه ذلك نظير ما كان من أبي لبابه مع بنى قريظه.

و هذا يؤيد ما ورد في سبب النزول أن أبا سفيان خرج من مكة بمال كثير فأخبر جبرئيل النبي ص بخروجه و أشار عليه بالخروج إليه و كتمان أمره فكتب إليه بعضهم بالخبر فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ و في نزول الآية بعض أحاديث أخر سيأتى إن شاء الله في البحث الروائي التالي.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَقْوَى اللَّهِ يَجْعَلُ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الفرقان ما يفرق به بين الشىء و الشىء، و هو فى الآية بقريته السياق و تفريعه على التقوى الفرقان بين الحق و الباطل سواء كان ذلك فى الاعتقاد بالترقيه بين الإيمان و الكفر و كل هدى و ضلال أو فى العمل بالتمييز بين الطاعة و المعصيه و كل ما يرضى الله أو يسخطه، أو فى الرأى و النظر بالفصل بين الصواب و الخطأ فإن ذلك كله مما تثمره شجره التقوى، و قد أطلق الفرقان فى الآية و لم يقيده قد عد جمل الخير و الشر فى الآيات السابقه و الجميع يحتاج إلى الفرقان.

و نظير الآية بحسب المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ و قد تقدم الكلام فى معنى تكفير السيئات و المغفره، و الآية بمنزله تلخيص الكلام فى الأوامر و النواهي التى تتضمنها الآيات السابقه أى إن تتقوا الله لم يختلط عندكم ما يرضى الله فى جميع ما تقدم بما يسخطه و يكفر عنكم سيئاتكم و يغفر لكم و الله ذو الفضل العظيم.

(بحث روائى)

فى الكافى، بإسناده عن عقيل الخزاعى: أن أمير المؤمنين (ع) قال: إن الرعب و الخوف من جهاد المستحق للجهاد - و المتوازنين على الضلال، ضلال فى الدين و سلب للدنيا مع الذل و الصغار، و فيه استيجاب النار بالفرار من الزحف -

عند حضره القتال يقول الله عز و جل: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا - فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ»

و فى الفقيه،و العلل،ياسناده عن ابن شاذان: أن أبا الحسن الرضا(ع) كتب إليه فيما كتب من جواب مسأله:حرم الله الفرار من الزحف لما فيه من الوهن فى الدين،و الاستخفاف بالرسل و الأئمه العادله،و ترك نصرتهم على الأعداء،و العقوبه لهم على ترك ما دعوا إليه-من الإقرار بالربوبيه و إظهار العدل،و ترك الجور و إماته الفساد،لما فى ذلك من جرأه العدو على المسلمين،و ما يكون فى ذلك من السبى و القتل-و إبطال دين الله عز و جل و غيره من الفساد.

أقول:و قد استفاضت الروايات عن أئمه أهل البيت(ع)أن الفرار من الزحف من المعاصى الكبيره الموبقه،و قد تقدم طرف منها فى البحث عن الكبائر فى تفسير قوله تعالى: «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ:النساء:-٣١ فى الجزء الرابع من الكتاب.

و على ذلك روايات من طرق أهل السنه

كما فى صحيحى البخارى،و مسلم،عن أبى هريره عن النبى ص قال: اجتنبوا السبع الموبقات قالوا:و ما هن يا رسول الله؟ قال:الشرك بالله-و قتل النفس التى حرم الله إلا-بالحق-و السحر و أكل الربا و أكل مال اليتيم-و التولى يوم الزحف-و قذف المحصنات الغافلات المؤمنات،و هناك روايات أخرى عن ابن عباس و غيره تدل على كون الفرار من الزحف من الكبائر.

نعم قوله تعالى: «الْمَانَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَ عَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ» الآيه يقيد إطلاق آيه تحريم الفرار بما دون الثلاثه لواحد.

و قد روى من طرقهم عن عمر بن الخطاب و عبد الله بن عمر و ابن عباس و أبى هريره و أبى سعيد الخدرى و غيرهم كما فى الدر المنثور¹: أن تحريم الفرار من الزحف فى هذه الآيه خاص بيوم بدر.

و ربما وجه ذلك بأن الآيه نزلت يوم بدر،و أن الظرف فى قوله «و مَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ» إشاره إلى يوم بدر،و قد عرفت أن سياق الآيات يشهد بنزولها بعد يوم بدر،و أن المراد بقوله: «يَوْمَئِذٍ» هو يوم الزحف لا يوم بدر.على أنه لو

فرض نزولها يوم بدر لم يوجب خصوص السبب في عموم مدلول الآيه شيئا كما في سائر الآيات التي جمعت بين عموم الدلالة و خصوص السبب.

قال صاحب المنار في تفسيره: وإنما قد يتجه بناء التخصيص على قرينه الحال لو كانت الآيه قد نزلت قبل اشتباك القتال-خلافًا للجمهور-مع ما لغزوه بدر من الخصائص ككونها أول غزوه في الإسلام لو انهزم فيها المسلمون و النبي ص فيهم لكانت الفتنة كبيرة. و تأييد المسلمين بالملائكة يثبتونهم، و وعده تعالى بنصرهم و إلقاء الرعب في قلوب أعدائهم.

فإذا نظرنا إلى مجموع الخصائص و قرينه الحال في النهي اتجه كون التحريم المقرون بالوعيد الشديد الذي في الآيه خاصًا بها. أضف إلى ذلك أن الله تعالى امتحن الصحابه (رض) بالتولى و الإدبار في القتال مرتين مع وجوده (ص) معهم: يوم أحد و فيه يقول الله تعالى (٣: ١٥٥) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَ لَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ) و يوم حنين، و فيه يقول الله تعالى (٩: ٢٥) لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَ ضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَ لَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ -٢٦، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الْخِ، و هذا لا ينافي كون التولى حرامًا و من الكبائر، و لا يقتضى أن يكون كل تول لغير السببين المستثنين في آيه الأنفال يبوء صاحبه بغضب عظيم من الله و مأواه جهنم و بئس المصير بل قد يكون دون ذلك، و يتقيد بآيه رخصه الضعف الآتيه في هذه السوره، و بالنهي عن إلقاء النفس في التهلكه من حيث عمومها كما تقدم في سوره البقره و سيأتي تفصيله قريبًا.

و قد روى أحمد و أصحاب السنن إلا النسائي من حديث ابن عمر قال: "كنت في سريه من سرايا رسول الله ص فحاص الناس حيصه و كنت فيمن حاص-فقلنا:

كيف نصنع-و قد فررنا من الزحف و بؤنا بالغضب؟ ثم قلنا: لو دخلنا المدينه فبتنا؟ ثم قلنا: لو عرضنا نفوسنا على رسول الله ص؟ فإن كان لنا توبه و إلا ذهبنا، فأتينا قبل صلاه الغداه-فخرج فقال: من الفرارون؟ فقلنا: نحن الفرارون. قال:

بل أنتم العكارون إنا فئتكم و فئه المسلمين. قال: فأتينا حتى قبلنا يده.

«و لفظ أبى داود» فقلنا: ندخل المدينة فنبيت فيها- لنذهب و لا يرانا أحد فدخلنا فقلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ص- فإن كانت لنا توبه أقمنا- و إن كان غير ذلك ذهبنا- فجلسنا لرسول الله ص قبل صلاه الفجر- فلما خرج قمنا إليه فقلنا: نحن الفرارون إلخ.

تأول بعضهم هذا الحديث بتوسع فى معنى التحيز إلى فئه لا يبقى معه للوعيد معنى و لا للغه حكم، و قد قال الترمذى فيه: حسن لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن أبى زياد أقول: و هو مختلف فيه ضعفه الكثيرون، و قال ابن حبان كان صدوقا إلا أنه لما كبر ساء حفظه و تغير فوقعت المناكير فى حديثه فمن سمع منه قبل التغير فسماعه صحيح، و جملة القول: أن هذا الحديث لا وزن له فى هذه المسأله لا متنا و لا سندا، و فى معناه أثر عن عمر هو دونه فلا يوضع فى ميزان هذه المسأله. انتهى.

أقول: و الذى نقله فى أول كلامه من الوجوه و القرائن المحتفه بغزوه بدر من كونه أول غزوه فى الإسلام، و كون النبى ص بينهم و نحو ذلك مشتركه بحسب حقيقه الملاك بينها و بين أمثال غزوه أحد و الخندق و خيبر و حنين، و الإسلام أيامئذ فى حاجه شديده إلى الرجال المقاتلين و ثباتهم فى الزحوف، و النبى ص بينهم، و الله وعدهم بالنصر و أنزل فى بعضها الملائكه لتأييدهم و إلقاء الرعب فى قلوب أعدائهم.

و الذى ذكره من الآيات النازله فى فرارهم يوم أحد و يوم حنين لا دلالة فيها على عدم شمول وعيد آيه الأنفال لهم إذ ذاك و أى مانع يمنع من ذلك و الآيه مطلقه و ليس هناك مقيد يقيدها.

و من العجيب تسليمه كون فرارهم فى اليومين كبيره محرمة ثم قوله: إن ذلك لا يقتضى كونه مما يبوء صاحبه بغضب من الله و مأواه جهنم و بثس المصير بل قد يكون دون ذلك مع أن الكبائر الموبقه هى المعاصى التى أوعد الله عليها النار.

و أعجب منه قوله: إنه يتقيد بآيه رخصه الضعف الآتية فى هذه السوره، و بالنهى عن إلقاء النفس فى التهلكه من حيث عمومها! مع أن آيه رخصه الضعف إنما تدل على الرخصه فى الفرار إذا كان يربو عدد الزاحفين من الأعداء على الضعف.

و آيه النهى عن إلقاء النفس فى التهلكه لو دلت بعمومها على أزيد مما يدل عليه

آيه رخصه الضعف لغت آيه الأنفال و بقيت بلا مصداق كما أن التأول في قوله تعالى:

« أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ » على حسب ما تقتضيه روايه ابن عمر يوجب إلغاء الآية كما ذكره صاحب المنار فقد تلخص أن لا مناص عن إبقاء الآية على ظاهر إطلاقها.

و في تفسير العياشي، عن موسى بن جعفر (ع): في الآية: «إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ» قال متطرذا يريد الكره عليهم «أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ» يعنى متأخرا إلى أصحابه من غير هزيمه، من انهزم حتى يجوز صف أصحابه فقد باء بغضب من الله.

أقول: تشير الروايه إلى نكته مهمه في لفظ الآية، و هي أن النهي إنما تعلق في الآية على تولى الأذبار و هي أعم من الانهزام فإذا استثنى الموردان أعنى التحرف لقتال و التحيز إلى فته و هي غير موارد الفرار عن هزيمه، بقيت موارد الهزيمه تحت النهي فكل انهزام عن أعداء الدين إذا لم يجوزوا الضعف عددا حرام محرم.

و في تفسير البرهان، عن ابن شهر آشوب عن الثعلبي عن ضحاك عن عكرمه عن ابن عباس: في قوله تعالى: «وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ» أن النبي ص قال لعلي:

ناولني كفا من حصي - و ناوله و رمى به في وجوه قريش - فما بقي أحد إلا امتلأت عيناه من الحصى:

أقول: و رواه في الدر المنثور، عن الطبراني و أبي الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس و روى العياشي في تفسيره حديث المناوله عن محمد بن كليب الأسدي عن أبيه عن الصادق (ع) و في خبر آخر عن علي (ع).

و في الدر المنثور، أخرج ابن جرير عن محمد بن قيس و محمد بن كعب رضى الله عنهما قالا: لما دنا القوم بعضهم من بعض - أخذ رسول الله ص قبضه من تراب فرمى بها في وجوه القوم، و قال: شأهت الوجوه - فدخلت في أعينهم كلهم، و أقبل أصحاب رسول الله ص يقتلونهم، و كانت هزيمتهم في رميه رسول الله ص - فأنزل الله: «وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ - إِلَىٰ قَوْلِهِ - سَمِيعٌ عَلِيمٌ».

أقول: و المراد بنزول الآية نزولها بعد ذلك و هي تقص القصه لا نزولها وقتئذ، و هو شائع في أسباب النزول. و قد ذكر ابن هشام في سيرته: أن النبي ص رماه بالتراب ثم أمر أصحابه بالكره فكانت الهزيمه.

وفيه أخرج ابن أبي الشيبه و أحمد و النسائي و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و ابن منده و الحاكم و صححه و البيهقي في الدلائل عن ابن شهاب عن عبد الله بن ثعلبه بن صعير[□]: " أن أبا جهل قال حين التقى القوم: اللهم أقطعنا للرحم و آتانا بما لا نعرف- فأحنه الغداه فكان ذلك استفتاحا منه- فنزلت: «إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ» الآية.

و في المجمع: في قوله تعالى: «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ» الآية- قال قال الباقر (ع): هم بنو عبد الدار- لم يكن أسلم منهم غير مصعب بن عمير- و حليف لهم يقال له: سويط.

و في جامع الجوامع: قال الباقر (ع): هم بنو عبد الدار- لم يسلم منهم غير مصعب بن عمير و سويد بن حرملة، و كانوا يقولون: نحن صم بكم عمى عما جاء به محمد- و قد قتلوا جميعا بأحد و كانوا أصحاب اللواء.

أقول: و روى في الدر المنثور، ما في معناه بطرق عن ابن عباس و قتاده، و الرواية من قبيل الجرى و الانطباق، و الآية عامه.

و في تفسير القمي، في قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا-اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ» الآية. قال الحياه الجنه.

و في الكافي، بإسناده عن أبي الربيع الشامي قال: سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله عز و جل: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ» قال: نزلت في ولاية علي (ع):

أقول: و رواه في تفسير البرهان، عن ابن مردويه عن رجاله مرفوعا إلى الإمام محمد بن علي الباقر، (ع) و كذا عن أبي الجارود عنه (ع) كما رواه القمي في تفسيره

، و الرواية من قبيل الجرى و كذا الرواية السابقة عليها و قد قدمنا في الكلام على الآية أنها عامه.

و في تفسير القمي، عن أبي الجارود عن الباقر (ع): في قوله تعالى: «وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ» يقول: بين المرء و معصيته أن يقوده إلى النار، و يحول بين الكافر و طاعته أن يستكمل بها الإيمان، و اعلموا أن الأعمال بخواتيمها.

و فى المحاسن، بإسناده عن على بن الحكم عن هشام بن سالم عن الصادق (ع): فى قول الله تبارك و تعالى: «وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ» قال: يحول بينه و بين أن يعلم أن الباطل حق:

أقول: و رواه الصدوق فى المعانى، عن ابن أبى عمير عن هشام بن سالم عنه (ع).

و فى تفسير العياشى، عن يونس بن عمار عن أبى عبد الله (ع) قال: لا يستيقن القلب أن الحق باطل أبدا، و لا يستيقن أن الباطل حق أبدا.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: سألت النبى ص عن هذه الآية: «يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ» قال: يحول بين المؤمن و الكافر، و يحول بين الكافر و بين الهدى.

أقول: و هو قريب من الخبر المتقدم عن أبى الجارود عن الباقر (ع) فى معنى الآية.

و فى تفسير العياشى، عن حمزه الطيار عن أبى عبد الله (ع): «وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ» قال: هو أن يشتبه الشىء بسمعه و بصره و لسانه و يده-أما إنه لا يغشى شيئا منها و إن كان يشتبهه- فإنه لا يأتيه إلا و قلبه منكر لا يقبل الذى يأتي- يعرف أن الحق ليس فيه:

أقول: و رواه البرقى فى المحاسن بإسناده عن حمزه الطيار عنه (ع)

و روى ما يقرب منه العياشى فى تفسيره عن جابر عن أبى جعفر (ع)، و يثول معنى الروايه إلى الروايتين المتقدمتين عن هشام بن سالم و يونس بن عمار عن الصادق (ع).

و فى تفسير العياشى، عن الصيقل: سئل أبو عبد الله (ع) «وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً» قال: أخبرت أنهم أصحاب الجمل.

و فى تفسير القمى، قال: قال: "نزلت فى الطلحه و الزبير-لما حاربا أمير المؤمنين (ع) و ظلما.

و فى المجمع، عن الحاكم بإسناده عن قتاده عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: «وَ اتَّقُوا فِتْنَةً» قال النبى ص: من ظلم عليا مقعدى هذا بعد وفاتى-فكأنما جحد نبوتى و نبوه الأنبياء من قبلى.

و في الدر المنثور، أخرج ابن أبي شيبة و عبد بن حميد و نعيم بن حماد في الفتن و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن الزبير رضى الله عنه قال: "لقد قرأنا زمانا و ما نرى أنا من أهلها- فإذا نحن المعنيون بها: «و اتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً».

و فيه، أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن السدى في الآية قال: "هذه نزلت في أهل بدر خاصة- فأصابتهم يوم الجمل فاقتلوا- فكان من المقتولين طلحة و الزبير و هما من أهل بدر.

و فيه، أخرج أحمد و البزاز و ابن المنذر و ابن مردويه و ابن عساكر عن مطرف قال: "قلنا للزبير: يا أبا عبد الله ضيعتم الخليفة حتى قتل- ثم جئتم تطلبون بدمه؟ فقال الزبير رضى الله عنه: إنا قرأنا على عهد رسول الله ص- و أبي بكر و عمر و عثمان رضى الله عنهم «و اتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً»- و لم نكن نحسب أنا أهلها- حتى وقعت فينا حيث وقعت.

و فيه، أخرج عبد بن حميد و أبو الشيخ عن قتاده رضى الله عنه في الآية قال: "

علم و الله ذوو الأبواب من أصحاب محمد ص- أنه سيكون فتن.

و فيه، أخرج أبو الشيخ و أبو نعيم و الديلمي في مسند الفردوسى عن ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله ص: في قوله: «و اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ- تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ» قيل: يا رسول الله و من الناس؟ قال:

أهل فارس.

أقول: و الرواية لا تلائم سياق الآية.

و فيه، "في قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا- لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ» الآية: "أخرج ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه: "أن أبا سفيان خرج من مكة- فأتى جبرائيل النبي ص فقال: إن أبا سفيان بمكان كذا و كذا- فاخرجوا إليه و اكتبوا- فكتب رجل من المنافقين إلى أبي سفيان- أن محمدا يريدكم فخذوا حذركم فأنزل الله: «لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ» الآية.

أقول: و معنى الرواية قريب الانطباق على ما استفدناه من الآية في البيان المتقدم.

وفيه: أخرج ابن جرير عن المغيرة بن شعبه قال: "نزلت هذه الآية في قتل عثمان رضى الله عنه.

أقول: والآية لا تنطبق عليه بسياقها البتة

و فى المجمع، عن الباقر و الصادق (ع) و الكلبي و الزهرى: نزلت فى أبى لبابه بن عبد المنذر الأنصارى، و ذلك أن رسول الله ص حاصر يهود قريظه- إحدى و عشرين ليله- فسألوا رسول الله ص الصلح- على ما صلح عليه إخوانهم من بنى النضير- على أن يسيروا إلى إخوانهم- إلى أذرعات و أريحات من أرض الشام- فأبى أن يعطيهم ذلك رسول الله ص- إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ- فقالوا:

أرسل إلينا أبا لبابه- و كان مناصحا لهم لأن عياله و ماله و ولده كانت عندهم- فبعثه رسول الله ص فأتاهم فقالوا: ما ترى يا أبا لبابه؟ أن نزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار أبو لبابه بيده إلى حلقه: أنه الذبح- فلا تفعلوا فأتاه جبرائيل فأخبره بذلك-.

قال أبو لبابه: فوالله ما زالت قدماى عن مكانهما- حتى عرفت أنى قد خنت الله و رسوله- فنزلت الآية فيه- فلما نزلت شد نفسه على ساريه من سواري المسجد، و قال: و الله لا أذوق طعاما و لا شرابا- حتى أموت أو يتوب الله على- فمكث سبعة أيام لا يذوق فيها طعاما و لا شرابا- حتى خر مغشيا عليه ثم تاب الله عليه- فقليل له:

يا أبا لبابه قد تيب عليك- فقال: لا و الله لا أحل نفسى- حتى يكون رسول الله هو الذى يحلنى- فجاءه و حله بيده-.

ثم قال أبو لبابه: إن من تمام توبتى- أن أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب- و إن انخلع من مالى. فقال النبى ص: يجزيك الثلث أن تصدق به.

أقول: قصه أبى لبابه و توبته صحيحه قابله الانطباق على مضمون الآيتين غير أنها وقعت بعد قصه بدر بكثير، و ظاهر الآيتين إذا اعتبرتا و قيستا إلى الآيات السابقة عليهما أن الجميع فى سياق واحد نزلت بعد وقعه بدر بقليل. و الله أعلم.

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ (٣٠) وَإِذْ تُثَلِّقُ عَلَيْهِمُ آيَاتِنَا فَاذْأَبُوا فَكَرِهُوا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَهُ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ارْتِنَّا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَاللَّهُ لِيَعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّفِقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيحَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥) إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٨) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاغْلَمُوا أَنْ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠)

الآيات فى سياق الآيات السابقة و هى متصله بها و منعطفه على آيات أول السوره إلا قوله: «وَ إِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ
الآيه و الآيه التى تليها، فإن ظهور اتصالها دون بقية الآيات، و سيجىء الكلام فيها إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: «وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ» إلى آخر الآيه، قال الراغب: المكر صرف الغير عما يقصده بحيله، و ذلك ضربان:

ضرب محمود و ذلك أن يتحرى به فعل جميل و على ذلك قال: وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ، و مذموم و هو أن يتحرى به فعل قبيح
قال: وَ لَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ . وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا . فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ ، و قال فى الأمرين: وَ مَكْرُوا
مَكْرًا وَ مَكْرُنًا مَكْرًا ، و قال بعضهم: من مكر الله إمهال العبد و تمكينه من أعراض الدنيا،

و لذلك قال أمير المؤمنين رضى الله عنه: من وسع عليه دنياه و لم يعلم أنه مكر به فهو مخدوع عن عقله. انتهى.

و فى المجمع: الإثبات الحبس يقال: رماه فأثبته أى حبسه مكانه، و أثبت الحرب أى جرحه جراحه مثقله. انتهى.

و مقتضى سياق الآيات إن يكن قوله: «وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا» الآيه معطوفه على قوله سابقا: «وَ إِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِخْدَى
الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ» فالآيه مسوقه لبيان ما أسبغ الله عليهم من نعمته، و أيدهم به من أياديه التى لم يكن لهم فيها صنع.

و معنى الآيه: و اذكر أو و ليذكروا إذ يمكر بك الذين كفروا من قريش لإبطال دعوتك أن يوقعوا بك أحد أمور ثلاثه: إما أن
يحبسوك و إما أن يقتلوك و إما أن يخرجوك و يمكرون و يمكر الله و الله خير الماكرين.

و الترديد فى الآيه بين الحبس و القتل و الإخراج بيانا لما كانوا يمكرونه من مكر يدل أنه كان منهم شورى يشاور فيها بعضهم
بعضا فى أمر النبى ص و ما كان يهمهم و يهتمون به من إطفاء نور دعوته، و بذلك يتأيد ما ورد من أسباب النزول أن الآيه تشير
إلى قصه دار الندوه على ما سيجىء فى البحث الروائى التالى إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: «وَ إِذِ اتَّخَذْنَا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا» إلى آخر الآيه الأساطير الأحاديث جمع أسطوره و يغلب فى الأخبار الخرافيه، و قوله حكايه عنهم: «قَدْ سَمِعْنَا» و قوله: «لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا» و قوله: «مِثْلَ هَذَا» و لم يقل: مثل هذه أو مثلها كل ذلك للدلاله على إهانتهم بآيات الله و إزرائهم بمقام الرساله، و نظيرها قولهم: «إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ».

و المعنى: و إذا تتلى عليهم آياتنا التى لا-ريب فى دلالتها على أنها من عندنا و هى تكشف عن ما نريده منهم من الدين الحق لجوا و اعتدوا بها و هونوا أمرها و أزررو برسالتنا و قالوا قد سمعنا و عقلنا هذا الذى تلى علينا لا حقيقه له إلا أنه من أساطير الأولين، و لو نشاء لقلنا مثله غير أنا لا نعتنى به و لا نهتم بأمثال هذه الأحاديث الخرافيه.

قوله تعالى: «وَ إِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ» إلى آخر الآيتين. الإمطار هو إنزال الشىء من فوق، و غلب فى قطرات الماء من المطر أو هو استعاره إمطار المطر لغيره كالحجاره و كيف كان فقولهم: أمطر علينا حجاره من السماء بالتصريح باسم السماء للدلاله على كونه بنحو الآيه السماويه و الإهلاك الإلهى محضا.

فإمطار الحجاره من السماء عليهم على ما سألوا أحد أقسام العذاب و يبقى الباقي تحت قولهم: «أَوْ اثْنَا بَعْدَ أَلِيمٍ» و لذلك نكر العذاب و أبهم وصفه ليدل على باقى أقسام العذاب، و يفيد مجموع الكلام: أن أمطر علينا حجاره من السماء أو اثنا بعداب آخر غيره يكون أليما، و إنما أفرد إمطار الحجاره من بين أفراد العذاب الأليم بالذكر لكون الرضخ بالحجاره مما يجتمع فيه عذاب الجسم بما فيه من تألم البدن و عذاب الروح بما فيه من الذله و الإهانه.

ثم قوله: «إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ» يدل بلفظه على أن الذى سمعوه من النبى ص بلسان القال أو الحال بدعوته هو قوله: «هذا هو الحق من عند الله» و فيه شىء من معنى الحصر، و هذا غير ما كان يقوله لهم: هذا حق من عند الله فإن القول الثانى يواجه به الذى لا يرى دينا سماويا و نبوه إلهيه كما كان يقوله المشركون و هم الوثنيه: ما أنزل الله على بشر من شىء، و أما القول الأول فإنما يواجه به من يرى أن هناك دينا حقا من عند الله و رساله إلهيه يبلغ الحق من عنده ثم ينكر كون ما أتى به النبى ص أو بعض ما أتى به هو الحق من عند الله تعالى فيواجه بأنه هو

الحق من عند الله لا غيره ثم، يرد بالاشتراط فى مثل قوله. اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجاره من السماء أو ائتنا بعذاب أليم.

فالأشبه أن لا يكون هذا حكاية عن بعض المشركين بنسبته إلى جميعهم لاتفاقهم فى رأى أو رضا جميعهم بما قاله هذا القائل بل كأنه حكاية عن بعض أهل الردة ممن أسلم ثم ارتد أو عن بعض أهل الكتاب المعتقدين بدين سماوى حق فافهم ذلك.

و يؤيد هذا الآيه التاليه لهذه الآيه: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ» أما قوله: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ» فإن كان المراد به نفى تعذيب الله كفار قريش بمكة قبل الهجره و النبى فيهم كان مدلوله أن المانع من نزول العذاب يومئذ هو وجود النبى ص بينهم، و المراد بالعذاب غير العذاب الذى جرى عليهم بيد النبى ص من القتل و الأسر كما سماه الله فى الآيات السابقه عذابا و قال فى مثلها: «قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا» التوبه: -٥٢، بل عذاب الاستئصال بآيه سماويه كما جرى فى أمم الأنبياء الماضين لكن الله سبحانه هددهم بعذاب الاستئصال فى آيات كثيره كقوله تعالى: «فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَ ثَمُودَ:» حم السجده: -١٣، و كيف يلائم أمثال هذه التهديدات قوله:

«وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ» لو كان المراد بالمعذبين هم كفار قريش و مشركو العرب ما دام النبى ص بمكة.

و لو كان المراد بالمعذبين جميع العرب أو الأمه، و المراد بقوله: «وَأَنْتَ فِيهِمْ» حياه النبى ص، و المعنى: و لا يعذب الله هذه الأمه و أنت فيهم حيا كما ربما يؤيده قوله بعده: «وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ» كان ذلك نфия للعذاب عن جميع الأمه و لم يناف نزوله على بعضهم كما سمي وقوع القتل بهم عذابا كما فى الآيات السابقه، و كما ورد أن الله تعالى عذب جمعا منهم كأبى لهب و المستهزئين برسول الله ص، و على هذا لا تشمل الآيه القائلين: «اللَّهُمَّ إِنَّ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ» إلى آخر الآيه و خاصه باعتبار ما روى أن القائل به أبو جهل كما فى صحيح البخارى أو النضر بن الحارث بن كلده كما فى بعض روايات آخر و قد حقت عليهما كلمه العذاب و قتلا يوم بدر فلا ترتبط الآيه: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ» بالآيه، بهؤلاء القائلين: اللهم إن

كان هذا هو الحق من عندك الآيه مع أنها مسوقه سوق الجواب عن قولهم.

و يشتد الإشكال بناء على ما وقع في بعض أسباب النزول أنهم قالوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجاره من السماء أو ائتنا بعذاب أليم فنزل قوله تعالى: «سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَقَعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ» و سيجيء الكلام فيه و في غيره من أسباب النزول المروييه في البحث الروائي التالي إن شاء الله.

و الذى تمحل به بعض المفسرين في توجيه مضمون الآيه بناء على حملها على ما مر من المعنى أن الله سبحانه أرسل محمدا ص رحمه للعالمين و نعمه لهذه الأممه لا نقمه و عذابا فيه أنه ليس مقتضى الرحمه للعالمين أن يهمل مصلحه الدين، و يسكت عن مظالم الظالمين و إن بلغ ما بلغ و أدى إلى شقاء الصالحين و اختلال نظام الدنيا و الدين، و قد حكى الله سبحانه عن نفسه بقوله: «وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ» (و لم يمنع ذلك من حلول غضبه على من حل به من الأمم الماضيه و القرون الخاليه كما ذكره في كلامه.

على أنه تعالى سمي ما وقع على كفار قريش من القتل و الهلاك في بدر و غيره عذابا و لم يناف ذلك قوله: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ»: الأنبياء: -١٠٧، و هدد هذه الأممه بعذاب واقع قطعى في سور يونس و الإسراء و الأنبياء و القصص و الروم و المعارج و غيرها و لم يناف ذلك كونه (ص) رحمه للعالمين فما بال نزول العذاب على شرذمه تفوهت بهذه الكلمه: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ إِذَا هَذَا هُوَ الْحَقُّ» إلخ، ينافى قول النبى ص نبى الرحمه مع أن من مقتضى الرحمه أن يوفى لكل ذى حق حقه، و أن يقتص للمظلوم من الظالم و أن يؤخذ كل طاغيه بطغيانه.

و أما قوله تعالى: «وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَشْتَعِفُونَ» فظاهره النفى الاستقبالى على ما هو ظاهر الصفه: «مُعَذِّبُهُمْ» و كون قوله: «يَشْتَعِفُونَ» مسوقا لإفاده الاستمرار و الجملة حالیه، و المعنى: و لا يستقبلهم الله بالعذاب ما داموا يستغفرونه.

و الآيه كيفما أخذت لا تنطبق على حال مشركى مكه و هم مشركون معاندون لا يخضعون لحق و لا يستغفرون عن مظلمه و لا جريمه، و لا يصلح الأمر بما ورد في بعض الآثار أنهم قالوا ما قالوا ثم ندموا على ما قالوا فاستغفروا الله بقولهم: «غفرانك اللهم».

و ذلك-مضافا إلى عدم ثبوته- أنه تعالى لا يعبأ فى كلامه باستغفار المشركين

و لا سيما أئمه الكفر منهم، و اللاغى من الاستغفار لا أثر له، و لو لم يكن استغفارهم لاغيا و ارتفع به ما أجرموه بقولهم: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجاره من السماء الآية لم يكن وجه لدمهم و تأنيبهم بقوله تعالى: «وَ إِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ» فى سياق هذه الآيات المسوقة لدمهم و لومهم و عد جرائمهم و مظالمهم على النبي ص و المؤمنين.

على أن قوله تعالى بعد الآيتين: «وَ مَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَ هُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» الآية لا يلائم نفي العذاب فى هاتين الآيتين فإن ظاهر الآية أن العذاب المهديد به هو عذاب القتل بأيدى المؤمنين كما يدل عليه قوله بعده: «فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ» و حينئذ فلو كان القائلون: «اللَّهُمَّ إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ» الآية مشركى قريش أو بعضهم و كان المراد من العذاب المنفى العذاب السماوى لم يستقم إنكار وقوع العذاب عليهم بالقتل و نحوه فإن الكلام حينئذ يؤول إلى معنى التشديد:

و محصله: أنهم كانوا أحق بالعذاب و لهم جرم آخر وراء ما أجرموه و هو الصد عن المسجد الحرام، و هذا النوع من الترقى أنسب بإثبات العذاب لهم لا لنفيه عنهم.

و إن كان المراد بالعذاب المنفى هو القتل و نحوه كان عدم الملاءمه بين قوله:

«وَ مَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ» و قوله: «فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ» و بين قوله:

«وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ» إلخ، أوضح و أظهر.

و ربما وجه الآية بهذا المعنى بعضهم بأن المراد بقوله: «وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ» عذاب أهل مكة قبل الهجرة، و بقوله: «وَ مَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَتْفِرُونَ» عذاب الناس كافه بعد هجرته (ص) إلى المدينة و إيمان جمع و استغفارهم و لذا قيل: إن صدر الآية نزلت قبل الهجرة، و ذيلها بعد الهجرة!.

و هو ظاهر الفساد فإن النبي ص لما كان فيهم بمكة قبل الهجرة كان معه جمع ممن يؤمن بالله و يستغفروه، و هو (ص) بعد الهجرة كان فى الناس فما معنى تخصيص صدر الآية بقوله: «وَ أَنْتَ فِيهِمْ» و ذيلها بقوله: «وَ هُمْ يَسْتَتْفِرُونَ».

و لو فرض أن معنى الآية أن الله لا يعذب هذه الأمة ما دمت فيهم ببيركه و جودك، و لا يعذبهم بعدك ببركه استغفارهم لله و المراد بالعذاب عذاب الاستئصال لم يلائم الآيتين التاليتين: «وَ مَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ» إلخ مع ما تقدم من الإشكال عليه.

فقد ظهر من جميع ما تقدم-على طوله-أن الآيتين أعنى قوله: «وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا» إلى آخر الآيتين لا تشاركان الآيات السابقة و اللاحقه المسروده فى الكلام على كفار قريش فى سياقها الواحد فهما لم تنزلا معها.

و الأقرب أن يكون ما حكى فيهما من قولهم و الجواب عنه بقوله: «وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ» غير مرتبط بهم و إنما صدر هذا القول من بعض أهل الكتاب أو بعض من آمن ثم ارتد من الناس.

و يتأيد بذلك بعض ما ورد أن القائل بهذا القول الحارث بن النعمان الفهرى، و قد تقدم الحديث نقلًا عن تفسيري الثعلبي و المجمع فى ذيل قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» X الآيه X: المائده:- ٦٧ فى الجزء السادس من الكتاب.

و على هذا التقدير فالمراد بالعذاب المنفى العذاب السماوى المستعقب للاستئصال الشامل للأمة على نهج عذاب سائر الأمم، و الله سبحانه ينفى فيها العذاب عن الأمة ما دام النبى ص فيهم حيا، و بعده ما داموا يستغفرون الله تعالى.

و يظهر من قوله تعالى: «وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ وَ مَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَتْفِرُونَ» بضمه إلى الآيات التى توعد هذه الأمة بالعذاب الذى يقضى بين الرسول و بينهم كآيات سوره يونس: «وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قَضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ» يونس:- ٤٧ إلى آخر الآيات أن فى مستقبل أمر هذه الأمة يوما ينقطع عنهم الاستغفار و يرتفع من بينهم المؤمن الإلهى فيعذبون عند ذاك.

قوله تعالى: «وَ مَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَ هُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ مَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ» إلى آخر الآيه استفهام فى معنى الإنكار أو التعجب، و قوله: «وَ مَا لَهُمْ» بتقدير فعل يتعلق به الظرف و يكون قوله: «أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ» مفعوله أو هو من التضمين نظير ما قيل فى قوله: «هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى»: النازعات:- ١٨.

و التقدير على أى حال نحو من قولنا: «و ما الذى يثبت و يحق لهم عدم تعذيب الله إياهم و الحال أنهم يصدون عن المسجد الحرام و يمنعون المؤمنين من دخوله وَ مَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ». فقوله: «وَ هُمْ يَصُدُّونَ» إلخ حال عن ضمير «يُعَذِّبَهُمُ» و قوله:

« وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ » حال عن ضمير « يَصُدُّونَ ».

و قوله: « إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ » تعليل لقوله: « وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ » أى ليس لهم أن يلوا أمر البيت فيجيزوا و يمنعوا من شاءوا لأن هذا المسجد مبنى على تقوى الله فلا يلى أمره إلا المتقون و ليسوا بهم.

فقوله: « إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ » جملة خبريه تعلل القول بأمر بين يدركه كل ذى لب، و ليست الجملة إنشائية مشتمله على جعل الولاية للمتقين، و يشهد لما ذكرناه قوله بعد: « وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » كما لا يخفى.

و المراد بالعذاب العذاب بالقتل أو الأعم منه على ما يفيدته السياق باتصال الآيه بالآيه التاليه، و قد تقدم أن الآيه غير متصله ظاهرا بما تقدمها أى أن الآيتين: « وَ إِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ » إلخ « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ » إلخ خارجتان عن سياق الآيات، و لازم ذلك ما ذكرناه.

قال فى المجمع: و يسأل فيقال: كيف يجمع بين الآيتين و فى الأولى نفى تعذيبهم، و فى الثانية إثبات ذلك؟ و جوابه على ثلاثه أوجه:

أحدها: أن المراد بالأول عذاب الاصطلام و الاستئصال كما فعل بالأمم الماضيه، و بالثانى عذاب القتل بالسيف و الأسر و غير ذلك بعد خروج المؤمنين من بينهم.

و الآخر: أنه أراد: و ما لهم أن لا يعذبهم الله فى الآخره، و يريد بالأول عذاب الدنيا. عن الجبائى.

و الثالث: أن الأول استدعاء للاستغفار. يريد أنه لا يعذبهم بعذاب دنيا و لا آخره إذا استغفروا و تابوا فإذا لم يفعلوا عذبوا ثم بين أن استحقاقهم العذاب بصددهم عن المسجد الحرام. انتهى.

و فيه: أن مبنى الإشكال على اتصال الآيه بما قبلها و قد تقدم أنها غير متصله.

هذا إجمالاً.

و أما تفصيلاً فيرد على الوجه الأول: أن سياق الآيه و هو كما تقدم سياق التشدد و الترقى، و لا يلائم ذلك نفى العذاب فى الأولى مع إثباته فى الثانية و إن كان العذاب غير العذاب.

ص: ٧٢

و على الثانى أن سياق الآيه ينافى كون المراد بالعذاب فيها عذاب الآخرة، و خاصه بالنظر إلى قوله فى الآيه الثالثه- و هى فى سياق الآيه الأولى- «فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ».

و على الثالث: أن ذلك خلاف ظاهر الآيه بلا شك حيث إن ظاهرها إثبات الاستغفار لهم حالا مستمرا لاستدعائه و هو ظاهر.

قوله تعالى: «وَمَا كَانَ صِيَ لَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مَكَاءً وَ تَصِيدِيَهُ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ» المكاء بضم الميم الصغير، المكاء بصيغه المبالغه طائر بالحجاز شديد الصغير، و منه المثل السائر: بنيك حمري و مكئني. و التصديه التصفيق بضرب اليد على اليد.

و قوله: «وَمَا كَانَ صِيَ لَاتُهُمْ» الضمير لهؤلاء الصادين المذكورين فى الآيه السابقه و هم المشركون من قريش، و قوله: «فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ» بيان إنجاز العذاب الموعد لهم بقريته التفرع بالفاء.

و من هنا يتأيد أن الآيتين متصلتان كلاما واحدا و قوله: «وَمَا كَانَ» إلخ جمله حالیه و المعنى: و ما لهم أن لا يعذبهم الله و الحال أنهم يصدون العباد من المؤمنين عن المسجد الحرام و ما كان صلاتهم عند البيت إلا- ملعبه من المكاء و التصديه فإذا كان كذلك فليذوقوا العذاب بما كانوا يكفرون، و الالتفات فى قوله: «فَذُوقُوا الْعَذَابَ» عن الغيبه إلى الخطاب لبلوغ التشديد.

و يستفاد من الآيتين أن الكعبه المشرفه لو تركت بالصد استعقب ذلك المؤاخذه الإلهيه بالعذاب

قال على (ع) فى بعض وصاياه: «الله الله فى بيت ربكم فإنه إن ترك لم تنظروا

(١)

«.

قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصِدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» إلى آخر الآيه يبين حال الكفار فى ضلال سعيهم الذى يسعونه لإبطال دعوه الله و المنع عن سلوك السالكين لسبيل الله، و يشرح ذلك قوله: «فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسِيرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ» إلخ.

ص: ٧٣

و بهذا السياق يظهر أن قوله: « وَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ » بمنزله التعليل، و محصل المعنى أن الكفر سيبيغهم-بحسب سنه الله في الأسباب-إلى أن يسعوا في إبطال الدعوه و الصد عن سبيل الحق غير أن الظلم و الفسق و كل فساد لا يهدى إلى الفلاح و النجاح فسينفقون أموالهم في سبيل هذه الأغراض الفاسده فتضيع الأموال في هذا الطريق فيكون ضيعتها موجبة لتحسرهم، ثم يغلبون فلا ينتفعون بها،و ذلك أن الكفار يحشرون إلى جهنم و يكون ما يأتون به في الدنيا من التجمع على الشر و الخروج إلى محاربه الله و رسوله بحذاء خروجهم محشورين إلى جهنم يوم القيامة.

و قوله: « فَسَيُنفِقُونَهَا ۖ ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ۖ ثُمَّ يُغْلَبُونَ » إلى آخر الآيه من ملاحم القرآن و الآيه من سوره الأنفال النازله بعد غزوه بدر فكأنها تشير إلى ما سيقع من غزوه أحد أو هي و غيرها،و على هذا فقوله: « فَسَيُنفِقُونَهَا ۖ ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً » إشاره إلى غزوه أحد أو هي و غيرها، و قوله: « ثُمَّ يُغْلَبُونَ » إلى فتح مكه،و قوله:

« وَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ » إلى حال من لا يوفق للإسلام منهم.

قوله تعالى: « لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » الخبائثه و الطيب معنيان متقابلان و قد مر شرحهما و التمييز إخراج الشيء عما يخالفه و إلحاقه بما يوافقه بحيث ينفصل عما يخالفه،و الركم جمع الشيء فوق الشيء و منه سحاب مركوم أى مجتمع الأجزاء بعضها إلى بعض و مجموعها و تراكم الأشياء تراكب بعضها بعضا.

و الآيه في موضع التعليل لما أخبر به في الآيه السابقه من حال الكفار بحسب السنه الكونيه،و هو أنهم يسعون بتمام وجدهم و مقدرتهم إلى أن يطفئوا نور الله و يصدوا عن سبيل الله فينفقون في ذلك الأموال و يبذلون في طريقه المساعى غير أنهم لا يهتدون إلى مقاصدهم و لا يبلغون آمالهم بل تضيع أموالهم و تحبط أعمالهم و تضل مساعيهم، و يرثون بذلك الحسره و الهزيمه.

و ذلك أن هذه الأعمال و التقلبات تسير على سنه إلهيه و تتوجه إلى غايه تكوينيه ربانيه،و هي أن الله سبحانه يميز في هذا النظام الجارى الشر من الخير و الخبيث من الطيب و يركم الخبيث بجعل بعضه على بعض،و يجعل ما اجتمع منه و تراكم في جهنم

و هي الغايه التي تسير إليها قافلته الشر و الخيـث يحلها الجميع و هي دار البوار كما أن الخير و الطيب إلى الجنه، و الأولون هم الخاسرون كما أن الآخرين هم الـرابحون المفلحون.

و من هنا يظهر أن قوله: «لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ» إلخ قريب المضمون من قوله تعالى في مثل ضربه للحق و الباطل: «أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ:الرعد:-١٧ و الآيه تشير إلى قانون كلى إلهى و هو إلحاق فرع كل شىء بأصله.

قوله تعالى: «قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ» إلى آخر الآيه الانتهاء الإقلاع عن الشىء لأجل النهى، و السلوف التقدم، و السنه هى الطريقه و السيره.

أمر النبى ص أن يبلغهم ذلك و فى معناه تطميع و تخويف و حقيقته دعوه إلى ترك القتال و الفتنة ليغفر الله لهم بذلك ما تقدم من قتلهم و إيذائهم للمؤمنين فإن لم ينتهوا عما نهوا عنه فقد مضت سنه الله فى الأولين منهم بالإهلاك و الإباده و خسران السعى.

قوله تعالى: «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» الآيه و ما بعدها يشتملان على تكليف المؤمنين بحذاء ما كلف به الكفار فى الآيه السابقه، و المعنى: قل لهم أن ينتهوا عن المحاده لله و رسوله يغفر لهم ما قد سلف و إن يعودوا إلى مثل ما عملوا فقد علموا بما جرى على سابقتهم قل لهم كذا و أما أنت و المؤمنون فلا تهنوا فيما يهكم من إقامة الدين و تصفيه جو صالح للمؤمنين، و قاتلوهم حتى تنتهى هذه الفتن التى تفاجئكم كل يوم، و لا تكون فتنه بعد فإن انتهوا فإن الله يجازيهم بما يرى من أعمالهم، و إن تولوا عن الانتهاء فأديموا القتال و الله مولاكم فاعلموا ذلك و لا تهنوا و لا تخافوا.

و الفتنة ما يمتحن به النفوس و تكون لا- محاله مما يشق عليها، و غلب استعمالها فى المقاتل و ارتفاع الأمن و انتقاض الصلح، و كان كفار قريش يقبضون على المؤمنين بالنبى ص قبل الهجره و بعدها إلى مده فى مكه و يعذبونهم و يجبرونهم على ترك الإسلام و الرجوع إلى الكفر، و كانت تسمى فتنه.

و قد ظهر بما يفيدته السياق من المعنى السابق أن قوله: «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ

«كنايه عن تضعيفهم بالقتال حتى لا يعترفوا بكفرهم و لا يلقوا فتنه يفتن بها المؤمنون و يكون الدين كله لله لا يدعو إلى خلافه أحد، و أن قوله: «فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» المراد به الانتهاء عن القتال و لذلك أردفه بمثل قوله: «فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» أى عندئذ يحكم الله فيهم بما يناسب أعمالهم و هو بصير بها، و أن قوله: «وَ إِنْ تَوَلَّوْا» إلخ أى إن تولوا عن الانتهاء، و لم يكفوا عن القتال و لم يتركوا الفتنه فاعلموا أن الله مولاكم و ناصركم و قاتلوهم مطمئنين بنصر الله نعم المولى و نعم النصير.

و قد ظهر أن قوله: «وَ يَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ» لا ينافى إقرار أهل الكتاب على دينهم إن دخلوا فى الذمه و أعطوا الجزية فلا نسبه للآيه مع قوله تعالى: «حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صَاغِرُونَ»: التوبه: -٢٩. بالناسخيه و المنسوخيه.

و لبعض المفسرين و جوه فى معنى الانتهاء و المغفره و غيرهما من مفردات الآيات الثلاث لا- كثير جدوى فى التعرض لها تركناها.

و قد ورد فى بعض الأخبار كون «نعم المولى و نعم النصير» من أسماء الله الحسنى و المراد بالاسم حينئذ لا محاله غير الاسم بمعناه المصطلح بل كل ما يخص بلفظه شيئا من المصدايق كما ورد نظيره فى قوله تعالى: «لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَ لَا نَوْمٌ» و قد مر استيفاء الكلام فى الأسماء الحسنى فى ذيل قوله تعالى: «وَ لِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى»: الأعراف- ١٨٠ فى الجزء الثامن من الكتاب.

(بحث روائى)

فى تفسير القمى، "فى قوله تعالى: «وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا» الآية- أنها نزلت بمكه قبل الهجره.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن ابن جريح (رض) " «وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا» قال: هى مكه.

أقول: و هو ظاهر ما رواه أيضا عن عبد بن حميد عن معاوية بن قره، لكن عرفت أن سياق الآيات لا يساعد عليه.

و فيه، أخرج عبد الرزاق و أحمد و عبد بن حميد و ابن المنذر و الطبراني و أبو الشيخ و ابن مردويه و أبو نعيم في الدلائل و الخطيب عن ابن عباس رضى الله عنهما¹¹: في قوله:

« وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ » قال: تشاورت قريش ليله بمكة - فقال بعضهم:

إذا أصبح فأثبتوه بالوثائق - يريدون النبي ص - و قال بعضهم: بل اقتلوه، و قال بعضهم بل أخرجوه - فأطلع الله نبيه ص على ذلك - فبات على رضى الله عنه على فراش النبي ص - و خرج النبي ص (ص) حتى لحق بالغار، و بات المشركون يحرسون عليا رضى الله عنه - يحسبونه النبي ص (ص) فلما أصبحوا ثاروا عليه - فلما رأوه عليا رضى الله عنه رد الله مكرهم - فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدرى فاقتصوا أثره فلما بلغوا الجبل - اختلط عليهم فصعدوا فى الجبل - فرأوا على بابه نسج العنكبوت - فقالوا: لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه - فمكث ثلاث ليال.

و فى تفسير القمى،¹²: كان سبب نزولها - أنه لما أظهر رسول الله ص الدعوة بمكة - قدمت عليه الأوس و الخزرج - فقال لهم رسول الله ص: تمنعوني و تكونون لى جاراً - حتى أتلو كتاب الله عليكم و ثوابكم على الله الجنة؟ فقالوا: نعم خذ لربك و لنفسك ما شئت - فقال لهم: موعدكم العقبة - فى الليلة الوسطى من ليالى التشريق - فحجوا و رجعوا إلى منى - و كان فيهم ممن قد حج بشر كثير -.

فلما كان اليوم الثانى من أيام التشريق - قال لهم رسول الله ص: إذا كان الليل - فاحضروا دار عبد المطلب على العقبة، و لا تنبهوا نائماً، و لينسل واحد فواحد - فجاء سبعون رجلاً من الأوس و الخزرج - فدخلوا الدار فقال لهم رسول الله ص:

تمنعونى و تجيرونى حتى أتلو عليكم كتاب ربي - و ثوابكم على الله الجنة -.

فقال أسعد بن زراره و البراء بن معرور - و عبد الله بن حرام نعم يا رسول الله - اشترط لربك و نفسك ما شئت. فقال: أما ما أشترط لربى - فأن تعبدوه و لا تشركوا به شيئاً، و ما أشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون أنفسكم - و تمنعون أهلى مما تمنعون أهليكم و أولادكم. فقالوا فما لنا على ذلك؟ فقال: الجنة فى الآخرة، و تملكون العرب، و يدين لكم العجم فى الدنيا، و تكونون ملوكاً فى الجنة فقالوا: قد رضينا -.

فقال: أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيباً - يكونون شهداء عليكم بذلك - كما أخذ موسى من بنى إسرائيل اثنى عشر نقيباً - فأشار إليهم جبرائيل فقال: هذا نقيب -

و هذا نقيب تسعه من الخزرج و ثلاثه من الأوس: فمن الخزرج أسعد بن زراره و البراء بن معرور-و عبد الله بن حرام أبو جابر بن عبد الله-و رافع بن مالك و سعد بن عباده و المنذر بن عمر-و عبد الله بن رواحه و سعد بن ربيع-و عباده بن صامت و من الأوس أبو الهيثم بن التيهان و هو من اليمن-و أسيد بن حصين و سعد بن خيثمه.

فلما اجتمعوا و بايعوا لرسول الله ص صاح إبليس: يا معشر قريش و العرب- هذا محمد و الصباه من أهل يثرب-على جمرة العقبه يبايعونه على حربكم-فأسمع أهل منى، و هاجت قريش فأقبلوا بالسلاح، و سمع رسول الله ص النداء فقال للأنصار:

تفرقوا فقالوا: يا رسول الله- إن أمرتنا أن نميل عليهم بأسيفنا فعلنا. فقال رسول الله ص: لم أؤمر بذلك-و لم يأذن الله لى فى محاربتهم. قالوا: فتخرج معنا؟ قال:

أنتظر أمر الله-.

فجاءت قريش على بكره أبيها قد أخذوا السلاح-و خرج حمزه و أمير المؤمنين (ع) بالسلاح-و معهما السيوف فوقفا على العقبه- فلما نظرت قريش إليهما-قالوا: ما هذا الذى اجتمعتم له؟ فقال حمزه: ما اجتمعنا و ما هاهنا أحد-و الله لا يجوز هذه العقبه أحد إلا ضربته بسيفى-.

فرجعوا إلى مكه و قالوا: لا نأمن أن يفسد أمرنا-و يدخل واحد من مشائخ قريش فى دين محمد-فاجتمعوا فى دار الندوه، و كان لا يدخل دار الندوه إلا من أتى عليه أربعون سنه-فدخلوا أربعين رجلا من مشائخ قريش، و جاء إبليس فى صورته شيخ كبير-فقال له البواب، من أنت؟ فقال: أنا شيخ من أهل نجد-لا يعدمكم منى رأى صائب-إنى حيث بلغنى اجتماعكم فى أمر هذا الرجل- جئت لأشير عليكم-فقال:

ادخل فدخل إبليس-.

فلما أخذوا مجلسهم قال أبو جهل: يا معشر قريش إنه لم يكن أحد من العرب أعز منا-نحن أهل الله-تفد إلينا العرب فى السنه مرتين و يكرمونا، و نحن فى حرم الله لا- يطمع فىنا طامع-فلم نزل كذلك حتى نشأ فىنا محمد بن عبد الله-فكنا نسليه الأمين لصلاحه و سكونه و صدق لهجته-حتى إذا بلغ ما بلغ و أكرمناه ادعى أنه رسول الله-و أن أخبار السماء تأتیه فسفه أحلامنا، و سب آلهتنا، و أفسد شباننا، و فرق جماعتنا، و زعم أنه من مات من أسلافنا فى النار، و لم يرد علينا شىء أعظم من

هذا، وقد رأيت فيه رأيا. قالوا: وما رأيت؟ قال: رأيت أن ندس إليه رجلا- منا ليقتله- فإن طلبت بنو هاشم بديته أعطيناهم عشر ديات-.

فقال الخبيث: هذا رأى خبيث- قالوا: وكيف ذلك؟ قال: لأن قاتل محمد مقتول لا- محاله- فمن هذا الذى يبذل نفسه للقتل منكم؟ فإنه إذا قتل محمدا تعصبت بنو هاشم و حلفاؤهم من خزاعه، و إن بنى هاشم لا ترضى أن يمشى قاتل محمد على الأرض- فتقع بينكم الحروب فى حرمكم و تتفانون-.

فقال آخر منهم: فعندى رأى آخر. قال: وما هو؟ قال: نثبته فى بيت و نلقى عليه قوته- حتى يأتى عليه ريب المنون فيموت- كما مات زهير و النابغه و إمروء القيس. فقال إبليس: هذا أخبث من الآخر. قالوا: وكيف ذاك؟ قال: لأن بنى هاشم لا ترضى بذلك- فإذا جاء موسم من مواسم العرب استغاثوا بهم- فاجتمعوا عليكم فأخرجوه-.

قال آخر منهم: لا و لكننا نخرجه من بلادنا- و نتفرغ لعباده آلهتنا. قال إبليس:

هذا أخبث من ذينك الرايين المتقدمين، قالوا: وكيف؟ قال: لأنكم تعمدون إلى أصبح الناس وجها، و أتقن الناس لسانا و أفصحهم لهجه- فتحملوه إلى بوادى العرب فيخذعهم و يسحرهم بلسانه- فلا يفجئوكم إلا و قد ملأها خيلا و رجلا. فبقوا حائرين-.

ثم قالوا لإبليس: فما رأى يا شيخ؟ قال: ما فيه إلا رأى واحد. قالوا:

و ما هو؟ قال: يجتمع من كل بطن من بطون قريش- فيكون معهم من بنى هاشم رجل- ف يأخذون سكيناً أو حديده أو سيفاً- فيدخلون عليه فيضربونه كلهم ضربه واحده- حتى يتفرق دمه فى قريش كلها- فلا يستطيع بنو هاشم أن يطلبوا بدمه- فقد شاركوه فيه- فإن سألوكم أن تعطوكم الدية فأعطوهم ثلاث ديات. قالوا: نعم و عشر ديات. قالوا: رأى الشيخ النجدى فاجتمعوا فيه، و دخل معهم فى ذلك أبو لهب عم النبى ص-.

فنزّل جبرئيل على رسول الله ص فأخبره- أن قريشا قد اجتمعت فى دار الندوه يدبرون عليك- فأنزل الله عليه فى ذلك: «وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ- أَوْ يُخْرِجُوكَ وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ»-.

و اجتمعت قريش أن يدخلوا عليه ليلا فيقتلوه، و خرجوا إلى المسجد يصفرون و يصفقون- و يطوفون بالبيت فأنزل الله: «وَ مَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَ تَصَدِيَةً -

فالمكء التصفير و التصديه صفق اليدين - و هذه الآيه معطوفه على قوله: «وَ إِذِ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا - قد كتبت بعد آيات كثيره-.

فلما أمسى رسول الله ص جاءت قريش ليدخلوا عليه-فقال أبو لهب:لا- أدعكم أن تدخلوا عليه بالليل-فإن في الدار صبيانا و نساء-و لا نأمن أن يقع بهم يد خاطئه فنحرسه الليله-فإذا أصبحنا دخلنا عليه-فناموا حول حجره رسول الله ص-.

و أمر رسول الله ص أن يفرش له فرش-فقال لعلي بن أبي طالب(ع):

أفدنى بنفسك-قال:نعم يا رسول الله-قال:نم على فراشي و التحف ببردتى-فنام على (ع)على فراش رسول الله ص و التحف ببردته-.

و جاء جبرئيل فأخذ بيد رسول الله ص-فأخرجه على قريش و هم نيام و هو يقرأ عليهم:« وَ جَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سِدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سِدًّا فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهَمَّ لَا يُبْصِرُونَ » و قال له جبرئيل:خذ على طريق ثور-و هو جبل على طريق منى له سنام كسنام الثور- فدخل الغار و كان من أمره ما كان-.

فلما أصبحت قريش و أتوا إلى الحجره-و قصدوا الفراش فوثب على(ع)فى وجوههم- فقال:ما شأنكم؟قالوا:أين محمد؟قال:أ جعلتمونى عليه رقيباً؟أ لستم قلمت نخرجه من بلادنا؟فقد خرج عنكم فأقبلوا على أبى لهب يضربونه-و يقولون:أنت تخذعنا منذ الليل-.

فتفرقوا فى الجبال،و كان فيهم رجل من خزاعه يقال له:أبو كرز يقفو الآثار- فقالوا:يا أبا كرز اليوم اليوم-فوقف بهم على باب حجره رسول الله ص و قال لهم:

هذه قدم محمد و الله إنها لأخت القدم التى فى المقام،و كان أبو بكر بن أبى قحافه استقبل رسول الله ص فرده معه-فقال أبو كرز:و هذه قدم ابن أبى قحافه أو أبيه-ثم قال:و هاهنا غير ابن أبى قحافه،و لا يزال يقف بهم حتى أوقفهم على باب الغار-.

ثم قال:ما جاوزوا هذا المكان-إما أن يكونوا صعدوا إلى السماء أو دخلوا تحت الأرض،و بعث الله العنكبوت فנסجت على باب الغار،و جاء فارس من الملائكه ثم قال:ما فى الغار أحد-فتفرقوا فى الشعاب،و صرفهم الله عن رسوله ص-ثم أذن لنبيه(ص)فى الهجره-.

أقول:و روى ما يقرب من هذا المعنى ملخصاً فى الدر المنثور عن ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبى نعيم و البيهقى معا فى الدلائل عن ابن

عباس لكن نسب فيه إلى أبي جهل ما نسب في هذه الرواية إلى الشيخ النجدى ثم ذكر أن الشيخ النجدى صدق أبا جهل في رأيه واجتمع القوم على قوله.

وقد روى دخول إبليس عليهم في دار الندوة في زى شيخ نجدى في عدة روايات من طرق الشيعة و أهل السنه.

و أما ما فى الروايه من قول أبى كرز لما اقتفى أثر رسول الله ص: «هذه قدم محمد، وهذه قدم ابن أبى قحافه، و هاهنا غير ابن أبى قحافه» فقد ورد فى الروايات أن ثالثهما هند بن أبى هاله ربيب رسول الله ص و أمه خديجه بنت خويلد رضى الله عنها.

وقد روى الشيخ فى أماليه، بإسناده عن أبى عبيده بن محمد بن عمار بن ياسر عن أبيه و عبد الله بن أبى رافع جميعا عن عمار بن ياسر و أبى رافع و عن سنان بن أبى سنان عن ابن هند بن أبى هاله، و قد دخل حديث عمار و أبى رافع و هند بعضه فى بعض، و هو حديث طويل فى هجره النبى ص و فيه: "و استتبع رسول الله ص أبا بكر بن أبى قحافه- و هند بن أبى هاله فأمرهما أن يقعدا له- بمكان ذكره لهما من طريقه إلى الغار، و ثبت رسول الله ص بمكانه مع على- يأمره فى ذلك بالصبر حتى صلى العشاءين- ثم خرج رسول الله ص فى فحمة العشاء- و الرصد من قريش قد أطفأوا بداره- ينتظرون أن ينتصف الليل و تنام الأعين-.

فخرج و هو يقرأ هذه الآية « وَ جَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سِدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سِدًّا فَأَعَشَيْنَاهُمُ نَارِئًا فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ » و كان بيده قبضه من تراب فرمى بها فى رءوسهم- فما شعر القوم به حتى تجاوزهم- و مضى حتى أتى إلى هند و أبى بكر- فنهضا معه حتى وصلوا إلى الغار.

ثم رجع هند إلى مكة بما أمره به رسول الله ص، و دخل رسول الله و أبو بكر الغار-.

قال بعد سوق القصه الليله: حتى إذا اعتم من الليله القابله انطلق هو- يعنى عليا(ع)- و هند بن أبى هاله حتى دخلا على رسول الله ص فى الغار- فأمر رسول الله ص هنداً أن يتباع له و لصاحبه بعيرين- فقال أبو بكر قد كنت أعددت لى و لك يا نبى الله راحلتين- نرتحلهما إلى يثرب فقال: إنى لا آخذهما و لا أحدهما إلا بالثمن- قال: فهى لك بذلك فأمر رسول الله ص عليا(ع)- فأقبضه الثمن ثم وصاه بحفظ ذمته و أداء أمانته-.

و كانت قريش قد سموا محمدا فى الجاهليه: الأمين، و كانت تودعه و تستحفظه أموالها و أمتعتها، و كذلك من يقدم مکه من العرب فى الموسم، و جاءت النبوه و الرساله و الأمر كذلك- فأمر عليا(ع) أن يقيم صارخا بالأبطح غدوه و عشيا: من كان له قبل محمد أمانه أو دين فليأت فلتؤد إليه أمانته-.

قال: فقال رسول الله ص: إنهم لن يصلوا من الآن إليك يا على بأمر تكرهه- حتى تقدم على فأد أمانتى على أعين الناس ظاهرا- ثم إنى مستخلفك على فاطمه ابنتى- و مستخلف ربي عليكما و مستحفظه فيكما- فأمر أن يبتاع رواحله و للفواطم (1) و من أزمع الهجره معه من بنى هشام-.

قال أبو عبيده: فقلت لعبيد الله يعنى ابن أبى رافع: أ و كان رسول الله ص يجد ما ينفقه هكذا؟ فقال: إنى سألت أبى عما سألتنى- و كان يحدث لى هذا الحديث.

فقال: و أين يذهب بك عن مال خديجه(ع)-.

قال عبيد الله بن أبى رافع: و قد قال على بن أبى طالب(ع) يذكر مبيته على الفراش- و مقام رسول الله ص فى الغار ثلاثا نظما:

وقيت بنفسى خير من وطء الحصى

و من طاف بالبيت العتيق و بالحجر

محمد لما خاف أن يمكروا به

فوقاه ربي ذو الجلال من المكر

و بت أراعيهم متى ينشرونى

و قد وطنت نفسى على القتل و الأسر

و بات رسول الله فى الغار آمنا

هناك و فى حفظ الإله و فى ستر

أقام ثلاثا ثم زمت قلائص

قلائص يفرين الحصى أينما تفرى

و قد روى الأبيات عنه(ع) بتفاوت يسير فى الدر المنثور عن الحاكم عن على بن الحسين(ع).

و فى تفسير العياشى، عن زراره و حمران عن أبى جعفر و أبى عبد الله(ع):

قوله: «خَيْرُ الْمَاكِرِينَ» قال: إن رسول الله ص قد كان لقي من قومه بلاء شديدا- حتى أتوه ذات يوم و هو ساجد-حتى طرحوا عليه رحم شاه-فأتته ابنته و هو ساجد لم يرفع رأسه فرفعته عنه و مسحته-ثم أراه الله بعد ذلك الذي يجب. أنه كان بيدر

ص: ٨٢

١-١) و هن على ما فى ذيل الراويه:فاطمه بنت النبى عليها السلام فاطمه بنت أسد،و فاطمه بنت الزبير.

و ليس معه غير فارس واحد-ثم كان معه يوم الفتح اثنا عشر ألفا-حتى جعل أبو سفيان و المشركون يستغيثون الحديث.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدى رضى الله عنه قال: " كان النضر بن الحارث يختلف إلى الحيره- فيسمع سجع أهلها و كلامهم- فلما قدم إلى مكة سمع كلام النبى (ص) و القرآن- فقال: قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا- إن هذا إلا أساطير الأولين.

أقول: و هناك بعض روايات أخر فى أن القائل بهذا القول كان هو النضر بن الحارث و قد قتل يوم بدر صبيرا.

و فيه، أخرج البخارى و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل عن أنس بن مالك رضى قال: " قال أبو جهل بن هشام: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك- فأمطر علينا حجاره من السماء أو ائتنا بعذاب أليم" فنزلت:

« وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ- وَ مَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَعْفِرُونَ .»

أقول: و روى القمى هذا المعنى فى تفسيره، و روى السيوطى أيضا فى الدر المنثور، عن ابن جرير الطبرى و ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير و عن ابن جرير عن عطاء: " أن القائل: «اللَّهُمَّ إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ» الآية- النضر بن الحارث و قد تقدم فى البيان السابق ما يقتضيه سياق الآية.

و فيه، أخرج ابن جرير عن يزيد بن رومان و محمد بن قيس قالوا: " قالت قريش بعضها لبعض: محمد أكرمه الله من بيننا؟ اللَّهُمَّ إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ- فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ الْآيَةَ- فلما أمسوا ندموا على ما قالوا فقالوا: غفرانك اللهم- فأنزل الله: « وَ مَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَعْفِرُونَ - إلى قوله- لا يَعْلَمُونَ .

و فيه، أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن أبى زبى (رض) قال: "

« كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) بِمَكَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: « وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ » فخرج رسول الله (ص) إلى المدينة فأنزل الله: « وَ مَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَعْفِرُونَ » فلما خرجوا أنزل الله: « وَ مَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ » الآية- فأذن فى فتح مكة فهو العذاب الذى وعدهم.

و فيه، أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ

عن عطيه (رض) " في قوله: « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ » يعنى المشركين حتى يخرجك منهم « وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » قال: يعنى المؤمنين. ثم أعاد المشركين فقال: « وَمَا لَهُمْ إِلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ».

وفيه، أخرج ابن أبي حاتم عن السدى (رض) " في قوله: « وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » يقول: لو استغفروا و أقروا بالذنوب لكانوا مؤمنين، و فى قوله:

« وَمَا لَهُمْ إِلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » يقول: و كيف لا أعذبهم و هم لا يستغفرون.

وفيه، أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و أبو الشيخ عن مجاهد (رض) " في قوله: « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ » قال: بين أظهرهم « وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » قال: يسلمون.

وفيه، أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن أبي مالك (رض) " « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ » يعنى أهل مكة « وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ » و فيهم المؤمنون يستغفرون.

وفيه، أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم عن عكرمه و الحسن رضى عنهما " في قوله: « وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » قال: نسختها الآية التى تليها:

« وَمَا لَهُمْ إِلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ » فقوتلوا بمكة فأصابهم فيها الجوع و الحصر.

أقول: عدم انطباقها على الآية بظاهاها المؤيد بسياقها ظاهر، و إنما دعاهم إلى هذه التكاليف الاحتفاظ باتصال الآية فى التأليف بما قبلها و ما قبلها من الآيات المتعرضه لحال مشركى أهل مكة، و من عجيب ما فيها تفسير العذاب فى الآية بفتح مكة، و لم يكن إلا رحمته للمشركين و المؤمنين جميعا.

وفيه، أخرج الترمذى عن أبي موسى الأشعري (رض) قال: قال رسول الله ص: أنزل الله على أمانين لأمتى « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ » وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ « فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة.

أقول: مضمون الروايه مستفاد من الآية، و قد روى ما فى معناها عن أبى هريره و ابن عباس عنه (ص) و رواها فى نهج البلاغه عن على (ع).

و فى ذيل هذه الروايه شىء؛ و هو أنه لا يلائم ما مر فى البيان المتقدم من إبعاد

القرآن هذه الأمه بعذاب واقع قبل يوم القيامة، ولازمه أن يرتفع الاستغفار من بينهم قبل يوم القيامة.

و فيه، أخرج أحمد عن فضاله بن عبيد رضى الله عنه عن النبي ص قال: العبد آمن من عذاب الله ما استغفر الله.

و فى الكافى، عن على بن إبراهيم عن أبيه عن حنان بن سدير عن أبيه عن أبي جعفر (ع) قال: قال رسول الله ص: مقامى بين أظهركم خير لكم- فإن الله يقول. وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ، و مفارقتى إياكم خير لكم، فقالوا: يا رسول الله مقامك بين أظهرنا خير لنا- فكيف يكون مفارقتك خير لنا؟ فقال: أما مفارقتى لكم خير لكم فإن أعمالكم تعرض على كل خميس و اثنين- فما كان من حسنه حمدت الله عليها، و ما كان من سيئه أستغفر الله لكم.

أقول: و روى هذا المعنى العياشى فى تفسيره و الشيخ فى أماليه، عن حنان بن سدير عن أبيه عنه (ع)، و فى روايتهما أن السائل هو جابر بن عبد الله الأنصارى ع، و رواه أيضا فى الكافى، بإسناده عن محمد بن أبي حمزه و غير واحد عن أبي عبد الله (ع).

و فى الدر المنثور، أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن سعيد بن جبیر (رض) قال: " كانت قريش تعارض النبي ص فى الطواف- يستهزءون و يصفرون و يصفقون فنزلت: « وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَ تَصْدِيَةً ».

و فيه، أخرج أبو الشيخ عن نبيط و كان من الصحابه (رض) " فى قوله: « وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ » الآية- قال: كانوا يطوفون بالبيت الحرام و هم يصفرون.

و فيه، أخرج الطستى عن ابن عباس رضى الله عنهما: أن نافع بن الأزرق قال له:

أخبرنى عن قوله عز و جل: « إِلَّا مُكَاءً وَ تَصْدِيَةً » قال: المكاء صوت القنبره- و التصديه صوت العصافير و هو التصفيق، و ذلك أن رسول الله ص كان إذا قام إلى الصلاة و هو بمكة- كان يصلى قائما بين الحجر و الركن اليمانى- فيجىء رجلا من بنى سهم- يقوم أحدهما عن يمينه و الآخر عن شماله، و يصيح أحدهما كما يصيح المكاء، و الآخر يصفق بيده تصديه العصافير ليفسد عليه صلاته.

و فى تفسير العياشى، عن إبراهيم بن عمر اليمانى عن ذكره عن أبي عبد الله (ع):

فى قول الله: « وَهُمْ يَصِدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ » يعنى أولياء البيت يعنى المشركين « إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ » حيث ما كانوا هم أولى به من المشركين - « وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيهً » قال: التصفير و التصفيق.

و فى الدر المشور، أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى الدلائل كلهم من طريقه (١) قال: حدثنى الزهرى و محمد بن يحيى بن حيان و عاصم بن عمر بن قتاده و الحصين بن عبد الرحمن بن عمر قال: " لما أصيبت قريش يوم بدر و رجع فلهم إلى مكة - و رجع أبو سفيان بعيره مشى عبد الله بن ربيعة - و عكرمه بن أبى جهل و صفوان بن أمية فى رجال من قريش - إلى من كان معه تجاره فقالوا: يا معشر قريش - إن محمدا قد و تركم و قتل خياركم - فأعينونا بهذا المال على حربه - فإلعلنا أن ندرك منه ثارا ففعلوا - ففهم كما ذكر عن ابن عباس أنزل الله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ - إلى قوله - وَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ .

و فيه، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما " فى قوله: « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ - لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » قال نزلت فى أبى سفيان بن حرب.

و فيه، أخرج ابن سعد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن عساكر عن سعيد بن جبير " فى قوله: « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ - لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » الآية - قال: نزلت فى أبى سفيان بن حرب - استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش من بنى كنانة - يقاتل بهم رسول الله ص سوى من استجاش من العرب - فأنزل الله فيه هذه الآية -.

و هم الذين قال فيهم كعب بن مالك رضى الله عنه:

و جئنا إلى موج من البحر وسطه

أحابيش منهم حاسر و مقنع

ثلاثة آلاف و نحن نصيه

ثلاث مئين إن كثرن فأربع

أقول: و رواه ملخصا عن ابن إسحاق و ابن أبى حاتم عن عباد بن عبد الله بن الزبير.

ص: ٨٤

(١ - ١) يعنى طريق محمد بن إسحاق.

و في المجمع: في قوله تعالى: « وَ قَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ » الآية: قال: روى زراره و غيره عن أبي عبد الله (ع) أنه قال: لم يجيء تأويل هذه الآية - و لو قام قائمنا بعد سيري من يدرکه - ما يكون من تأويل هذه الآية - و ليبلغن دين محمد ص ما بلغ الليل - حتى لا يكون مشرك على ظهر الأرض:

أقول: و رواه العياشي في تفسيره عن زراره عنه (ع)، و في معناه ما في الكافي، بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر (ع)، و روى هذا المعنى أيضا العياشي عن عبد الأعلى الحلبي عن أبي جعفر (ع) في روايه طويله .

و قد تقدم حديث إبراهيم اللثبي في تفسير قوله: « لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ » الآية مع بعض ما يتعلق به من الكلام في ذيل قوله: « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ »: الأعراف: - ٢٩ في الجزء الثامن من الكتاب.

[سوره الأنفال (٨): الآيات ٤١ الى ٥٤]

اشاره

وَ اعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبَىٰ وَ الْيَتَامَىٰ وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَ اللَّهُ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّلْيَا وَ هُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَىٰ وَ الرِّكْبِ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ لَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَ لَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ يُحْيِيَ مَنْ مَنَىٰ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ إِنْ اللَّهُ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكٍ قَلِيلًا وَ لَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ وَ لَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ لَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَ يُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَ إِلَىٰ اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤) أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِتْنَةً فَاتَّبِعُوا وَ اذْكُرُوا اللَّهُ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَ اصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَ رِئَاءَ النَّاسِ وَ يُصْذُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧) وَ إِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَ قَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَ إِنِّي لَجَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ وَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨) إِذْ يَقُولُ الْمُبْتَغُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ عَرَّ هَوْلًا بِدِينِهِمْ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩) وَ لَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ اذْبَارَهُمْ وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتِ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ (٥١) كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِغَدُونِهِمْ إِنْ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعْتَبَرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّى يُعَيَّرُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ اعْرِفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَ كُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤)

تشتمل الآيات على الأمر بتخميس الغنائم و بالثبات عند اللقاء و تذكرهم، و تقص عليهم بعض ما نكب الله به أعداء الدين و أخزاهم بالمكر الإلهي، و أجرى فيهم سنة آل فرعون و من قبلهم من المكذبين لآيات الله الصادين عن سبيله.

قوله تعالى: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ» إلى آخر الآية. الغنم و الغنيمه إصابه الفائده من جهه تجاره أو عمل أو حرب و ينطبق بحسب مورد نزول الآية على غنيمه الحرب، قال الراغب: الغنم -بفتحتين- معروف قال:

و من البقر و الغنم ما حرمننا عليهم شحومهما، و الغنم -بالضم فالسكون- إصابته و الظفر به ثم استعمل في كل مظفور به من جهه العدى و غيرهم قال: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ، فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا . و المغنم ما يغنم و جمعه مغانم قال: فعند الله مغانم كثيره، انتهى.

و ذو القربى القريب و المراد به قرابه النبي ص أو خصوص أشخاص منهم على ما يفسره الآثار القطعيه، و اليتيم هو الإنسان الذى مات أبوه و هو صغير، قالوا:

كل حيوان يتيم من قبل أمه إلا الإنسان فإن يتمه من قبل أبيه.

و قوله: «فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ» إلخ قرئ بفتح أن، و يمكن أن يكون بتقدير حرف الجر و التقدير: و اعلموا أن ما غنمتم من شىء فعلى أن لله خمسه أى هو واقع على هذا الأساس محكوم به، و يمكن أن يكون بالعطف على أن الأولى، و حذف خبر الأولى لدلاله الكلام عليه، و التقدير: اعلموا أن ما غنمتم من شىء يجب قسمته فاعلموا أن خمسه لله، أو يكون الفاء لاستشمام معنى الشرط فإن مآل المعنى إلى نحو قولنا:

إن غنمتم شيئاً فخمسه لله إلخ فالفاء من قبيل فاء الجزاء، و كرر أن للتأكيد، و الأصل: اعلموا أن ما غنمتم من شىء أن خمسه لله إلخ، و الأصل الذى تعلق به العلم هو: ما غنمتم من شىء خمسه لله و للرسول إلخ، و قد قدم لفظ الجلاله للتعظيم.

و قوله: «إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ» إلخ قيد للأمر الذى يدل عليه صدر الآية أى أدوا خمسه إن كنتم آمنتم بالله و ما أنزلنا على عبدنا، و ربما قيل: إنه متصل بقوله

تعالى فى الآيه السابقه: «فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ» هذا و السياق الذى يتم بحيلوله قوله: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ» إلخ لا يلائم ذلك.

و قوله تعالى: «وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ» الظاهر أن المراد به القرآن بقريته تخصيص النبى ص بالإنزال، و لو كان المراد به الملائكه المنزلون يوم بدر - كما قيل - لكان الأنسب أولا: أن يقال: و من أنزلنا على عبدنا، أو ما يؤدى هذا المعنى و ثانيا: أن يقال: عليكم لا على عبدنا فإن الملائكه كما أنزلت لنصره النبى ص أنزلت لنصره المؤمنين معه كما يدل عليه قوله: «فَأَشِيتُجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ»: الأنفال: ٩. و قوله بعد ذلك: «إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا» الخ: الأنفال: ١٢. و نظيرهما قوله: «إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ بَلَىٰ إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُواكُمْ مِنْ قُدْرِهِمْ هَذَا يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ»: آل عمران: ١٢٥.

و فى الالتفات من الغيبه إلى التكلم فى قوله: «إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا» من بسط اللطف على رسول الله ص و اصطفاؤه بالقرب ما لا يخفى.

و يظهر بالتأمل فيما قدمناه من البحث فى قوله تعالى فى أول السوره: «يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ» الآيه أن المراد بقوله: «وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ» هو قوله تبارك و تعالى: «فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا» بما يحتف به من الآيات.

و المراد بقوله: «يَوْمَ الْفُرْقَانِ» يوم بدر كما يشهد به قوله بعده: «يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ» فإن يوم بدر هو اليوم الذى فرق الله فيه بين الحق و الباطل فأحق الحق بنصرته، و أبطل الباطل بخذلانه.

و قوله تعالى: «وَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» بمنزله التعليل لقوله: «يَوْمَ الْفُرْقَانِ» بما يدل عليه من تمييزه تعالى بين الحق و الباطل كأنه قيل: و الله على كل شىء قدير فهو قادر أن يفرق بين الحق و الباطل بما فرق.

فمعنى الآيه - و الله أعلم - و اعلموا أن خمس ما غنمتم أى شىء كان هو الله و لرسوله و لذى القربى و اليتامى و المساكين و ابن السبيل فردوه إلى أهله إن كنتم آمنتم بالله و ما أنزله على عبده محمد ص يوم بدر، و هو أن الأنفال و غنائم الحرب لله و لرسوله لا يشارك

الله ورسوله فيها أحد، وقد أجاز الله لكم أن تأكلوا منها و أباح لكم التصرف فيها فالذى أباح لكم التصرف فيها يأمركم أن تتودوا خمسها إلى أهله.

و ظاهر الآيه أنها مشتمله على تشريع مؤبد كما هو ظاهر التشريعات القرآنيه، و أن الحكم متعلق بما يسمى غنما و غنيمه سواء كان غنيمه حربيه مأخوذه من الكفار أو غيرها مما يطلق عليه الغنيمه لغه كأرباح المكاسب و الغوص و الملاحه و المستخرج من الكنوز و المعادن، و إن كان مورد نزول الآيه هو غنيمه الحرب فليس للمورد أن يخصص.

و كذا ظاهر ما عد من موارد الصرف بقوله: ﴿لِلَّهِ حُمُسُهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِإِخْوَتِهِ الْقُرْبَىٰ وَ الْيَتَامَىٰ وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ﴾ انحصار الموارد فى هؤلاء الأصناف، و أن لكل منهم سهما بمعنى استقلاله فى أخذ السهم كما يستفاد مثله من آيه الزكاه من غير أن يكون ذكر الأصناف من قبيل التمثيل.

فهذا كله مما لا ريب فيه بالنظر إلى المتبادر من ظاهر معنى الآيه، و عليه وردت الأخبار من طرق الشيعة عن أئمه أهل البيت (ع) و قد اختلفت كلمات المفسرين من أهل السنه فى تفسير الآيه و سنتعرض لها فى البحث الروائى التالى إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَ هُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَ الرِّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ لَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافِئُمْ فِي الْمِيعَادِ وَ لَكِنْ لِيَقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ العدوه بالضم و قد يكسر شفير الوادى، و الدنيا مؤنث أدنى كما أن القصوى و قد يقال: القصيا مؤنث أقصى و الركب كما قيل هو العير الذى كان عليه أبو سفيان بن حرب.

و الظرف فى قوله: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ بيان ثان لقوله فى الآيه السابقه: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ كما أن قوله: ﴿يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ﴾ بيان أول له متعلق بقوله: ﴿أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ و أما ما يظهر من بعضهم أنه بيان لقوله: ﴿وَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بما يفيد به حسب المورد، و المعنى: و الله قدير على نصركم و أنتم أذله إذ أنتم نزول بشفير الوادى الأقرب، فلا يخفى بعده و وجه التكلف فيه.

و قوله تعالى: ﴿وَ لَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافِئُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ سياق ما تقدمه من الجمل الكاشفه عن تلاقى الجيشين، و كون الركب أسفل منهم، و أن الله بقدرته التى قهرت كل شىء فرق بين الحق و الباطل، و أيد الحق على الباطل، و كذا قوله بعد: ﴿وَ لَكِنْ

«كل ذلك يشهد على أن المراد بقوله: «وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافِ الْمِعَادِ» بيان أن التلاقي على هذا الوجه لم يكن إلا بمشيئه خاصه من الله سبحانه حيث نزل المشركون و هم ذوو عده و شده بالعدوه القصوى و فيها الماء و الأرض الصلبه، و المؤمنون على قلبه عددهم و هوان أمرهم بالعدوه الدنيا و لا ماء فيها و الأرض رملية لا تثبت تحت أقدامهم، و تخلص العير منهم إذ ضرب أبو سفيان في الساحل أسفل، و تلاقى الفريقان لا حاجز بينهما و لا مناص عندئذ عن الحرب، فالتلاقي و المواجهه على هذا الوجه ثم ظهور المؤمنين على المشركين، لم يكن عن أسباب عاديه بل لمشيئه خاصه إلهيه ظهرت بها قدرته و بانته بها عنايته الخاصه و نصره و تأييده للمؤمنين.

فقوله: «وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافِ الْمِعَادِ» بيان أن هذا التلاقي لم يكن عن سابق قصد و عزيمه، و لا رويه أو مشوره، و لهذا المعنى عقبه بقوله: «وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا» بما فيه من الاستدراك.

و قوله «لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ يُحْيِيَ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ» لتعليل ما قضى به من الأمر المفعول أى إن الله إنما قضى هذا الذى جرى بينكم من التلاقي و المواجهه ثم تأييد المؤمنين و خذلان المشركين ليكون ذلك بينه ظاهره على حقيقه الحق و بطلان الباطل فيهلك من هلك عن بينه و يحيى من حى عن بينه.

و بذلك يظهر أن المراد بالهلاكه و الحياه هو الهدى و الضلال لأن ذلك هو الذى يرتبط به وجود الآيه البينه ظاهرا.

و كذا قوله: «وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ» عطف على قوله: «لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ» إلخ، أى و إن الله إنما قضى ما قضى و فعل ما فعل لأنه سميع يسمع دعاءكم عليم يعلم ما فى صدوركم، و فيه إشاره إلى ما ذكره فى صدر الآيات: «إِذْ تَسْتَعْثِفُونَ رَبَّكُمْ فَاَسْتَجَابَ لَكُمْ» إلى آخر الآيات.

و على هذا السياق- أى لبيان أن مرجع الأمر فى هذه الوقعه هو القضاء الخاص الإلهى دون الأسباب العاديه- سيق قوله تعالى بعد: «إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا» إلخ، و قوله: «وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ» إلخ، و قوله: «إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ» إلخ.

و معنى الآية يوم الفرقان هو الوقت الذى أنتم نزول بالعدوه الدنيا و هم نزول بالعدوه القصوى، و قد توافق نزولكم بها و نزولهم بها بحيث لو تواعدتم بينكم أن تلتقوا بهذا الميعاد لاختلقتم فيه و لم تتلاقوا على هذه الوتيره فلم يكن ذلك منكم و لا منهم و لكن ذلك كان أمرا مفعولا و الله قاضيه و حاكمه، و إنما قضى ما قضى ليظهر آيه بينه فتتم بذلك الحجه، و لأنه قد استجاب بذلك دعوتكم بما سمع من استغاثتكم و علم به من حاجه قلوبكم.

قوله تعالى: «إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَاكِبِكُمْ قَلِيلًا» إلى آخر الآية، الفشل هو الضعف مع الفرع، و التنازع هو الاختلاف و هو من النزاع نوع من القلع كأن المتنازعين ينزع كل منهما الآخر عما هو فيه، و التسليم هو النتيجة.

و الكلام على تقدير اذكر أى اذكر وقتا يريكهم الله فى منامك قليلا، و إنما أراكم قليلا ليربط بذلك قلوبكم و تطمئن نفوسكم و لو أراكم كثيرا ثم ذكرتها للمؤمنين أفزعكم الضعف و اختلفتم فى أمر الخروج إليهم و لكنه تعالى نجاكم بإراءتهم قليلا عن الفشل و التنازع إنه عليم بذات الصدور و هى القلوب يشهد ما يصلح به حال القلوب فى اطمئنانها و ارتباطها و قوتها.

و الآية تدل على أن الله سبحانه أرى نبيه ص رؤيا مبشره رأى فيها ما وعده الله من إحدى الطائفتين أنها لهم و قد أراهم قليلا لا يعبا بشأنهم، و أن النبى ص ذكر ما رآه للمؤمنين و وعدهم وعد تبشير فعزموا على لقائهم. و الدليل على ذلك قوله: «وَلَوْ أَرَأَوْكُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ» إلخ و هو ظاهر.

قوله تعالى: «وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقَاتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَ يُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ». معنى الآية ظاهر، و لا تنافى بين هذه الآية و قوله تعالى: «قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ التَّافَاتُ فَتَاهُ تَقَاتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ أُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأَى الْعَيْنِ وَ اللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ»: آل عمران:- ١٣ بناء على أن الآية تشير إلى وقعه بدر.

و ذلك أن التقليل الذى يشير إليه فى الآية المبحوث عنها مقيد بقوله: «إِذِ التَّقَاتُمْ» و بذلك يرتفع التنافى كأن الله سبحانه أرى المؤمنين قليلا فى أعين المشركين فى بادئ الالتقاء ليستحقروا جمعهم و يشجعهم ذلك على القتال و النزال حتى إذا زحفوا

و اختلطوا، كثر المؤمنين فى أعينهم فأوهم مثليهم رأى العين فأوهم بذلك عزمهم و أطار قلوبهم فكانت الهزيمة فأيه الأنفال تشير إلى أول الوقعه، و آيه آل عمران إلى ما بعد الزحف و الاختلاط و قوله: «لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا» متعلق بقوله: «يُرِيكُمُوهُمْ» و تعليل لمضمونه.

قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِتْنَةً فَاتَّبِعُوا وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» إلى آخر الآيات الثلاث. قال الراغب فى المفردات: الثبات -فتح الثاء- ضد الزوال انتهى فهو فى المورد ضد الفرار من العدو، و هو بحسب ما له من المعنى أعم من الصبر الذى يأمر به فى قوله: «وَ اصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» فالصبر ثبات قبال المكروه بالقلب بأن لا يضعف و لا يفزع و لا يجزع، و بالبدن بأن لا يتكاسل و لا يتساهل و لا يزول عن مكانه و لا يعجل فيما لا يحمد فيه العجل فالصبر ثبات خاص.

و الريح على ما قيل، العز و الدوله، و قد ذكر الراغب أن الريح فى الآيه بمعنى الغلبه استعاره كأن من شأن الريح أن تحرك ما هبت عليه و تقلعه و تذهب به، و الغلبه على العدو يفعل به ما تفعله الريح بالشىء كالتراب فاستعيرت لها.

و قال الراغب: البطر دهش يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمه و قله القيام بحقها و صرفها إلى غير وجهها قال عز و جل: «بَطْرًا وَ رِئَاءَ النَّاسِ» و قال: «بَطْرَتْ مَعِيشَتَهَا» و أصله: بطرت معيشته فصرف عنه الفعل و نصب، و يقارب البطر الطرب، و هو خفه أكثر ما يعتري من الفرح و قد يقال ذلك فى الترح، و البيطره معالجه الدابه.

انتهى. و الرئاء المرءاه.

و قوله: «فَاتَّبِعُوا» أمر بمطلق الثبوت أمام العدو، و عدم الفرار منه فلا يتكرر بالأمر ثانيا بالصبر كما تقدمت الإشارة إليه.

قوله: «وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا» أى فى جنانكم و لسانكم فكل ذلك ذكر، و من المعلوم أن الأحوال القلبيه الباطنه من الإنسان هى التى تميز مقاصده و تشخصها سواء وافقها اللفظ كالفقير المستغيث بالله من فقره و هو يقول: يا غنى و المريض المستغيث به من مرضه و هو يقول: يا شافى و لو قال الفقير فى ذلك: يا الله أو قال المريض فيه ذلك لكان معناه: يا غنى و يا شافى لأنهما بمقتضى الحال الباعث لهما على الاستغاثه

و الدعوة لا يريدان إلا ذلك كما هو ظاهر.

و الذى يخرج إلى قتال عدوه، ثم لقيه و استعد الظفر للقتال، و ليس فيه إلا زهاق النفوس، و سفك الدماء و نقص الأطراف و كل ما يهدد الإنسان بالفناء فى ما يحبه فإن حاله يحول فكرته و يصرف إرادته إلى الظفر بما يريده بالقتال، و الغلبه على العدو الذى يهدده بالفناء، و الذى حاله هذا الحال و تفكيره هذا التفكير إنما يذكر الله سبحانه بما يناسب حاله و تنصرف إليه فكرته.

و هذا أقوى قرينه على أن المراد بذكر الله كثيرا أن يذكر المؤمن ما علمه تعالى من المعارف المرتبطه بهذا الشأن و هو أنه تعالى إلهه و ربه الذى بيده الموت و الحياه و هو على نصره لقيده، و أنه هو مولاه نعم المولى و نعم النصير، و قد وعده النصر إذ قال: **إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**، و **إِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** و إن مآل أمره فى قتاله إلى إحدى الحسنين إما الظفر على عدوه و رفع رايه الإسلام و إخلاص الجو لسعادته الدينيه، و إما القتل فى سبيل الله و الانتقال بالشهاده إلى رحمته، و الدخول فى حظيره كرامته، و مجاوره المقربين من أوليائه، و ما فى هذا الصف من المعارف الحقيقه التى تدعو إلى السعاده الواقعيه و الكرامه السرمديه.

و قد قيد الذكر بالكثير لتجدد به روح التقوى كلما لاح للإنسان ما يصرف نفسه إلى حب الحياه الفانيه و التمتع بزخارف الدنيا الغاره و الخطورات النفسانيه التى يلقيها الشيطان بتسويله.

و قوله: **«وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ»** ظاهر السياق أن المراد بها إطاعه ما صدر من ناحيته تعالى و ناحيه رسوله من التكاليف و الدساتير المتعلقة بالجهاد و الدفاع عن حومه الدين و بيضه الإسلام مما تشتمل عليه آيات الجهاد و السنه النبويه كالاتداء بإتمام الحججه و عدم التعرض للنساء و الذرارى و الكف عن تبئيت العدو و غير ذلك من أحكام الجهاد.

و قوله: **«وَ لَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذَهَبَ رِيحُكُمْ»** أى و لا تختلفوا بالنزاع فيما بينكم حتى يورث ذلكم ضعف إرادتكم و ذهاب عزتكم و دولتكم أو غلبتكم فإن اختلاف الآراء يخل بالوحده و يوهن القوه.

و قوله: **«وَ اصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ»** أى الزموا الصبر على ما يصيبكم

من مكاره القتال مما يهددكم به العدو، و على الإكثار من ذكر الله، و على طاعه الله و رسوله من غير أن يهزهزكم الحوادث أو يزجركم ثقل الطاعه أو تغويكم لذه المعصيه أو يضلكم عجب النفس و خيلاؤها.

و قد أكد الأمر بالصبر بقوله: «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» لأن الصبر أقوى عون على الشدائد و أشد ركن تجاه التلون فى العزم و سرعه التحول فى الإراده، و هو الذى يخلى بين الإنسان و بين التفكير الصحيح المطمئن حيث يهجم عليه الخواطر المشوشه و الأفكار الموهنه لإرادته عند الأهوال و المصائب من كل جانب فالله سبحانه مع الصابرين.

و قوله: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ» الآية نهى عن اتخاذ طريقه هؤلاء البطرين المرائين الصادين عن سبيل الله، و هم على ما يفيد سيق الكلام فى الآيات، كفار قريش، و ما ذكره من أوصافهم أعنى البطر و رياء الناس و الصد عن سبيل الله هو الذى أوجب النهى عن التشبه بهم و اتخاذ طريقتهم بدلاله السياق، و قوله: «وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ» ينبئ عن إحاطته تعالى بأعمالهم و سلطنته عليها و ملكه لها، و من المعلوم أن لازم ذلك كون أعمالهم داخله فى قضائه متمشيه بإذنه و مشيته و ما هذا شأنه لا يكون مما يعجز الله سبحانه فالجملة كالكنايه عما يصرح به بعد عدة آيات بقوله: «وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ» الأنفال: ٥٩.

و ظاهر أن أخذ هذه القيود أعنى قوله: «بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ» يوجب تعلق النهى بها و التقدير: و لا تخرجوا من دياركم إلى قتل أعداء الدين بطرين و مرائين بالتجملات الدنيويه، و صد الناس عن سبيل الله بدعوتهم بأقوالكم و أفعالكم إلى ترك تقوى الله و التوغل فى معاصيه و الانخلاع عن طاعه أو امره و دساتيره فإن ذلك يحبط أعمالكم و يطفى نور الإيمان و يبطل أثره عن جمعكم فلا طريق إلى نجاح السعى و الفوز بالمقاصد الهامه إلا سوى الصراط الذى يمهده الدين القويم و تسهله المله الفطريه و الله لا يهدى القوم الفاسقين إلى مقاصدهم الفاسده.

و قد اشتملت الآيات الثلاث على أمور سته أوجب الله سبحانه على المؤمنين رعايتها فى الحروب الإسلاميه عند اللقاء و هى الثبات، و ذكر الله كثيرا، و طاعه الله و رسوله، و عدم التنازع، و أن لا يخرجوا بطرا و رياء الناس و يصدون عن سبيل الله.

و مجموع الأمور الستة دستور حربى جامع لا يفقد من مهام الدستورات الحرييه

شيئا، والتأمل الدقيق فى تفاصيل الوقائع فى تاريخ الحروب الإسلاميه الواقعه فى زمن النبى ص كيدر و أحد و الخندق و حين و غير ذلك يوضح أن الأمر فى الغلبه و الهزيمه كان يدور مدار رعايه المسلمين مواد هذا الدستور الإلهى و عدم رعايتها، و مراقبه لها و المساهله فيها.

قوله تعالى: «وَ إِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَ قَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ» إلى آخر الآيه، تزيين الشيطان للإنسان عمله هو إلقاءه فى قلبه كون العمل حسنا جميلا يستلذ به و ذلك بتهييج قواه الباطنه و عواطفه الداخله المتعلقه بذلك العمل فينجذب إليه قلبه، و لا يجد فراغا يعقل ما له من سوء الأثر و شؤم العاقبه.

و ليس من البعيد أن يكون قوله: «وَ قَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ» الآيه مفسرا أو بمنزله المفسر للتزيين الشيطانى على أن يكون المراد بالأعمال نتائجها و هى ما هيئوه من قوه و سلاح و عدده و ما أخرجوه من القيان و المعازف و الخمور، و ما تظاهروا به من نظام الجيش و الجنائب تساق بين أيديهم، و يمكن أن يكون المراد بها نفس الأعمال و هى أنواع تماديهم فى الغى و الضلال و إصرارهم فى محاده الله و رسوله، و استرسالهم فى الظلم و الفسق فيكون قوله المحكى: «لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ» مما يتم به تزيين الشيطان، و تطيب به نفوسهم فيما اهتموا به من قتال المسلمين، و قد أكمل ذلك بقوله: «وَ إِنِّي جَارٌ لَكُمْ».

و الجوار من سنن العرب فى الجاهليه التى كانت تعيش عيشه القبائل، و من حقوق الجوار نصره الجار للجار إذا دهمه عدو، و له آثار مختلفه بحسب السنن الجاريه فى المجتمعات الإنسانيه.

و قوله: «فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئْتَانِ نَكَصَ عَلَيَّ عَقْبِيهِ» النكوص الإحجام عن الشىء و «عَلَيَّ عَقْبِيهِ» حال و العقب مؤخر القدم أى أحجم و قد رجع القهقرى منهزما وراءه.

و قوله: «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ» الآيه تعليل لقوله: «إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ» و لعله إشاره إلى نزول الملائكه المردفين الذين نصر الله المسلمين بهم، و كذا قوله: «إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ» تعليل لقوله: «إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ» و مفسر للتعليل السابق.

و المعنى و يوم الفرقان هو الوقت الذى زين الشيطان للمشركين ما كانوا يعملونه لمحاده الله و رسوله و قتال المؤمنين، و يتلبسون به للتهيؤ على إطفاء نور الله، فزين ذلك

فى أنظارهم، و طيب نفوسهم بقوله: لا- غالب لكم اليوم من الناس، و إنى مجير لكم أذب عنكم فلما تراءت الفئتان فرأى المشركون المؤمنين و المؤمنون المشركين رجح الشيطان القهقرى منهزما وراءه و قال للمشركين إنى برىء منكم إنى أرى ما لا ترونه من نزول ملائكة النصر للمؤمنين و ما عندهم من العذاب الذى يهددكم إنى أخاف عذاب الله و الله شديد العقاب.

و هذا المعنى- كما ترى- يقبل الانطباق على وسوسه الشيطان لهم فى قلوبهم و تهيجهم على المؤمنين و تشجيعهم على قتالهم و تطيب نفوسهم بما استعدوا به حتى إذا تراءت الفئتان و نزل النصر و استولى الرعب على قلوبهم انتكست أوهامهم و تبدلت أفكارهم و عادت مزعمه الغلبه و أمنيته الفتح و الظفر مخافه مستولىه على نفوسهم و خيبه و ياسا شامله لقلوبهم.

و يقبل الانطباق على تصور شيطانى يبدو لهم فتنجذب إليه حواسهم بأن يكون قد تصور لهم فى صورته إنسان و يقول لهم ما حكاه الله من قوله: «لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَ إِنِّي جَارٌ لَكُمْ» فيغويهم و يسيرهم و يقربهم من القتال حتى إذا تقاربت الفئتان و تراءتا فلما تراءت الفئتان و رأى الوضع على خلاف ما كان يؤمله و يطمع فيه نكص على عقبيه و قال: إنى برىء منكم إنى أرى ما لا ترون من نزول النصر و الملائكة إنى أخاف الله و الله شديد العقاب، و قد ورد فى روايات القصة من طرق الشيعة و أهل السنه ما يؤيد هذا الوجه.

و هو أن الشيطان تصور للمشركين فى صورته سراقه بن مالك بن جشعم الكنانى ثم المدلجى و كان من أشرف كنانه و قال لهم ما قال و حمل رايتهم حتى إذا تلاقى الفريقان فر منهزما و هو يقول: «إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ» إلى آخر ما حكاه الله تعالى، و ستجىء الروايه فى البحث الروائى التالى إن شاء الله تعالى.

و قد أصر بعض المفسرين على الوجه الأول، و رد الثانى بتزييف الآثار المرويه و تضعيف أسناد الأخبار، و هى و إن لم تكن متواتره و لا محفوفه ببعض القرائن القطعيه الموجهه للوثوق التام لكن أصل المعنى ليس من المستحيل الذى يدفعه العقل السليم، و لا من القصص التى تدفعها آثار صحيحه، و لا مانع من أن يتمثل لهم الشيطان فيوردهم مورد الضلال و الغى حتى إذا تم له ما أراد تركهم فى تهلكتهم أو حتى شاهد

عذابا إليها نكص على عقبيه هاربا.

على أن سياق الآيه الكريمه أقرب إلى إفاده هذا الوجه الثانى منه إلى الوجه الأول، و خاصه بالنظر إلى قوله: «وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ» و قوله: «فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ» و قوله: «إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ» الآيه فإن إرجاع معنى قوله:

«إِنِّي أَرَىٰ» إلخ مثلا إلى الخواطر النفسانيه بنوع من العناية الاستعاريه بعيد جدا.

قوله تعالى: «إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ» إلى آخر الآيه، أى يقول المنافقون و هم الذين أظهروا الإيمان و أبطنوا الكفر، و الذين فى قلوبهم مرض و هم الضعفاء فى الإيمان ممن لا يخلو نفسه من الشك و الارتياب. يقولون -مشيرين إلى المؤمنين إشارة تحقير و استدلال-: غر هؤلاء دينهم إذ لو لا غرور دينهم لم يقدموا على هذه المهلكه الظاهره، و هم شرذمه أذلاء لا عد لهم و لا عد، و قریش على ما بهم من العده و القوه و الشوكه.

قوله تعالى: «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» فى مقام الجواب عن قولهم و إبانة غرورهم أنفسهم؛ و قوله: «فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» من وضع السبب موضع المسبب، و المعنى: و قد أخطأ هؤلاء المنافقون و الذين فى قلوبهم مرض فى قولهم فإن المؤمنين توكلوا على الله و نسبوا حقيقه التأثير إليه و ضموا أنفسهم إلى قوته و حوله، و من يتوكل أمره على الله فإن الله يكفيه لأنه عزيز ينصر من استنصره حكيم لا يخطئ فى وضع كل أمر موضعه الذى يليق به.

و فى الآيه دليل على حضور جمع من المنافقين و ضعفاء الإيمان بدر حين تلاقى الفئتين.

أما المنافقون و هم الذين كانوا يظهرون الإسلام و يبطنون الكفر فلا معنى لكونهم بين المشركين فلم يكونوا إلا بين المسلمين لكن الشأن فى العامل الذى أوجب منهم الثبات و اليوم يوم شديد.

و أما الضعفاء الإيمان أو الشاكون فى حقيقه الإسلام فمن الممكن أن يكونوا بين المؤمنين أو فى فئه المشركين و قد قيل إنهم كانوا فئه من قریش أسلموا بمكه و احتبسهم آباؤهم و اضطروا إلى الخروج مع المشركين إلى بدر حتى إذا حضروها و شاهدوا ما عليه المسلمون من القله و الذله قالوا: مساكين هؤلاء غرهم دينهم،

و سيجيء في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى.

و على أى حال ينبغي إمعان النظر فى البحث عما تفيد هذه الآيه من حضور جمع من المنافقين و الذين فى قلوبهم مرض يوم بدر عند القتال، و استخراج حقيقه السبب الذى أوجب لهؤلاء المنافقين و الضعفاء حضور هذه الغزوه، و الوقوف فى ذلك الموقف الصعب الهائل الذى لا يساعد عليه الأسباب العاديه و لا يقف فيه إلا رجال الحقيقه الذين امتحن الله قلوبهم للإيمان. و أنهم لما ذا حضروها؟ و كيف و لما ذا صبروا مع الصابرين من فئه الإسلام؟ و لعلنا نوفق لبعض البحث فى ذلك فيما سيوافى من آيات سوره التوبه فى شأن المنافقين و الذين فى قلوبهم مرض إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: «وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ» إلى تمام الآيتين.

التوفى أخذ الحق بتمامه، و يستعمل فى كلامه تعالى كثيرا بمعنى قبض الروح، و نسبه قبض أرواحهم إلى الملائكه مع ما فى بعض الآيات من نسبه إلى ملك الموت، و فى بعض آخر إلى الله سبحانه كقوله: «قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ:» الم السجده: ١١-، و قوله: «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا:» الزمر: ٤٢ دليل على أن لملك الموت أعوانا يتولون قبض الأرواح هم بمنزله الأيدى العماله له يصدرون عن إذنه و يعملون عن أمره، كما أنه يصدر عن إذن من الله و يعمل عن أمر منه، و بذلك يصح نسبه التوفى إلى الملائكه الأعوان، و إلى ملك الموت، و إلى الله سبحانه.

و قوله: «يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبَارَهُمْ» ظاهره أنهم يضربون مقاديم أبدانهم و خلاف ذلك فيكنى به عن إحاطتهم و استيعاب جهاتهم بالضرب، و قيل: إن الأدبار كناية عن الأستاه فبالمناسبه يكون المراد بوجوههم مقدم رءوسهم، و ضرب الوجوه و الأدبار بهذا المعنى يراد به الإزراء و الإذلال.

و قوله: «وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ» أى يقول لهم الملائكه: ذوقوا عذاب الحريق و هو النار.

و قوله: «ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ» تتمه لقولهم المحكى أو إشاره إلى مجموع ما يفعل بهم و ما يقول لهم الملائكه، و المعنى إنما نذيقكم عذاب الحريق بما قدمت أيديكم أو: نضرب وجوهكم و أدباركم و نذيقكم عذاب الحريق بما قدمت أيديكم.

وقوله: « وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ » معطوف على موضع قوله « بِمَا قَدَّمْتُمْ » أى و ذلك بأن الله ليس بظلام للعبيد أى لا يظلم أحدا من عباده فإنه تعالى على صراط مستقيم لا تخلف و لا اختلاف فى فعله فلو ظلم أحدا لظلم كل أحد، و لو كان ظالما لكان ظلما للعبيد فافهم ذلك.

و سياق الآيات يشهد على أن المراد بهؤلاء الذين يصفهم الله سبحانه بأن الملائكة يتوفاهم و يعذبهم هم المقتولون ببدر من مشركي قريش.

قوله تعالى: « كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ » إلى آخر الآيه. الدأب و الديدن: العاده و هى العمل الذى يدوم و يجرى عليه الإنسان، و الطريقه التى يسلكها، و المعنى كفر هؤلاء يشبه كفر آل فرعون و الذين من قبلهم من الأمم الخاليه الكافره كفروا بآيات الله و أذنبوا بذلك فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوى لا يضعف عن أخذهم شديد العقاب إذا أخذ.

قوله تعالى: « ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » إلخ أى إن العقاب الذى يعاقب به الله سبحانه إنما يعقب نعمه إلهيه سابقه بسلبها و استخلافها، و لا تزول نعمه من النعم الإلهيه و لا تتبدل نغمه و عقابا إلا مع تبدل محله و هو النفوس الإنسانيه، فالنعمه التى أنعم بها على قوم إنما أفيضت عليهم لما استعدوا لها فى أنفسهم، و لا يسلبونها و لا تتبدل بهم نغمه و عقابا إلا لتغييرهم ما بأنفسهم من الاستعداد و ملاك الإفاضه و تلبسهم باستعداد العقاب.

و هذا ضابط كلّى فى تبدل النعمه إلى النغمه و العقاب، و أجمع منه قوله تعالى:

« إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » الرعد: - ١١ و إن كان ظاهره أظهر انطباقا على تبدل النعمه إلى النغمه.

و كيف كان فقوله: « ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا » إلخ من قبيل التعليل بأمر عام و تطبيقه على مورد الخاص أى أخذ مشركي قريش بذنوبهم، و عقابهم بهذا العقاب الشديد، و تبدل نعمه الله عليهم عقابا شديدا إنما هو فرع من فروع سنه جاريه إلهيه هى أن الله لا يغير نعمه أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

و قوله: « وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » تعليل آخر بعد التعليل بقوله: « ذَلِكَ بِأَنَّ »

«إلخ و ظاهره-بمقتضى إشعار السياق-أن المراد به:و ذلك بأن الله سمع لدعواتكم عليهم بحاجاتكم سمع استغاثتكم و علم بحاجتكم فاستجاب لكم فعذب أعداءكم الكافرين بآيات الله،و يحتمل أن يكون المراد:ذلك بأن الله سمع لأقوالهم عليهم بأفعالهم فعذبهم على ذلك،و يمكن الجمع بين المحتملين.

قوله تعالى: «كَدَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَا هُم بِذُنُوبِهِمْ» إلخ كرر التنظير السابق لمشابهة الفرض مع ما تقدم فقوله: «كَدَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ» إلخ السابق تنظير لقوله: «ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ» كما أن قوله: «كَدَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ»-إلى قوله- وَ كُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ» ثانيا تنظير لقوله: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعْتَبَرًا نِعْمَةً» إلخ.

غير أن التنظير الثانى يشتمل على نوع من الالتفات فى قوله: «فَأَهْلَكْنَا هُم بِذُنُوبِهِمْ» و قد وقع بحذائه فى التنظير الأول: «فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ» من غير التفات و لعل الوجه فيه أن التنظير الثانى لما كان مسبوqa بإفاده أن الله هو المفيض بالنعم على عباده و لا يغيرها إلا عن تغييرهم ما بأنفسهم،و هذا شأن الرب بالنسبه إلى عبيده اقتضى ذلك أن يعد هؤلاء عبيدا غير جارين على صراط عبوديه ربهم و لذلك غير بعض سياق التنظير فقال فى الثانى: «كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ» و قد كان بحذائه فى الأول قوله: «كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ» و لذلك التفت هاهنا من الغيبه إلى التكلم مع الغير فقال: «فَأَهْلَكْنَا هُم بِذُنُوبِهِمْ» للدلاله على أنه سبحانه هو ربهم و هو مهلكهم،و قد أخذ المتكلم مع الغير للدلاله على عظمه الشأن و جلاله المقام،و أن له وسائل يعملون بأمره و يجرون بمشيته.

و قوله: «وَ أَعْرَفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ» أظهر المفعول و لم يقل:و أغرقناهم ليؤمن من الالتباس برجوع الضمير إلى آل فرعون و الذين من قبلهم جميعا.

و قوله تعالى: «وَ كُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ» أى جميع هؤلاء الذين أخذهم العذاب الإلهى من كفار قريش و آل فرعون و الذين من قبلهم كانوا ظالمين فى جنب الله.

و فيه بيان أن الله سبحانه لا يأخذ بعقابه الشديد أحدا،و لا يبدل نعمته على أحد نقمه إلا إذا كان ظلما ظلما يبدل نعمه الله كفرا بآياته فهو لا يعذب بعذابه إلا مستحقه.

فى الكافى، عن على بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبى عمير عن الحسين بن عثمان عن سماعه قال: سألت أبا الحسن (ع) عن الخمس فقال: فى كل ما أفاد الناس من قليل أو كثير.

وفيه، عن على بن إبراهيم عن أبيه عن حماد بن عيسى عن بعض أصحابنا عن العبد الصالح قال: الخمس فى خمسة أشياء: من الغنائم والغوص و من الكنوز و من المعادن و الملاحه- يؤخذ من كل هذه الصنوف الخمس- فيجعل لمن جعل الله له، و يقسم أربعة أخماس بين من قاتل عليه و ولى ذلك.

و يقسم بينهم الخمس على ستة أسهم: سهم لله، و سهم لرسوله، و سهم لذى القربى- و سهم لليتامى، و سهم للمساكين، و سهم لأبناء السبيل- فسهم الله و سهم رسوله لأولى الأمر من بعد رسول الله وراثه- فله ثلاثة أسهم: سهمان وراثه، و سهم مقسوم له من الله فله نصف الخمس كلاً، و نصف الخمس الثانى بين أهل بيته: فسهم ليتاماهم، و سهم لمساكينهم، و سهم لأبناء سبيلهم يقسم بينهم على الكتاب و السنه- ما يستغنون به فى سنتهم- فإن فضل منهم شىء فهو للوالى، و إن عجز أو نقص عن استغنائهم كان على الوالى أن ينفق من عنده ما يستغنون به، و إنما صار عليه أن يمونهم لأن له ما فضل عنهم، و إنما جعل الله هذا الخمس خاصه لهم- دون مساكين الناس و أبناء سبيلهم- عوضاً لهم عن صدقات الناس تنزيهاً من الله- لقرابتهم من رسول الله ص- و كرامه من الله لهم من أوساخ الناس- فجعل لهم خاصه من عنده و ما يغنيهم به، أن يصيرهم فى موضع الذل و المسكنه، و لا بأس بصدقه بعضهم على بعض-.

و هؤلاء الذين جعل الله لهم الخمس- هم قرابه النبى ص الذين ذكرهم الله فقال: «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» و هم بنو عبد المطلب أنفسهم الذكر منهم و الأئمة- ليس فيهم من أهل بيوتات قريش و لا- من العرب أحد، و لا- فيهم و لا- منهم فى هذا الخمس من مواليتهم، و قد تحل صدقات الناس لمواليهم، و هم و الناس سواء.

و من كانت أمه من بنى هاشم و أبوه من سائر قريش- فإن الصدقات تحل له، و ليس له من الخمس شىء لأن الله يقول، «أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ».

و فى التهذيب، بإسناده عن على بن مهزيار قال: قال لى على بن راشد: قلت له: أمرتنى بالقيام بأمرك و أخذ حقك - فأعلمت مواليك بذلك - فقال لى بعضهم: و أى شىء حقه؟ فلم أدر ما أجيبه! فقال: يجب عليهم الخمس فقلت: فى أى شىء؟ فقال: فى أمتعتهم و ضياعهم - قلت: و التاجر عليه و الصانع بيده؟ فقال: ذلك إذا أمكنهم بعد مؤنتهم.

□
و فيه، بإسناده عن زكريا بن مالك الجعفى عن أبى عبد الله (ع): أنه سئل عن قول الله: «وَ اعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبَىٰ وَ الْيَتَامَىٰ وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ» فقال: خمس الله عز و جل للإمام، و خمس الرسول للإمام، و خمس ذى القربى لقرابه الرسول للإمام، و اليتامى يتامى آل الرسول، و المساكين منهم، و أبناء السبيل منهم فلا يخرج منهم إلى غيرهم.

و فيه، بإسناده عن أحمد بن محمد بن أبى نصر عن أبى عبد الله (ع) قال: قال له إبراهيم بن أبى البلاد: و جب عليك زكاه؟ قال: لا و لكن يفضل و يعطى هكذا، و سئل عن قول الله عز و جل: «وَ اعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبَىٰ» فقيل له: فما كان لله فلمن هو؟ قال: للرسول، و ما كان للرسول فهو للإمام. قيل: أ فرأيت إن كان صنف أكثر من صنف، و صنف أقل من صنف؟ فقال: ذلك للإمام. قيل: أ فرأيت رسول الله ص كيف يصنع؟ قال: إنما كان يعطى على ما يرى هو، و كذلك الإمام.

أقول: و الأخبار عن أئمة أهل البيت (ع) متواتره فى اختصاص الخمس بالله و رسوله و الإمام من أهل بيته و يتامى قرابته و مساكينهم و أبناء سبيلهم لا يتعداهم إلى غيرهم، و أنه يقسم ستة أسهم على ما مر فى الروايات، و أنه لا يختص بغنائم الحرب بل يعم كل ما كان يسمى غنيمه لغه من أرباح المكاسب و الكنوز و الغوص و المعادن و الملاحه، و فى رواياتهم - كما تقدم - أن ذلك موهبه من الله لأهل البيت بما حرم عليهم الزكوات و الصدقات.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن أبى شيبه و ابن المنذر من وجه آخر عن ابن عباس رضى الله عنهما: " أن نجده الحرورى أرسل يسأله عن سهم ذى القربى - الذين ذكر الله فكتب إليه: أنا كنا نرى أنا هم فأبى ذلك علينا قومنا، و قالوا: و يقول لمن تراه؟ فقال ابن عباس رضى الله عنهما: هو لقربى رسول الله ص - قسمه لهم رسول الله ص -.

و قد كان عمر (رض) عرض علينا من ذلك عرضا - رأينا دون حقا فرددناه عليه و أينا أن نقبله. و كان عرض عليهم أن يعيننا ناكلهم، و أن يقضى عن غارمهم، و أن يعطى فقيرهم، و أبى أن يزيدهم على ذلك.

أقول: و قوله فى الرواية: «قالوا لمن تراه» معناه: قال الذين أرسلهم نجده الحرورى لابن عباس: و يقول نجده لمن ترى الخمس أى يسألك عن فتواك فىمن يصرف إليه الخمس.

و قوله: هو لقربى رسول الله قسمها لهم «إلخ» ظاهره أنه فسر ذى القربى بأقرباء النبى ص، و ظاهر الروايات السابقة عن أئمة أهل البيت (ع) أنهم فسروا ذى القربى بالإمام من أهل البيت، و ظاهر الآيه يؤيد ذلك حيث عبر بلفظ المفرد!

و فيه، أخرج ابن المنذر عن عبد الرحمن بن أبى لى قال: سألت عليا رضى الله عنه فقلت: يا أمير المؤمنين - أخبرنى كيف كان صنع أبى بكر - و عمر رضى الله عنهما فى الخمس نصيبكم؟ فقال: أما أبو بكر (رض) فلم يكن فى ولايته أخماس، و أما عمر (رض) فلم يزل يدفعه إلى فى كل خمس - حتى كان خمس السوس و جنديسابور - فقال و أنا عنده، هذا نصيبكم أهل البيت من الخمس - و قد أحل ببعض المسلمين و اشتدت حاجتهم.

فقلت، نعم، فوثب العباس بن عبد المطلب فقال، لا - تعرض فى الذى لنا. فقلت؛ ألسنا من أرفق المسلمين، و شفيع أمير المؤمنين، فقبضه - فوالله ما قبضناه و لا قدرت عليه فى ولايه عثمان رضى الله عنه -.

ثم أنشأ على رضى الله عنه يحدث فقال: إن الله حرم الصدقه على رسوله (ص) فعوضه سهما من الخمس عوضا مما حرم عليه، و حرمها على أهل بيته خاصة دون أئمة - فضرب لهم مع رسول الله (ص) سهما - عوضا مما حرم عليهم.

و فيه، أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله (ص):

رغبت لكم عن غسله الأيدي - لأن لكم فى خمس الخمس ما يغنيكم أو يكفيكم.

أقول: و هو مبنى على كون سهم أهل البيت هو ما لذى القربى فحسب.

و فيه، أخرج ابن أبى شيبه عن جبير بن مطعم رضى الله عنه قال: قسم رسول الله (ص) سهم ذى القربى على بنى هاشم و بنى المطلب. قال: فمشيت أنا و عثمان بن

عفان حتى دخلنا عليه-فقلنا:يا رسول الله هؤلاء إخوانك من بنى هاشم-لا ينكر فضلهم-لمكانك الذى وضعك الله به منهم.أ رأيت إخواننا من بنى المطلب أعطيتهم دوننا،و إنما نحن و هم بمنزله واحده فى النسب؟فقال:إنهم لم يفارقونا فى الجاهليه و الإسلام.

وفيه،أخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال:" آل محمد الذين أعطوا الخمس:آل على و آل عباس و آل جعفر و آل عقيل.

أقول: و الروايات فى هذا الباب كثيره من طرق أهل السنه و قد اختلفت الروايات الحاكيه لعمل النبى ص من طرقهم بين ما مضمونه أنه(ص)كان يقسم الخمس على أربعة أسهم و بين ما مضمونه التقسيم على خمس أسهم.

غير أنه يقرب من المسلم فيها أن من سهام الخمس ما يختص بقرابه النبى ص و هم المعنيون بذى القربى فى آيه الخمس على خلاف ما فى الروايات المرويه عن أئمه أهل البيت((ع)).

و مما يقرب من المسلم فيها أن النبى ص كان يقسمه بين المطلبيين ما دام حيا، و أنه انقطع عنهم على هذا الوصف فى زمن الخلفاء الثلاث ثم جرى على ذلك الأمر بعدهم.

و من المسلم فيها أيضا أن الخمس يختص بغنائم الحرب-على خلاف ما عليه الروايات من طرق أئمه أهل البيت((ع))و لا يتعداها إلى كل ما يصدق عليه اسم الغنيمه لغه.

و ما يتعلق بالآيه من محصل البحث التفسيري هو الذى قدمناه و هناك أبحاث آخر كلاميه أو فقهيه خارجه عن غرضنا.و هناك بحث حقوقى اجتماعى فى ما يؤثره الخمس من الأثر فى المجتمع الإسلامى سيوافيك فى ضمن الكلام على الزكاه.

بقى الكلام فيما تتضمنه الروايات أن الله سبحانه أراد بتشريع الخمس إكرام أهل بيت النبى ص و أسرته و ترفيعهم من أن يأخذوا أوساخ الناس فى أموالهم، و الظاهر أن ذلك مأخوذ من قوله تعالى فى آيه الزكاه خطابا لنبيه(ص):« خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صِدْقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِهَا وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صِدْقَ لَاتِكَ سَكَنٌ لَهُمْ:» التوبه:- ١٠٣ فإن التطهير و التزكيه إنما يتعلق بما لا يخلو من دنس و وسخ و نحوهما و لم يقع فى آيه الخمس ما يشعر بذلك.

و فى الدر المنثور،أخرج عبد الرزاق و ابن جرير عن عروه بن الزبير(رض)قال:"

أمر رسول الله(ص)بالقتل فى آى من القرآن-فكان أول مشهد شهده رسول الله(ص)

بدرا، و كان رئيس المشركين يومئذ عتبه بن ربيعه بن عبد شمس -فالتقوا يوم الجمعة بدر- لسبع أو ست عشره ليله مضت من رمضان، و أصحاب رسول الله ص ثلاثمائة و بضعه عشر رجلا، و المشركون بين الألف و التسعمائة، و كان ذلك يوم الفرقان يوم فرق الله بين الحق و الباطل -فكان أول قتيل قتل يومئذ مهجع- مولى عمرو رجل من الأنصار، و هزم الله يومئذ المشركين -فقتل منهم زياده على سبعين رجلا، و أسر منهم مثل ذلك.

و فيه، أخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال: " كانت ليله الفرقان يوم التقى الجمعان فى صبيحتها -ليله الجمعة لسبع عشره مضت من رمضان.

أقول: و روى مثل ذلك عن ابن جرير عن الحسن بن علي و عن ابن أبي شيبه عن جعفر عن أبيه، و أيضا عنه عن أبي بكر عن عبد الرحمن بن هشام و عنه عن عامر بن ربيعه البدرى: " مثله لكن فيه، كان يوم بدر يوم الإثنين لسبع عشره من رمضان.

و ربما أطلق فى بعض أخبار أئمه أهل البيت (ع) على التسعه عشر من رمضان يوم يلتقى الجمعان لما عد ليلته فى أخبارهم من ليله القدر، و هذا معنى آخر غير ما أريد فى الآية من «يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ»

ففى تفسير العياشى، عن إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله (ع) قال: فى تسعه عشر من شهر رمضان يلتقى الجمعان. قلت: ما معنى قوله: يلتقى الجمعان؟ قال: يجتمع فيها ما يريد -من تقديمه و تأخيره و إرادته و قضائه.

و فى تفسير العياشى، عن محمد بن يحيى عن أبي عبد الله (ع): فى قوله: «و الركب أسفل منكم» قال: أبو سفيان و أصحابه.

و فى تفسير القمى، " فى قوله تعالى: «لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ يُحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ» الآية -قال: قال: يعلم من بقى أن الله نصره.

و فى الدر المنثور، " فى قوله تعالى: «وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَاقُتُمْ» الآية: " أخرج ابن أبي شيبه و ابن جرير و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: "

لقد قللوا فى أعيننا يوم بدر -حتى قلت لرجل إلى جنبى: تراهم سبعين؟ قال: لا بل مائه.

و فيه، فى قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ» إلخ: أخرج الحاكم و صححه عن أبي موسى رضى الله عنه: أن رسول الله ص كان يكره الصوت عند القتال.

وفيه، أخرج ابن أبي شيبة عن النعمان بن مقرن رضى الله عنه قال: كان رسول الله ص إذا كان عند القتال لم يقاتل أول النهار، وأخره إلى أن تزول الشمس - و تهب الرياح و تنزل النصر.

و فى تفسير البرهان، "فى قوله تعالى: «وَ إِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ» الآية: "بإسناده عن يحيى بن الحسن بن فرات قال: حدثنا أبو المقدم ثعلبه بن زيد الأنصارى قال: سمعت جابر بن عبد الله بن حرام الأنصارى رحمه الله يقول: "تمثل إبليس فى أربع صور:

تمثل يوم بدر فى صورته سراقه بن مالك بن جشم المدلجى - فقال لقريش: لا غالب لكم اليوم من الناس - و إنى جار لكم فلما تراءت الفتان نكص على عقبيه - و قال إنى برىء منكم -.

و تصور يوم العقبة فى صورته منبه بن الحجاج - فنادى: أن محمدا و الصباه معه عند العقبة فأدركوهم. قال رسول الله ص للأَنْصار: لا تخافوا فإن صوته لن يعدوه -.

و تصور فى يوم اجتماع قريش فى دار الندوة - فى صورته شيخ من أهل نجد و أشار عليهم فى أمرهم - فأنزل الله تعالى: «وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا - لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ - وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ -.

و تصور فى يوم قبض رسول الله ص فى صورته المغيرة بن شعبه - فقال: أيها الناس لا تجعلوا كسروانيه و لا قيصرانيه - وسعوها تتسع فلا تردوا إلى بنى هاشم فينظر بها الجبالى.

و فى المجمع، قيل: "إنهم لما التقوا كان إبليس فى صف المشركين - أخذ بيده الحارث بن هشام فنكص على عقبيه - فقال له الحارث بن هشام: يا سراقه إلى أين؟ أ تخذلنا فى هذه الحالة؟ فقال: إنى أرى ما لا ترون، فقال: و الله ما نرى إلا جعاميس يثرب - فدفع فى صدر الحارث و انطلق و انهزم الناس -.

و فلما قدموا مكة قالوا: هزم الناس سراقه - فبلغ ذلك سراقه فقال: و الله ما شعرت بمسيركم حتى بلغنى هزيمتكم - فقالوا: إنك أتيتنا يوم كذا فحلف لهم - فلما أسلموا علموا أن ذلك كان الشيطان. قال: و روى ذلك عن أبى جعفر و أبى عبد الله (ع) .

أقول: وروى مثله ابن شهر آشوب عنهما (ع)، وفي معنى هاتين الروايتين روايات كثيرة من طرق أهل السنه عن ابن عباس وغيره.

وقد مر في البيان المتقدم استبعاد بعض المفسرين ذلك وتضعيفه ما ورد فيه من الروايات، وهي إنما تثبت أمرا ممكنا غير مستحيل، والاستبعاد الخالي لا يبنى عليه في الأبحاث العلميه، والتمثلات البرزخيه ليست بشاذه نادره فلا موجب للإصرار على النفي كما أن الإثبات كذلك غير أن ظاهر الآيه أوفق للإثبات.

وفي الدر المنثور، "في قوله تعالى: «وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ» الآيتين - أخرج ابن أبي حاتم عن ابن إسحاق في قوله: «إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» قال: هم الفئة الذين خرجوا مع قريش - احتبسهم آباؤهم فخرجوا وهم على الارتياب - فلما رأوا قله أصحاب رسول الله ص قالوا: غر هؤلاء دينهم حين قدموا على ما قدموا عليه - من قله عددهم وكثره عدوهم -.

وهم فئه من قريش مسمون خمسه: قيس بن الوليد بن المغيره، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيره المخزوميان، والحارث بن زمعه، وعلي بن أميه بن خلف، والعاصي بن منبه.

أقول: وهذا يقبل الانطباق بوجه على قوله تعالى: «وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» فحسب، وفي بعض التفاسير أن القائل: «عَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ» هم المنافقون والذين في قلوبهم مرض من أهل المدينة، ولم يخرجوا مع النبي ص، وسياق الآيه الظاهر في حضورهم وقولهم ذلك عند التقاء الفئتين يأبى ذلك.

وفي روايه أبي هريره - علي ما رواه في الدر المنثور عن الطبراني في الأوسط عنه - ما لفظه: "وقال عتبه بن ربيعه وناس معه من المشركين يوم بدر، «عَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ» فأنزل الله، «إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ - عَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ». والذى ذكره لا ينطبق على الآيه البتة فالقرآن الكريم لا يسمى المشركين منافقين ولا الذين في قلوبهم مرض.

وفي تفسير العياشي، عن أبي علي المحمودي عن أبيه رفعه: "في قول الله، يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ قال، إنما أراد أستاذهم. إن الله كريم يكنى.

وفي تفسير الصافي، عن الكافي عن الصادق (ع): أن الله بعث نبيًا من أنبيائه إلى

قومه، و أوحى إليه؛ أن قل لقومك- إنه ليس من أهل قريه و لا ناس كانوا على طاعتي- فأصابهم فيها سراء فتحولوا عما أحب إلى ما أكره-إلا- تحولت لهم عما يحبون إلى ما يكرهون، و إنه ليس من أهل قريه و لا أهل بيت كانوا على معصيتي- فأصابهم فيها ضراء فتحولوا عما أكره إلى ما أحب-إلا تحولت لهم عما يكرهون إلى ما يحبون.

و فيه، أيضا عنه(ع) أنه قال، كان أبى يقول: إن الله عز و جل قضى قضاء حتما، لا ينعم على العبد بنعمه فيسلبها إياه- حتى يحدث العبد ذنبا يستحق بذلك النقمه.

[سوره الأنفال (٨): الآيات ٥٥ الى ٦٦]

اشاره

إِنَّ سَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْفُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَ هُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِذَا تَنَفَّقْتَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدَّكُرُونَ (٥٧) وَإِذَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُزْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَ عَدُوَّكُمْ وَ آخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَ مَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ (٦٠) وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَ إِنْ يَرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَ أَلْفَ بَيْنٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْمَازُضِ جَمِيعاً مَا أَلَفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْفِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٥) أَلَمْ يَأْنِ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَ عَلَّمَ أَنْ فِيكُمْ ضِعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦)

أحكام و دستورات فى الحرب و السلم و المعاهدات و نقضها و غير ذلك، و صدر الآيات يقبل الانطباق على طوائف اليهود التى كانت فى المدينة و حولها و قد كان النبى ص عاهدهم بعد هجرته إلى المدينة أن لا يضروه و لا يغدروا به و لا يعينوا عليه عدوا و يقرؤا على دينهم و يأمنوا فى أنفسهم فنقضوا العهد نقضا بعد نقض حتى أمر الله سبحانه بقتالهم فأل أمرهم إلى ما آل إليه، و سيجىء بعض أخبارهم فى البحث الروائى التالى إن شاء الله تعالى.

و على هذا فالآيات الأربع الأول غير نازله مع ما سبقها من الآيات و لا متصله بها كما يعطيه سياقها و أما السبع الباقية فليست بواضحة الاتصال بما قبلها من الآيات الأربع و لا بما قبل ما قبلها.

قوله تعالى: «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» الكلام مسوق لبيان كون هؤلاء شر جميع الموجودات الحيه من غير شك فى ذلك لما فى تقييد الحكم بقوله: «عِنْدَ اللَّهِ» من الدلاله عليه فإن معناه الحكم؛ و ما يحكم و يقضى به الله سبحانه لا يتطرق إليه خطأ و قد قال تعالى: «لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسِي» طه: -٥٢.

وقد افتتح هذه القطعه من الكلام المتعلق بهم بكونهم شر الدواب عنده لأن مغزى الكلام التحرز منهم و دفعهم، و من المغرور في الطباع أن الشر الذي لا يرجى معه خير يجب دفعه بأى وسيله صحت و أمكنت فناسب ما سيأمره في حقهم بقوله:

«فَأَمَّا تَثَقَّفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرُّدُ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ» إلیخ الافتتاح ببيان كونهم شر الدواب.

و عقب قوله: «الَّذِينَ كَفَرُوا» بقوله: «فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» مبتدأ بفاء التفریع أى إن من وصفهم الذى يتفرع على كفرهم أنهم لا يؤمنون، و لا يتفرع عدم الإيمان على الكفر إلا إذا رسخ فى النفس رسوخا لا يرجى معه زواله فلا مطمع حينئذ فى دخول الإيمان فى قلب هذا شأنه لمكان المضاده التى بين الكفر و الإيمان.

و من هنا يظهر أن المراد بقوله: «الَّذِينَ كَفَرُوا» الذين ثبتوا على الكفر، و عند هذا يرجع معنى هذه الآيه إلى نظيرتها السابقه: «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ»: الأنفال: ٢٣.

على أن الآيتين لما دلتا على حصر الشر عند الله فى طائفه معينه من الدواب كانت الآيه الأولى مع دلالتها على كون أهلها ممن لا يؤمنون البتة داله على أن المراد بقوله فى الآيه الثانيه: «الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» كونهم ثابتين على كفرهم لا- يزولون عنه البتة.

قوله تعالى: «الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَ هُمْ لَا يَتَّقُونَ» بيان للذين كفروا فى الآيه السابقه أو بدل منهم بدل البعض من الكل، و يتفرع عليه أن «من» فى قوله «مِنْهُمْ» تبعيضية و المعنى: الذين عاهدتهم من بين الذين كفروا، و أما احتمال أن يكون من زائده و المعنى: الذين عاهدتهم، أو بمعنى مع و المعنى:

الذين عاهدت معهم فليس: بشىء.

و المراد بكل مره مرات المعاهده أن ينقضون عهدهم فى كل مره عاهدتهم و هم لا يتقون الله فى نقض العهد أو لا يتقونكم و لا يخافون نقض عهدكم، و فيه دلالة على تكرار النقض منهم.

قوله تعالى: «فَأَمَّا تَثَقَّفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرُّدُ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدَّكَّرُونَ»

قال فى المجمع، الثقف الظفر و الإدراك بسرعه، و التشريد التفريق على اضطراب. انتهى، و قوله: «فَأَمَّا تَثَقَّفْنَهُمْ» أصله إن تثقفهم دخل «ما» التأكيد على إن الشرطيه ليصح دخول نون التأكيد على الشرط و الكلام مسوق للتأكيد فى ضمن الشرط.

و المراد بتشريد من خلفهم بهم أن يفعل بهم من التنكيل و التشديد ما يعتبر به من خلفهم، و يستولى الرعب و الخوف على قلوبهم فيتفرقوا و ينحل عقد عزمهم و اتحاد إرادتهم على قتال المؤمنين و إبطال كلمه الحق.

و على هذا فالمراد بقوله: «لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ» رجاء أن يتذكروا ما لنتقض العهد و الإفساد فى الأرض و المحاده مع كلمه الحق من التبعه السيئه و العاقبه المشئومه فإن الله لا يهدى القوم الفاسقين و إن الله لا يهدى كيد الخائنين.

ففى الآيه إيماء إلى الأمر بقتالهم ثم التشديد عليهم و التنكيل بهم عند الظفر بهم و ثقفهم، و إيماء إلى أن وراءهم من حاله حالهم فى نقض العهد و تربص الدوائر على الحق و أهله.

قوله تعالى: «وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ» الخيانة -على ما فى المجمع، -نقض العهد فيما يؤتمن عليه، و هذا معنى الخيانة فى العهود و الموائيق، و أما الخيانة بمعناها العام فهى نقض ما أبرم من الحق فى عهد أو أمانه، و النبذ هو الإلقاء و منه قوله: «فَتَبَدُّوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ»: آل عمران: -١٨٧ و السواء بمعنى الاستواء و العدل.

و قوله: «وَإِمَّا تَخَافَنَّ» كقوله فى الآيه السابقه: «فَأَمَّا تَثَقَّفْنَهُمْ» و معنى الخوف ظهور أمارات تدل على وقوع ما يجب التحرز منه و الحذر عنه و قوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ» تعليل لقوله: «فَأَنبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ».

و معنى الآيه: و إن خفت من قوم بينك و بينهم عهد أن يخونوك و ينقضوا عهدهم و لاحت آثار داله على ذلك فانبذ و ألق إليهم عهدهم و أعلمهم إلغاء العهد لتكونوا أنتم و هم على استواء من نقض عهد أو تكون مستويا على عدل فإن من العدل المعامله بالمثل و السواء لأنك إن قاتلتهم قبل إلغاء العهد كان ذلك منك خيانه و الله لا يحب الخائنين.

و ملخص الآيتين دستوران إلهيان فى قتال الذين لا عهد لهم بالنقض أو بخوفه فإن كان أهل العهد من الكفار لا يثبتون على عهدهم بنقضه فى كل مره فعلى ولى الأمر أن يقاتلهم و يشدد عليهم،و إن كانوا بحيث يخاف من خيانتهم و لا وثوق بعهدهم فيعلمون إلغاء عهدهم ثم يقاتلون و لا يبدأ بقتالهم قبل الاعلام فإنما ذلك خيانه،و أما إن كانوا عاهدوا و لم ينقضوا و لم يخف خيانتهم فمن الواجب حفظ عهدهم و احترام عقدهم و قد قال تعالى: «فَاتِّمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ:» التوبه:-٤.و قال: «أَوْفُوا بِالْعُقُودِ:» المائده:-١.

قوله تعالى: «وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ» القراءه المشهوره «تحسبن» بقاء الخطاب،و هو خطاب للنبي ص تطيبا لنفسه و تقويه لقلبه كالخطاب الآتى بعد عده آيات: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» و كالخطاب الملقى بعده لتحريض المؤمنين: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ الْقِتَالِ».

و السبق تقدم الشىء على طالب الحقوق به،و الإعجاز إيجاد العجز،و قوله:

«إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ» تعليل لقوله: «و لا تحسبن» الخ،و المعنى: يا أيها النبي لا تحسبن أن الذين كفروا سبقونا فلا ندر كههم،لأنهم لا يعجزون الله و له القدره على كل شىء.

قوله تعالى: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ». إلى آخر الآيه الإعداد تهيئه الشىء للظفر بشىء آخر و إيجاد ما يحتاج إليه الشىء المطلوب فى تحقيقه كإعداد الحطب و الوقود للإيقاد و إعداد الإيقاد للطبخ،و القوه كل ما يمكن معه عمل من الأعمال،و هى فى الحرب كل ما يتمشى به الحرب و الدفاع من أنواع الأسلحه، و الرجال المدربين و المعاهد الحربيه التى تقوم بمصلحه ذلك كله،و الرباط مبالغه فى الربط و هو أيسر من العقد يقال:ربطه يربطه ربطا و رابطه يرابطه مرابطه و رباطا فالكل بمعنى غير أن الرباط أبلغ من الربط،و الخيل هو الفرس،و الإرهاب قريب المعنى من التخويف.

و قوله: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ» أمر عام بتهيئه المؤمنين مبلغ استطاعتهم من القوى الحربيه ما يحتاجون إليه قبال ما لهم من الأعداء فى الوجود أو فى الفرض و الاعتبار فإن المجتمع الإنسانى لا يخلو من التآلف من أفراد أو أقوام مختلفى الطباع و متضادى الأفكار لا ينعقد بينهم مجتمع على سنه قيمه ينافعهم إلا و هناك مجتمع آخر يضاده فى منفعه،و يخالفه فى سنته،و لا يعيشان

معا برهه من الدهر إلا و ينشب بينهما الخلاف و يؤدي ذلك إلى التغلب و القهر.

فالحروب المبيده و الاختلافات الداعيه إليها مما لا مناص عنها في المجتمعات الإنسانيه و المجتمعات هي هذه المجتمعات، و يدل على ذلك ما نشاهده من تجهز الإنسان في خلقه بقوى لا يستفاد منها إلا للدفاع كالغضب و الشده في الأبدان، و الفكر العامل في القهر و الغلبه، فمن الواجب الفطرى على المجتمع الإسلامى أن يتجهز دائماً بإعداد ما استطاع من قوه و من رباط الخيل بحسب ما يفترضه من عدو لمجتمعه الصالح.

و الذى اختاره الله للمجتمع الإسلامى بما أنزل عليهم من الدين الفطرى الذى هو الدين القيم هي الحكومه الإنسانيه التى يحفظ فيها حقوق كل فرد من أفراد مجتمعها، و يراعى فيها مصلحه الضعيف و القوى و الغنى و الفقير و الحر و العبد و الرجل و المرأه و الفرد و الجماعه و البعض و الكل على حد سواء دون الحكومه الفرديه الاستبداديه التى لا تسير إلا على ما تهواه نفس الفرد المتولى لها الحاكم فى دماء الناس و أعراضهم و أموالهم بما شاء و أراد، و لا الحكومه الأكثرية التى تطابق أهواء الجمهور من الناس و تبطل منافع آخرين و ترضى الأكثرين (النصف+واحد) و تضطهد و تسخط الأقلين (النصف-واحد).

و لعل هذا هو السر فى قوله تعالى: «وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ» حيث وجه الخطاب إلى الناس بعد ما كان الخطاب فى الآيات السابقه موجهاً إلى النبى ص كقوله:

«فَأَمَّا تَثَقَفَتْهُمُ فِي الْحَرْبِ فَسَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ» و قوله: «فَأَنْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ» و قوله:

«و لا تحسبن الذين كفروا سبقوا» و كذا فى الآيات التالیه كقوله: «وَ إِنْ جُنَحُوا لِلْسَّلَامِ فَأَجْنَحْ لَهَا» إلى غير ذلك.

و ذلك أن الحكومه الإسلاميه حكومه إنسانيه بمعنى مراعاته حقوق كل فرد و تعظيم إرادته البعض و احترام جانبه أى من كان من غير اختصاص الإراده المؤثره بفرد واحد أو بأكثر الأفراد.

فالمنافع التى يهددها عدوهم هي منافع كل فرد فعلى كل فرد أن يقوم بالذب عنها، و يعد ما استطاع من قوه لحفظها من الضيعه، و الإعداد و إن كان منه ما لا يقوم بأمره إلا الحكومات بما لها من الاستطاعه القويه و الإمكانيات البالغه لكن منها ما يقوم بالأفراد بفرديتهم كتعلم العلوم الحربيه و التدريب بفنونها فالتكليف تكليف الجميع.

وقوله تعالى: «تُزْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ» في مقام التعليل لقوله: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ» أي و أعدوا لهم ذلك لترهبوا و تخوفوا به عدو الله و عدوكم، و في عدوهم عدوا لله و لهم جميعا بيان للواقع و تأكيد في التحريض.

و في قوله: «و آخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ» دلالة على أن المراد بالأولين هم الذين يعرفهم المؤمنون بالعداوة لله و لهم، و المراد بهؤلاء الذين لا يعلمهم المؤمنون - على ما يعطيه إطلاق اللفظ - كل من لا - خبره للمؤمنين بتهديده إياهم بالعداوة من المنافقين الذين هم في كسوة المؤمنين و صورتهم يصلون و يصومون و يحجون و يجاهدون ظاهرا، و من غير المنافقين من الكفار الذين لم يتبل بهم المؤمنون بعد.

و الإرهاب بإعداد القوه، و إن كان في نفسه من الأغراض الصحيحة التي تتفرع عليها فوائد عظيمة ظاهره غير أنه ليس تمام الغرض المقصود من إعداد القوه، و لذلك أردفه بقوله: «وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ» ليدل على جماع الغرض.

و ذلك أن الغرض الحقيقي من إعداد القوى هو التمكن من الدفع مبلغ الاستطاعة، و حفظ المجتمع من العدو الذي يهدده في نفوسه و أعراضه و أمواله، و باللفظ المناسب لغرض الدين إطفاء نائره الفساد الذي يبطل كلمه الحق و يهدم بنیان دين الفطره الذي به يعبد الله في أرضه و يقوم ملاك العدل في عبادته.

و هذا أمر ينتفع به كل فرد من أفراد المجتمع الديني فما أنفقه فرد أو جماعه في سبيل الله، و هو الجهاد لإحياء أمره فهو بعينه يرجع إلى نفسه و إن كان في صورته أخرى فإن أنفق في سبيله مالا أو جاها أو أى نعمه من هذا القبيل فهو من الإنفاق في سبيل الضروريات الذي لا - يلبث دون أن يرجع إليه نفسه نفعه و ما استعقبه من نماء في الدنيا و الآخرة، و إن أنفق في سبيله نفسا فهو الشهادة في سبيل الله التي تستتبع حياه باقيه خالده حقه لمثلها فليعمل العاملون لا كما يغر به آحاد الفادين في سبيل المقاصد الدنيويه ببقاء الاسم و خلود الذكر و تمام الفخر فهؤلاء و إن تنبهوا اليوم لهذا التعليم الإسلامى، و أن المجتمع كنفس واحده تشترك أعضاؤها فيما يعود إليها من نفع و ضرر لكنهم خبطوا في مسيرهم و اشتبه عليهم الأمر في تشخيص الكمال الإنسانى الذي لأجله تندبه الفطره و تدعوه إلى الاجتماع، و هو التمتع من الحياه الدائمه، فحسبوه الحياه الدنيا

الدائرة فضايق عليهم المسلك في أمثال التفديه بالنفس لأجل تمتع الغير بلذائذ الماده.

و بالجمله فإعداد القوه إنما هو لغرض الدفاع عن حقوق المجتمع الإسلامى و منافع الحيويه، و التظاهر بالقوه المعده ينتج إرهاب العدو، و هو أيضا من شعب الدفع و نوع معه، فقله تعالى: «تُزْهِبُونَ بِهِ عِدَّةَ اللَّهِ» الخ يذكر فائده من فوائد الإعداد الراجعه إلى أفراد المجتمع، و قوله: «وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ» يذكر أن ما أنفقوه فى سبيله لا يبطل و لا يفوت بل يرجع إليهم من غير أن يفوت عن ذى حق حقه.

و هذا أعنى قوله: «وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» الخ أعم فائده من مثل قوله: «وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوفَّ إِلَيْكُمْ»: البقره:-
٢٧٢ فإن الخير منصرف إلى المال فلا يشمل النفس بخلاف قوله هاهنا: «وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ».

قوله تعالى: «وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» فى المجمع: الجنوح الميل، و منه جناح الطائر لأنه يميل به فى أحد شقيه، و لا جناح عليه أى لا ميل إلى مآثم. انتهى، و السلم بفتح السين و كسرهما الصلح.

و قوله: «وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ» من تتمه الأمر بالجنوح فالجميع فى معنى أمر واحد، و المعنى: و إن مالوا إلى الصلح و المسالمة فمل إليها و توكل فى ذلك على الله و لا تخف من أن يضطهدك أسباب خفيه عنك على غفله منك و عدم تهيؤ لها فإن الله هو السميع العليم لا يغفله سبب و لا يعجزه مكر بل ينصررك و يكفيك و هذا هو الذى يثبت قوله فى الآيه التالیه «وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ».

و قد تقدم فيما أسلفناه من معنى التوكل على الله أنه ليس اعتمادا عليه سبحانه بإلغاء الأسباب الظاهريه بل سلب الاعتماد القطعى على الأسباب الظاهريه لأن الذى يبدو للإنسان منها بعض يسير منها دون جميعها، و السبب التام الذى لا يتخلف عن مسببه هو الجميع الذى يحمل إرادته سبحانه.

فالتوكل هو توجيه الثقه و الاعتماد إلى الله سبحانه الذى بمشيته يدور رحى الأسباب عامه، و لا ينافيه أن يتوسل المتوكل بما يمكنه التوسل به من الأسباب اللائحه عليه من غير أن يلغى شيئا منها فيركب مطيه الجهل.

قوله تعالى: «وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنُصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ» الآية متصله بما قبلها و هي بمنزله دفع الدخل، و ذلك أن الله سبحانه لما أمر نبيه ص بالجنوح للسلم إن جنحوا له و لم يرض بالخديعه لأنها من الخيانه فى حقوق المعاشره و المواصله للعامة و الله لا يحب الخائنين كان أمره بالجنوح المذكور مظنه سؤال و هو أن من الجائز أن يكون جنوحهم للسلم خديعه منهم يضلون بها المؤمنين ليغيروا عليهم فى شرائط و أحوال مناسبة فأجاب سبحانه بأننا أمرناك بالتوكل فإن أرادوا بذلك أن يخدعوك فإن حسبك الله و قد قال تعالى: «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ» .

و هذا مما يدل على أن هناك أسبابا وراء ما ينكشف لنا من الأسباب الطبيعیه العاديه تجرى على ما يوافق صلاح العبد المتوكل إذا خاتته الأسباب الطبيعیه العاديه و لم تساعده على مطلوبه الحق.

و قوله: «هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنُصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ» بمنزله الاحتجاج على قوله: «فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ» بذكر شواهد تدل على كفايته تعالى و هي أنه أيده بنصره و أيده بالمؤمنين و ألف بين قلوبهم و هي شىء متباغضه.

قوله تعالى: «وَ أَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مِمَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ» الخ، قال الراغب: الإلف اجتماع مع التيام يقال:

ألفت بينهم، و منه الألفه، و يقال: للمألوف إلف و آلف قال تعالى: «إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ» انتهى.

أورد سبحانه فى جملة ما استشهد على كفايته لمن توكل عليه أنه كفى نبيه ص بتأليف قلوب المؤمنين بعد ذكر تأييده بهم، و الكلام مطلق و الملاك المذكور فيه عام يشمل جميع المؤمنين و إن كانت الآية أظهر انطباقا على الأنصار حيث أيد الله بهم نبيه ص فأووه و نصره و ألف الله سبحانه بدينه بينهم أنفسهم و قد نشبت فيهم الحروب المبيده و كانت قائمه على ساقها دهرا طويلا و هي حرب «بغاث» بين الأوس و الخزرج حتى اصطلحوا بنزول الإسلام فى دارهم و أصبحوا بنعمته إخوانا.

و قد امتن الله بتأليفه بين قلوب المسلمين فى مواضع من كلامه و بين أهميه موقعه

بمثل قوله: «لَوْ أَنْفَقْتُ لِمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ».

بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

«.

و ذلك أن الإنسان مفطور على حب النعم الحيويه التي تتم بها حياته لا بغيه له دونها و لا يريد في الحقيقه شيئا و لا يقصده إلا لينتفع به في نفسه و ما ربما يلوح أنه يريد نفعاً عائداً إلى غيره فالتأمل الدقيق يكشف عن اشتماله على نفع عائد إليه نفسه، و إذ كان يحب الوجدان فهو يبغض الفقدان.

و بهذين الوصفين الغريزيين أعنى الحب و البغض يتم له أمر الحياه و لو أنه أحب كل شيء و منها الأضداد و المتناقضات لبطلت الحياه و لو أنه أبغض كل شيء حتى المتنافيات لبطلت الحياه، و قد فطره الله سبحانه على الحياه الاجتماعيه؛ لقصور ما عنده من القوى و الأدوات عن القيام بجميع ما يحتاج إليه من ضروريات حياته و من الضروري أن الاجتماع لا يتم إلا باختصاص كل فرد بما يحرم عنه آخرون من مال أو جاه أو زينه أو جمال أو كل ما يتنافس فيه الطباع الإنساني أو يتعلق به الهوى النفساني على اختلاف فيه بالزيادة و النقيصه.

و هذا أول ما يودع أنواع العداوه و البغضاء في القلوب و الشح في النفوس ثم ما ينبسط بينهم من وجوه الحرمان بالظلم و العدوان و بغى البعض على البعض في دم أو عرض أو مال أو غير ذلك مما يتعمون به و يتنافسون فيه و يعلمون لأجله، تشير في داخل نفوسهم كل بغضاء و شأن.

و هذا كله أوصاف و غرائز باطنيه في الجماعه لا- تلبث دون أن تظهر في أعمالهم و تتلاقى في أفعالهم و يماس بعضها بعضا بينهم في مسير حياتهم و فيه البلوى التي تتعقب الفتن و المصائب الاجتماعيه التي تبيد النفوس و تهلك الحرث و النسل، و قد شهدت بذلك الحوادث الجاريه على توالى القرون و الأجيال.

و مهما ظنت الأمم المجتمعه أن بغيتها في اجتماعها هي التمتع من العيشه الماديه المحدوده بالحياه الدنيويه فلا سبيل إلى قلع ماده هذا الفساد من أصلها و قطع منابته فإن الدار دار التراحم، و المجتمع قائم على قاعده الاختصاص، و النفوس مختلفه في الاستعداد، و الحوادث الواقعه و العوامل المؤثره و الأحوال الخارجيه دخيله في معاشهم و حياتهم.

قال تعالى: «إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا» المعارج: -٢١، وقال: «إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ» يوسف: -٥٣، وقال:

«وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ» هود: -١١٩، إلى غير ذلك من الآيات.

و غايه ما يمكن الإنسان فى بسط الألفه و إرضاء القلوب المشحونه بالعداوه و البغضاء أن يقنعهم أو يسكتهم ببذل ما يحبون من مال أو جاه أو سائر النعم الدنيويه المحبوبه عندهم غير أنه إنما ينفع فى موارد جزئيه خاصه، و أما العداوه و البغضاء العامتان فلا سبيل إلى إزالتها عن القلوب ببذل النعمه فإنه لا يبطل غريزه الاستزاده و الشح الملتهب فى كل نفس بما يشاهد من المزايا الحيويه عند غيره.

على أن من النعم ما لا يقبل إلا الاختصاص و الانفرد كالمملك و الرئاسه العاليه و أمور أخرى تجرى مجراها حتى أن الأمم الرافيه ذوى المدنيه و الحضاره لم يتمكنوا من معالجه هذا الداء إلا بما يزول به بعض شدته، و يستريح جثمان المجتمع من بعض عذابه، و أما البغضاءات المتعلقه بالأمور التى تختص به بعض مجتمعهم كالرئاسه و الملك فهى على حالها تتقد بشرها القلوب و لا يزال يأكل بعضها بعضا.

على أن ذلك ينحصر فيما بينهم و أما المجتمعات الخارجه من مجتمعهم فلا يعاب بحالهم و لا يعتنى من منافعهم الحيويه إلا بما يوافق منافع أولئك و إن أعتهم طوارق البلاء و عفاهم الدهر بالعناء.

و قد من الله على الأمة الإسلاميه إذ أزال الشح عن نفوسهم و ألف بين قلوبهم بمعرفه إلهيه علمه إياهم و بثه فيما بينهم ببيان أن الحياه الإنسانيه حياه خالده غير محصوره فى هذه الأيام القلائل التى ستفنى و يبقى الإنسان و لا خبر عنها، و إن سعادته هذه الحياه الدائمه غير التمتع بلذائذ الماده و الرعى فى كلال الخسه بل هى حياه واقعيه و عيشه حقيقيه يحيى و يعيش بها الإنسان فى كرامه عبوديه الله سبحانه، و يتنعم بنعم القرب و الزلفى ثم يتمتع بما تيسر له من متاع الحياه الدنيا مما ساقه إليه الحظ أو الاكتساب عارفا بحقوق النعمه ثم ينتقل إلى جوار الله و يدخل دار رضوانه و يخالط هناك الصالحين من عباده، و يحيى حق الحياه قال تعالى: «وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ» الرعد: -٢٦، و قال تعالى: «وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» العنكبوت: -٦٤ و قال: «فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا

وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى: النجم: -٣٠.

فعلى المسلم أن يؤمن بربه و يتربى بتربيته، و يعزم عزمه و يجمع بغيته على ما عند ربه فإنما هو عبد مدبر لا يملك ضرا و لا نفعا و لا موتا و لا حياه و لا نشورا و من كان هذا وصفه لم يكن له شغل إلا بربه الذى بيده الخير و الشر و النفع و الضر و الغنى و الفقر و الموت و الحياه، و كان عليه أن يسير مسير الحياه بالعلم النافع و العمل الصالح فما سعد به من مزايا الحياه الدنيا فموهبه من عند ربه و ما حرم منه احتسب عند ربه أجره، و ما عند الله خير و أبقى.

و ليس هذا من إلغاء الأسباب فى شىء و لا إبطالا للفطره الإنسانيه الداعيه إلى العمل و الاكتساب، الناديه إلى التوسل بالفكر و الإراده، المحرضه إلى الاجتهاد فى تنظيم العوامل و العلل، الموصله إلى المقاصد الإنسانيه و الأغراض الصحيحه الحيويه فقد فصلنا القول فى توضيح ذلك فى موارد متفرقه من هذا الكتاب.

و إذا تسنن المسلمون بهذه السنه الإلهيه، و حولوا هوى قلوبهم عن ذلك التمتع المادى الذى ليس إلا بغيه حيوانيه و غرضا ماديا إلى هذا التمتع المعنوى الذى لا تراحم فيه و لا حرمان عنده، ارتفعت عن قلوبهم العداوه و البغضاء، و خلصت نفوسهم من الشح و الرين، و أصبحوا بنعمه الله إخوانا، و أفلحوا حق الفلاح قال: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَ لَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لَا تَفَرَّقُوا وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً: آل عمران: -١٠٣ و قال: «وَ مَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ: الحشر: -٩.

قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» تطيب لنفس النبى ص، و قد قال تعالى قبله: «فَإِنَّ حَسْبُكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصِيرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ» فالمراد- و الله أعلم- يكفيك الله بنصره و بمن اتبعك من المؤمنين، و ليس المراد أن هناك سببين كافيين أو سببا كافيا ذا جزئين يتألف منهما سبب واحد كافى فالتوحيد القرآنى يابى ذلك.

و ربما قيل: إن المعنى حسبك الله و حسب من اتبعك من المؤمنين بعطف قوله:

«مَنْ اتَّبَعَكَ» على موضع الكاف من «حَسْبُكَ».

و الكلام على أى حال مسوق للتحريض على القتال على ما يفيدته السياق و القرائن الخارجة فإن تأثير المؤمنين فى كفايتهم له (ص) إنما هو فى القتال على ما يسبق إلى الذهن.

و ذكر بعضهم: أن الآيه نزلت بالبديء قبل غزوه بدر، و على هذا لا اتصال لها بما بعدها، و أما اتصالها بما قبلها فغير مقطوع به.

قوله تعالى: « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ » إلى آخر الآيه.

التحريض و التحضيض و الترغيب و الحث بمعنى و الفقه أبلغ و أغزر من الفهم، و قوله: « إِنَّ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ » أى من الذين كفروا كما قيد به الألف بعدها، و كذلك قوله: « وَ إِنَّ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ » أى مائه صابره كما قيد بها « عِشْرُونَ » قبلا.

و قوله: « بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ » الباء للسببيه أو الإله و الجملة تعليليه متعلقه بقوله: « يَغْلِبُوا » أى عشرون صابرون منكم يغلبون مائتين من الذين كفروا، و مائه صابره منكم يغلبون ألفا من الذين كفروا كل ذلك بسبب أن الكفار قوم لا يفقهون.

و فقدان الفقه فى الكفار و بالمقابله ثبوته فى المؤمنين هو الذى أوجب أن يعدل الواحد من العشرين من المؤمنين أكثر من العشرة من المائتين من الذين كفروا حتى يغلب العشرون من هؤلاء المائتين من أولئك على ما بنى عليه الحكم فى الآيه فإن المؤمنين إنما يقدمون فيما يقدمون عن إيمان بالله و هو القوه التى لا يعادله و لا يقاومه أى قوه أخرى لابتناؤه على الفقه الصحيح الذى يوصفهم بكل سجيته نفسانيه فاضله كالشجاعه و الشهامه و الجرأه و الاستقامه و الوقار و الطمأنينه و الثقه بالله و اليقين بأنه على إحدى الحسينيين إن قتل فى الجنة و إن قتل فى الجنة و إن الموت بالمعنى الذى يراه الكفار و هو الفناء لا مصداق له.

و أما الكفار فإنما اتكأؤهم على هوى النفس، و اعتمادهم على ظاهر ما يسوله لهم الشيطان، و النفوس المعتمده على أهوائها لا تتفق للغايه و إن اتفقت أحيانا فإنما تدوم عليه ما لم يلح لائح الموت الذى تراه فناء، و ما أندر ما تثبت النفس على هواها حتى حال ما تهدد بالموت و هى على استقامه من الفكر بل تميل بأدنى ريح مخالف، و خاصه فى المخاوف العامه و المهاول الشامله كما أثبتته التاريخ من انهزام المشركين يوم بدر و هم

ألف بقتل سبعين منهم، ونسبه السبعين إلى الألف قريبه من نسبه الواحد إلى أربعة عشر فكان انهزامهم في معنى انهزام الأربعة عشر مقاتلا من مقاتل واحد، وليس ذلك إلا لفقته المؤمنين الذي يستصحب العلم والإيمان، و جهل الكفار الذي يلازمه الكفر والهوى.

قوله تعالى: «الْمَانَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ» الخ أى إن يكن منكم مائه صابره يغلبوا مائتين من الذين كفروا و إن يكن منكم ألف صابر يغلبوا ألفين من الذين كفروا على وزان ما مر في الآيه السابقه.

وقوله: «وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا» المراد به الضعف في الصفات الروحيه و لا محاله ينتهى إلى الإيمان فإن الإيقان بالحق هو الذي ينبعث عنه جميع السجايا الحسنه الموجبه للفتح و الظفر كالشجاعه و الصبر و الرأى المصيب و أما الضعف من حيث العده و القوه فمن الضروري أن المؤمنين لم يزالوا يزيدون عده و قوه في زمن النبى ص.

وقوله: «بِإِذْنِ اللَّهِ» تقييد لقوله: «يَغْلِبُوا» أى إن الله لا- يشاء خلافه و الحال أنكم مؤمنون صابرون، وبذلك يظهر أن قوله: «وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ» يفيد فائده التعليل بالنسبه إلى الإذن.

وقوله تعالى في الآيه السابقه تعليلا للحكم: «بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ» و كذا في هذه الآيه: «وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا» و اللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ» و عدم الفقه و الضعف الروحى و الصبر من العلل و الأسباب الخارجيه المؤثره فى الغلبه و الظفر و الفوز بلا شك يدل على أن الحكم فى الآيتين مبنى على ما اعتبر من الأوصاف الروحيه فى الفئتين:

المؤمنين و الكفار، و إن القوى الداخله الروحيه التى اعتبرت فى الآيه الأولى ما فى المؤمن الواحد منها غالبه على القوى الداخله الروحيه فى عشر من الكفار عادت بعد زمان يسير يشير إليه بقوله: «الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ» لا يربو ما فى المؤمن الواحد منها- من متوسطى المؤمنين- إلا على اثنين من الكفار فقد فقدت القوه من أثرها بنسبه الثمانين فى المائه، و تبدلت العشرون و المائتان فى الآيه الأولى إلى المائه و المائتين فى الآيه الثانيه، و المائه و الألف فى الأولى إلى الألف و الألفين فى الثانيه.

و البحث الدقيق فى العوامل المولده للسجايا النفسانيه بحسب الأحوال الطارئه على الإنسان فى المجتمعات يهدى إلى ذلك فإن المجتمعات المنزليه و الأحزاب المنعقده

فى سبيل غرض من الأغراض الحيوية دنيويه أو دينيه فى أول تكونها و نشأتها تحس بالموانع المضاده و المحن الهادمه لبنانها من كل جانب فتنبه قواها الدافعه للجهد فى سبيل هدفها المشروع عندها، و يستيقظ ما نامت من نفسانياتها للتحذر من المكاره و التفديه فى طريق مطلوبها بالمال و النفس.

و لا تزال تجاهد و تفدى ليها و نهارها، و تتقوى و تتقدم حتى تمهد لنفسها حياه فيها بعض الاستقلال، و يصفو لها الجو بعض الصفاء و يكثر جمعها و يضرب بجرانها الأرض أخذت بالاستفاده من فوائد جهدها و التمتع بنعمه الراحة، و التوسع فى متسع الأمن، و شرعت القوى الروحيه الباسطه الباعثه للعمل فى الخمود.

على أن المجتمع و إن قلت أفراده لا- يخلو من اختلاف فى الإيمان، و السجاي الروحيه الجميله من قوى فيها و ضعيف، و كلما كثرت الأفراد ازداد ضعفاء الإيمان و الذين فى قلوبهم مرض و المنافقون فتنزلت القوى الروحيه فى الفرد المتوسط و ارتفعت كفه الميزان عما كانت عليه من الثقل.

و الجماعات الدينيه و الأحزاب الدنيويه فى ذلك على السواء و السنه الطبيعيه الجاريه فى النظام الإنسانى تجرى على الجميع على نسق واحد، و قد أثبت التجربه القطعيه أن المجتمعات المؤتلفه لغرض هام كلما قلت أفرادها و قويت رقباؤها و مزاحموها، و أحاطت بها المحن و الفتن كانت أكثر نشاطا للعمل و أحد فى الأثر و كلما كثرت أفرادها و قلت مزاحماتها و الموانع الحائله بينها و بين مقاصدها و مطالبها كانت أكثر خمودا و أقل تيقظا و أسفه حلما.

و التدبر الكافى فى مغازى النبى ص ينور ذلك فهذه غزوه بدر غلب فيها المسلمون و هم ثلاثمائه و بضعه عشر رجلا على ما بهم من رثائه الحال و قله العده و فقد السلاح و القوه كفار قريش و هم يعدلون ثلاثه أمثال المسلمين أو يزيدون على ما لهم من العزه و الشوكه و القوه ثم ما جرى على المسلمين فى غزوه أحد ثم فى غزوه الخندق ثم فى غزوه خيبر ثم فى غزوه حنين و هى أعجبها و قد ذكرها الله سبحانه بما لا يبقى لباحث ريبا فى ذلك إذ قال: «و يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَ ضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ» إلى آخر الآيات.

فالأيه تدل أولا على أن الإسلام كان كلما زاد فى زمن النبى ص عزه و شوكه

ظاهرا زادت نقصا و خمودا في قوى المسلمين الروحيه العامه و درجه إيمانهم و سجايهم الجميله النفسانيه المعنويه باطنا حتى استقرت بعد غزوه بدر-بقليل أو كثير-على خمس ما كانت عليه قبلها كما يشير إليه بعض الإشاره قوله تعالى في الآيات التاليه:

« مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُنْجِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَوْ لَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » الآيات.

و ثانيا: أن الظاهر أن الآيتين نزلتا دفعه واحده فإنهما و إن كانتا تخبران عن حال المؤمنين في زمانين مختلفين كما يشير إليه قوله في الآيه الثانيه: « أَلَا نَحْفَ اللَّهُ عَنْكُمْ » لكن الآيتين تقيسان كما مر طبع قوى المؤمنين الروحيه في زمانين مختلفين، و سياق الثانيه بالنظر إلى هذا القياس بحيث لا- يستقل عن الأولى، و وجود حكيمين مختلفين في زمانين لا- يوجب أن ينزل الآيه المتضمنه لأحدهما في زمان غير زمان نزول الأخرى المتضمنه للآخر.

نعم لو كانت الآيتان مقصورتين في بيان الحكم التكليفي فحسب كان الظاهر نزول الثانيه بعد زمان نزلت فيه الأولى.

و ثالثا: أن ظاهر قوله تعالى: « أَلَا نَحْفَ اللَّهُ عَنْكُمْ » كما قيل كون الآيتين مسوقتين لبيان الحكم التكليفي لأن التخفيف لا يكون إلا بعد التكليف فاللفظ لفظ الخبر و المراد به الأمر و محصل المراد في الآيه الأولى: ليثبت الواحد منكم للعشره من الكفار و في الآيه الثانيه: الآن خفف الله في أمره فليثبت الواحد منكم للاثنتين من الكفار.

و اختصاص التخفيف بباب التكليف- كما قيل- و إن أمكنت المناقشه فيه لكن ظهور الآيتين في وجود حكيمين مختلفين مترتبين بحسب الزمان أحدهما أخف من الآخر لا ينبغي الارتباب فيه.

و رابعا: أن ظاهر التعليل في الآيه الأولى بالفقه، و في الآيه الثانيه بالصبر مع تقييد المقاتل من المؤمنين في الآيتين جميعا بالصبر يدل على أن الصبر يرجح الواحد في قوه الروح على مثليه، و الفقه يرجحه فيها على خمسه أمثاله فإذا اجتمعا في واحد يرجح على عشره أمثال نفسه، و الصبر لا يفارق الفقه و إن جاز العكس.

و خامسا: أن الصبر واجب في القتال على أي حال.

فى تفسير البيضاوى،: «فى قوله تعالى الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ - ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ» هم يهود بنى قريظه عاهدهم رسول الله ص - أن لا - يمالئوا عليه فأعانوا المشركين بالسلاح - وقالوا: نسينا، ثم عاهدهم فنكثوا - مالمئوهم عليه يوم الخندق، و ركب كعب بن الأشرف إلى مكة فحالفهم.

أقول: و روى ذلك عن ابن عباس و مجاهد، و روى عن سعيد بن جبير أن الآية نزلت فى سته رهط من اليهود منهم ابن تابوت. و إيضاح ما تشير إليه الآية من نقض اليهود ميثاق النبى ص مره بعد مره و ما قاساه من المحن من ناحيتهم يحتاج إلى سير إجمالى فيما جرى بينه (ص) و بينهم من الأمر بعد هجرته (ص) إلى المدينة إلى سبع سنين من الهجره.

و قد كانت طوائف من اليهود هاجرت من بلادها إلى الحجاز و توطنوا بها و بنوا فيها الحصون و القلاع، و زادت نفوسهم و كثرت أموالهم و عظم أمرهم و قد مرت فى ذيل قوله تعالى: «و لَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ:» البقره: - ٨٩ فى الجزء الأول من الكتاب روايات فى بدء مهاجرتهم إلى الحجاز و كيفية نزولهم حول المدينة و بشارتهم الناس بالنبى ص.

و لما هاجر النبى ص إلى المدينة و دعاهم إلى الإسلام استنكفوا عن الإيمان به فصالح يهود المدينة و عاهدهم بكتاب كتب بينه و بينهم و هم ثلاثة رهط حول المدينة:

بنو قينقاع، و بنو النضير، و بنو قريظه أما بنو قينقاع فنكثوا العهد فى غزوه بدر فسار إليهم النبى ص فى منتصف شوال فى السنه الثانيه من الهجره بعد بضعه و عشرين يوما من وقعه بدر فتحصنوا فى حصونهم فحاصرهم أشد الحصار، و بقوا على ذلك خمسه عشر يوما.

ثم نزلوا على حكم النبى ص فى نفوسهم و أموالهم و نسائهم و ذراريهم فأمر بهم فكتفوا، و كلم عبد الله بن أبى بن سلول النبى ص فىهم و ألح عليه و كانوا حلفاء فوهبهم له، و أمرهم أن يخرجوا من المدينة و لا يجاوروه بها فخرجوا إلى أذرعات الشام و معهم نساؤهم و ذراريهم، و قبض منهم أموالهم غنيمه الحرب، و كانوا ستمائه مقاتل من أشجع اليهود.

و أما بنو النضير فإنهم كادوا النبي ص إذ خرج إليهم في نفر من أصحابه بعد أشهر من غزوه بدر، و كلمهم أن يعينوه في ديه نفر أو رجلين من الكلابيين قتلهم عمرو بن أمية الضمري فقالوا: نفعل يا أبا القاسم اجلس هنا حتى نقضى حاجتك، و خلا بعضهم ببعض فتأمرؤا بقتله و اختاروا من بينهم عمرو بن جحاش أن يأخذ حجر رحي فيصعد فيلقه على رأسه و يشدخه به و حذرهم سلام بن مشكم و قال لهم: لا تفعلوا ذلك فوالله ليخبرن بما همتم به، و إنه لنقض العهد الذي بيننا و بينه.

فجاءه الوحى و أخبره ربه بما هموا به فقام (ص) من مجلسه مسرعا و توجه إلى المدينة، و لحقه أصحابه و استفسروه عن قيامه و توجهه فأخبرهم بما همت به بنو النضير، و بعث إليهم من المدينة أن اخرجوا من المدينة و لا تساكنوني بها، و قد أجلتكم فمن وجدته بعد ذلك بها، منكم ضربت عنقه فأقاموا أياما يتجهزون للخروج.

و أرسل إليهم المنافق عبد الله بن أبى أن لا- تخرجوا من دياركم فإن معى ألفين يدخلون معكم حصنكم و يموتون دونكم، و ينصركم بنو قريظه و حلفاؤكم من غطفان، و أرضاهم بذلك.

فبعث رئيسهم حى بن أخطب إلى النبي ص يقول: إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك فكبر رسول الله ص و كبر أصحابه، و أمر عليا (ع) بحمل الرايه و السير إليهم فساروا و أحاطوا بديارهم، و غدر بهم عبد الله بن أبى، و لم ينصرهم بنو قريظه و لا حلفاؤهم من غطفان.

و قد كان النبي ص أمر بقطع نخيلهم و إحراقها فجزعوا من ذلك و قالوا: يا محمد لا تقطع فإن كان لك فخذ، و إن كان لنا فاتركه لنا. ثم قالوا له بعد أيام: يا محمد نخرج من بلادك فأعطنا أموالنا قال: لا و لكن تخرجون و لكم ما حملت الإبل فلم يقبلوا ذلك و بقوا أياما على ذلك ثم رضوا و سألوه ذلك قال: لا و لكن تخرجون و لا يحمل أحد منكم شيئا، و من وجدنا معه شيئا من ذلك قتلناه فخرجوا فوق قوم منهم إلى فدك و وادى القرى، و قوم إلى أرض الشام، و كان مالهم فيئنا لله و رسوله من غير أن ينال شيئا من ذلك جيش الإسلام، و قصتهم مذكوره فى سورة الحشر، و من كيد بنى النضير للنبي ص تخريب الأحزاب من قريش و غطفان و غيرهم عليه (ص).

و أما بنو قريظه فقد كانوا على الصلح و السلم حتى وقعت غزوه الخندق و قد كان

حيى بن أخطب رئيس بنى النضير ركب إلى مكة وحث قريشا على النبي ص و حزب الأَحزاب، و فى ذلك ركب إلى بنى قريظه و جاءهم فى ديارهم فلم يزل يوسوس إليهم و يعزهم و يلح عليهم و يكلم رئيسهم كعب بن أسد فى ذلك و نقض العهد و مناجزه النبي ص حتى أرضاهم بذلك و اشترطوا عليه أن يدخل فى حصنهم فيصيبه ما أصابهم فقبل و دخل.

فنفقوا العهد و مالوا إلى الأحزاب الذين حاصروا المدينة و أظهروا سب النبي ص و أحدثوا ثلمه أخرى.

فلما فرغ النبي ص من أمر الأَحزاب أتاه جبرئيل بوحي من الله يأمره بالمسير إليهم فصار إليهم و يحمل رايته على (ع) و نازل حصون بنى قريظه، و حصرهم خمسة و عشرين يوما.

فلما اشتد عليهم الحصار عرض عليهم كعب بن أسد أن يختاروا أحد ثلاث خصال: إما أن يسلموا و يدخلوا فى دين محمد، و إما أن يقتلوا ذراريهم و يخرجوا إليه بسيفهم مصلته يناجزونه حتى يظفروا به أو يقتلوا عن آخرهم، و إما أن يهجموا عليه و يكسبوه يوم السبت لأنهم - يعنى المسلمين - قد أمنوا أن يقاتلوهم فيه!

فأبوا عليه أن يجيبوه إلى واحده منهم فبعثوا إلى النبي ص أن أرسل إلينا أبا لبابه بن عبد المنذر نستشيره فى الأمر؛ و كان أبو لبابه مناصحا لهم لأن عياله و ذريته و ماله كانت عندهم.

فأرسله إليهم فلما رأوه قاموا إليه يبيكون، و قالوا: له كيف ترى أن نزل على حكم محمد؟ قال: نعم، و أشار بيده إلى حلقه: أنه الذبح، قال أبو لبابه: فوالله ما زلت قدماى حتى علمت أنى خنت الله و رسوله، و أوحى الله إلى نبيه ص فى أمر أبى لبابه.

فندم أبو لبابه و مضى على وجهه حتى أتى المسجد و ربط نفسه على ساريه من سوارى المسجد تائبا لله، و حلف ألا يحله إلا النبي ص أو يموت، فبلغ ذلك النبي ص فقال: دعوه حتى يتوب الله عليه، ثم إن الله تاب عليه و أنزل توبته و حله النبي ص.

ثم إن بنى قريظه نزلوا على حكم النبي ص، و كانوا موالى أوس فكلمته أوس فى أمرهم مستشفعين و آل الأمر إلى تحكيم سعد بن معاذ الأوسى فى أمرهم و رضوا

و رضى به النبي (ص) فأحضر سعد و كان جريحا.

و لما كلم سعد رحمه الله فى أمرهم قال: لقد آن لسعد أن لا يأخذه فى الله لومه لائم ثم حكم فيهم بقتل الرجال و سبى النساء و الذرارى و أخذ الأموال فأجرى عليهم ما حكم به سعد فضربت أعناقهم عن آخرهم، و كانوا ستمائة مقاتل أو سبعمائة، و قيل أكثر، و لم ينج منهم إلا نفر يسير آمنوا قبل تقتيلهم، و هرب عمرو بن سعدى منهم و لم يكن داخلا معهم فى نقض العهد، و سببت النساء إلا امرأه واحده ضربت عنقها و هى التى طرحت على رأس خلاد بن السويد بن الصامت رعى فقتلته.

ثم أجلي النبي (ص) من كان بالمدينه من اليهود ثم سار ((ص)) إلى يهود خيبر لما كان من كيدهم و سعيهم فى حث الأحزاب عليه و تأليفهم من جميع القبائل العربيه لحربه فنازل حصونهم و حصرهم أياما، و أرسل النبي (ص) إلى قتالهم أبا بكر فى جمع يوما فانهمزم، ثم عمر بن الخطاب فى جمع يوما فانهمزم.

و عند ذلك

قال النبي (ص): «لأعطين الرايه غدا رجلا يحب الله و رسوله- و يحبه الله و رسوله كرار غير فرار- لا يرجع حتى يفتح الله على يديه» و لما كان من غد أعطى الرايه عليا (ع) و أرسله إلى قتال القوم فتقدم إليهم و قتل مرحبا الفارس المعروف منهم، و هزمهم و قلع بيده باب حصنهم و فتح الله على يده الحصن، و كان ذلك بعد صلح الحديبيه فى المحرم سنه سبع من الهجره.

ثم أجلي النبي (ص) من بقى من اليهود و قد نصح لهم قبل ذلك أن يبيعوا أموالهم و يأخذوا أثمانها. انتهى ما أردنا تلخيصه من قصه اليهود مع النبي (ص).

و فى تفسير العياشى، عن جابر: " فى قوله تعالى: «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ» الآية - نزلت فى بنى أميه هم شر خلق الله -هم» الَّذِينَ كَفَرُوا «فى باطن القرآن، و هم» الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ «:

أقول: و روى مثله القمى عن أبى حمزه عنه (ع)

، و هو من باطن القرآن كما صرح به فى الروايه ليس بالظاهر.

و فى الكافى، بإسناده عن سهل بن زياد عن بعض أصحابه عن عبد الله بن سنان

عن أبي عبد الله (ع) قال: قال رسول الله (ص): ثلاث من كن فيه كان منافقا- وإن صام و صلى و زعم أنه مسلم: من إذا أو تمن خان، و إن حدث كذب، و إذا وعد أخلف إن الله عز و جل قال في كتابه: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ» و قال: «أَنْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ» و في قوله عز و جل: «وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ- إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَ كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا» و في تفسير القمي، "في قوله تعالى: «وَ اَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ» الآية- قال: قال: السلاح.

و في التفسير العياشي، عن محمد بن عيسى عن ذكره عن أبي عبد الله (ع): في الآية قال: سيف و ترس.

و في الفقيه، عن الصادق (ع) مرسلا: في الآية قال: منه الخضاب بالسواد.

و في الكافي، بإسناده عن جابر عن أبي جعفر (ع): دخل قوم على الحسين بن علي (ع) فأروه مختضبا بالسواد- فسألوه عن ذلك فمد يده إلى لحيته ثم قال: أمر رسول الله ص في غزاه غزاها أن يختضبوا بالسواد- ليقووا به على المشركين.

و في تفسير العياشي، عن جابر الأنصاري قال: قال رسول الله ص: «وَ اَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ» قال: الرمي:

أقول: و رواه في الكافي، بإسناده عن عبد الله بن المغيرة رفعه عنه (ص)، و الزمخشري في ربيع الأبرار، عن عقبه بن عامر عنه، و السيوطي في الدر المنثور، عن أحمد و مسلم و أبي داود و ابن ماجه و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و أبي الشيخ و أبي يعقوب إسحاق بن إبراهيم و البيهقي عن عقبه بن عامر الجهني عنه (ص).

و في الدر المنثور، أخرج أبو داود و الترمذي و ابن ماجه و الحاكم و صححه و البيهقي عن عقبه بن عامر الجهني رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ص يقول:

إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة: صانعه الذي يحتسب في صنعه الخير- و الذي يجهز به في سبيل الله، و الذي يرمى به في سبيل الله-.

و قال: ارموا و اركبوا، و أن ترموا خير من أن تركبوا، و قال: كل شيء يلهو به ابن آدم فهو باطل إلا ثلاثة: رميه عن قوسه، و تأديبه فرسه، و ملاعبته

أهله فإنهن من الحق، و من علم الرمي ثم تركه فهي نعمه كفرها.

أقول: و في هذه المعاني روايات أخر، و خاصة في الخيل و الرمي و الروايات على أي حال من باب عد المصاديق.

و في الدر المنثور، أخرج سعد و الحارث بن أبي أسامة و أبو يعلى و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن قانع في معجمه و الطبراني و أبو الشيخ و ابن منده و الروياني في مسنده و ابن مردويه و ابن عساكر عن يزيد بن عبد الله بن غريب عن أبيه عن جده عن النبي ص قال: في قوله: «وَ آخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ» قال:

هم الجن، و لا تخبل الشيطان إنسانا في داره فرس عتيق.

أقول: و في معناها روايات أخر، و محصل الروايات ربط قوله: «وَ آخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ» بقوله: «وَ مِنْ رَبِاطِ الْخَيْلِ» و هي من قبيل الجري و ليس من التفسير في شيء، و المراد من الآية بظاهرها العدو من الإنسان كالكفار و المنافقين.

و فيه، أخرج ابن مردويه عن عبد الرحمن بن أبيزى: " أن النبي ص كان يقرأ:

وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ

و فيه، أخرج أبو عبيد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس: "

في قوله: «وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا» قال: نسختها هذه الآية: «قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ إِلَى قَوْلِهِ -صَاغِرُونَ».

أقول: و روى نسخها بآية البراءة: «فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» و الآية لا تخلو عن إيماء إلى كون الحكم مؤجلا حيث قال: «وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

و في الكافي، بإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله (ع): في قوله تعالى: «وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا» قلت: ما السلم؟ قال: الدخول في أمرنا، و في روايه أخرى: الدخول في أمرك.

أقول: و هو من الجري.

و في الدر المنثور، أخرج ابن عساكر عن أبي هريره قال: " مكتوب على العرش

لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي -محمد عبدي و رسولي أيدته بعلي؛ و ذلك قوله:

« هُوَ الَّذِي آتَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ »: أقول: و رواه الصدوق في المعاني، بإسناده عن أبي هريره، و أبو نعيم في حليه الأولياء، بإسناده عنه، و كذا ابن شهر آشوب مسندا عن أنس عن النبي ص.

و في تفسير البرهان، عن شرف الدين النجفي قال: تأويله ذكره أبو نعيم في حليه الأولياء بطريقه عن أبي هريره قال: "نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب، و هو المعنى بقوله: المؤمنين.

أقول: و لفظ الآية لا- يساعد على ذلك اللهم إلا أن يكون المراد بالاتباع تمام الاتباع الذي لا يشذ عنه شأن من الشئون، و من للتبعيض دون البيان إن ساعد عليه السياق.

و في الدر المنثور، أخرج البزار عن ابن عباس قال: "لما أسلم عمر قال المشركون:

قد انتصف القوم منا اليوم، و أنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أقول: و روى هذا المعنى في روايات أخر، و الاعتبار لا يساعد عليه فإن الزمان الذي أسلم فيه لم يكن على نعت يصحح الخطاب بمثل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ و اليوم يوم الفتنه و العسره، و قد دام الحال على ذلك بعده سنين متماديه، و ما كان النبي ص يومئذ يحتاج إلى شيء يعينه العده، و في هذه الروايات أنه كان تمام الأربعين أو رابع أربعين. على أن الظاهر أن الآية مدنيه من جمله آيات سوره الأنفال.

و فيه، أخرج ابن إسحاق و ابن أبي حاتم عن الزهري: "في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: نزلت في الأنصار.

أقول: و سياق الآية في عدم المساعدة عليه كالروايتين السابقتين اللهم إلا- أن يكون المراد نزولها يوم آمن به الأنصار أو يوم تابعوه، و الظاهر أن الآية نزلت في تطيب نفس النبي ص بجميع من كان معه من المؤمنين: مهاجريهم و أنصارهم، و هي توطئه و تمهيد لما في الآية التاليه من الأمر بتحريض المؤمنين على القتال.

و في تفسير القمي، قال: قال: "، كان الحكم في أول النبوه في أصحاب رسول الله

ص- أن الرجل الواحد وجب عليه أن يقاتل عشرة من الكفار- فإن هرب منهم فهو الفار من الزحف، والمائه يقاتلون ألفا-.

ثم علم الله أن فيهم ضعفا لا- يقدر على ذلك- فأنزل الله: «الآن خفف الله عنكم و علم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين» ففرض عليهم أن يقاتل أقل رجل من المؤمنين رجلين من الكفار- فإن فر منهما فهو الفار من الزحف- فإن كانوا ثلاثة من الكفار و واحدا من المسلمين- ففر المسلم منهم فليس هو الفار من الزحف.

أقول: و في تفسير العياشى، عن الحسين بن صالح عن الصادق عن علي (ع) ما يقرب منه، و روى ما في معناها في الدر المنثور، بطرق عديدة عن ابن عباس و غيره.

و في الدر المنثور، أخرج الشيرازي في الألقاب و ابن عدى و الحاكم و صححه عن ابن عمر: " أن رسول الله ص قرأ: «الآن خفف الله عنكم- و علم أن فيكم ضعفاً رفع.

[سوره الأنفال (٨): الآيات ٦٧ الى ٧١]

اشاره

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسِيرٌ حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْ لَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا- طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٩) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسِيرِ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَ يَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١)

ص: ١٣٣

عتاب من الله سبحانه لأهل بدر حين أخذوا الأسرى من المشركين ثم اقترحوا على رسول الله ص أن لا يقتلهم و يأخذ منهم الفداء ليصلح به حالهم و يتقوا بذلك على أعداء الدين، و قد شدد سبحانه في العتاب إلا أنه أجابهم إلى مقترحهم و أباح لهم التصرف من الغنائم. و هي تشتمل الفداء.

و في آخر الآيات ما هو بمنزلة التطميع و الوعد الجميل للأسرى إن أسلموا و الاستغناء عنهم إن أرادوا خيانه النبي ص.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسِيرٌ حَتَّى يُخْرَجَ فِي الْأَرْضِ﴾ إلى آخر الآيات الثلاث، الأسر: الشد على المحارب بما يصير به في قبضه الآخذ له كما قيل و الأسير هو المشدود عليه، و جمعه الأسرى و الأسراء و الأسارى و الأسارى، و قيل الأسارى جمع جمع و على هذا فالسبب أعم موردا من الأسر لصدقه على أخذ من لا يحتاج إلى شد كالذراري.

و الثخن بالكسر فالفتح الغلظ، و منه قولهم: أثخنه الجراح و أثخنه المرض قال الراغب في المفردات، يقال: ثخن الشيء فهو ثخين إذا غلظ فلم يسل و لم يستمر في ذهابه، و منه أستعير قولهم: أثخنه ضربا و استخفافا قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُخْرَجَ فِي الْأَرْضِ﴾ «حَتَّى إِذَا أَثَخَّنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ» فالمراد بإثخان النبي في الأرض استقرار دينه بين الناس كأنه شيء غليظ انجمد فثبت، بعد ما كان رقيقا سائلا مخشى الزوال بالسيلان.

و العرض ما يطرأ على الشيء و يسرع فيه الزوال، و لذلك سمي به متاع الدنيا لدثورته و زواله عما قليل، و الحلال و صف من الحل مقابل العقد و الحرمة كأن الشيء الحلال كان معقودا عليه محروما منه فحل بعد ذلك؛ و قد مر معنى الطيب و هو الملاءمه للطبع.

و قد اختلف المفسرون في تفسير الآيات بعد اتفاقهم على أنها إنما نزلت بعد وقعه بدر تعاتب أهل بدر و تبيح لهم الغنائم.

و السبب في اختلاف ما ورد في سبب نزولها و معاني جملها من الأخبار المختلفة،

و لو صحت الروايات لكان التأمل فيها قاضيا بتوسع عجيب في نقل الحديث بالمعنى حتى ربما اختلفت الروايات كالأخبار المتعارضة.

فاختلفت التفاسير بحسب اختلافها فمن ظاهر في أن العتاب و التهديد متوجه إلى النبي ص و المؤمنين جميعا، أو إلى النبي و المؤمنين ما عدا عمر، أو ما عدا عمر و سعد بن معاذ، أو إلى المؤمنين دون النبي أو إلى شخص أو أشخاص أشاروا إليه بالفداء بعد ما استشارهم.

و من قال: إن العتاب إنما هو على أخذهم الفداء، أو على استحلالهم الغنيمه قبل الإباحه من جانب الله، و النبي ص يشار بهم في ذلك لما أنه بدا باستشارتهم مع أن القوم إنما أخذوا الفداء بعد نزول الآيات لا قبله حتى يعاتبوا عليه، و النبي ص أجل من أن يجوز في حقه استحلال شيء قبل أن يأذن الله له فيه و يوحى بذلك إليه، و حاشا ساحه الحق سبحانه أن يهدد نبيه بعذاب عظيم ليس من شأنه أن ينزل عليه من غير جرم أجرمه و قد عصمه من المعاصي، و العذاب العظيم ليس ينزل إلا على جرم عظيم لا كما قيل: إن المراد به الصغائر.

فالذى ينبغي أن يقال: إن قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّىٰ تُمَّازَ فِي الْمَآرِضِ﴾ إن السنه الجاربه في الأنبياء الماضين (ع) أنهم كانوا إذا حاربوا أعداءهم و ظفروا بهم ينكلونهم بالقتل ليعتبر به من وراءهم فيكفوا عن محاده الله و رسوله، و كانوا لا يأخذون أسرى حتى يشخروا في الأرض، و يستقر دينهم بين الناس فلا مانع بعد ذلك من الأسر ثم المن أو الفداء كما قال تعالى فيما يوحى إلى نبيه ص بعد ما علا أمر الإسلام و استقر في الحجاز و اليمن: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثَخَتُّمُوهُم فَسَدُّوا الْوُثَاقَ فَمَا مَنَا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾. سورة محمد: -٤.

و العتاب على ما يهدى إليه سياق الكلام في الآيه الأولى إنما هو على أخذهم الأسرى كما يشهد به أيضا قوله في الآيه الثانيه: ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أى فى أخذكم و إنما كانوا أخذوا عند نزول الآيات الأسرى دون الفداء و ليس العتاب على استباحه الفداء أو أخذه كما احتمل.

بل يشهد قوله في الآيه التاليه: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ

«حيث افتتحت بفاء التفریع التي تفرع معناها على ما تقدمها:-

على أن المراد بالغنيمه ما يعم الفداء، وأنهم اقترحوا على النبي ص أن لا يقتل الأسرى و يأخذ منهم الفداء كما سألوه عن الأنفال أو سألوه أن يعطيهموها كما في آيه صدر السوره و كيف يتصور أن يسألوه الأنفال، ولا يسألوه أن يأخذ الفداء و قد كان الفداء المأخوذ-على ما في الروايات-يقرب من مائتين و ثمانين ألف درهم؟.

فقد كانوا سألو النبي ص أن يعطيهم الغنائم، و يأخذ لهم منهم الفداء فعاتبهم الله من رأس على أخذهم الأسرى ثم أباح لهم ما أخذوا الأسرى لأجله و هو الفداء لا لأن النبي ص شاركهم في استباحه الفداء و استشارهم في الفداء و القتل حتى يشاركهم في العتاب المتوجه إليهم.

و من الدليل من لفظ الآيه على أن النبي ص لا يشاركهم في العتاب إن العتاب في الآيه متعلق بأخذ الأسرى و ليس فيها ما يشعر بأنه استشارهم فيه أو رضى بذلك و لم يرد في شيء من الآثار أنه(ص)وصاهم بأخذ الأسرى و لا قال قولاً يشعر بالرضا بذلك بل كان ذلك مما أقدمت عليه عامه المهاجرين و الأنصار على قاعدتهم في الحروب:

إذا ظفروا بعدوهم أخذوا الأسرى للاسترقاق أو الفداء فقد ورد في الآثار أنهم بالغوا في الأسر و كان الرجل يقى أسيره أن يناله الناس بسوء إلا على(ع)فقد أكثر من قتل الرجال و لم يأخذ أسيراً.

فمعنى الآيات: «مَا كَانَ لِنَبِيٍِّّ» و لم يعهد في سنه الله في أنبيائه «أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى» و يحق له أن يأخذهم و يستدر على ذلك شيئاً «حَتَّى يُثْخِنَ» و يغلظ «فِي الْأَرْضِ» و يستقر دينه بين الناس «تُرِيدُونَ» أنتم معاشر أهل بدر-و خطاب الجميع بهذا العموم المشتمل على عتاب الجميع لكون أكثرهم متلبسين باقتراح الفداء على النبي ص- «عَرَضَ الدُّبِّيَّا» و متاعها السريع الزوال «وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ» بتشريع الدين و الأمر بقتال الكفار، ثم في هذه السنه التي أخبر بها في كلامه: «وَاللَّهُ عَزِيزٌ» لا يغلب «حَكِيمٌ» لا يلغو في أحكامه المتقنه.

«لَوْ لَا- كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَيَبَقَ» يقتضى أن لا- يعذبكم و لا- يهلككم، و إنما أبهم لأن الإبهام أنسب في مقام المعاتبه ليذهب ذهن السامع كل مذهب ممكن، و لا يتعين له فيهون عنده أمره «لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ» أى في أخذكم الأسرى فإن الفداء و الغنيمه لم

يؤخذ قبل نزول الآيات و إخبارهم بحليتها و طيبها «عِيْدَابٌ عَظِيْمٌ» و هو كما تقدم يدل على عظم المعصية لأن العذاب العظيم إنما يستحق بالمعصية العظيمة «فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ» و تصرفوا فيما أحرزتم من الفائده سواء كان مما تسلطتم عليه من أموال المشركين أو مما أخذتم منهم من الفداء «حَلَالًا طَيِّبًا» أى حالكونه حلالا طيبا بإباحه الله سبحانه «وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» و هو تعليل لقوله: «فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ» إلخ أى غفرنا لكم و رحمناكم فكلوا مما غنمتم أو تعليل لجميع ما تقدم أى لم يعذبكم الله بل أباحه لكم لأنه غفور رحيم.

قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى» إلى آخر الآيه كون الأسرى بأيديهم استعاره لتسلطهم عليهم تمام التسلط كالشيء يكون فى يد الإنسان يقبله كيف يشاء.

و قوله: «إِنَّ يَعْْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا» كناية عن الإيمان أو اتباع الحق الذى يلازمه الإيمان فإنه تعالى يعدهم فى آخر الآيه بالمغفره، و لا مغفره مع شرك قال تعالى:

«إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ.» النساء- ٤٨.

و معنى الآيه: يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى الذين تسلطتم عليهم و أخذت منهم الفداء: أن ثبت فى قلوبكم الإيمان و علم الله منكم ذلك- و لا يعلم إلا ما ثبت و تحقق- يؤتكم خيرا مما أخذ منكم من الفداء و يغفر لكم و الله غفور رحيم.

قوله تعالى: «وَ إِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ» إلخ أمكنه منه أى أقدره عليه و إنما قال أولا: «خِيَانَتَكَ» ثم قال: «خَانُوا اللَّهَ» لأنهم أرادوا بالفديه أن يجمعوا الشمل ثانيا و يعودوا إلى محاربه(ص)، و أما خيانتهم لله من قبل فهى كفرهم و إصرارهم على أن يطفئوا نور الله و كيدهم و مكرهم.

و معنى الآيه: إن آمنوا بالله و ثبت الإيمان فى قلوبهم آتاهم الله خيرا مما أخذ منهم و غفر لهم، و إن أرادوا خيانتك و العود إلى ما كانوا عليه من العناد و الفساد فإنهم خانوا الله من قبل فأمكنك منهم و أقدرك عليهم و هو قادر على أن يفعل بهم ذلك ثانيا، و الله عليم بخيانتهم لو خانوا حكيم فى إمكانك منهم.

فى المجمع،": فى قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى﴾ الخ-قال: كان القتلى من المشركين يوم بدر سبعين-قتل منهم على بن أبى طالب(ع)سبعة و عشرين (١)، و كان الأسرى أيضا سبعين، و لم يؤسر أحد من أصحاب النبى ص فجمعوا الأسارى، و قرنوهم فى الحبال، و ساقوهم على أقدامهم، و قتل من أصحاب رسول الله ص تسعة رجال-منهم سعد بن خيثمه و كان من النقباء من الأوس-.

قال: و عن محمد بن إسحاق قال: استشهد من المسلمين يوم بدر أحد عشر رجلا:

أربعة من قریش، و سبعة من الأنصار، و قيل: ثمانية، و قتل من المشركين بضعة و أربعون رجلا

(٢)

(.

قال: و عن ابن عباس قال: "لما أمسى رسول الله ص يوم بدر-و الناس محبوسون بالوثاق بات ساهرا أول الليله-فقال له أصحابه: ما لك لا تنام؟ فقال(ع): سمعت أنين عمى العباس فى وثاقه، فأطلقوه فسكت فنام رسول الله ص.

قال: و روى عبيده السلمانى عن رسول الله ص: أنه قال لأصحابه يوم بدر فى الأسارى: إن شئتم قتلتموهم، و إن شئتم فاديتموهم-و استشهد منكم بعدتهم، و كانت الأسارى سبعين-فقالوا: بل نأخذ الفداء فنستمع به-و نتقوى به على عدونا، و ليستشهد منا بعدتهم- قال عبيده طلبوا الخيرتين كلتيهما (٣)فقتل منهم يوم أحد سبعون.

و فى كتاب على بن إبراهيم،": لما قتل رسول الله ص النضر بن الحارث و عقبه بن أبى معيط-خافت الأنصار أن يقتل الأسارى-فقالوا: يا رسول الله قتلنا سبعين-و هم قومك و أسرتهك أ تجد أصلهم-فخذ يا رسول الله منهم الفداء، و قد كانوا أخذوا ما وجدوه من الغنائم فى عسكر قریش-فلما طلبوا إليه و سألوه نزلت الآية: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى﴾ الآيات-فأطلق لهم ذلك.

ص: ١٣٨

١-١) و لم يأسر أحدا على ما فى الروايات.

٢-٢) و هؤلاء هم الذين ضبط علماء الآثار أسماءهم غير من لم يضبط اسمه.

٣-٣) لكن قوله تعالى فى عتابهم «تريدون عرض الدنيا» يخطئ عبيده فى قوله.

و كان أكثر الفداء أربعة آلاف درهم- وأقله ألف درهم- فبعثت قريش بالفداء أولاً فأولاً- فبعثت زينب بنت رسول الله ص من فداء زوجها- أبى العاص بن الربيع، و بعثت قلائد لها كانت خديجه جهزتها بها، و كان أبو العاص ابن أخت خديجه، فلما رأى رسول الله ص تلك القلائد- قال: رحم الله خديجه هذه قلائد هي جهزتها بها- فأطلقه رسول الله ص بشرط أن يبعث إليه زينب، و لا يمنعها من اللحوق به فعاهده على ذلك و وفى له.

قال: و روى: أن النبي ص كره أخذ الفداء حتى رأى سعد بن معاذ- كراهيه ذلك فى وجهه- فقال: يا رسول الله- هذا أول حرب لقينا فئه المشركين- و الإثنان فى القتل أحب إلى من استبقاء الرجال، و قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله كذبوك و أخرجوك- فقدمهم و اضرب أعناقهم، و مكن عليا من عقيل فيضرب عنقه، و مكنى من فلان أضرب عنقه فإن هؤلاء أئمه الكفر، و قال أبو بكر: أهلك و قومك استأن بهم و استبقهم- و خذ منهم فديه فيكون لنا قوه على الكفار- قال ابن زيد فقال رسول الله ص: لو نزل عذاب من السماء ما نجا منكم أحد- غير عمر و سعد بن معاذ.

و قال أبو جعفر الباقر(ع): كان الفداء يوم بدر كل رجل من المشركين بأربعين أوقيه، و الأوقيه أربعون مثقالاً- إلا العباس فإن فداءه كان مائه أوقيه، و كان أخذ منه حين أسر عشرون أوقيه ذهباً- فقال النبي ص: ذلك غنيمه- ففاد نفسك و ابني أخيك نوفلا و عقيلاً- فقال: ليس معى شىء. فقال: أين الذهب الذى سلمته إلى أم الفضل- و قلت:

إن حدث بى حدث فهو لك- و للفضل و عبد الله و قثم. فقال: من أخبرك بهذا؟ قال: الله تعالى- فقال: أشهد أنك رسول الله- و الله ما اطلع على هذا أحد إلا الله تعالى.

أقول: و الروايات فى هذه المعانى كثيره من طرق الفريقين تركنا إيرادها إثارة للاختصار.

و فى قرب الإسناد، للحميرى عن عبد الله بن ميمون عن جعفر عن أبيه(ع) قال:

أوتى النبي ص بمال دراهم- فقال النبي ص للعباس: يا عباس- ابسط رداء و خذ من هذا المال طرفاً- فبسط رداء و أخذ منه طائفه- ثم قال رسول الله ص: يا عباس- هذا من الذى قال الله تبارك و تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْـِـرِى- إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ» قال: نزلت فى العباس و نوفل و عقيل-

و قال: إن رسول الله ص نهى يوم بدر- أن يقتل أحد من بنى هاشم و أبو البختري- فأسروا فأرسل عليا فقال: انظر من هاهنا من بنى هاشم؟ قال: فمر على عقيل بن أبي طالب فحاد عنه- قال فقال له: يا بن أم علي- أما والله لقد رأيت مكانى-.

قال: فرجع إلى رسول الله ص فقال: هذا أبو الفضل فى يد فلان، و هذا عقيل فى يد فلان، و هذا نوفل فى يد فلان يعنى نوفل بن الحارث- فقال رسول الله ص حتى انتهى إلى عقيل- فقال: يا أبا يزيد قتل أبو جهل! فقال: إذا لا تنازعوا فى تهامه. قال: إن كنتم أثنتم القوم و إلا فاركبوا أكتافهم-.

قال: فجىء بالعباس- فقيل له: أفد نفسك و أfd ابن [ابنى] أخيك فقال:

يا محمد تتركنى أسأل قريشا فى كفى- فقال (ص) له: أعط مما خلفت عند أم الفضل- و قلت لها إن أصابنى شىء فى وجهى- فأنفقيه على ولدك و نفسك. قال: يا ابن أخى من أخبرك بهذا؟ قال: أتانى به جبرئيل. فقال: و محلوفه ما علم بهذا إلا أنا و هى- أشهد أنك رسول الله. قال: فرجع الأسارى كلهم مشركين- إلا العباس و عقيل و نوفل بن الحارث» و فىهم نزلت هذه الآية: «قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى» الآية.

أقول: و روى فى الدر المنثور، هذه المعانى بطرق مختلفه عن الصحابه و روى نزول الآية فى العباس و ابنى أخيه عن ابن سعد و ابن عساكر عن ابن عباس، و روى مقدار الفديه التى فدى بها عن كل رجل من الأسارى، و قصه فديه العباس عنه و عن ابنى أخيه الطبرسى فى مجمع البيان، عن الباقر (ع) كما فى الحديث.

[سوره الأنفال (٨): الآيات ٧٢ الى ٧٥]

إشارة

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أَوْلِيَّكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَ إِنْ اسْتَنْصَرْتُمْهُمْ فَعَلَيْكُمْ النَّصِيرُ إِلا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَ فِئَاذٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أَوْلِيَّكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَ أُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥)

الآيات تختم السوره، و يرجع معناها نوع رجوع إلى ما افتتحت به السوره و فيها إيجاب الموالاه بين المؤمنين إلا- إذا اختلفوا بالمهاجره و عدمها و قطع موالاه الكافرين.

قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهِدُوا» إلى قوله: «أُولَئِكَ بَعْضٌ» المراد بالذين آمنوا و هاجروا: الطائفه الأولى من المهاجرين قبل نزول السوره بدليل ما سيذكر من المهاجرين فى آخر الآيات، و المراد بالذين آووا و نصرروا: هم الأنصار الذين آووا النبى ص و المؤمنين المهاجرين و نصرروا الله و رسوله، و كان ينحصر المسلمون يومئذ فى هاتين الطائفتين إلا قليل ممن آمن بمكّه و لم يهاجر.

و قد جعل الله بينهم ولايه بقوله: «أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» و الولايه أعم من ولايه الميراث و ولايه النصره و ولايه الأمن، فمن آمن منهم كافرا كان نافذا عند الجميع؛ فالبعض من الجميع ولى البعض من الجميع كالمهاجر هو ولى كل مهاجر و أنصارى، و الأنصارى ولى كل أنصارى و مهاجر، كل ذلك بدليل إطلاق الولايه فى الآيه.

فلا- شاهد على صرف الآيه إلى ولايه الإيرث بالمواخاه التى كان النبى ص جعلها فى بدء الهجره بين المهاجرين و الأنصار و كانوا يتوارثون بها زمانا حتى نسخت.

قوله تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا» إلى آخر الآيه، معناه واضح و قد نفيت

فيها الولايه بين المؤمنين المهاجرين و الأنصار و بين المؤمنين غير المهاجرين إلا و لايه النصره إذا استنصروهم بشرط أن يكون الاستنصار على قوم ليس بينهم و بين المؤمنين ميثاق.

قوله تعالى: « وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » أى إن ولايتهم بينهم لا تتعداهم إلى المؤمنين فليس للمؤمنين أن يتولواهم، و ذلك أن قوله هاهنا فى الكفار: « بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » كقوله فى المؤمنين: « أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » إنشاء و تشريع فى صورته الإخبار، و جعل الولايه بين الكفار أنفسهم لا يحتمل بحسب الاعتبار إلا ما ذكرناه من نفي تعديده عنهم إلى المؤمنين.

قوله تعالى: « إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَ فِسَادٌ كَبِيرٌ » إشاره إلى مصلحه جعل الولايه على النحو الذى جعلت، فإن الولايه مما لا غنى عنها فى مجتمع من المجتمعات البشريه سيما المجتمع الإسلامى الذى أسس على اتباع الحق و بسط العدل الإلهى كما أن تولى الكفار و هم أعداء هذا المجتمع يوجب الاختلاط بينهم فيسرى فيه عقائدهم و أخلاقهم، و تفسد سيره الإسلام المبنيه على الحق بسيرهم المبنيه على اتباع الهوى و عباده الشيطان، و قد صدق جريان الحوادث فى هذه الآونه ما أشارت إليه هذه الآيه.

قوله تعالى: « وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا » إلى آخر الآيه إثبات لحق الإيمان على من اتصف بآثاره اتصافا حقا، و وعد لهم بالمغفره و الرزق الكريم.

قوله تعالى: « وَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ » خطاب للمهاجرين الأولين و الأنصار و إلحاق من آمن و هاجر و جاهد معهم بهم فيشار كونهم فى الولايه.

قوله تعالى: « وَ أُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ » إلى آخر الآيه.

جعل للولايه بين أولى الأرحام و القرابات، و هى و لايه الإرث فإن سائر أقسام الولايه لا ينحصر فيما بينهم.

و الآيه تنسخ و لايه الإرث بالمواخاه التى أجزاها النبى ص بين المسلمين فى أول الهجره، و تثبت الإرث بالقرابه سواء كان هناك ذو سهم أو لم يكن أو كان عصبه أو لم يكن فالآيه مطلقه كما هو ظاهر.

فى المجمع، عن الباقر(ع): أنهم كانوا يتوارثون بالمواخاه.

أقول: ولا دلاله فيه على أن الآيه نزلت فى ولايه الإخوه.

فى الكافى، بإسناده عن أبى بصير عن أبى جعفر(ع) قال: الخال و الخاله يرثان إذا لم يكن معهما أحد- إن الله يقول: «و أولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله»:

أقول: و رواه العياشى عن أبى بصير عنه مرسلًا.

و فى تفسير العياشى، عن زراره عن أبى جعفر(ع): فى قول الله: «و أولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله» إن بعضهم أولى بالميراث من بعض- لأن أقربهم إليه أولى به. ثم قال أبو جعفر(ع)، إنهم أولى بالميت، و أقربهم إليه أمه و أخوه و أخته لأمه و أبيه- ليس الأم أقرب إلى الميت من إخوانه و أخواته؟

و فيه، عن ابن سنان عن أبى عبد الله(ع) قال: لما اختلف على بن أبى طالب(ع) و عثمان بن عفان- فى الرجل يموت و ليس له عصبه يرثونه- و له ذوو قرابه لا يرثونه:

ليس له بينهم مفروض، فقال على(ع) ميراثه لذوى قرابته- لأن الله تعالى يقول:

«و أولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله»

«و قال عثمان أجعل ميراثه فى بيت مال المسلمين- و لا يرثه أحد من قرابته.

أقول: و الروايات فى نفي القول بالعصبه و الاستناد فى ذلك إلى الآيه كثيره من أئمه أهل البيت(ع).

و فى الدر المثور، أخرج الطيالسى و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس قال: آخى رسول الله ص بين أصحابه- و ورث بعضهم من بعض حتى نزلت هذه الآيه «و أولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله» فتركوا ذلك و توارثوا بالنسب.

و فى المعانى، بإسناده فيه رفع عن موسى بن جعفر(ع): فيما جرى بينه و بين هارون- و فيه: قال هارون: فلم ادعيتم أنكم ورثتم رسول الله- و العم يحجب ابن العم، و قبض رسول الله و قد توفى أبو طالب قبله- و العباس عمه حى- إلى أن قال- فقلت: إن

النبى لم يورث من لم يهاجر- ولا أثبت له ولايه حتى يهاجر- فقال: ما حجتك فيه؟ قلت:

قول الله تبارك و تعالى: « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا » وإن عمى العباس لم يهاجر- فقال: إني سألتك يا موسى- هل أفيتت بذلك أحدا من أعدائنا- أم أخبرت أحدا من الفقهاء فى هذه المسأله بشىء؟ فقلت: اللهم لا و ما سألتى عنها إلا أمير المؤمنين: الحديث.

أقول: و رواه المفيد فى الإختصاص ، .

(٩) (سوره التوبه مدنيه و هى مائه و تسع و عشرون آيه) (١٢٩)

[سوره التوبه (٩): الآيات ١ الى ١٦]

اشاره

بِإِذْنِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسَيَحْضُرُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ أَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) وَ أَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ بَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ أَلِيمٍ (٣) إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُواكُمْ شَيْئًا وَ لَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتَيْتُمَا إِيَّاهُمْ وَعَهْدُهُمْ إِلَيْكُمْ مَدَّةً يُدْتَمِرُ مِنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤) فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ خُدُوهُمْ وَ خُضِرُوهُمْ وَ أَعْدُوا لَهُمْ كُلٌّ مَرْصِدٌ لِمَنْ تَابَ وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٦) كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَقْبِضُوا فِيكُمْ إِلَّا وَ لَا ذِمَّةٌ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَ تَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَ أَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اسْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا فَصِيدُوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لَا يَقْبِضُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَ لَا ذِمَّةً وَ أَوْلِيكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِنْ تَابُوا وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَ نَفَّصْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَانَهُمُ الْكُفْرُ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٢) أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَ هُمْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَ هُمْ يَدْعُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَ تَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَ يَخْزِيهِمْ وَ يَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَ يَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَ يُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَ تَتُوبُ اللَّهُ عَلَيَّ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَ لَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لَا رَسُولِهِ وَ لَا الْمُؤْمِنِينَ وَ لِيَجْهَ وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦)

الآيات مفتتح قبيل من الآيات سموها سورة التوبه أو سورة البراءه، وقد اختلفوا فى كونها سورة مستقلة أو جزء من سورة الأنفال، واختلاف المفسرين فى ذلك ينتهى إلى اختلاف الصحابه ثم التابعين فيه، وقد اختلف فى ذلك الحديث عن أئمه أهل البيت ((ع)) غير أن الأرجح بحسب الصنائه ما يدل من حديثهم على أنها ملحقة بسوره الأنفال.

والبحت عن معانى آياتها و ما اشتملت عليه من المضامين لا يهدى إلى غرض واحد متعين على حد سائر السور المشتمله على أغراض مشخصه تؤمها أوائلها و تنعطف إليها أو اخرها، فأولها آيات تؤذن بالبراءه و فيها آيات القتال مع المشركين، و القتال مع أهل الكتاب، و شطر عظيم منها يتكلم فى أمر المنافقين، و آيات فى الاستنهاض على القتال و ما يتعرض لحال المخلفين، و آيات ولايه الكفار، و آيات الزكاه و غير ذلك، و معظمها ما يرجع إلى قتال الكفار و ما يرجع إلى المنافقين.

و على أى حال لا- يترتب من جهه التفسير على هذا البحت فائده مهمه و إن أمكن ذلك من جهه البحت الفقهي الخارج عن غرضنا.

قوله تعالى: ﴿بِرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ قال الراغب:

أصل البرء و البراءة و التبرى -: التفصى مما يكره مجاورته، و لذلك قيل: برأت من المرض و برئت من فلان و تبرأت، و أبرأته من كذا و برأته، و رجل برىء و قوم براء و بريئون قال تعالى: براءه من الله و رسوله. انتهى.

و الآيه بالنسبه إلى الآيات التاليه كالعنوان المصدر به الكلام المشير إلى خلاصه القول على نهج سائر السور المفصله التى تشير الآيه و الآيتان من أولها على إجمال الغرض المسرود لأجل بيانه آياتها.

و الخطاب فى الآيه للمؤمنين أو للنبي ص و لهم على ما يدل عليه قوله: ﴿عَاهَدْتُمْ﴾ و قد أخذ الله تعالى و منه الخطاب و رسوله ص و هو الواسطه، و المشركون و هم الذين أريدت البراءه منهم، و وجه الخطاب ليبلغ إليهم جميعا فى الغيبه، و هذه الطريقه فى الأحكام و الفرائين المراد إيصالها إلى الناس نوع تعظيم لصاحب الحكم و الأمر.

و الآيه تتضمن إنشاء الحكم و القضاء بالبراءه من هؤلاء المشركين و ليس بتشريع محض بدليل تشريكه النبي ص فى البراءه فإن دأب القرآن أن ينسب الحكم التشريعى المحض إلى الله سبحانه وحده، و قد قال تعالى: «وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا» الكهف:- ٢٦ و لا ينسب إلى النبي ص إلا الحكم بالمعنى الذى فى الولايه و السياسه و قطع الخصومه.

فالمراد بالآيه القضاء برفع الأمان عن الذين عاهدوهم من المشركين و ليس رفعا جزافيا و إبطالا للعهد من غير سبب يبيح ذلك فإن الله تعالى سيذكر بعد عده آيات أنهم لا وثوق بعهدهم الذى عاهدوه و قد فسق أكثرهم و لم يراعوا حرمة العهد و نقضوا ميثاقهم، و قد أباح تعالى عند ذلك إبطال العهد بالمقابله نقضا بنقض حيث قال: «وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ» الأنفال:- ٥٨ فأباح إبطال العهد عند مخافه الخيانه و لم يرض مع ذلك إلا بإبلاغ النقض إليهم لئلا يؤخذوا على الغفله فيكون ذلك من الخيانه المحظوره.

و لو كان إبطالا لعهدهم من غير سبب مبيح لذلك من قبل المشركين لم يفرق بين من دام على عهده منهم و بين من لم يدم عليه، و قد قال تعالى مستثنيا: «إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَهُمْ وَ لَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحِدًا فَأَتَتْهُمْ إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ».

و لم يرض تعالى بنقض عهد هؤلاء المعاهدين الناقضين لعهدهم دون أن ضرب لهم أجلا ليفكروا فى أمرهم و يرتثوا رأيهم و لا يكونوا مأخوذين بالمباغته و المفاجاه.

فمحصل الآيه الحكم ببطلان العهد و رفع الأمان عن جماعه من المشركين كانوا قد عاهدوا المسلمين ثم نقضه أكثرهم و لم يبق إلى من بقى منهم وثوق تطمئن به النفس إلى عهدهم و تعتمد على يمينهم و تأمن شرهم و أنواع مكرهم.

قوله تعالى: «فَيَسَّيْخُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ اغْلَمُوا أَنْكُمْ غَيْرَ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ أَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ» السياحه هى السير فى الأرض و الجرى و لذلك يقال للماء الدائم الجريه فى ساحه: السائح.

و أمرهم بالسياحه أربعه أشهر كنايه عن جعلهم فى مأمن فى هذه البرهه من الزمان و تركهم بحيث لا يتعرض لهم بشر حتى يختاروا ما يرونه أنفع بحالهم من البقاء أو

الفناء مع ما فى قوله: «وَاعْلَمُوا أَنكُم غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ أَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ» من إعلامهم أن الأصلاح بحالهم رفض الشرك، و الإقبال إلى دين التوحيد، و موعظتهم أن لا يهلكوا أنفسهم بالاستكبار و التعرض للخزى الإلهى.

و قد وجه فى الآيه الخطاب إليهم بالالتفات من الغيبه إلى الخطاب لما فى توجيه الخطاب القاطع و الإراده الجازمه إلى الخصم من الدلاله على بسط الاستيلاء و الظهور عليه و استدلاله و استحقال ما عنده من قوه و شده.

و قد اختلفت أقوال المفسرين فى المراد بقوله: «أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ» و الذى يدل عليه السياق و يؤيده اعتبار إصدار الحكم و ضرب الأجل ليكونوا فى فسحه لاختيار ما وجدوه من الحياه أو الموت أنفع بحالهم: أن تبدأ الأربعة الأشهر من يوم الحج الأكبر الذى يذكره الله تعالى فى الآيه التالیه فإن يوم الحج الأكبر هو يوم الإبلاغ و الإيدان و الأنسب بضرب الأجل الذى فيه نوع من التوسعه للمحكوم عليهم و إتمام الحجّه، أن تبدأ من حين الاعلام و الإيدان.

و قد اتفقت كلمه أهل النقل أن الآيات نزلت سنه تسع من الهجره فإذا فرض أن يوم الحج الأكبر هو يوم النحر العاشر من ذى الحجّه كانت الأربعة الأشهر هى عشرون من ذى الحجّه و المحرم و صفر و ربيع الأول و عشره أيام من ربيع الآخر.

و عند قوم أن الأربعة الأشهر تبدأ من يوم العشرين من ذى القعدة و هو يوم الحج الأكبر عندهم فالأربعة الأشهر هى عشره أيام من ذى القعدة و ذو الحجّه و المحرم و صفر و عشرون من ربيع الأول، و سيأتى ما فيه.

و ذكر آخرون: أن الآيات نزلت أول شوال سنه تسع من الهجره فتكون الأربعة الأشهر هى شوال و ذو القعدة و ذو الحجّه و المحرم فتتقاضى بانقضاء الأشهر الحرم، و قد حدّاهم إلى ذلك القول بأن المراد بقوله تعالى فيما سيأتى: «فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا» الأشهر الحرم المعروفة: ذو القعدة و ذو الحجّه و المحرم فيوافق انسلاخ الأشهر الحرم انقضاء الأربعة الأشهر، و هذا قول بعيد عن الصواب لا يساعد عليه السياق و قرينه المقام كما عرفت.

قوله تعالى: «وَ أَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ

«الأذان هو الاعلام، وليست الآية تكرر لقوله تعالى السابق «بِرَاءةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» فإن الجملتين وإن رجعتا إلى معنى واحد و هو البراءة من المشركين إلا أن الآية الأولى إعلام البراءة و إبلاغه إلى المشركين بدليل قوله في ذيل الآية: «إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ» بخلاف الآية الثانية فإن وجه الخطاب فيه إلى الناس ليعلموا براءة الله و رسوله من المشركين، و يستعدوا و يتهيئوا لإنفاذ أمر الله فيهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم بدليل قوله: «إِلَى النَّاسِ وَ قَوْلُهُ تَفْرِيحًا: «فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» إلى آخر الآية.

و قد اختلفوا في تعيين المراد بيوم الحج الأكبر على أقوال:

منها: أنه يوم النحر من سنة التسع من الهجرة لأنه كان يوماً اجتمع فيه المسلمون و المشركون و لم يحج بعد ذلك العام مشرك، و هو المؤيد بالأحاديث المروية عن أنمه أهل البيت (ع) و الأنسب بأذان البراءة، و الاعتبار يساعد عليه لأنه كان أكبر يوم اجتمع فيه المسلمون و المشركون من أهل الحج عامه بمنى و قد ورد من طرق أهل السنة روايات في هذا المعنى غير أن مدلول جملها أن الحج الأكبر اسم يوم النحر فيتكرر على هذا كل سنة و لم يثبت من طريق النقل تسميه على هذا النحو.

و منها: أنه يوم عرفه لأن فيه الوقوف، و الحج الأصغر هو الذي ليس فيه وقوف و هو العمره، و هو استحسان لا دليل عليه، و لا سبيل إلى تشخيص صحته.

و منها: أنه اليوم الثاني ليوم النحر لأن الإمام يخطب فيه و سقم هذا الوجه ظاهر.

و منها: أنه جميع أيام الحج كما يقال: يوم الجمل، و يوم صفين، و يوم بغاث، و يراد به الحين و الزمان، و هذا القول لا يقابل سائر الأقوال كل المقابلة فإنه إنما يبين أن المراد باليوم جميع أيام الحج، و أما وجه تسميه هذا الحج بالحج الأكبر فيمكن أن يوجه ببعض ما في الأقوال السابقة كما في القول الأول.

و كيف كان فلا اعتبار لا يساعد على هذا القول لأن وجود يوم بين أيام الحج يجتمع فيه عامه أهل الحج يتمكن فيه من أذان براءة كل التمكن كيوم النحر يصرف قوله: «يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ» إلى نفسه، و يمنع شموله لسائر أيام الحج التي لا يجتمع فيها الناس ذاك الاجتماع.

ثم التفت سبحانه إلى المشركين ثانياً و ذكرهم أنهم غير معجزين لله ليكونوا على بصيره من أمرهم كما ذكرهم بذلك في الآية السابقة بقوله: «وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ أَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ» غير أنه زاد عليه في هذه الآية قوله: «فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ» ليكون تصريحاً بما لوح إليه في الآية السابقة فإن التذكير بأنهم غير معجزى الله إنما كان بمنزلة العظة و بذل النصح لهم لئلا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة باختيار البقاء على الشرك و التولى عن الدخول في دين التوحيد ففى التريدي تهديد و نصيحة و عظه.

ثم التفت سبحانه إلى رسوله فخاطبه أن يبشر الذين كفروا بعذاب أليم فقال:

«وَ بَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» و الوجه فى الالتفات الذى فى قوله: «فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ» إلخ ما تقدم فى قوله: «فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ» إلخ، و فى الالتفات الذى فى قوله:

«وَ بَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا» إلخ إنه رساله لا تتم إلا من جهه مخاطبه النبى ص.

قوله تعالى: «إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوا شَيْئاً وَ لَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً» إلخ، استثناء من عموم البراءه من المشركين، و المستثنون هم المشركون الذين لهم عهد لم ينقضوه لا مستقيماً و لا غير مستقيم فمن الواجب الوفاء بميثاقهم و إتمام عهدهم إلى مدتهم.

و قد ظهر بذلك أن المراد من إضافه قوله: «وَ لَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً» إلى قوله:

«لَمْ يَنْقُصُوا وَ كُمْ شَيْئاً» استيفاء قسمى النقص و هما النقص المستقيم كقتلهم بعض المسلمين، و النقص غير المستقيم نظير مظاهرتهم بعض أعداء المسلمين عليهم كإمداد مشركى مکه بنى بكر على خزاعه بالسلاح، و كانت بنو بكر فى عهد قريش و خزاعه فى عهد النبى ص فحاربوا فأعانت قريش بنى بكر على خزاعه و نقضت بذلك عهد حديبيه الذى عقده بينهم و بين النبى ص، و كان ذلك من أسباب فتح مکه سنه ثمان.

و قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» فى مقام التعليل لوجوب الوفاء بالعهد ما لم ينقضه المعاهد المشرك، و ذلك يجعل احترام العهد و حفظ الميثاق أحد مصاديق التقوى المطلق الذى لا يزال يأمر به القرآن و قد صرح به فى نظائر هذا المورد كقوله تعالى:

«وَ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمِ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ» المائده: ٨- و قوله: «وَ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمِ أَنْ صَدُّوا عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا، وَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوَىٰ وَ لَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ» المائده: ٢.

و بذلك يظهر ما فى قول بعضهم: إن المراد بالمتقين الذين يتقون نقض العهد من غير سبب، و ذلك أن التقوى بمعنى الورع عن محارم الله عامه كالحقيقه الثانيه فى القرآن فيحتاج إرادته خلافه إلى قرينه صارفه.

قوله تعالى: «فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْضُرُواهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ» أصل الانسلاخ من سلخ الشاه و هو نزع جلدها عنها، و انسلاخ الشهر نوع كناية عن خروجه، و الحصر هو المنع من الخروج عن محيط، و المرصد اسم مكان من الرصد بمعنى الاستعداد للرقوب.

قال الراغب: الرصد الاستعداد للترقب يقال: رصد له و ترصد و أرصدته له، قال عز و جل: «وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ»، و قوله عز و جل: «إِنَّ رَبَّكَ لَبَلْمُرْصِدٍ تَنْبِيهَا أَنَّهُ لَا مَلْجَأَ وَلَا مَهْرَبَ»، و الرصد يقال للراصد الواحد و الجماعه الراصدين و للمرصود واحدا كان أو جمعا، و قوله تعالى: «يَسْئَلُكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصِيدًا» يحتتمل كل ذلك، و المرصد موضع الرصد. انتهى.

و المراد بالأشهر الحرم هى الأربعة الأشهر: أشهر السياحه التى ذكرها الله سبحانه فى قوله: «فَسَيَحْوَا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ» و جعلها أجلا مضروبا للمشركين لا يتعرض فيها لحالهم و أما الأشهر الحرم المعروفة أعنى ذا القعدة و ذا الحجه و المحرم فإنها لا تنطبق على أذان براءة الواقع فى يوم النحر عاشر ذى الحجه بوجه كما تقدمت الإشارة إليه.

و على هذا فاللام فى الأشهر الحرم للعهد الذكرى أى إذا انسلاخ هذه الأشهر التى ذكرناها و حرمانها للمشركين لا يتعرض لحالهم فيها فاقتلوا المشركين إلخ.

و يظهر بذلك أن لا- وجه لحمل قوله: «فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ» على انسلاخ ذى القعدة و ذى الحجه و المحرم بأن يكون انسلاخ الأربعة الأشهر بانسلاخ الأشهر الثلاثة منطبقا عليه أو يكون انسلاخ الأشهر الحرم مأخوذا على نحو الإشارة إلى انقضاء الأربعة الأشهر و إن لم ينطبق الأشهر على الأشهر فإن ذلك كله مما لا سبيل إليه بحسب السياق و إن كان لفظ الأشهر الحرم فى نفسه ظاهرا فى شهور رجب و ذى القعدة و ذى الحجه و المحرم.

و قوله: «فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» محقق للبراءه منهم و رفع الاحترام

عن نفوسهم ياهدأر الدماء فلا- مانع من أى نازله نزلت بهم، و فى قوله: «حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» تعميم للحكم فلا مانع حاجب عن وجوب قتلهم حيثما وجدوا فى حل أو حرم بل و لو ظفر بهم فى الشهر الحرام-بناء على تعميم «حَيْثُ» للزمان و المكان كليهما- فيجب على المسلمين كائنين من كانوا إذا ظفروا بهم أن يقتلوهم، كان ذلك فى الحل أو الحرم فى الشهر الحرام أو غيره.

و إنما أمر بقتلهم حيث وجدوا للتوسل بذلك إلى إيرادهم مورد الفناء و الانقراض، و تطيب الأرض منهم، و إنجاء الناس من مخالطتهم و معاشرتهم بعد ما سمح و أبيع لهم ذلك فى قوله: «فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ».

و لازم ذلك أن يكون كل من قوله: «فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» و قوله:

« وَ خُذُواهُمْ » و قوله: « وَ أَحْصِرُواهُمْ » و قوله: « وَ اقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ » بياناً لنوع من الوسيله إلى إفناء جمعهم و إنفاد عددهم، ليتفصى المجتمع من شرهم.

فإن ظفر بهم و أمكن قتلهم قتلوا، و إن لم يمكن ذلك قبض عليهم و أخذوا، و إن لم يمكن أخذهم حصروا و حبسوا فى كهفهم و منعوا من الخروج إلى الناس و مخالطتهم و إن لم يعلم محلهم قعد لهم فى كل مرصد ليظفر بهم فيقتلوا أو يؤخذوا.

و لعل هذا المعنى هو مراد من قال: إن المراد: فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم أو خذوهم و احصروهم على وجه التخيير فى اعتبار الأصلى من الأمرين، و إن كان لا يخلو عن تكلف من جهة اعتبار الأخذ و الحصر و القعود فى كل مرصد أمراً واحداً فى قبال القتل، و كيف كان فالسياق إنما يلائم ما قدمناه من المعنى.

و أما قول من قال: إن فى قوله: «فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ خُذُواهُمْ»، تقديماً و تأخيراً، و التقدير: فخذوا المشركين حيث وجدتموهم و اقتلوهم فهو من التصرف فى معنى الآيه من غير دليل مجوز، و الآيه و خاصه ذيلها يدفع ذلك سيقاً.

و معنى الآيه: فإذا انسلخ الأشهر الحرم و انقضى الأربعة الأشهر التى أمهلناهم بها بقولنا: «فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ» فأفنوا المشركين بأى وسيله ممكنه رأيتموها أقرب و أوصل إلى إفناء جمعهم و إمحاء رسمهم من قتلهم أينما وجدتموهم من حل أو حرم

و متى ما ظفرتهم بهم فى شهر حرام أو غيره و من أخذهم أو حصرهم أو القعود لهم فى كل مرصد حتى يفتنوا عن آخرهم.

قوله تعالى: «فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» اشتراط فى معنى الغايه للحكم السابق، و المراد بالتوبه معناها اللغوى و هو الرجوع أى إن رجعوا من الشرك إلى التوحيد بالإيمان و نصبوا لذلك حجه من أعمالهم و هى الصلاه و الزكاه و التزموا أحكام دينكم الراجعه إلى الخالق جميعا فخلوا سبيلهم.

و تخليه السبيل كناية عن عدم التعرض لسالكيه و إن عادت مبتذله بكثرة التداول كان سبيلهم مسدوده مشغوله بتعرض المتعرضين فإذا خلى عنها كان ذلك ملازما أو منطبقا على عدم التعرض لهم.

و قوله: «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» تعليل لقوله: «فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ» إما من جهه الأمر الذى يدل عليه بصورته أو من جهه المأمور به الذى يدل عليه بمادته أعنى تخليه سبيلهم.

و المعنى على الأول: و إنما أمر الله بتخليه سبيلهم لأنه غفور رحيم يغفر لمن تاب إليه و يرحمه.

و على الثانى: خلوا سبيلهم لأن تخليتكم سبيلهم من المغفره و الرحمه، و هما من صفات الله العليا فتتصفون بذلك بصفه ربكم و أظهر الوجهين هو الأول.

قوله تعالى: «وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ» إلى آخر الآيه، الآيه تتضمن حكم الإجاره لمن استجار من المشركين لأن يسمع كلام الله، و هى بما تشتمل عليه من الحكم و إن كانت معترضه أو كالمعترضه بين ما يدل على البراءه و رفع الأمان عن المشركين إلا أنها بمنزله دفع الدخل الواجب الذى لا يجوز إهماله فإن أساس هذه الدعوه الحقه و ما يصاحبها من الوعد و الوعيد و التبشير و الإنذار، و ما يترتب عليه من عقد العقود و إبرام العقود أو النقص و البراءه و أحكام القتال كل ذلك إنما هو لصرف الناس عن سبيل الغى و الضلال إلى صراط الرشده و الهدى، و إنجائهم من شقاء الشرك إلى سعاده التوحيد.

و لازم ذلك الاعتناء التام بكل طريق يرمى فيه الوصول إلى هدايه ضال و الفوز بإحياء حق و إن كان يسيرا قليلا فإن الحق حق و إن كان يسيرا، و المشرك غير المعاهد

و إن أبرأ الله منه الذمه و أهدر دمه و رفع الحرمة عن كل ما يعود إليه من مال و عرض لكنه تعالى إنما فعل به ذلك ليحيى حق و يبطل باطل فإذا رجي منه الخير منع ذلك من أى قصد سيئ يقصد به حتى يحصل اليأس من هدايته و إنجائه.

فإذا استجار المشرك لينظر فيما تندب إليه الدعوه الحقه و يتبعها إن اتضحت له كان من الواجب إجارته حتى يسمع كلام الله و يرتفع عنه غشاوه الجهل و تتم عليه الحججه فإذا تمادى بعد ذلك فى ضلاله و أصر فى استكباره صار ممن ارتفع عنه الأمان و برئت منه الذمه و وجب تطيب الأرض من قذاره وجوده بأية وسيله أمكنت و أى طريق كان أقرب و أسهل و هذا هو الذى يفيدته قوله تعالى: «وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ» الآية بما يكتنف به من الآيات.

فمعنى الآية: إن طلب منك بعض هؤلاء المشركين الذين رفع عنهم الأمان أن تأمنه فى جوارك ليحضر عندك و يكلمك فيما تدعو إليه من الحق الذى يتضمنه كلام الله فأجره حتى يسمع كلام الله و يرتفع عنه غشاوه الجهل ثم أبلغه مأمنه حتى يملك منك أمنا تاما كاملا، و إنما شرع الله هذا الحكم و بذل لهم هذا الأمان التام لأنهم قوم جاهلون و لا بأس على جاهل إذا رجي منه الخير بقبول الحق لو وضح له.

و هذا غاية ما يمكن مراعاته من أصول الفضيله و حفظ الكرامه و نشر الرحمه و الرأفه و شرافه الإنسانيه اعتبره القرآن الكريم، و ندب إليه الدين القويم.

و قد بان بما قدمناه أولا: أن الآية مخصصه لعموم قوله فى الآية السابقه: «فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ.» و ثانيا: أن قوله: «حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ» غاية للاستجاره و الإجاره فيتغيا به الحكم، فالاستئمان إنما كان لسمع كلام الله و استفسار ما عند الرسول من مواد الرساله فيتقدر الأمان الذى يعطاه المستجير المستأمن بقدره فإذا سمع من كلام الله ما يتبين به الرشد من الغى و يتميز به الهدى من الضلال انتهت مده الاستجاره و حان أن يرد المستجير إلى مأمنه و المكان الخاص به الذى هو فى أمن فيه، لا يهدده فيه سيوف المسلمين ليرجع إلى حاله الذى فارقه، و يختار لنفسه ما يشاء على حريه من المشيه و الإراده.

و ثالثاً: أن المراد بكلام الله مطلق آيات القرآن الكريم، نعم يتقيد بما ينفع المستجير من الآيات التي توضح له أصول المعارف الإلهية و معالم الدين و الجواب عما يختلج في صدره من الشبهات كل ذلك بدلاله المقام و السياق.

و بذلك يظهر فساد ما قيل: إن المراد بكلام الله آيات التوحيد من القرآن، و كذا ما قيل: إن المراد به سورة براه أو خصوص ما بلغوه في الموسم من آيات صدر السوره فإن ذلك كله تخصيص من غير مخصص.

و رابعاً: أن المراد بسمع كلام الله الوقوف على أصول الدين و معالمه و إن أمكن أن يقال: إن لاستماع نفس كلام الله فيما إذا كان المستجير عربياً يفهم الكلام الإلهي دخلاً في ذلك أما إذا كان غير عربي و لا يفهم الكلام العربي فالمستفاد من السياق أن الغايه في حقه مجرد تفقه أصول الدين و معالمه.

و خامساً: أن الآيه محكمه غير منسوخه و لا- قابله له لأن من الضروري البين من مذاق الدين، و ظواهر الكتاب و السنه أن لا مؤاخذه قبل تمام الحجه، و لا- تشديد أى تشديد كان إلا- بعد البيان فالجاهل السالك في سبيل الفحص أو المستعلم للحق المستفهم للحقيقه لا يرد خائباً و لا يؤخذ غافلاً فعلى الإسلام و المسلمين أن يعطوا كل الأمان لمن استأمنهم ليستحضر معارف الدين و يستعلم أصول الدعوه حتى يتبعها إن لاحت له فيها لوائح الصدق، و هذا أصل لا يقبل بطلاناً و لا تغييراً ما دام الإسلام إسلاماً فالآيه محكمه غير قابله للنسخ إلى يوم القيامه.

و من هنا يظهر فساد قول من قال: إن قوله: «وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ» الآيه منسوخه بالآيه الآتية: «وَ قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً» الآيه.

و سادساً: أن الآيه إنما توجب إجاره المستجير إذا استجار لأمر ديني يرجي فيه خير الدين، و أما مطلق الاستجاره لا لغرض ديني و لا نفع عائذ إليه فلا دلالة لها عليه أصلاً بل الآيات السابقه الآمره بالتشديد عليهم في محلها.

و سابعاً: أن قوله في تتميم الأمر بالإجاره: «ثُمَّ أبلغه مأمته» مع تمام قوله:

«فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ» بدونه في الدلاله على المقصد يدل على كمال العناية بفتح باب

الهدايه على وجوه الناس، و التحفظ على حريه الناس فى حياتهم و أعمالهم الحيويه، و الإغماض فى طريقه عن كل حكم حتمى و عزيمه قاطعه ليهلك من هلك عن بينه و يحيا من حيا عن بينه، و لا يكون للناس على الله حجه بعد الرسل.

و ثامنا: أن الآيه- كما قيل- تدل على أن الاعتقاد بأصل الدين يجب أن يكون عن علم يقينى لا يداخله شك و لا يمازجه ريب و لا يكفى فيه غيره و لو كان الظن الراجح، و قد ذم الله تعالى اتباع الظن، و ندب إلى اتباع العلم فى آيات كثيره كقوله تعالى: «وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» إسرائ: -٣٦ و قوله: «إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ إِلَّا الظَّنُّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا» النجم: -٢٨ و قوله: «مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ» الزخرف: -٢٠.

و لو كفى فى أصل الدين الاعتقاد التقليدى لم يستقم الحكم بإجاره من استجار لتفهم أصول الدين و معارفه لجواز أن يكلف بالتقليد و الكف عن البحث عن أنه حق أو باطل هذا.

و لكن المقدار الواجب فى ذلك أن يكون عن علم قطعى سواء كان حاصلًا عن الاستدلال بطرق فنيه أو بغير ذلك من الوجوه المفيده للعلم و لو على سبيل الاتفاق، و هذا غير القول بأن الاستدلال على أصول المعارف لا يصح إلا من طريق العقل فإن صحه الاستدلال أمر، و جواز الاعتماد على العلم بأى طريق حصل أمر آخر.

قوله تعالى: «كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ» الآيه، تبيين و توضيح لما مر إجمالًا من الحكم بنقض عهد المشركين ممن لا وثوق بوفائه بعهده، و قتلهم إلى أن يؤمنوا بالله و يخضعوا لدين التوحيد، و استثناء من لم ينقض العهد و بقى على الميثاق حتى ينقضى مده عهدهم.

فالآيه و ما يتلوها إلى تمام ست آيات تبين ذلك و توضح الحكم و استثناء ما استثنى منه و الغايه و المغيا جميعا.

فقوله: «كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ» استفهام فى مقام الإنكار، و قد بادرت الآيه إلى استثناء الذين عاهدوهم من المشركين عند المسجد الحرام لكونهم لم ينقضوا عهدا و لم يساهلوا فيما واثقوا به بدليل قوله تعالى: «فَمَا اسْتَقَامُوا

«وذلك أن الاستقامة لمن استقام و السلم لمن يسالم من لوازم التقوى الدينى، ولذلك علل قوله ذلك بقوله: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» كما جاء مثله بعينه فى الآية السابقة: «فَاتَّبِعُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ».

قوله تعالى: «كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً» إلى آخر الآية، قال الراغب فى المفردات: الإل كل حاله ظاهره من عهد حلف، و قرابه تثل:

تلمع فلا يمكن إنكاره، قال تعالى: لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً، و آل الفرس:

أسرع، حقيقته لمع، و ذلك استعاره فى باب الإسراع نحو برق و طار. انتهى.

و قال أيضا: الذمام -بكسر الـذال- ما يذم الرجل على إضاعته من عهد، و كذلك الذمه و المذمه، و قيل: لى مذمه فلا تهتكها، و أذهب مذمتهم بشىء: أى أعطهم شيئا لما لهم من الذمام. انتهى. و هو ظاهر فى أن الذمه مأخوذة من الذم بالمعنى الذى يقابل المدح.

و لعل إلقاء المقابلة فى الآية بين الإل و الذمه للدلالة على أنهم لا يحفظون فى المؤمنين شيئا من المواثيق التى يجب رقوبها و حفظها سواء كانت مبنية على أصول واقعية تكوينية كالقرابه التى توجب بوجه على القريب رعايه حال قربه، أو على الجعل و الاصطلاح كالعهود و المواثيق المعقودة بحلف و نحوه.

و قد كررت لفظه «كيف» للتأكيد و لرفع الإبهام فى البيان الناشئ من تحلل قوله: «إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ» الآية بطولها بين قوله: «كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ» الآية و قوله: «وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ» الآية.

فمعنى الآية: كيف يكون للمشركين عهد عند الله و عند رسوله و الحال أنهم إن يظهروا عليكم و يغلبوكم على الأمر لا يحفظوا و لا يراعوا فيكم قرابه و لا عهدا من العهود يرضونكم بالكلام المدلس و القول المزوق، و يأبى ذلك قلوبهم، و أكثرهم فاسقون.

و من هنا ظهر أن قوله: «يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ» من المجاز العقلى نسب فيه الإرضاء إلى الأفواه و هو فى الحقيقة منسوب إلى القول و الكلام الخارج من الأفواه المكون فيها.

و قوله: «يُرْضُونَكُمْ» الآية تعليل لإنكار وجود العهد للمشركين و لذلك

جىء به بالفصل، و التقدير: كيف يكون لهم عهد و هم يرضونكم بأفواههم و تأبى قلوبهم و أكثرهم فاسقون.

و أما قوله: «وَ أَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ» ففيه بيان أن أكثرهم ناقضون للعهد و الميثاق بالفعل من غير أن ينتظروا ظهورهم جميعا عليكم فالآيه توضح حال آحادهم و جميعهم بأن أكثرهم فاسقون بنقض العهد من غير أن يرقبوا فى مؤمن إلا و لا ذمه، و لو أنهم ظهروا عليكم جميعا لم يرقبوا فيكم إلا و لا ذمه.

قوله تعالى: «إِشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا» إلى آخر الآيتين، بيان و تفسير لقوله فى الآيه السابقه: «وَ أَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ» و كان قوله: «إِشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا» إلى آخر الآيه توطئه و تمهيد لقوله فى الآيه الثانيه: «لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَا لَا ذِمَّةً».

و بذلك يظهر أن الأقرب أن المراد بالفسق الخروج عن العهد و الذمه دون الفسق بمعنى الخروج عن زى عبوديه الله سبحانه و إن كان الأمر كذلك.

و قوله: «وَ أَوْلَيْكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ» كالتفسير لجميع ما مر من أحوالهم الروحيه و أعمالهم الجسميه، و تفيد الجمله مع ذلك جوابا عن سؤال مقدر أو ما يجرى مجراه و المعنى: إذا كان هذا حالهم و هذه أفعالهم فلا تحسبوا أن لو نقضتم عهدهم اعتديتم عليهم فأولئك هم المعتدون عليكم لما أضمره من العداوه و البغضاء و لما أظهره أكثرهم فى مقام العمل من الصد عن سبيل الله، و عدم رعايه قرابه و لا عهد فى المؤمنين.

قوله تعالى: «فَإِنْ تَابُوا وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ» إلى آخر الآيتين، الآيتان بيان تفصيلى لقوله فيما تقدم: «فَإِنْ تَابُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ».

و المراد بالتوبه بدلاله السياق الرجوع إلى الإيمان بالله و آياته، و لذلك لم يقتصر على التوبه فقط بل عطف عليها إقامه الصلاه التى هى أظهر مظاهر عباده الله، و إيتاء الزكاه الذى هو أقوى أركان المجتمع الدينى، و قد أشير بهما إلى نوع الوظائف الدينيه التى ياتيانها يتم الإيمان بآيات الله بعد الإيمان بالله عز اسمه فهذا معنى قوله: «تَابُوا وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوْا الزَّكَاةَ».

و أما قوله: «فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ» فالمراد به بيان التساوى بينهم و بين سائر المؤمنين

فى الحقوق التى يعبرها الإسلام فى المجتمع الإسلامى: لهم ما للمسلمين و عليهم ما على المسلمين.

وقد عبر فى الآيه عن ذلك بالأخوه فى الدين، و قال فى موضع آخر: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ»: الحجرات: -١٠ اعتبارا بما بينهم من التساوى فى الحقوق الدينيه فإن الأخوين شقيقان اشتقا من ماده واحده و هما لذلك متساويان فى الشئون الراجعه إلى ذلك فى مجتمع المنزل عند والدهما الذى هو رب البيت، و فى مجتمع القرابه عند الأقرباء و العشيره.

و إذ كان لهذا المعنى المسمى بلسان الدين أخوه أحكام و آثار شرعيه اعتنى بها قانون الإسلام فهو اعتبار حقيقه لنوع من الأخوه بين أفراد المجتمع الإسلامى لها آثار مترتبه كما أن الأخوه الطبيعيه فيما اعتبرها الإسلام لها آثار مترتبه عقلائيه و دينيه و ليست تسميه ذلك أخوه مجرد استعاره لفظيه عن عنايه مجازيه،

و فيما نقل عن النبى ص:

قوله: «المؤمنون إخوه يسعى بدمتهم أذناهم، و هم يد واحده على من سواهم».

و قوله: «وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَانَهُمُ الْكُفْرَ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ» الآيه يدل السياق أنهم غير المشركين الذين أمر الله سبحانه فى الآيه السابقه بنقض عهدهم و ذكر أنهم هم المعتدون لا يرقبون فى مؤمن إلا و لا ذمه فإنهم ناكثون للأيمان ناقضون للعهد، فلا يستقيم فيهم الاشتراط الذى ذكره الله سبحانه بقوله: «وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ» الآيه.

فهؤلاء قوم آخرون لهم مع ولى الأمر من المسلمين عهود و أيمان ينكثون أيمانهم من بعد عهدهم، أى ينقضون عهودهم من بعد عقدها فأمر الله سبحانه بقتالهم و ألغى أيمانهم و سماهم أئمه الكفر لأنهم السابقون فى الكفر بآيات الله يتبعهم غيرهم ممن يليهم، يقاتلون جميعا لعلهم ينتهون عن نكث الأيمان و نقض العهود.

قوله تعالى: «أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَ هُمْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ» الآيه و ما بعدها إلى تمام أربع آيات تحريض للمؤمنين و تهيج لهم على قتال المشركين بيان ما أجرموا به فى جنب الله و خانوا به الحق و الحقيقه، و عد خطاياهم و طغياناتهم من نكث الأيمان و الهم بإخراج الرسول و البدء بالقتال أول مره.

ثم بتعريف المؤمنين أن لازم إيمانهم بالله الذى يملك كل خير و شر و نفع و ضر

أن لا- يخشوا إلا- إياه إن كانوا مؤمنين به ففي ذلك تقويه لقلوبهم و تشجيعهم عليهم، و ينتهى إلى بيان أنهم ممتحنون من عند الله بإخلاص الإيمان له و القطع من المشركين حتى يؤجروا بما يؤجر به المؤمن المتحقق فى إيمانه.

قوله تعالى: ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ إلى آخر الآيتين. أبعاد الأمر بالقتال لأنه صار من جهه ما تقدم من التحريض و التحضيض أوقع فى القبول فإن الأمر الأول كان ابتدائيا غير مسبوق بتمهيد و توطئه بخلاف الأمر الثانى الوارد بعد اشتداد الاستعداد و كمال التهيؤ من المأمورين.

على أن ما اتبع به الأمر من قوله: ﴿ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَ يُخْزِهِمْ ﴾ إلى قوله:

﴿ وَ يُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ يؤكد الأمر و يغرى المأمورين على امتثاله و إجرائه على المشركين فإن تذكرهم إن قتل المشركين عذاب إلهى لهم بأيدى المؤمنين، و إن المؤمنين أباد مجريه لله سبحانه و إن فى ذلك خزيا للمشركين و نصره من الله للمؤمنين عليهم و شفاء لصدور قوم مؤمنين و إذهابا لغيظ قلوبهم، يجرتهم للعمل و ينشطهم و يصفى إرادتهم.

و قوله: ﴿ وَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾ الآية بمنزله الاستثناء لئلا يجرى حكم القتال على إطلاقه.

قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ ﴾ إلى آخر الآية بمنزله تعليل آخر لوجوب قتالهم لينتج تحريضهم على القتال و فيه بيان حقيقه الأمر، و محصله أن الدار دار الامتحان و الابتلاء فإن نفوس الآدميين تقبل الخير و الشر و السعاده و الشقاوه فهى فى أول كينونتها ساذجه مبهمه، و مراتب القرب و الزلفى إنما تبدل بإزاء الإيمان الخالص بالله و آياته، و لا يظهر صفاء الإيمان إلا بالامتحان الذى يورد المؤمن مقام العمل، ليميز الله بذلك الطيب من الخبيث، و الصافى الإيمان ممن ليس عنده إلا مجرد الدعوى أو المزعمه.

فمن الواجب أن يمتحن هؤلاء المدعون أنهم باعوا أنفسهم و أموالهم لله بأن لهم الجنه، و يبتلوا بمثل القتال الذى يميز به الصادق من الكاذب و يفصل الذى قطع روابط المحبه و الصله من أعداء الله سبحانه ممن فى قلبه بقايا من ولايتهم و مودتهم حتى يحيا هؤلاء و يهلك أولئك.

فعلى المؤمنين أن يمثّلوا أمر القتال بل يتسارعوا إليه و يتسابقوا فيه ليظهروا بذلك صفاء جوهرهم و حقيقه إيمانهم و يحتجوا به على ربهم يوم لا نجاح فيه إلا بحجه الحق.

فقوله: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا» أى بل أظننتم أن تتركوا على ما أنتم عليه من الحال و لما تظهر حقيقه صدقكم فى دعوى الإيمان بالله و بآياته.

و قوله: «وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الْآيَةَ أَى و لما يظهر فى الخارج جهادكم و عدم اتخاذكم من دون الله و لا رسوله و لا المؤمنين وليجه فإن تحقق الأشياء علم منه تعالى بها و قد مر نظير الكلام مع بسط ما فى تفسير قوله تعالى: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهِدُوا مِنْكُمْ» Xالآية Xآل عمران: ١٤٢ فى الجزء الرابع من الكتاب. و من الدليل على هذا الذى ذكرنا فى معنى العلم قوله فى ذيل الآية: «وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ».

و الوليجه على ما فى مفردات الراغب، كل ما يتخذة الإنسان معتمدا عليه و ليس من أهله.

(بحث روائى)

فى تفسير القمى، فى قوله تعالى: «بِرَاءةٍ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ» حدثنى أبى عن محمد بن الفضل عن ابن أبى عمير عن أبى الصباح الكنانى عن أبى عبد الله (ع) قال: نزلت هذه الآية بعد ما رجع رسول الله ص من غزوه تبوك فى سنة تسع من الهجرة.

قال: " و كان رسول الله ص لما فتح مكة- لم يمنع المشركين الحج فى تلك السنة، و كان سنة من العرب فى الحج أنه من دخل مكة- و طاف البيت فى ثيابه لم يحل له إمساكها، و كانوا يتصدقون بها و لا يلبسونها بعد الطواف- فكان من وافى مكة يستعير ثوبا و يطوف فيه ثم يردده، و من لم يجده عاريه و لا كرى- و لم يكن له إلا ثوب واحد طاف بالبيت عريانا-.

فجاءت امرأه من العرب و سيمه جميله- فطلبت ثوبا عاريه أو كرى فلم تجده- فقالوا لها: إن طفت فى ثيابك- احتجت أن تتصدقى بها- فقالت: كيف أتصدق و ليس لى غيرها؟ فطافت بالبيت عريانه و أشرف لها الناس- فوضعت إحدى يديها على قبلها- و الأخرى على دبرها و قالت شعرا:

اليوم يبدو بعضه أو كله

-فما بدا منه فلا أحله-

فلما فرغت من الطواف خطبها جماعه-فقال: إن لى زوجا-

و كانت سيره رسول الله ص قبل نزول سوره براءه- أن لا- يقاتل إلا من قاتله و لا يحارب إلا من حاربه و أرادته، و قد كان أنزل عليه [فى] ذلك «فَإِنْ اعْتَرَفْتُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُكُمْ وَ أَلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ -فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا» فكان رسول الله ص لا يقاتل أحدا قد تنحى عنه- و اعتزله حتى نزلت عليه سوره براءه- و أمره بقتل المشركين من اعتزله و من لم يعتزله- إلا الذين قد عاهدهم رسول الله ص يوم فتح مكه إلى مده: منهم صفوان بن أميه و سهيل بن عمرو- فقال الله عز و جل: «بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ- إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ- فَسَيَحُورُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ» ثم يقتلون حيثما وجدوا بعد. هذه أشهر السياحه:- عشرين من ذى الحجه و المحرم و صفر- و شهر ربيع الأول و عشرين من ربيع الآخر-.

فلما نزلت الآيات من سوره براءه- دفعها رسول الله ص إلى أبى بكر- و أمره أن يخرج إلى مكه- و يقرأها على الناس بمنى يوم النحر- فلما خرج أبو بكر نزل جبرئيل على رسول الله ص- فقال: يا محمد لا يؤدى عنك إلا رجل منك-.

فبعث رسول الله ص أمير المؤمنين (ع)- فى طلب أبى بكر فلحقه بالروحاء- و أخذ منه الآيات فرجع أبو بكر إلى رسول الله ص- فقال: يا رسول الله، أنزل الله فى شيئاً؟ فقال: لا- إن الله أمرنى أن لا يؤدى عنى إلا أنا أو رجل منى.

و فى تفسير العياشى، عن حرير عن أبى عبد الله (ع): أن رسول الله بعث أبا بكر مع براءه إلى الموسم- ليقرأها على الناس فنزل جبرئيل- فقال: لا يبلغ عنك إلا على- فدعا رسول الله ص عليا- و أمر أن يركب ناقته العضاء، و أمره أن يلحق أبا بكر فيأخذ منه براءه- و يقرأها على الناس بمكه- فقال أبو بكر: أ سخط؟ فقال: لا- إلا أنه أنزل عليه أنه لا يبلغ إلا رجل منك-.

فلما قدم على مكه و كان يوم النحر بعد الظهر- و هو يوم الحج الأكبر قام ثم قال:

إنى رسول الله إليكم فقرأها عليهم: «بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ- فَسَيَحُورُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ» عشرين من ذى الحجه و المحرم و صفر- و شهر ربيع الأول و عشرين من شهر ربيع الآخر، و قال: لا يطوف بالبيت عريان و لا عريانه-

و لا مشرك بعد هذا العام، و من كان له عهد عند رسول الله ص -فمدته إلى هذه الأربعة أشهر.

أقول: المراد تعيين المدة للعهد التي لا مدة لها بقريته ما سيأتى من الرواية، و أما العهود التي لها مدة فاعتبارها إلى مدتها مدلول لنفس الآيات الكريمة.

و فى تفسيرى العياشى، و المجمع، عن أبى بصير عن أبى جعفر (ع) قال: خطب على (ع) بالناس و اخترط سيفه -و قال: لا يطوفن بالبيت عريان، و لا يحجن بالبيت مشرك، و من كانت له مدة فهو إلى مدته، و من لم يكن له مدة فمدته أربعة أشهر، و كان خطب يوم النحر، و كانت عشرون من ذى الحجة و المحرم و صفر -و شهر ربيع الأول و عشر من شهر ربيع الآخر، و قال: يوم النحر يوم الحج الأكبر.

أقول: و الروايات من طرق أئمة أهل البيت (ع) فى هذه المعانى فوق حد الإحصاء.

و فى الدر المنثور، أخرج عبد الله بن أحمد بن حنبل فى زوائد المسند و أبو الشيخ و ابن مردويه عن على رضى الله عنه قال: لما نزلت عشر آيات من براءة على النبى ص - دعا أبا بكر رضى الله عنه ليقراها على أهل مكة - ثم دعانى فقال: لى أدرك أبا بكر - فحيثما لقيته فخذ الكتاب منه -.

و رجع أبو بكر رضى الله عنه - فقال: يا رسول الله نزل فى شىء؟ قال: لا - و لكن جبرئيل جاءنى فقال: - لا يؤدى عنك إلا أنت أو رجل منك.

و فيه، أخرج ابن مردويه عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه: أن رسول الله ص بعث أبا بكر رضى الله عنه - ببراءة إلى أهل مكة - ثم بعث عليا رضى الله عنه على أثره فأخذها منه - فكان أبا بكر وجد فى نفسه فقال النبى ص: يا أبا بكر - إنه لا يؤدى عنى إلا أنا أو رجل منى.

و فيه، أخرج ابن مردويه عن أبى رافع رضى الله عنه قال: بعث رسول الله ص أبا بكر رضى الله عنه ببراءة - إلى الموسم فأتى جبرئيل (ع) فقال: إنه لا يؤديها إلا أنت أو رجل منك - فبعث عليا رضى الله عنه على أثره - حتى لحقه بين مكة و المدينة - فأخذها فقرأها على الناس فى الموسم.

وفيه، أخرج ابن حبان وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: بعث رسول الله ص أبا بكر رضى الله عنه-يؤدى عنه براءه-فلما أرسله بعث إلى على رضى الله عنه-فقال:يا على لا يؤدى عنى إلا أنا أو أنت،فحمله على ناقتة العضاء-فسار حتى لحق بأبى بكر رضى الله عنه-فأخذ منه براءه.

فأتى أبو بكر النبى ص و قد دخله من ذلك مخافه-أن يكون قد أنزلت فيه شىء-فلما أتاه قال:ما لى يا رسول الله؟قال:خير أنت أخى و صاحبى فى الغار-و أنت معى على الحوض-غير أنه لا يبلغ عنى إلا رجل منى.

أقول:و هناك روايات أخرى فى معنى ما تقدم،

و قد نقل فى تفسير البرهان، عن ابن شهر آشوب أنه رواه الطبرسى،و البلاذرى،و الترمذى،و الواقدى،و الشعبى، و السدى،و الثعلبى،و الواحدى،و القرطبى،و القشيرى،و السمعانى،و أحمد بن حنبل، و ابن بطه،و محمد بن إسحاق،و أبو يعلى الموصلى،و الأعمش،و سماك بن حرب فى كتبهم عن عروه بن الزبير،و أبى هريره،و أنس،و أبى رافع،و زيد بن نفيح،و ابن عمر، و ابن عباس،و اللفظ له: أنه لما نزل:«**بِرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ**» إلى تسع آيات أنفذ النبى ص أبا بكر إلى مكه-لأدائها فنزل جبرئيل و قال:إنه لا-يؤديها إلا- أنت أو رجل منك-فقال النبى ص لأمير المؤمنين:اركب ناقتى العضاء و الحق أبا بكر- و خذ براءه من يده-.

قال:و لما رجع أبو بكر إلى النبى ص جزع-و قال:يا رسول الله-إنك أهلتنى لأمر طالت الأعناق فيه- فلما توجهت إليه رددتني منه؟فقال(ص):الأمين هبط إلى عن الله تعالى:أنه لا يؤدى عنك إلا أنت أو رجل منك؛و على منى و لا يؤدى عنى إلا على.

و فيما نقلناه من الروايات و ما تركناه منها و هو أكثر و فيما سيحىء فى هذا الباب نكتتان أصليتان.

إحداهما:أن بعث النبى ص عليا ببراءه و عزله أبا بكر إنما كان بأمر من ربه بنزول جبرئيل:«أنه لا يؤدى عنك إلا أنت أو رجل منك»و لم يقيد الحكم فى شىء من الروايات ببراءه أو نقض العهد فلم يرد فى شىء منها:لا يؤدى براءه أو لا ينقض العهد إلا أنت أو رجل منك فلا دليل على تقييده ببراءه على ما وقع فى كثير

من التفاسير؛ و يؤيد الإطلاق ما سيأتي.

و ثانيتهما: أن عليا(ع) كما كان ينادى ببراءه، كذلك كان ينادى بحكم آخر و هو أن من كان له مده فهو إلى مدته و من لم يكن له مده فمدته أربعة أشهر: و هذا أيضا مما يدل عليه آيات براءه.

و بحكم آخر و هو أنه لا يطوفن بالبيت عريان، و هو أيضا حكم إلهي مدلول عليه بقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الأعراف: -٣١ و قد ورد في بعض الروايات ذكر الآية مع الحكم كما سيجيء.

و حكم آخر أنه لا يطوف أو لا يحج البيت مشرك بعد هذا العام و هو مدلول قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ التوبة: -٢٨.

و هناك أمر خامس ذكر في بعض روايات الباب أنه(ع) كان ينادى به و هو أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن و هذا و إن لم يذكر في سائر الروايات، و الاعتبار لا- يساعد على ذلك لتزول آيات كثيره مكيه و مدنيه في ذلك و خفاء الأمر في ذلك على المشركين إلى سنه تسع من الهجره كالمحال عاده لكن ذلك أيضا مدلول للآيات الكريمه (١)، و على أى حال لم تكن رساله على(ع) مقصورا على تأديه آيات براءه بل لها و لتبلغ ثلاثه أو أربعة أحكام قرآنيه أخرى، و الجميع مشمول لما أنزل به جبرئيل عن الله سبحانه على رسوله ص: أنه لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك، إذ لا دليل على تقييد الكلام على إطلاقه أصلا.

و في الدر المنثور، أخرج الترمذى و حسنه و ابن أبي حاتم و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضى الله عنه: أن رسول الله ص بعث أبا بكر رضى الله عنه- و أمره أن ينادى بهؤلاء الكلمات- ثم أتبعه عليا رضى الله عنه و أمره أن ينادى بها- فأنطلقا فحجا فقام على رضى الله عنه في أيام التشريق- فنادى: أن الله برىء من المشركين و رسوله- فسيحوا في الأرض أربعة أشهر و لا يحجن بعد العام مشرك،

ص: ١٦٥

١- ١) و أما على ما فى بعضها بدلا من ذلك: «لا يدخل الكعبه- أو البيت- إلا مؤمن» فالحكم المستفاد منه نظير الحكم بأنه لا يطوفن بالبيت مشرك حكم ابتدائي.

و لا يطوفن بالبيت عريان، و لا يدخل الجنه إلا مؤمن- فكان على رضى الله عنه ينادى بها.

أقول: و الخبر قريب المضمون مما استفدناه من الروايات.

و فيه، أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبي حاتم من طريق سعيد بن المسيب عن أبي هريره: " أن أبا بكر رضى الله عنه أمره أن يؤذن ببراءه- فى حجه أبا بكر.

قال أبو هريره: ثم أتبعنا النبى ص عليا رضى الله عنه- أمره أن يؤذن ببراءه و أبو بكر رضى الله عنه- على الموسم كما هو- أو قال: على هيئته -.

أقول: و قد ورد فى عده من طرق أهل السنه: أن النبى استعمل أبا بكر على الحج عامه ذلك فكان هو أمير الحاج و على ينادى ببراءه و قد روت الشيعة أنه (ص) استعمل للإماره عليا كما أنه حمله تأديه آيات براءه و قد ذكر ذلك الطبرسى فى مجمع البيان و رواه العياشى عن زراره عن أبي جعفر (ع)، و ربما تأيد ذلك بما ورد أن عليا كان يقضى فى سفره ذلك و أن النبى ص دعا له فى ذلك، إذ من المعلوم أن مجرد رساله بتأديه براءه لا تتضمن الحكم بالقضاء بين الناس، و أوفق ما يكون ذلك فى تلك الأيام بالإماره، و الروايه ما سيأتى:

فى تفسير العياشى، عن الحسن عن علي ع: أن النبى (ص) حين بعثه ببراءه- قال: يا نبى الله إني لست بلسن و لا- بخطيب- قال (ص): يا أبى الله ما بى إلا أن أذهب بها أو تذهب أنت- قال: فإن كان لا بد فسأذهب أنا- قال: فانطلق فإن الله يثبت لسانك و يهدى قلبك- ثم وضع يده على فمه- فقال: انطلق و اقرأها على الناس، و قال (ص): الناس سيتقاضون إليك- فإذا أتاك الخصمان فلا تقض لواحد- حتى تسمع الآخر فإنه أجدر أن تعلم الحق.

أقول: و هذا المعنى مروى من طرق أهل السنه

كما فى الدر المنثور، عن أبي الشيخ عن علي رضى الله عنه قال: بعثنى رسول الله ص إلى اليمن ببراءه- فقلت: يا رسول الله تبعثنى و أنا غلام حديث السن- و أسأل عن القضاء و لا أدرى ما أجيب؟ قال: ما بد من أن تذهب بها أو أذهب بها. قلت: إن كان لا بد أنا أذهب، قال: انطلق فإن الله يثبت لسانك و يهدى قلبك، ثم قال: انطلق و اقرأها على الناس.

إلا أن اشتمال الروايه على لفظ اليمن يسىء الظن بها إذ من البين من لفظ آيات براءه أنها مقره على أهل مكه يوم الحج الأكبر بمكه و أين ذلك من اليمن و أهلها

و كان لفظ الروايه كان: «إلى مكة» فوضع موضعه «إلى اليمن» تصحيحا لما اشتملت عليه من حديث القضاء.

و فى الدر المنثور، أخرج أحمد و النسائى و ابن المنذر و ابن مردويه عن أبى هريره قال: " كنت مع على رضى الله عنه حين بعثه رسول الله ص، بعث عليا بأربع:

لا- يطوف بالبيت عريان، و لا- يجتمع المسلمون و المشركون بعد عامهم،- و من كان بينه و بين رسول الله ص عهد فهو إلى عهده، و إن الله و رسوله برىء من المشركين.

أقول: و هذا المعنى مروى عن أبى هريره بعده طرق بألفاظ مختلفه لا تخلو من شىء فى متنها-على ما سيجىء- و أمتن الروايات متنا هذه التى أوردناها.

و فيه، أخرج أحمد و النسائى و ابن المنذر و ابن مردويه عن أبى هريره قال: " كنت مع على حين بعثه رسول الله إلى أهل مكة ببراءه-فكنا ننادى أنه لا يدخل الجنه إلا مؤمن، و لا يطوف بالبيت عريان، و من كان بينه و بين رسول الله ص عهد-فإن أمره أو أجله إلى أربعه أشهر-فإذا مضت الأربعه أشهر-فإن الله برىء من المشركين و رسوله- و لا يحج هذا البيت بعد العام مشرك.

أقول: و فى متن الروايه اضطراب بين، أما أولا: فلاشتمالها على النداء بأنه لا يدخل الجنه إلا مؤمن، و قد سبق أنه نزلت فى معناه آيات كثيره مكيه و مدنيه منذ سنين و قد سمعها الحضرى و البدوى و المشرك و المؤمن فأى حاجه متصوره إلى إبلاغها أهل الجمع.

و أما ثانيا: فلأن النداء الثانى أعنى قوله: و من كان بينه و بين رسول الله ص عهد إلخ، لا ينطبق لا على مضامين الآيات و لا على مضامين الروايات المتظافره السابقه، على أنه قد جعل فيه البراءه بعد مضى أربعه أشهر.

و أما ثالثا: فلما سند كره ذيل.

و فيه، أخرج البخارى و مسلم و ابن المنذر و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل عن أبى هريره قال: " بعثنى أبو بكر رضى الله عنه فى تلك الحجه- فى مؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى- أن لا- يحج بعد هذا العام مشرك، و لا- يطوف بالبيت عريان- ثم أردف النبى ص بعلى بن أبى طالب رضى الله عنه- فأمره أن يؤذن ببراءه- فأذن معنا على فى أهل منى يوم النحر ببراءه، و أن لا يحج بعد العام مشرك- و لا يطوف بالبيت عريان.

ص: ١٦٧

و فى تفسير المنار، عن الترمذى عن ابن عباس: " أن النبى ص بعث أبا بكر-إلى أن قال-فقام على أيام التشريق فنادى: ذمه الله و ذمه رسوله بريئه من كل مشرك-فسيحوا فى الأرض أربعه أشهر، و لا يحجن بعد العام مشرك، و لا يطوفن بالبيت عريان-و لا يدخل الجنة إلا كل مؤمن-فكان على ينادى بها فإذا بح-قام أبو هريره فنادى بها.

و فيه، أيضا عن أحمد و النسائى-من طريق محرز بن أبى هريره عن أبيه قال: " كنت مع على حين بعثه رسول الله ص إلى مكه- براءه فكنا ننادى-أن لا- يدخل الجنة إلا- كل نفس مسلمه، و لا يطوف بالبيت عريان، و من كان بينه و بين رسول الله ص عهد فعهدة إلى مدته، و لا يحج بعد العام مشرك-فكنت أنادى حتى صحل صوتى.

أقول: قد عرفت أن الذى وقع فى الروايات على كثرتها فى قصه بعث على و عزل أبى بكر من كلمه الوحي الذى نزل به جبرئيل على النبى ص هو قوله:

«لا- يؤدى عنك إلا- أنت أو رجل منك» و كذا ما ذكره النبى ص حين أجاب أبا بكر لما سأله عن سبب عزله، إنما هو متن ما أوحى إليه الله سبحانه، أو قوله - هو فى معناه-: «لا يؤدى عنى إلا أنا أو رجل منى».

و كيفما كان فهو كلام مطلق يشمل تأديه براءه و كل حكم إلهى احتاج النبى ص إلى أن يؤديه عنه مؤد غيره، و لا دليل لا من متون الروايات و لا- غيرها يدل على اختصاص ذلك ببراءه، و قد اتضح أن المنع عن طواف البيت عريانا و المنع عن حج المشركين بعد ذلك العام و كذا تأجيل من له عهد إلى مده أو من غير مده كل ذلك أحكام إلهيه نزل بها القرآن فما معنى إرجاع أمرها إلى أبى بكر أو نداء أبى هريره بها وحده أو نداءه ببراءه و سائر الأحكام المذكوره فى الجمع إذا بح على(ع) حتى يصلح صوته من كثرة النداء؟ و لو جاز لأبى هريره أن يقوم بها و الحال هذه فلم لم يجر لأبى بكر ذلك؟.

نعم أبدع بعض المفسرين كابن كثير و أترابه هنا وجهها وجهوا به ما تتضمنه هذه الروايات انتصارا لها و هو أن قوله: «لا يؤدى عنى إلا- أنا أو رجل منى» مخصوص بتأديه براءه فقط من غير أن يشمل سائر الأحكام التى كان ينادى بها على(ع)، و أن تعيينه(ص) عليها بتبليغ آيات براءه أهل الجمع إنما هو لما كان من عادة العرب أن لا ينقض العهد إلا عاقده أو رجل من أهل بيته و مراعاة هذه العاده الجارية هى

التي دعت النبي ص أن يأخذ براءه و فيها نقض ما للمشركين من عهد-من أبي بكر و يسلمها إلى علي ليستحفظ بذلك السنه العربيه فيؤديها عنه بعض أهل بيته.

قالوا: و هذا معنى قوله(ص)لما سأله أبو بكر قائلاً:يا رسول الله هل نزل في شيء؟قال:«لا و لكن لا يؤدى عنى إلا أنا أو رجل منى»و معناه أنى إنما عزلتك و نصبت عليا لذلك لثلا أنقض هذه السنه العربيه الجاربه.

و لذلك لم ينفصل أبو بكر من شأنه فقد كان قلده إماره الحاج و كان لأبى بكر مؤذنون يؤذنون بهذه الأحكام كأبى هريره و غيره من الرجال الذين لم يذكر أسماؤهم فى الروايات،و كان على أحد من عنده لهذا الشأن،و لذا ورد فى بعضها:أنه خطب بمنى و لما فرغ من خطبته التفت إلى على و قال:قم يا على و أد رساله رسول الله ص.

و هذا ما ذكره و وجهوا به الروايات.

و الباحث الناقد إذا راجع هذه الآيات و الروايات ثم تأمل ما جرت من المشاجرات الكلاميه بين الفريقين:أهل السنه و الشيعه فى باب الأفضليه لم يرتب فى أنهم خلطوا بين البحث التفسيرى الذى شأنه تحصيل مداليل الآيات القرآنيه،و البحث الروائى الذى شأنه نقد معانى الأحاديث و تمييز غثها من سمينها،و بين البحث الكلامى الناظر فى أن أبا بكر أفضل من على أو عليا أفضل من أبى بكر؟و فى أن إماره الحاج أفضل أو الرساله فى تبليغ آيات براءه؟و لمن كان إماره الحج إذ ذاك لأبى بكر أو لعلى؟ أما البحث الكلامى فلسنا نستغل به فى هذا المقام فهو خارج عن غرضنا،و أما البحث الروائى أو التفسيرى فيما يرتبط به الآيات إلى أسباب نزولها مما يتعلق بمعانى الآيات فالذى ينبغى أن يقال بالنظر إليه أنهم أخطئوا فى هذا التوجيه.

فليت شعرى من أين تسلّموا أن هذه الجملة التى نزل بها جبرئيل:«أنه لا يؤدى عنك إلا أنت أو رجل منك»مقيده بنقض العهد لا يدل على أزيد من ذلك،و لا دليل عليه من نقل أو عقل فالجملة ظاهره أتم ظهور فى أن ما كان على رسول الله ص أن يؤديه لا يجوز أن يؤديه إلا هو أو رجل منه سواه،كان نقض عهد من جانب الله كما فى مورد براءه أو حكما آخر إليها على رسول الله ص أن يؤديه و يبلغه.

و هذا غير ما كان من أقسام الرساله منه(ص)مما ليس عليه أن يؤديه بنفسه

الشريفه كالكتب التي أرسل بها إلى الملوك و الأمم و الأقسام في الدعوه إلى الإسلام و كذا سائر الرسائل التي كان يبعث بها رجالا من المؤمنين إلى الناس في أمور يرجع إلى دينهم و الإمارات و الولايات و نحو ذلك.

ففرق جلي بين هذه الأمور و بين براءه و نظائرها فإن ما تتضمنه آيات براءه و أمثال النهي عن الطواف عريانا، و النهي عن حج المشركين بعد العام أحكام إلهيه ابتدائية لم تبلغ بعد و لم تؤد إلى من يجب أن تبلغه، و هم المشركون بمكة و الحجاج منهم، و لا رساله من الله في ذلك إلا- لرسوله، و أما سائر الموارد التي كان يكتفى النبي (ص) ببعث الرسل للتبليغ فقد كانت مما فرغ ((ص)) فيها من أصل التبليغ و التأديه، بتبليغه من وسعه تبليغه ممن حضر كالدعوه إلى الإسلام و سائر شرائع الدين و كان يقول: «لبلغ الشاهد منكم الغائب» ثم إذا مست الحاجة إلى تبليغه بعض من لا وثوق عادة ببلوغ الحكم إليه أو لا أثر لمجرد البلوغ إلا أن يعتنى لشأنه بكتاب أو رسول أو توسل عند ذلك إلى رساله أو كتاب كما في دعوه الملوك.

و ليتأمل الباحث المنصف قوله «لا- يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك» فقد قيل: «لا يؤدي عنك إلا أنت» و لم يقل: «لا يؤدي إلا أنت أو رجل منك» حتى يفيد اشتراك الرساله، و لم يقل: «لا- يؤدي منك إلا- رجل منك» حتى يشمل سائر الرسائل التي كان ((ص)) يقلدها كل من كان من صالحى المؤمنين فإنما مفاد قوله: «لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك» أن الأمور الرساليه التي يجب عليك نفسك أن تقوم بها لا- يقوم بها غيرك عوضا منك إلا- رجل منك أى لا- يخلفك فيما عليك كالتأديه الابتدائيه إلا رجل منك.

ثم ليت شعري ما الذى دعاهم إلى أن أهملوا كلمه الوحي التي هي قول الله نزل به جبرئيل على النبي (ص): «لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك» و ذكروا مكانها أنه «كانت السنه الجاربه عند العرب أن لا ينقض العهد إلا عاقده أو رجل من أهل بيته» تلك السنه العربيه التي لا خبر عنها فى أيامهم و مغازيهم و لا أثر إلا ما ذكره ابن كثير و نسبه إلى العلماء عند البحث عن آيات براءه!.

ثم لو كانت سنه عربيه جاهليه على هذا النعت فما وزنها فى الإسلام و ما هي قيمتها عند النبي (ص) و قد كان ينسخ كل يوم سنه جاهليه و ينقض كل حين عادة قوميه، و لم تكن من جملة الأخلاق الكريمة أو السنن و العادات النافعه بل سليقه قبائليه تشبه

و قد قال ((ص)) يوم فتح مكة عند الكعبة على ما رواه أصحاب السير:

«إلا كل مأثره أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين -إلا سدانه البيت و سقاياه الحاج».

ثم لو كانت سنه عربيه غير مذمومه فهل كان رسول الله (ص) ذهل عنها و نسيها حين أسلم الآيات إلى أبي بكر و أرسله، و خرج هو إلى مكة حتى إذا كان في بعض الطريق ذكر ((ص)) ما نسيه أو ذكره بعض من عنده بما أهمله و ذهل عنه من أمر كان من الواجب مراعاته؟ و هو ((ص)) المثل الأعلى في مكارم الأخلاق و اعتبار ما يجب أن يعتبر من الحزم و حسن التدبير، و كيف جاز لهؤلاء المذكورين أن يغفلوا عن ذلك و ليس من الأمور التي يغفل عنها و تخفى عاده وإنما الذهول عنه كغفله المقاتل عن سلاحه؟.

و هل كان ذلك بوحى من الله إليه أنه يجب له أن لا يلغى هذه السنه العربيه الكريمه، و أن ذلك أحد الأحكام الشرعيه في الباب و أنه يحرم على ولى أمر المسلمين أن ينقض عهدا إلا بنفسه أو بيد أحد من أهل بيته؟ و ما معنى هذا الحكم؟.

أو أنه حكم أخلاقي اضطر إلى اعتباره لما أن المشركين ما كانوا يقبلون هذا النقض إلا بأن يسمعه من النبي (ص) نفسه أو من أحد من أهل بيته؟ و قد كانت السيطره يومئذ له ((ص)) عليهم، و الزمام بيده دونهم، و الإبلاغ إبلاغ.

أو أن المؤمنين المخاطبين بقوله: «عَاهِدْتُمْ» و قوله: «وَ أَذَانُ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى الدَّاسِ» و قوله: «فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ» ما كانوا يعتبرون هذا النقض نقضا دون أن يسمعه منه (ص) أو من واحد من أهل بيته و إن علموا بالنقض إذا سمعوا الآيات من أبي بكر؟.

و لو كان كذلك فكيف قبله و اعتبره نقضا من سمعه من أبي هريره الذى كان ينادى به حتى صحل صوته؟ و هل كان أبو هريره أقرب إلى على و أمس به من أبي بكر إلى رسول الله ص فالحق أن هذه الروايات الحاكيه لنداء أبي هريره و غيره غير سديده لا ينبغي الركون إليها.

قال صاحب المنار في تفسيره: جمله الروايات تدل على أن النبي (ص) جعل أبا بكر أميرا على الحج سنه تسع و أمره أن يبلغ المشركين الذين يحضرون الحج أنهم يمنعون منه بعد ذلك العام ثم أردفه بعلى ليبلغهم عنه نبذ عهودهم المطلقه و إعطاءهم مهله أربعة أشهر لينظروا في أمرهم، و إن العهود الموقته أجلها نهايه وقتها، و يتلو عليهم الآيات المتضمنه لمسأله نبذ العهود و ما يتعلق بها من أول سوره براءه.

و هي أربعون أو ثلاث و ثلاثون آيه، و ما ذكر في بعض الروايات من التردد بين ثلاثين و أربعين فتعبير بالأعشار مع إلغاء كسرها من زياده و نقصان.

و ذلك لأن من عاده العرب أن العهود و نبذها إنما تكون من عاقدها أو أحد عصبته القريبه، و أن عليا كان مختصا بذلك مع بقاء إماره الحج لأبي بكر الذي كان يساعده على ذلك و يأمر بعض الصحابه كأبي هريره بمساعدته. انتهى.

و قال أيضا: إن بعض الشيعة يكبرون هذه المزيه لعل (ع) كعادتهم و يضيفون إليها ما لا تصح به روايه، و لا تؤيده درايه فيستدلون بها على تفضيله على أبي بكر رضى الله عنهما و كونه أحق بالخلافه منه، و يزعمون أن النسبى ص عزل أبا بكر من تبليغ سوره براءه لأن جبرئيل أمره بذلك، و أنه لا يبلغ عنه إلا - هو أو رجل منه و لا يخصون هذا النفي بتبليغ نبذ العهود و ما يتعلق به بل يجعلونه عاما لأمر الدين كله.

مع استفاضه الأخبار الصحيحه بوجوب تبليغ الدين على المسلمين كافه كالجهاد فى حمايته و الدفاع عنه، و كونه فريضه لا فضيله فقط و منها قوله (ص) فى حجه الوداع على مسمع الألو ف من الناس: «ألا - فليبلغ الشاهد الغائب» و هو مكرر فى الصحيحين و غيرهما، و فى بعض الروايات عن ابن عباس: فوالذى نفسى بيده أنها لو صيته إلى أمته «فليبلغ الشاهد الغائب» إلخ و حديث: «بلغوا عنى و لو آيه» رواه البخارى فى صحيحه و الترمذى، و لو لا ذلك لما انتشر الإسلام ذلك الانتشار السريع فى العالم.

بل زعم بعضهم - كما قيل - إنه (ص) عزل أبا بكر من إماره الحج و ولاها عليا، و هذا بهتان صريح مخالف لجميع الروايات فى مسأله عمليه عرفها الخاص و العام.

و الحق أن عليا كرم الله وجهه كان مكلفا بتبليغ أمر خاص، و كان فى تلك الحجه تابعا لأبى بكر فى إمارته العامه فى إقامه ركن الإسلام الاجتماعى العام حتى كان أبو بكر يعين له الوقت الذى يبلغ ذلك فيه فيقول: يا على قم فبلغ رساله رسول الله ص كما تقدم التصريح به فى الروايات الصحيحه كما أمر بعض الصحابه بمساعدته على هذا التبليغ كما تقدم فى حديث أبى هريره فى الصحيحين و غيرهما.

ثم ساق الكلام و استدل بإماره أبى بكر فى تلك الحجه و ضم إليها صلاته موضع النبى ص قبيل وفاته - على تقدمه و أفضليته من جميع الصحابه على من سواه انتهى.

أما قوله: مع استفاضه الأخبار بوجوب تبليغ الدين على المسلمين كافة إلى آخر ما قال فيكشف عن أنه لم يحصل معنى كلمه الوحي: «لا- يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك» حق التحصيل، و لم يفرق بين قولنا: «لا يؤدي منك إلا رجل منك» و بين قوله: «لا يؤدي عنك إلا- أنت أو رجل منك» فزعم أن الكلام بإطلاقه يمنع عن كل تبليغ ديني يتصداه غير النبي ص أو رجل منه فدفع ذلك باستفاضه الأخبار بوجوب تبليغ الدين على المسلمين كافة و قيد به إطلاق قوله: «لا يؤدي عنك» إلخ فجعله خاصا بتبليغ نبذ العهد بعد تحويل الحكم الإلهي إلى سنه عربيه جاهليه.

و قد ساقه اشتباه معنى الكلمه إلى أن زعم أن إبقاء الكلام على إطلاقه منشؤه الغفله عن أمر هو كالضرورة عند عامه المسلمين أعنى وجوب التبليغ العام حتى استدل على ذلك بما فى الصحيحين و غيرهما من قوله (ص): «فليبلغ الشاهد الغائب»، و قد عرفت ما هو حق المعنى لكلمه الوحي.

و أما قوله: «بل زعم بعضهم كما قيل إنه عزل أبا بكر من إماره الحج و ولاها عليا و هذا بهتان صريح مخالف لجميع الروايات فى مسأله عمليه عرفها العام و الخاص» فليس ذلك زعما من البعض و لا بهتانا كما بهته بل روايه روتها الشيعة و قد أوردناها فى ضمن الروايات المتقدمه.

و ليس التوغل فى مسأله الإمارة مما يهمننا فى تفهم معنى قوله: «لا يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك» فإمارة الحاج سواء صحت لأبى بكر أو لعلى، دلت على فضل أو لم تدل إنما هى من شعب الولاية الإسلاميه العامه التى شأنها التصرف فى أمور المجتمع الإسلامى الحيويه، و إجراء الأحكام و الشرائع الدينيه، و لا حكمه لها على المعارف الإلهيه و مواد الوحي النازل من السماء فى أمر الدين.

إنما هى ولاية رسول الله ص ينصب يوما أبا بكر أو عليا لإمارة الحاج، و يؤمر يوما أسامه على أبى بكر و عامه الصحابه فى جيشه، و يولى يوما ابن أم مكتوم على المدينه و فيها من هو أفضل منه، و يولى هذا مكه بعد فتحها، و ذاك اليمن، و ذلك أمر الصدقات، و قد استعمل (ص) أبا دجانة الساعدى أو سباع بن عرفطه الغفارى على ما فى سيره ابن هشام على المدينه عام حجه الوداع، و فيها أبو بكر لم يخرج إلى الحج على ما رواه البخارى و مسلم و أبو داود و النسائى و غيرهم و إنما تدل على إذعانه (ص) بصلاحيه من نصبه لأمر لتصديه و إداره رحاه.

و أما الوحي السماوى بما يشتمل عليه من المعارف و الشرائع فليس للنبي ص و لا لمن دونه صنع فيه و لا تأثير فيه مما له من الولاية العامه على أمور المجتمع الإسلامى بإطلاق أو تقييد أو إمضاء أو نسخ أو غير ذلك، و لا تحكم عليه سنه قوميه أو عاده جاريه حتى توجب تطبيقه على ما يوافقها أو قيام العصبه مقام الإنسان فيما يهمله من أمر.

و الخلط بين البابين يوجب نزول المعارف الإلهيه من أوج علوها و كرامتها إلى حضيض الأفكار الاجتماعيه التى لا حكومه فيها إلا- للرسوم و العادات و الاصطلاحات، فيعود الإنسان يفسر حقائق المعارف بما يسعه الأفكار العاميه و يستعظم ما استعظمه المجتمع دون ما عظمه الله، و يستصغر ما استصغره الناس حتى يقول القائل فى معنى كلمه الوحي أنه عاده عربيه محترمه.

و أنت إذا تأملت هذه القصة-أخذ آيات براءه من أبى بكر و إعطاءها عليا على ما تقصها الروايات-وجدت فيها من مساهله الرواه و توسعهم فى حفظ القصة بما لها من الخصوصيات-إن لم يستند إلى غرض آخر-أمرا عجيبا ففى بعضها -و هو الأكثر- أنه(ص)بعث أبا بكر بالآيات ثم بعث عليا و أمره أن يأخذها منه و يتلوها على الناس فرجع أبو بكر إلخ،و فى بعضها أنه بعث أبا بكر بإماره الحج ثم بعث عليا بعده بآيات براءه و فى بعضها: أن أبا بكر أمره بالتبليغ و أمر بعض الصحابه أن يشاركه فى النداء حتى آل الأمر إلى مثل ما رواه الطبرى و غيره عن مجاهد فى قوله تعالى: «بِرَاءةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» إلى أهل العهد خزاعه و مدلج و من كان له عهد و غيرهم.أقبل رسول الله ص من تبوك حين فرغ منها فأراد الحج ثم قال:إنه يحضر البيت مشركون يطوفون عراه فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك فأرسل أبا بكر و عليا فطافا فى الناس بذى المجاز و بأمكنتهم التى كانوا يبيعون بها و بالموسم كله فأذنوا أصحاب العهد أن يأمنوا أربعه أشهر و هى الأشهر الحرم المنسلخات المتواليات:عشرون من آخر ذى الحجه إلى عشر تخلو من ربيع الأول (1) ثم عهد لهم و آذن الناس كلهم بالقتال إلى أن يموتوا.

و إذا كان هذا هو الحال فما معنى قوله:«بهتان صريح مخالف لجميع الروايات

ص: ١٧٤

فى مسأله عملفه عرفها العام و الخاص؟ فإن كان يعنى: عرفها العام و الخاص فى عصر النبى ص ممن شاهد الأمر أو سمع ذلك ممن شاهده و وصفه فما ذا ينفعنا ذلك؟.

و إن كان يعنى: أن العام و الخاص ممن يلى عهد النبى ص أو يلى من يليه عرفا ذلك و لم يشك أحد فى ذلك فهذا حال الروايات المنقوله عنهم لا يجتمع على كلمه.

منها ما يحكى أن عليا اختص بتأديه براءه و أخرى تدل على أن أبا بكر شاركه فيه، و أخرى تدل على أن أبا هريره شاركه فى التأديه و رجال آخرون لم يسموا فى الروايات.

و منها ما يدل على أن الآيات كانت تسع آيات، و أخرى عشرا، و أخرى ست عشره، و أخرى ثلاثين، و أخرى ثلاثا و ثلاثين، و أخرى سبعا و ثلاثين، و أخرى أربعين، و أخرى سوره براءه.

و منها ما يدل على أن أبا بكر ذهب لوجهه أميرا على الحاج و أخرى على أنه رجع حتى أوله بعضهم كابن كثير أنه رجع بعد إتمام الحج، و آخرون أنه رجع ليسأل النبى ص عن سبب عزله، و فى روايه أنس الآتيه أنه (ص) بعث أبا بكر ببراءه ثم دعاه فأخذها منه.

و منها ما يدل على أن الحجه وقعت فى ذى الحجه و أن يوم الحج الأ-كبر تمام أيام تلك الحجه أو يوم عرفه أو يوم النحر أو اليوم التالى ليوم النحر أو غير ذلك و أخرى أن أبا بكر حج فى تلك السنه فى ذى القعدة.

و منها ما يدل على أن أشهر السياحه تأخذ من شوال، و أخرى من ذى القعدة، و أخرى من عاشر ذى الحجه، و أخرى من الحادى عشر من ذى الحجه و غير ذلك.

و منها ما يدل على أن الأشهر الحرم هى ذو القعدة و ذو الحجه و المحرم من تلك السنه و، أخرى على أنها أشهر السياحه تبتدأ من يوم التبليغ أو يوم النزول.

فهذا حال اختلاف الروايات، و مع ذلك كيف يستقيم دعوى أنه أمر عرفه العام و الخاص، و بعض المحتملات السابقه و إن كان قولا من مفسرى السلف إلا أن المفسرين يعاملون أقوالهم معاملة الروايات الموقوفه.

و أما قوله: و الحق أن عليا كان مكلفا بتبليغ أمر خاص و كان فى تلك الحجه

تابعا لأبى بكر فى إمارته إلى آخر ما قال فلا ريب أن الذى بعث به النبى ص عليا من الأحكام كان أمرا خاصا و هو تلاوه آيات براءة و سائر ما يلحق بها من الأمور الأربعة المتقدمه غير أن الكلام فى أن كلمه الوحي: «لا يؤدى عنك إلا أنت أو رجل منك» لا تختص فى دلالتها بتأديه آيات براءة على ما تقدم بيانه فلا ينبغى الخلط بين ما يدل عليه الكلمه و بين ما أمر به على فى خصوص تلك السفره.

و أما قوله: و كان فى تلك الحجه تابعا «إلخ» فأمر استفاده من كلام أبى هريره و ما يشبهه، و قد عرفت الكلام فيه.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن أبى شيبه و أحمد و الترمذى و حسنه و أبو الشيخ و ابن مردويه عن أنس (رضى الله عنه) قال: بعث النبى (ص) ببراءه مع أبى بكر (رضى الله عنه) ثم دعاه فقال: لا ينبغى لأحد أن يبلغ هذا- إلا رجل من أهلى فدعا عليا فأعطاه إياه.

أقول: ذكر صاحب المنار فى بعض كلامه: أن قوله (ص): «أو رجل منى فى روايه السدى قد فسرتها الروايات الأخرى عند الطبرى و غيره بقوله ((ص)): «أو رجل من أهل بيتى» و هذا النص الصريح يبطل تأويل كلمه «منى» بأن معناها أن نفس على كنفس رسول الله (ص) و أنه مثله و أنه أفضل من كل أصحابه- انتهى-.

و الذى أشار إليه من الروايات هو ما رواه قبلا بقوله: و أخرج أحمد بسند حسن عن أنس أن النبى (ص) بعث ببراءه مع أبى بكر فلما بلغ ذا الحليفه قال: لا يبلغها إلا أنا أو رجل من أهل بيتى فبعث بها مع على.

و هذه بعينها- على ما لا يخفى- هى الروايه السابقه التى أوردناها عن أنس، و قد وقع فيها «أو رجل من أهلى» و إن اختلف لفظا الروايتين بما عملت فيهما يد النقل بالمعنى.

و أول ما فى كلامه: أن اللفظ: «أو رجل منى» لم يقع إلا فى روايه واحده موقوفه هى روايه السدى التى استضعفها قبيل ذلك بل الأصل فى ذلك كلمه الوحي التى أثبتتها معظم الروايات الصحيحه على بلوغ كثرتها، و الروايات الآخر المشتمله على قوله: «من أهل بيتى» و هو يستكثرها إنما هى روايه أنس- على ما عثرنا عليها- و قد وقع فى بعض ألفاظها قوله «من أهلى» مكان «من أهل بيتى».

و الثاني: أن الرواية - كما اتضح لك - منقولة بالمعنى، و مع ذلك لا يصلح ما وقع فيها من بعض الألفاظ لتفسير ما اتفقت عليه معظم الروايات الصحيحة الواردة من طرق الفريقين من لفظ الوحي المنقول فيها.

على أن قوله: «من أهل بيتي» في هذه لو صلح لتفسير ما وقع في سائر الروايات من «لفظ رجل منك» أو «رجل مني» لكان الواقع في روايه في سائر الروايات من لفظ رجل منك أو رجل مني لكان الواقع في روايه أبي سعيد الخدري السابقه من قوله (ع): «يا على إنه لا- يؤدي عنى إلا- أنا أو أنت» مفسرا لما في روايه أنس: «إلا- رجل من أهل بيتي» أو «إلا- رجل من أهلي» و ما في سائر الروايات: «إلا رجل منك» أو «إلا رجل مني».

فيعود هذه الألفاظ كناية عن شخص على (ع)، بل الكناية بما لها من المعنى مشيره إلى أنه من نفس النبي (ع) و من أهله و من أهل بيته جميعا، و هذا عين ما فر منه و زياده.

و الثالث: أن استفاده كونه (ع) بمنزله نفسه (ع) ليست بمستنده إلى مجرد قوله (ص): «رجل مني» كما حسبه فإن مجرد قول القائل: فلان مني لا يدل على تنزله منزلته في جميع شئون وجوده و مماثلته إياه، و إنما يدل على نوع من الاتصال و الاتباع كما في قول إبراهيم (ع): «فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي» إبراهيم: - ٣٦ إلا بنوع من القرينه الداله على عناية كلاميه كقوله تعالى: «وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ».

بل إنما استفيد ذلك من قوله: «رجل مني» أو «رجل منك» بمعونه قوله:

«لا- يؤدي عنك إلا أنت» على البيان الذي تقدم و على هذا فلو كان هناك قوله: «لا يؤدي عنى إلا رجل من أهلي أو رجل من أهل بيتي» لاستفيد منه عين ما استفيد من قوله: «لا- يؤدي عنك إلا- أنت أو رجل منك» و قوله: «لا يؤدي عنى إلا أنا أو رجل مني» مضافا (١) إلى أنه (ص) عده منه في خطابه أبا بكر و هو أيضا منه بالاتباع.

ص: ١٧٧

١- ١) و في روايه الحاكم الآتية عن مصعب بن عبد الرحمن عن أبيه عنه صلى الله عليه و آله فيما قاله لأهل الطائف: «و الذي نفسى بيده لتقيم الصلاة و لتؤتن الزكاه أو لأبعثن عليكم رجلا مني أو كنفسى» فرأى الناس أنه يعنى أبا بكر أو عمر فأخذ بيد على فقال: «هذا» دلالة على هذا الفهم من جهه ما فيها من الترديد.

و الرابع: أنه أهمل في البحث الروايات الصحيحة المستفيضة أو المتواتره التي تدل على أن أهل بيت النبي ص هم: علي و فاطمه و الحسنان علي ما تقدم في أخبار آيه المباهله و سيجيء معظمها في أخبار آيه التطهير إن شاء الله تعالى.

و لا رجل في أهل بيته (ص) إلا علي (ع) فيقول الأمر إلى كون اللفظ كناية عن علي (ع) فيرجع إلى ما تقدم من الوجه.

و أما ما احتمله من المعنى فهو أن المراد بأهل بيته عامه أقربائه من بنى هاشم أو بنو هاشم و نساؤه فينزل اللفظ منزله عاديه من غير أن يحمل شيئاً من المزيه، و المعنى لا يؤدي نبذ العهد عنى إلا رجل من بنى هاشم، و القوم يرجعون غالباً في مفاهيم أمثال هذه الألفاظ إلى ما يعطيه العرف اللغوى في ذلك من غير توجه إلى ما اعتبره الشرع، و قد تقدم نظير ذلك في معنى الابن و البنت حيث حسبوا أن كون ابن البنت ابناً للرجل و عدمه مرجعه إلى بحث لغوى يعين كون الابن يصدق بحسب الوضع اللغوى على ابن البنت مثلاً أو لا يصدق عليه، و جميع ذلك يرجع إلى الخلط بين الأبحاث اللفظيه و الأبحاث المعنويه، و كذا الخلط بين الأنظار الاجتماعيه و الأنظار الدينيه السماويه على ما تقدمت الإشارة إليه.

و أعجب من الجميع قوله: و هذا النص الصريح يبطل تأويل كلمه «منى» فإن مراده بدلاله السياق أن كلمه «من أهل بيتى» نص صريح فى أن المراد برجل منى رجل من بنى هاشم، و لا ندرى أى نصوصيه أو صراحه لكلمه «أهل البيت» فى بنى هاشم بعد ما تكاثرت الروايات أن أهل بيت النبي ص هم علي و فاطمه و الحسنان (ع) ثم فى قوله: «أهل بيتى» بمعنى بنى هاشم أن المراد بكلمه «منى» هو ذلك!

و فى تفسير العياشى، عن زراره و حمران و محمد بن مسلم عن أبى جعفر و أبى عبد الله (ع): «فَسَيُحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ» قال: عشرين من ذى الحجه و المحرم و صفر - شهر ربيع الأول و عشر من ربيع الآخر.

أقول: و قد استفاضت الروايات من طرق الشيعة عن أئمه أهل البيت (ع) أن المراد من الأربعة الأشهر هو ذلك، روى ذلك الكلينى و الصدوق و العياشى و القمى و غيرهم فى كتبهم، و روى ذلك من طرق أهل السنه، و هناك روايات أخرى

من طرقهم في غير هذا المعنى حتى وقع في بعضها أن أبا بكر حج بالناس عام تسع في شهر ذي القعدة، وهي غير متأيده و لذلك أغمضنا عنها.

و في تفسير العياشي، عن حكيم بن جبير عن علي بن الحسين (ع): في قوله تعالى:

« وَ أَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ » قال: الأذان أمير المؤمنين (ع).

أقول: و روى هذا المعنى أيضا عن حريز عن أبي عبد الله (ع)، و عن جابر عن جعفر بن محمد و أبي جعفر (ع)، و رواه القمي عن أبيه عن فضاله عن أبان بن عثمان عن حكيم بن جبير عن علي بن الحسين (ع) قال: و في حديث آخر قال:

كنت أنا الأذان في الناس: و رواه الصدوق أيضا بإسناده عن حكيم عنه (ع)، و رواه في الدر المنثور عن ابن أبي حاتم عن حكيم بن حميد عن علي بن الحسين (ع)،

و قال في تفسير البرهان: قال السدي و أبو مالك و ابن عباس و زين العابدين: الأذان هو علي بن أبي طالب فأدى به.

و في تفسير البرهان، عن الصدوق بإسناده عن الفضيل بن عياض عن أبي عبد الله (ع) قال: سألته عن الحج الأكبر- فقال: عندك فيه شيء؟ فقلت: نعم- كان ابن عباس يقول: الحج الأكبر يوم عرفه- يعني أنه من أدرك يوم عرفه- إلى طلوع الشمس من يوم النحر فقد أدرك الحج- و من فاته ذلك فاتته الحج- فجعل ليله عرفه لما قبلها و لما بعدها، و الدليل على ذلك- أنه من أدرك ليله النحر إلى طلوع الفجر- فقد أدرك الحج و أجزى عنه من عرفه.

فقال أبو عبد الله (ع): قال أمير المؤمنين (ع)- الحج الأكبر يوم النحر و احتج بقول الله عز و جل: « فَيَسَّيْحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ » فهي عشرون من ذي الحجة و المحرم و صفر- و شهر ربيع الأول و عشر من شهر ربيع الآخر، و لو كان الحج الأكبر يوم عرفه لكان السائح أربعة أشهر و يوما، و احتج بقوله عز و جل: « وَ أَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ » و كنت أنا الأذان في الناس.

قلت: فما معنى هذه اللفظة: الحج الأكبر- كبر؟ فقال: إنما سمي الأكبر- لأنها كانت سنة حج فيها المسلمون و المشركون، و لم يحج المشركون بعد تلك السنة.

و فيه، عنه بإسناده عن معاوية بن عمار قال: سألت أبا عبد الله (ع) عن يوم

الحج الأكبر-فقال:يوم النحر و الأصغر العمره.

أقول: و فى الروايه مضافا إلى تفسير اليوم بيوم النحر إشاره إلى وجه تسميه الحج بالأكبر،وقد أطبقت الروايات عن أئمه أهل البيت(ع)إلا ما شذ على أن المراد بيوم الحج الأكبر فى الآيه هو يوم الأضحى عاشر ذى الحجه و هو يوم النحر، و رووا ذلك عن على(ع).

و روى هذه الروايه الكلينى فى الكافى،عن على بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبى عمير عن معاويه بن عمار عن أبى عبد الله(ع)،و روى ذلك أيضا بإسناده عن ذريح عنه(ع)،و كذا الصدوق بإسناده إلى ذريح عنه(ع)،و رواه العياشى عن عبد الرحمن و ابن أذينه و الفضيل بن عياض عنه(ع).

و فى الدر المنثور،أخرج ابن مردويه عن ابن أبى أوفى عن النبى ص:أنه قال يوم الأضحى:هذا يوم الحج الأكبر.

وفيه،أيضا أخرج البخارى تعليقا و أبو داود و ابن ماجه و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و أبو نعيم فى الحليه عن ابن عمر: أن رسول الله (ص)وقف يوم النحر بين الجمرات فى الحجه التى حج فقال:أى يوم هذا؟قالوا:

يوم النحر-قال:هذا يوم الحج الأكبر.

أقول:و روى ذلك بطرق مختلفه عن على(ع)و ابن عباس و مغیره بن شعبه و أبى جحيفه و عبد الله بن أبى أوفى،و قد روى بطرق مختلفه أخرى عن النبى(ص) أنه يوم عرفه،و كذا روى ذلك عن على و ابن عباس و ابن الزبير،و روى عن سعيد بن المسيب أنه اليوم التالى ليوم النحر،و روى أنه أيام الحج كلها،و روى أنه الحج فى العام الذى حج فيها أبو بكر،و هذا الوجه الأخير لا يأبى الانطباق على ما تقدم

من الحديث عن الصادق(ع): أنه سمى الحج الأكبر-لما حج فى تلك السنه المسلمون و المشركون جميعا.

و فى تفسير العياشى،عن زراره عن أبى جعفر(ع): فى قول الله:«فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» قال:هى يوم النحر إلى عشر مضين من شهر ربيع الآخر.

و فى الدر المثور، فى قوله تعالى: «فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ»: أخرج الحاكم و صححه عن مصعب بن عبد الرحمن عن أبيه رضى الله عنه قال: افتتح رسول الله (ص) مكة- ثم انصرف إلى الطائف فحاصرهم ثمانية أو سبعة- ثم ارتحل غدوه و روحه ثم نزل ثم هجر.

ثم قال: أيها الناس إني لكم فرط، و إني أوصيكم بعترتي خيرا موعدكم الحوض، و الذى نفسى بيده لتقيم الصلاة- و لتؤتن الزكاة أو لأبعثن عليكم رجلا منى أو كنفسى- فليضربن أعناق مقاتلهم و ليسبين ذراريهم. فرأى الناس أنه يعنى أبا بكر أو عمر رضى الله عنهما- فأخذ بيد على رضى الله عنه فقال: هذا.

أقول: يعنى ص به الكفر.

و فى تفسير العياشى، فى حديث جابر عن أبى جعفر (ع): «فَإِنْ تَابُوا» يعنى فإن آمنوا فإخوانكم فى الدين.

و فى تفسير القمى: فى قوله تعالى: «وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ» الآية- قال: قال، اقرأ عليه و عرفه- ثم لا تتعرض له حتى يرجع إلى مأمته.

و فى تفسير البرهان، عن ابن شهر آشوب عن تفسير القشيري: أن رجلا قال لعلى يا ابن أبى طالب- فمن أراد منا أن يلقى رسول الله فى بعض الأمر- من بعد انقضاء الأربعة فليس له عهد؟ قال على: بلى لأن الله قال: «وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ» الآية.

و فى الدر المثور، فى قوله تعالى: «وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ» الآية:

أخرج ابن أبى شيبه و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن حذيفة رضى الله عنه:

أنهم ذكروا عنده هذه الآية- فقال: ما قوتل أهل هذه الآية بعد.

و فيه، أخرج ابن أبى شيبه و البخارى و ابن مردويه عن زيد بن وهب: فى قوله:

«فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ» قال: كنا عند حذيفة رضى الله عنه فقال: ما بقى من أصحاب هذه الآية إلا ثلاثة- و لا من المنافقين إلا أربعة. فقال أعرابى: إنكم أصحاب محمد- تخبروننا بأمر لا ندرى ما هى؟ فما بال هؤلاء الذين يقرون بيوتنا و يسرقون أعلاقنا؟ قال: أولئك الفساق، أجل لم يبق منهم إلا أربعة- أحدهم شيخ كبير لو شرب الماء البارد لما وجد برده

و فى قرب الإسناد، للحميرى: حدثنى عبد الحميد و عبد الصمد بن محمد جميعا عن حنان بن سدير قال: سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: دخل على أناس من أهل البصره-فسألونى عن طلحه و الزبير-فقلت لهم: كانوا (١) من أئمه الكفر-أن عليا يوم البصره لما صف الخيل-قال لأصحابه لا تعجلوا على القوم-حتى أعذر فيما بينى و بين الله و بينهم.

فقام إليهم فقال: يا أهل البصره-هل تجدون على جورا فى حكم؟ قالوا: لا.

قال: فحيثما فى قسم؟ قالوا: لا. قال: فرغبه فى دنيا أخذتها لى و لأهل بيتى دونكم-فنقمت على فنكتهم بيعتى؟ قالوا: لا، قال فأقمت فيكم الحدود و عطلتها فى غيركم؟ قالوا: لا. قال: فما بال بيعتى تنكث و بيعه غيرى لا تنكث-إنى ضربت الأمر أنفه و عينه-فلم أجد إلا الكفر أو السيف.

ثم ثنى إلى أصحابه فقال-إن الله تبارك و تعالى يقول فى كتابه: «وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ» فقال أمير المؤمنين (ع): و الذى فلق الحبه و برأ النسمة-و اصطفى محمدا بالنبوه-إنهم لأصحاب هذه الآيه و ما قوتلوا مذ نزلت:

أقول: و رواه العياشى عن حنان بن سدير عنه (ع).

و فى أمالى المفيد، بإسناده عن أبى عثمان مؤذن بنى قصى قال: سمعت على بن أبى طالب (ع) حين خرج طلحه و الزبير على قتاله: عذرنى الله من طلحه و الزبير، بايعانى طائعين غير مكرهين-ثم نكثا بيعتى من غير حدث أحدثته-ثم تلا هذه الآيه:

« وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ-إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ »: أقول: و رواه العياشى فى تفسيره عن أبى عثمان المؤذن و أبى الطفيل و الحسن البصرى: مثله، و رواه الشيخ فى أماليه، عن أبى عثمان المؤذن. و فى حديثه قال بكير:

فسألت عنها أبا جعفر (ع)-فقال: صدق الشيخ هكذا قال على. هكذا كان.

و فى الدر المشور، أخرج ابن إسحاق و البيهقى فى الدلائل عن مروان بن الحكم

ص: ١٨٢

والمسور بن مخرمه قال: "كان في صلح رسول الله ص يوم الحديبيه بينه و بين قريش - أن من شاء أن يدخل في عقد النبي ص وعهده دخل فيه، و من شاء أن يدخل في عهد قريش و عقدهم دخل فيه-فتواثبت خزاعه فقالوا:-ندخل في عهد محمد و عقده.

و تواثبت بنو بكر فقالوا:ندخل في عقد قريش و عهدهم-فمكثوا في تلك الهدنه-نحو السبعه عشر أو الثمانيه عشر شهرا.

ثم إن بنى بكر الذين كانوا دخلوا في عقد قريش و عهدهم-وثبوا على خزاعه الذين دخلوا في عقد رسول الله ص و عهده-ليلا بماء لهم يقال له:الوتير قريب من مكه- فقالت قريش ما يعلم بنا محمد و هذا الليل-و ما يرانا أحد فأعانوهم عليهم بالكراع و السلاح- فقاتلوهم معهم للضغن على رسول الله ص.

و ركب عمرو بن سالم-عند ما كان من أمر خزاعه و بنى بكر بالوتير-حتى قدم المدينه على رسول الله ص بأبيات أنشده إياها:

-يا رب (1)إني ناشد محمدا

حلف أبينا و أبيه الأتلدا

قد كنتم ولدا و كنا والدا

ثمت أسلمنا فلم نزرع يدا

فانصر هداك الله نصرنا أعتدا

و ادع عباد الله يأتوا مددا

فيهم رسول الله قد تجردا

إن سيم خسفا وجهه تربدا

في فيلق كالبحر يجرى مزبدا

إن قريشا أخلفوك الموعدا

و نقضوا ميثاقك المؤكدا

و جعلوا لى فى كداء رسدا

و زعموا أن لست أدعو أحدا

و هم أذل و أقل عددا

هم بيتونا بالوتير هجدا

و قتلونا ركعا و سجدا (٢)

فقال رسول الله ص: نصرت يا عمرو بن سالم-فما برح حتى مرت غمامه في السماء-فقال رسول الله ص: إن هذه السحابه لتشهد (٣) بنصر بنى كعب، و أمر رسول الله ص الناس بالجهاد و كتمهم مخرجه، و سأل الله أن يعمى على قريش خبره-حتى يبعثهم في بلادهم.

ص: ١٨٣

١-١) في الدر المنثور: لا هم.

٢-٢) الأبيات منقوله على ما يطابق نسخه السيره لابن هشام لكثير- الغلط في نسخه الدر المنثور

٣-٣) لتستهل. نسخه سيره النبي.

أقول:أورد الروايه فى الدر المنثور،بعد ما روى بطرق عن مجاهد و عكرمه أن قصه نقض قريش عهد الحديبيه و إعانتهم بنى بكر على خزاعه حلفاء رسول الله ص كان هو السبب لنزول قوله تعالى:« أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا إِلَى قَوْلِهِ:« وَ يَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ »و هم خزاعه.

و لو كان الأمر على ما ذكروا كانت الآيه:« أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ » -إلى تمام ثلاث آيات بل أربع-على ما يعطيه السياق مما نزل قبل فتح مكة فتكون نازله قبل آيات براءه لا محاله.

لكن القصه التى رواها ابن إسحاق و البيهقى على اعتبارها لمكان المسور بن مخرمه لا تصرح بنزول الآيات فى ذلك،و ما رواها مجاهد و عكرمه لا اعتماد عليه لمكان الوقف و الانقطاع،و سياق الآيات لا يأبى نزولها مع ما تقدم عليها و اتصالها بها على ما لا يخفى.

و الذى ذكر فيها من قوله:« نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَ هُمَا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَ هُمْ يَدْعُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ »و إن كان يشير إلى صفات قريش الخاصه بهم لكن من الجائز أن تكون الآيه مشيره إلى حلفاء قريش و جيرانهم ممن لم يؤمنوا بعد فتح مكة و هم لاتحادهم مع قريش و اتصالهم بهم و صفوا بما يوصف به قريش بالأصالة.

و اعلم أن هناك روايات متفرقه من طرق أهل البيت(ع)تطبق الآيات على ظهور المهدي(ع)،و هى من الجرى.

(كلام فى معنى العهد و أقسامه و و هى من أحكامه [فى أربعة فصول])

قدمنا فى أوائل الجزء السادس من الكتاب كلاما فى معنى العقد و العهد و نستأنف البيان هاهنا فى معنى ما تقدم و ما يستتبعه من الأقسام و الأحكام بتقرير آخر فى فصول:

١-قد لايح لك من تضاعيف الأبحاث المتقدمه فى هذا الكتاب أن الإنسان فى مسير حياته لا يزال يصور أعماله و ما يتعلق به أعماله من ماده تصور الأمور الكونيه و يمثلها بها و يجرى بينها أحكام الأمور الكونيه و آثارها من القوانين العامه الجاريه فى الكون بحسب ما يناسب أغراضه الحيويه كما أنه يأخذ مثلا أصواتا متفرقه هى الزاى

و الياء و الدال، و يؤلفها بشكل مخصوص و يعمل لفظ «زيد» ثم يفترض أنه زيد الإنسان الخارجى فيسميه به ثم كلما أراد أن يحضر زيدا فى ذهن مخاطبه ألقى إليه لفظ «زيد» فكان ممثلا لعين زيد عنده، و حصل بذلك غرضه.

و إذا أراد أن يدبر أمرا لا يدور إلا بعمل عده مؤتلفه من الناس اختار جماعه و افترضهم واحدا كالإنسان الواحد، و فرض واحدا منهم للباقيين كما يفرض الرأس لبدن الإنسان و يسميه رئيسا، و فرض كلا من الباقيين كما يفرض العضو من البدن ذى الأعضاء و يسميه عضوا ثم يرتب على الرأس أحكام الرأس الخارجى، و على العضو آثار العضو الخارجى و على هذا القياس.

و إلى هذا يؤول جميع أفكار الإنسان الاجتماعيه بلا واسطه أو بواسطه أو وسائط من التصورات و التصديقات إذا حللت تحليلا صحيحا كما تؤول إليه أنظاره الفرديه فيما يرتبط بأعماله و أفعاله.

الإنسان شديد الاهتمام بعقد العقود و تمثيل العهود و ما يرتبط بها من الحلف و اليمين و البيعه و نحو ذلك، و العامل الأولى فى ذلك أن الإنسان لا- هم له إلا- التحفظ على حياته و الوصول إلى مزاياها و التمتع بالسعاده التى تستعقبها لو جرت على حقيقه مجراها.

فأى بغيه من مبتغياته و جدها و سلط عليها أخذ فى التمتع منها بما يناسبها من التمتع كالأكل و الشرب و غيرهما بما جهز به من أدوات التمتع، و دفع كل ما يمنعه من التمتع لو عرض هناك مانع عارض و رأى أنه إنما وفق لذلك فى ضوء ما أوتيه من السلطه.

و قد أوتى الإنسان سلعه الفكر و بذلك يدبر أمر حياته و يصلح شأن معاشه فيعمل ليومه و يمهد لغده، و أعماله التى هى تصرفات منه فى الماده أو عائده إلى ذلك فى عين أنها جميعا متوقفه على انبساط سلطته على الفعل و إحاطته بكل ما يتعلق به عمله، مختلفه فى أن بعضها يتم بالسلطه المقصوره على الفعل مقدار زمانه كمن صادف غذاء و هو جوعان فتناوله فأكله، فإنه لا يتوقف على سلطه أوسع من زمان العمل، و لا على تمهيد و تقدمه.

و بعضها- و هو جل الأعمال الإنسانيه الاجتماعيه- يتوقف على سلطه و سيعه تنبسط على العمل فى وقته و على زمان قبله فقط أو على زمان قبله و بعده، لحاجته

إلى مقدمات يمهدا له، و تدبير سابق يقدمه لوجوده، فما كل عمل يعمله الإنسان بصدفه، بل جل الأمور الحيويه من شأنها أن يتهياً الإنسان له قبل أو انه.

و من التهيؤ له أن يتهياً لجمع أسبابه و نظم الوسائل التي يتوسل بها إليه و أن يتهياً لرفع موانعه التي من شأنها أن تراحمه في وجوده و عند حصوله، فالإنسان لا يوفق لعمل و لا ينجح في مسعاها إلا إذا كان في أمن من أن تفوته الأسباب أو تعارضه الموانع و المزاحمات.

و التنبه لهذه الحقيقه هو الذي بعث الإنسان إلى أن يأخذ أمنا من رقبائه في الحياه: أن يعينوه فيما يحتاج من الأمور إلى معين مشارك، أو أن لا يمانعوه من العمل فيما يتوقف إلى ارتفاع الموانع و زوالها.

فالإنسان و هو يريد أن يتخذ لباسا يلبسه من ماده بسيطه كالقطن أو الصوف، و الأمر متوقف على أعمال كثيره يعملها الغزال و النساج و الخياط و من يصنع لهم أدوات الغزل و النسج و الخياطه، لا يتم له ما يريد من اتخاذ اللباس و لا ينجح سعيه إلا إذا كان في أمن من ناحيه هؤلاء الرقباء: أن يعملوا على ما يريد و لا يخلوه وحده فيخيّب سعيه و يخسر في عمله.

و كذا الإنسان القاطن في أرض أو الساكن في دار لا يتم له سكناه إلا مع الأمن من ممانعه الناس و مزاحمتهم له في سكناه و التصرف فيه بما يصلح به لذلك.

و هذا هو الذي هدى الإنسان إلى اعتبار العقد و إبرام العهد، فهو يأخذ ما يريد من العمل و يربطه بما يعينه عليه من عمل غيره و يعقدهما: يمثل به عقد الجبال الذي يفيد اتصال بعض أجزائها ببعض و عدم تخلف بعضها عن بعض، و مثله العهد الذي يعهده إليه غيره أن يساعده في ما يريد من الأمر أو أن لا يمانعه في ذلك.

و إلى ذلك يثول أمر عامه العقود لعقد النكاح و عقد البيع و الشرى و عقد الإجاره، و يصدق عليها العهد بمعناها العام و هو أن يعطى الإنسان لغيره قولاً أو كتاباً أن يعينه على كذا أو أن لا يمنعه من كذا إلى أجل مضروب أو لا إلى أجل.

و الكلام في المقام في العهد الذي لم يختص باسم خاص كعقد البيع و النكاح و غيرهما من عقود المعاملات فهي خارجه من غرضنا و لها في المجتمعات الإنسانيه أحكام

خاصه و آثار و خواص مخصوصه بل الكلام فى العهد بمعنى ما يعقده الإنسان لغيره من الإعانه أو عدم الممانعه فى متفرقات المقاصد الاجتماعيه، و ما يجعله لذلك من الآثار كمن يعاهد غيره أن يعطيه كل سنه كذا مالا ليستعين به على حوائجه، و يأخذ منه كذا مالا- أو نفعاً، أو يعاهده أن لا يزاحمه فى عمله أو لا يمانعه فى مسيره إلى أجل كذا أو لا إلى أجل، و هو نوع إحكام و إبرام لا ينتقض إلا بنقض أحد الطرفين أو بنقضهما معا.

و ربما زيد على إحكام العهد بالحلف و هو أن يقيد المعاهد ما يعطيه من العهد و يربطه بأمر عظيم شأنه يقده و يحترمه كأنه يجعل ما له من الحرمة و العزه رهنا يرهن به عهده يمثل به أنه لو نقضه فقد أذهب حرمة يقول المعاهد: و الله لا أخونك، و لعمري لأساعدنك، و أقسم لأنصرنك، يمثل به أنه لو أخلف وعده و نقض عهده فقد أبطل حرمة ربه، أو حرمة عمره أو حرمة قسمه فلا مروه له.

و ربما أبرم العهد و الميثاق بالبيعه و الصفقه يضع المعاهد يده فى يد معاهده يمثل به أنه أعطاه يده التى بها يفعل ما يفعل فلا يفعل ما يكره معاهده لأن يده قبضه يده. ٢- العهود و الموائيق كما تمسها حياه الإنسان الذى هو فرد المجتمع كذلك تمسها حياه المجتمع فليس المجتمع إلا- المجتمع من أفراد الإنسان، حياته مجموع حياه أجزائه، و أعماله الحيويه مجموع أعمال أجزائه و له من الخير و الشر و النفع و الضرر و الصحة و السقم و النشوء و الرشد و الاستقامه و الانحراف و السعاده و الشقاوه و البقاء و الزوال مجموع ما لأجزائه من ذلك.

فالمجتمع إنسان كبير له من مقاصد الحياه ما للإنسان الصغير، و نسبه المجتمع إلى المجتمع تقرب من نسبه الإنسان الفرد إلى الإنسان الفرد فهو يحتاج فى ركوب مقاصده و إتيان أعماله من الأمن و السلامه إلى مثل ما يحتاج إليه الإنسان الفرد بل الحاجه فيه أشد و أقوى لأن العمل يعظم بعظمه فاعله و عظمه غرضه، و المجتمع فى حاجه إلى الأمن و السلام من قبل أجزائه لئلا يتلاشى و يتفرق، و إلى الأمن و السلام من قبل رقبائه من سائر المجتمعات.

و على هذا جرى ديدن المجتمعات الإنسانيه على ما بأيدينا من تاريخ الأمم و الأقوام الماضيه، و ما نسمعه أو نشاهده من الملل الحاضره فلم يزل و لا يزال المجتمع من المجتمعات الإنسانيه فى حاجه قائمه إلى أن يعاهد غيره فى بعض شئون حياته السياسيه و الاقتصاديه

أو ثقافيه أو غيرها، فلا يصنفو الجور للإقدام على شيء من مقاصد الحياه أو التقدم في شيء من مآربها إلا بالاعتضاد بالأعضاء و الأمن من معارضه الموانع.

٣-الإسلام بما أنه متعرض لأمر المجتمع كالفرد، ويهتم بإصلاح حياه الناس العامه كاهتمامه بإصلاح حياه الفرد الخاصه قنن فيه كليات ما يرجع إلى شئون الحياه الاجتماعيه كالجهاد و الدفاع و مقاتله أهل البغي و النكث و الصلح و السلم و العهود و المواثيق و غير ذلك.

و العهد الذي نتكلم فيه قد اعتبره اعتبارا تاما و أحكمه إحكاما يعد نقضه من طرف أهله من أكبر الإثم إلا أن ينقضه المعاهد الآخر فيقابل بالمثل فإن الله سبحانه أمر بالوفاء بالعهود و العقود، و ذم نقض العهود و المواثيق ذما بالغا في آيات كثيره جدا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ المائده: ١، و قال: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ إلى أن قال X- أو لئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ: الرعد: ٢٥، و قال:

« وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا: » إسرائ: ٣٤ إلى غير ذلك.

و لم يبح نقض العهود و المواثيق إلا فيما يبيحه حق العدل و هو أن ينقضه المعاهد المقابل نقضا بالبغي و العتو أو لا يؤمن نقضه لسقوطه عن درجه الاعتبار، و هذا مما لا اعتراض فيه لمعترض و لا لوم للائم، قال تعالى: ﴿وَ إِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ: » الأنفال: ٥٨ فأجاز نقض العهد عند خوف الخيانه و لم يرض بالنقض من غير إخبارهم به و اغتيالهم و هم غافلون دون أن قال: ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ فأوجب أن يخبروهم بالنقض المتقابل احترازا من رذيله الخيانه.

و قال: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ: » براءه: ٢ فلم يرض بالبراءه دون أن وسع عليهم أربعه أشهر حتى يكونوا على مهل من التفكير في أمرهم و التروى في شأنهم فيروا رأيهم على حريه من الفكر فإن شاءوا آمنوا و نجوا و إن لم يشاءوا قتلوا و فنوا، و قد كان من حسن أثر هذا التأجيل أن آمنوا فلم يفنوا.

و قد تمم سبحانه هذه الفائده أحسن إتمام بقوله بعد إعلام البراءه: ﴿وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ: » التوبه: ٦.

و قال مستثنيا الموفين بعهدهم من المشركين: « كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ

اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ لَاحِقُوا فِي الْكُفْرِ مِنْ قَوْمِهِمْ وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٨٩﴾

التوبة: -٨ و قد علل الاستقامه لمن استقام بأنه من التقوى- ذاك التقوى الذى لا دعوه فى الدين إلا إليه- وإن الله يحب المتقين، و هذا تعليل حتى إلى يوم القيامة.

و قال تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ البقره: -١٩٤ و قال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ﴾ المائده: -٢.

و أما النقض الابتدائى من غير نقض من العدو المعاهد فلا مجوز له فى هذا الدين الحنيف أصلا، و قد تقدم قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ الآية و قال: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ البقره: -١٩٠.

و على ذلك جرى عمل النبى ص أيام حياته فقد عاهد بنى قينقاع و بنى قريظه و غيرهم من اليهود و لم ينقض إلا- بعد ما نقضوا، و عاهد قريشا فى الحديبيه و لم ينقض حتى نقضوا بإظهار بنى بكر على خزاعه و قد كانت خزاعه فى عهد النبى ص، و بنو بكر فى عهد قريش.

و أما النقض من غير نقض فلا مبيح له فى الإسلام و إن كان الوفاء مما يفوت على المسلمين بعض منافعهم، و يجلب إليهم بعض الضرر و هم على قدره من حفظ منافعهم بالبأس و القوه أو أمكنهم الاعتذار ببعض ما تصور لهم الحجه ظاهرا و تصرف عنهم اللوم و العذل فإن مدار الأمر على الحق، و الحق لا يستعقب شرا و لا ضرا إلا على من انحرف عنه و آوى إلى غيره.

٤- المجتمعات الإنسانيه سيما الرقيه المتمدنه منها غير المجتمع الدينى لا هدف لاجتماعهم و لا غرض لسننهم الجاريه إلا التمتع من مزايا الحياه الماديه ما قدروا عليه فلا موجب لهم للحفاظ على شىء أزيد مما بأيديهم من القوانين العمليه الناظمه لشتات مقاصدهم الحيويه.

و من الضرورى أن الظرف الذى هذا شأنه لا قيمه فيها للمعنويات إلا بمقدار

ما يوافق المقاصد الحيويه الماديه فالفضائل و الرذائل المعنويه كالصدق و الفتوه و المروه و نشر الرحمه و الرأفه و الإحسان و أمثال ذلك لا- اعتبار لها إلا- بمقدار ما درت بها منافع المجتمع، و لم يتضرروا بها لو لم تعتبر، و أما فيما ينافى منافع القوم فلا موجب للعمل بها بل الموجب لخلافها.

و لذلك ترى المؤتمرات الرسميه و أولياء الأمور فى المجتمعات لا- يرون لأنفسهم وظيفه إلا- التحفظ على منافع المجتمع الحيويه، و ما يعقد فيها من العهود و المواثيق إنما يعقد على حسب مصلحه الوقت، و يوزن بزنه ما عليه الدوله المعاهده من القوه و العده، و ما عليه المعاهد المقابل من القوه و العده فى نفسه و بما يضاف إليه من سائر المقتضيات المنضمه إليه المعينه له.

فما كان التوازن على حاله التعادل كان العهد على حاله، و إذا مالت كفه الميزان للدوله المعاهده على خصمه أبطلت اعتبار العهد بأعذار مصطنعه و اتهامات مفتعله للتوسل إلى نقضه، و إنما يراد بتقديم الأعذار أن يتحفظ على ظاهر القوانين العالميه التى لا عقبى لنقضها و التخلف عنها إلا ما يهدد حياه المجتمع أو بعض منافع حياتهم، و لو لا ذلك لم يكن ما يمنع النقض و لو من غير عذر إذا اقتضته منافع المجتمع القوى الحيويه.

و أما الكذب أو الخيانه أو التعدى لما يتخذه الغير منافع لنفسه فليس مما يمنع مجتمعا من المجتمعات من حيازه ما يراه نافعا لشأنه إذ الأخلاق و المعنويات لا أصله لها عندهم و إنما تعتبر على حسب ما تقدره غايه المجتمع و غرضه الحيوى و هو التمتع من الحياه.

و أنت إذا تتبعته الحوادث العامه بين المجتمعات سابقها و لاحقها و خاصه الحوادث العالميه الجاربه فى هذا العصر الأخير عثرت على شىء كثير من العهود الموثقه و نقوضها على ما وصفناه.

و أما الإسلام فلم يعد حياه الإنسان الماديه حياه له حقيقه، و لا التمتع من مزاياها سعادته له واقعيه، و إنما يرى حياته الحقيقه حياهه الجامعه بين الماده و المعنى، و سعادته الحقيقه اللازم إحرازها ما يسعده فى دنياه و أخره.

و يستوجب ذلك أن يبنى قوانين الحياه على الفطره و الخلقه دون ما يعده الإنسان صالحا لحال نفسه، و يؤسس دعوته الحقه على اتباع الحق و الاهتداء به دون اتباع الهوى

و الاقتداء بما يميل إليه الأكثرية بعواطفهم و إحساساتهم الباطنه قال تعالى: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ»:

الروم: -٣٠ و قال: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينِ [\(١\)](#) الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ»: التوبه: -٣٣، و قال: «بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ»: المؤمنون: -٩٠، و قال:

« وَ لَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ: » المؤمنون: -٧١.

و من لوازم ذلك أن يراعى حق الاعتقاد و فضيله الخلق و صالح العمل جميعا فلا غنى للماده عن المعنى و لا غنى للمعنى عن الماده فمن الواجب رعايه جانب الفضائل الإنسانيه نفعت أو ضرت و التجنب عن الرذائل نفعت أو ضرت لأن ذلك من اتباع الحق، و حاشا أن يضر إلا من انحرف عن ميزانه و تخطى ما يخط له الحق.

و من هنا ما نرى أن الله سبحانه ينقض عهد المشركين لنقضهم عهده و يستعمل الرحمه بامهالهم أربعة أشهر، و يأمر بالاستقامه لمن استقام فى عهده من المشركين و قد استذلهم الحوادث يومئذ و ضعفوا دون شوكة الإسلام، و كذا يأمر نبيه ص إن خاف من قوم خيانه أن ينقض عهدهم لكن يأمره بإعلامهم ذلك و يعلله بأنه لا يحب الخيانه.

(كلام فى نسبة الأعمال إلى الأسباب طولا)

تقدم فى مواضع من هذا الكتاب أن الذى تنتجه الأبحاث العقلية أن الحوادث كما أن لها نسبه إلى أسبابها القريبه المتصله بها كذلك لها نسبه إلى أسبابها القصى التى هى أسباب لهذه الأسباب فالحوادث أفعال لها فى عين أنها من أفعال أسبابها القريبه المباشره للعمل فإن الفعل كالحركه مثلا- يتوقف على فاعله المحرك و يتوقف على محرك محركه بعين ما يتوقف على محركه، نظير العجله المحركه للأخرى المحركه لثالثه و ليست من الحركه بالعرض.

فللفعل نسبه إلى فاعله، و له انتساب إلى فاعل فاعله بعين هذه النسبه التى إلى فاعله لا بنسبه أخرى منفصله عنها مستقله بنفسها غير أنه إذا انتسب إلى فاعل الفاعل عاد الفاعل القريب بمنزله الإله بالنسبه إلى فاعل الفاعل أى واسطه محضه لا استقلال لها

ص: ١٩١

(١- ١) ظاهر الآيه كون الإضافه حقيقه لا من إضافه الموصوف إلى صفته.

فى العمل بمعنى أنه لا يستغنى فى تأثيره عن فاعل الفاعل إذ فرض عدمه يساوق انعدام الفاعل و انعدام أثره.

و ليس من شرط الواسطه أن تكون غير ذات شعور بفعالها أو غير مختاره فإن الشعور الذى يؤثر به الفاعل الشاعر فى فعله لم يوجد هو لنفسه و إنما أوجده فيه فاعله الذى أوجد الفاعل و شعوره، وكذلك الاختيار لم يوجد الفاعل المختار لنفسه و إنما أوجده الفاعل الذى أوجد الفاعل المختار، كما يتوقف الفعل فى غير موارد الشعور و الاختيار إلى فاعله، و يتوقف بعين هذا التوقف إلى فاعل فاعله، كذلك يتوقف الفعل الشعورى و الفعل الاختيارى إلى فاعله و يتوقف بعين هذا التوقف إلى فاعل فاعله الذى أوجد لفاعله الشعور و الاختيار.

ففاعل الفاعل الشاعر أو المختار أراد من الفاعل الشاعر أو المختار أن يفعل من طريق شعوره فعلا كذا أو يفعل باختياره فعلا اختياريا كذا فقد أريد الفعل من طريق الاختيار لأنه أريد الفعل و أهمل الاختيار الذى ظهر به فاعله فافهم ذلك فلا تزل قدم بعد ثبوتها.

و على هذه الحقيقه يجرى الناس بحسب فهمهم الغريزى فينسبون الفعل إلى السبب البعيد كما ينسبونه إلى السبب القريب المباشر بما أنه أثر مترشح منه يقال: بنى فلان دارا، و حفر بئرا و إنما باشر ذلك البناء و الحفار، و يقال: جلد الأمير فلانا، و قتل فلانا، و أسر فلانا، و حارب قوما كذا، و إنما باشر الجلد جلاده، و القتل سيافه، و الأسر جلاوزته، و المحاربه جنده، و يقال، أحرق فلان ثوب فلان، و إنما أحرقه النار، و شفى فلان مريضا كذا و إنما شفاه الدواء الذى ناوله و أمره بشربه و استعماله.

ففى جميع ذلك يعتبر أمر الأمر أو توسل المتوسل تأثيرا منه فى الفاعل القريب ثم ينسب الفعل المنسوب إلى الفاعل القريب إلى الفاعل البعيد، و ليس أصل النسبه إلا نسبه حقيقه من غير مجاز قطعا.

و من قال من علماء الأدب و غيرهم إن ذلك كله من المجاز فى الكلمه لصحه سلب الفعل عن الفاعل البعيد فإن مالك البناء لم يضع لبنه على لبنه و إنما هو شأن البناء الذى باشر العمل! إنما أراد الفعل بخصوصيه صدوره عن الفعل المباشر و من المسلم أن المباشره إنما هو شأن الفاعل القريب، و لا كلام لنا فيه، و إنما الكلام فيما يتصور له

من الوجود المتوقف إلى فاعل موجد، وهذا المعنى كما يقوم بالفاعل المباشر كذلك يقوم بعين هذا القيام بفاعل الفاعل.

و اعتبار هذه النكته هو الذى أوجب لهم أن يميزوا بين الأعمال و ينسبوا بعضها إلى الفاعل القريب و البعيد معا، و لا ينسبوا بعضها إلا إلى الفاعل القريب المباشر للعمل فما كان منها يكشف بمفهومه عن خصوصيات المباشرة و الاتصال بالعمل كالأكل بمعنى الالتقام و البلع و الشرب بمعنى المص و التجرع و القعود بمعنى الجلوس و نحو ذلك لم ينسب إلا إلى الفاعل المباشر فإذا أمر السيد خادمه أن يأكل غذاء كذا و يشرب شرابا كذا و يقعد على كرسى كذا، قيل: أكل الخادم و شرب و قعد و لا يقال: أكله سيده و شربه و قعد عليه، و إنما يقال: تصرف فى كذا إذا استعمل كذا أو أنفق كذا و نحو ذلك لما ذكرناه.

و أما الأعمال التى لا تعتبر فيها خصوصيات المباشرة و الحركات الماديه التى تقوم بالفاعل المباشر للحركة كالقتل و الأسر و الإحياء و الإماتة و الإعطاء و الإحسان و الإكرام و نظائر ذلك فإنها تنسب إلى الفاعل القريب و البعيد على السويه بل ربما كانت نسبتها إلى الفاعل البعيد أقوى منها إلى الفاعل القريب كما إذا كان الفاعل البعيد أقوى وجودا و أشد سلطه و إحاطه.

فهذا ما ينتجه البحث العقلى و يجري عليه الإنسان بفهمه الغريزى، و القرآن الكريم يصدق ذلك أوضح تصديق كقوله تعالى فى الآيات السابقه: « قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَ يَخْزِيهِمْ وَ يُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَ يَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ وَ يُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ » الآيات. حيث نسب التعذيب الذى تباشره أيدي المؤمنين إلى نفسه بجعل أيديهم بمنزله الآله.

و نظيره قوله تعالى: « وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ مَا تَعْمَلُونَ: » الصافات: -٩٦ فإن المراد بما تعملون إما الأصنام التى كانوا يعملونها من الحجارة أو الأخشاب أو الفلزات وإنما أريد به المادة بما عليها من عمل الإنسان ففيه نسبه الخلق إلى الأعمال كنسبته إلى فواعلها، و أما نفس الأعمال فالأمر أوضح.

و يقرب من ذلك قوله تعالى: « وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَ الْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ: »

الزخرف-١٢، ففيه نسبة الخلق إلى الفلك و الفلك بما هي من عمل الإنسان.

هذا فيما نسب فيه الخلق إلى الأعمال الصادرة عن الشعور و الإرادة، و أما الأفعال التي لا تتوقف في صدورها على شعور و إرادة كالأفعال الطبيعية فقد ورد نسبتها إلى الله سبحانه في آيات كثيرة جدا لا حاجة إلى إحصائها كإحياء الأرض و إنبات النبات و إخراج الحب و إمطار السماء و إجراء الأنهار و تسيير الفلك التي تجرى في البحر بأمره إلى غير ذلك.

و لا منافاه في جميع هذه الموارد بين انتساب الأمر إليه تعالى و انتسابه إلى غيره من الأسباب و العلل الطبيعية و غيرها إذ ليست النسبه عرضيه تراحم إحدى النسبتين الأخرى بل هي طوليه لا محذور في تعلقها بأزيد من طرف واحد.

و قد تقدم في مطاوى أبحاثنا السابقه دفع ما اشتبهه على الماديين من إسناد الحوادث العامه كالسيول و الزلازل و الجذب و الوباء و الطاعون إلى الله سبحانه مع الحصول على أسبابها الطبيعيه اليوم حيث خلطوا بين العلل و الأسباب العرضيه و الطوليه، و حسبوا أن استنادها إلى عللها الطبيعيه يبطل ما أثبتته الكتاب العزيز و أذعن به الإلهيون من استنادها إلى مسبب الأسباب الذي إليه يرجع الأمر كله.

و للأشاعره و المعتزله بحث غريب في الآيه السابقه: « قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ » و ما يناظرها من الآيات، أورده الرازي في تفسيره نوره ملخصا.

قال: استدلت الأشاعره بقوله تعالى: « قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ » الآية على أن أفعال العباد مخلوقه لله، و أن الناس مجبرون في أفعالهم غير مختارين فإن الله سبحانه يخبر فيها أنه هو الذي يعذب المشركين بقتل بعضهم و جرح آخرين بأيدى المؤمنين و يدل ذلك على أن أيدى المؤمنين كسيوفهم و رماحهم آلات محضه لا تأثير لها أصلا و إنما الفعل لله سبحانه، و أن الكسب الذي يعد مناظا للتكليف اسم لا مسمى له.

و هذه الآيه أقوى دلالة على المطلوب من دلالة مثل قوله تعالى: « وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَى » إذ فيه إثبات الرمي على النبي ص- و إن كان مع ذلك نفى عنه- و إثبات لإسناده إلى الله سبحانه لكن الآيه أعنى قوله: « قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ » إثبات للتعذيب على الله سبحانه و جعل أيدى المؤمنين التي لهم آلات

فى الفعل لا تأثير لها و فيها أصلا.

و أجاب عنه الجبائى من المعتزله: بأنه لو جاز أن يقال: إن الله يعذب الكافرين بأيدى المؤمنين بحقيقه ما ادعى له من المعنى لجاز أن يقال: إنه يعذب المؤمنين بأيدى الكافرين، و أنه تعالى يكذب أنبياءه بألستهم، و يلعن المؤمنين و يسبهم بأفواههم لأنه تعالى خالق لذلك كله، و إذ لم يجر ذلك علمنا أنه تعالى لم يخلق أعمال العباد، و إنما أعمالهم خلق أنفسهم.

و بذلك يعلم أن إسناد التعذيب فى الآيه إليه تعالى بنوع من التوسع لأنه إنما تحقق عن أمره و لطفه كما أنه تعالى ينسب جميع الطاعات و الحسنات إلى نفسه لتحقيقها عن أمره و توفيقه.

و أجاب عنه الرازى بأن أصحابنا يلتزمون جميع ما ألزم به الجبائى و أصحابه من لزوم إسناد القبائح إليه تعالى و يعتقدون به لبا و إن كانوا لا ينطقون به لسانا أدبا مع الله سبحانه، انتهى ملخصا.

و الأبحاث التى قدمناها فى هذا الكتاب حول هذه المعانى تكفى لإيضاح الحق و إنارته فى هذا المقام، و الكشف عما وقع فيه الفريقان جميعا.

أما ما ذكرته الأشاعره و التزموا به فإنما أوقعهم فى ذلك ما ذهبوا إليه من نفى رابطة العليه و المعلوليه من بين الأشياء و قصرها فيما بينه تعالى و بين خلقه عامه فلا سبب فى الوجود لا استقلالاً و لا بالوساطه غيره تعالى، و أما رابطة السببيه التى بين الأشياء أنفسها فإنما هى سببيه بالاسم فقط لا بالحقيقه، و إنما هى العاده الإلهيه جرت بإيجاد ما نسميها مسببات عقيب ما نسميها أسبابا فما بينها و بينه تعالى سببيه حقيقه، و ما بينها أنفسها يعود إلى الاتفاق الدائم أو الأكثرى.

و لازلزم ذلك إبطال العليه و السببيه من أصلها، و بطلانها يبطل ما أثبتوه من انحصار السببيه فيه تعالى إذ لو جاز أن يكون نسبه كل شىء إلى كل شىء نسبه واحده من غير اختلاف بالتأثير و التأثير لم يبق للإنسان ما يتنبه به لأصل معنى السببيه فلا سبيل له إلى إثبات سببته تعالى لكل شىء.

على أن الإنسان يترقب حوادث من حوادث أخرى، و يقطع بالنتائج عن

مقدماتها و يبنى حياته على التعليم و التربيه، و على تقديم الأسباب طمعا فى مسياتها سواء اعترف بالصانع أو لم يعترف، و لا يتم له شىء من ذلك إلا عن إذعان فطرى بأصل العليه و المعلوليه، و لو أجازت الفطره الإنسانيه بطلان ذلك و جريان الحوادث على مجرد الاتفاق اختل نظام حياته ببطلان سعيه الفكرى و العملى، و انسد طريق إثبات سبب ما فوق طبيعه الحوادث.

على أن الكتاب العزيز يجرى فى بياناته على تصديق أصل العليه و المعلوليه، و ينسب كل حسنه إليه تعالى و ينفى استناد السيئات و المعاصى إليه و يسميه بكل اسم أحسن و يصفه بكل وصف جميل، و ينفى عنه كل هزل و عبث و لغو و لهو و جزاف، و لا يتم شىء من ذلك إلا على أصل العليه و المعلوليه، و قد تقدم فى الأبحاث السابقه ما يتبين به ذلك كله.

و قد ذهب طائفه من الماديين و خاصه أصحاب الماديه المتحوله إلى عين ما ذهب إليه الأشاعره من ثبوت الجبر و نفي الاختيار عن الأفعال الإنسانيه، و إنما الفارق بين قولى الطائفتين هو أن الأشاعره بنوا ذلك على سببيه الواجب تعالى المنحصره و استنتجوا من ذلك بطلان السببيه الاختياريه و انتفاءها عن الإنسان، و الماديون بنوه على معلوليه الأفعال الإنسانيه لمجموع الحوادث المحتفه بالفعل التى هى عله حدوثه، و لا معنى للعليه إلا بالإيجاب، فالإنسان موجب فى فعله مجبر عليه.

و قد فات منهم أن الذى نسبه المعلول إليه بالإيجاب إنما هو العله التامه، و هى مجموع الحوادث المتقدمه على المعلول التى لا يتوقف هو فى وجوده على شىء وراءها، و بوجودها جميعا لا- يبقى له إلا- أن يوجد، و أما بعض أجزاء العله التامه فإنما نسبه المعلول إليه بالإمكان لا بالوجوب لتوقف وجوده على أشياء آخر وراءه فلا يتحقق بوجود الجزء المفروض جميع ما يتوقف عليه وجوده حتى يعود واجبا وجوده.

و الأفعال الإنسانيه يتوقف فى وجودها على الإنسان و إرادته و على أمور غير محصوره أخرى من الماده و الشرائط الزمانيه و المكانيه فهى إذا نسب إليها جميعا كانت النسبه الحاصله نسبه الوجوب و الضروره، و أما إذا نسبت إلى الإنسان وحده أو إلى الإنسان المرید فقد نسبت إلى جزء العله التامه و عادت النسبه إلى الإمكان دون الوجوب، فالأفعال الإراديه الإنسانيه اختياريه أى أنه يمكنه أن يفعل و أن لا يفعل فإن فعل

فبمشيئته وإرادته، وإن لم يفعل فلم يختره و لم يرده و إنما اختار و أراد شيئاً آخر، لكنها لا تقع فى الخارج إلا واجبه لاستنادها حينئذ إلى جميع أجزاء عللها.

فهؤلاء خلطوا فى كلامهم بين النسبتين فوضعوا النسبه الوجويه التى للفعل إلى مجموع أجزاء علتها التامه موضع النسبه الإمكانيه التى للفعل إلى بعض أجزاء علتها التامه و هى التى تسمى فى الإنسان بالاختيار على نحو من العناية.

و أما ما ذكره المعتزله أنه لو جاز كونه تعالى هو الفاعل للفعل الذى أتى به المؤمنون و هو التعذيب، و ليس لهم إلا مقام الآليه المحضه من غير تأثير لجاز إسناد تعذيب الكفار للمؤمنين و تكذيبهم للأنبياء و لعنهم المؤمنين أيضا إليه، و هو باطل قطعاً فأفعال العباد مخلوقه لهم لا صنع الله تعالى فيها.

فيه أن الملازمه حقه لكن بطلان التالى لا يستلزم كون الأفعال مخلوقه لهم لا نسبه لها إلى الله سبحانه أصلاً لجواز كونها منسوبه إليه تعالى بعين ما ينتسب به إليهم فإنهم فاعلون لها و هو فاعل الفاعلين فينتسب إليهم بالصدور عن الفاعل المباشر، و ينتسب إليه بالصدور عن الفاعل الذى هو فاعله و النسبتان فى الحقيقه نسبه واحده مختلفه بالقرب و البعد و انتفاء الواسطه و ثبوتها، و لا يستلزم ذلك اجتماع فاعلين مستقلين على فعل واحد لكونهما طوليين لا عرضيين.

فإن قلت: فيبقى محذور استناد الحسنات و السيئات و الإيمان و الكفر إليه تعالى فى محله.

قلت: كلا- و إنما ينتسب إليه أصل وجودها، و أما عنوان الفعل الذى يشير إلى جهه قيام الحركه و السكون بالموضوع المتحرك كالنكاح و الزنا و الأكل المحرم و المحلل فإنما ينسب إلى الإنسان لكونه هو الموضوع المادى الذى يتحرك بهذه الحركات: و أما الذى يوجد هذا المتحرك الذى من جملة آثاره حركته و ليس بنفسه متحركاً بها و إنما يوجدها إيجاداً إذا تمت شرائطها و أسبابها فلا يتصف بأنواع هذه الحركات حتى يتصف بفعل النكاح أو الزنا أو أى فعل قائم بالإنسان.

نعم هناك عناوين عامه لا تستتبع معنى الحركه و الماده، لا مانع من إسنادها إلى الإنسان و إليه سبحانه إذا لم يستلزم محذورا كالهدياه و الإضلال إذا لم يكن إضلالاً ابتدائياً، و كالتعذيب و الابتلاء، فقتل المؤمن للكافر تعذيب إلهى للكافر، و قتل

الكافر للمؤمن بلاء حسن للمؤمن يستوجب به أجرا حسنا عند الله، وعلى هذا القياس.

على أن الذى ذهب إليه المعتزلة يوقعهم فيما وقعت فيه الأشاعره و هو انسداد طريق إثبات الصانع عليهم فإنه لو جاز أن يوجد فى العالم حادث من الحوادث عن سبب له و ينقطع عما وراء سببه ذلك انقطاعا تاما لا تأثير له فيه جاز فى كل ما فرض من الحوادث أن يستند إلى ما يليه من غير أن يرتبط بشيء آخر وراءه، و من الجائز أن يفنى الفاعل و يبقى أثره فمن الجائز أن يستند كل ما فرض معلولا- إلى فاعل له غير واجب الوجود و من الجائز أن يستند كل عالم مفروض إلى عالم قبله هو فاعله و قد فنى قبله على ما هو المشهود من حوادث هذا العالم المولد بعضها بعضا: و المتولد بعضها من بعض، و لا يلزم محذور التسلسل لعدم تحقق سلسله ذات أجزاء فى وقت من الأوقات إلا فى الذهن.

و فى كلامهم مفسد كثيره أخرى مبينه فى المحل المربوط به، و قد تقدم فى الكلام على نسبة الخلق إليه تعالى فى الجزء السابع من الكتاب ما ينفع فى هذا المقام.

و كيف يسع لمسلم موحد أن يثبت مع الله سبحانه خالقا آخر بحقيقه معنى الخلق و الإيجاد و قد قال الله سبحانه: «ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»: المؤمن:- ٦٢ و قد كرر ذلك فى كلامه، و ليس فى تجاهه إلا نسبة أفعال الإنسان إليه من غير قطع رابطتها إليه تعالى بل مع إثبات النسبه بدليل آيات القدر و دلالة العقل على أن لفعل الفاعل نسبة إلى فاعل فاعله بحسب ما يليق بساحته.

فالحق أن للأفعال الإنسانيه نسبة إلى فواعلها بالمباشره، و نسبة إليه تعالى بما يليق بساحه قدسه، قال تعالى: «كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَ هَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَ مَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا»: إسرائ:- ٢٠.

[سوره التوبه (٩): الآيات ١٧ الى ٢٤]

إشارة

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ أَقَامَ الصَّلَاةَ وَ آتَى الزَّكَاةَ وَ لَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُتَهْتِدِينَ (١٨) أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَ عِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَشْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يَشْرَهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَ رِضْوَانٍ وَ جَزَاتٍ لَهُمْ فِيهَا نِعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَ إِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَ أَنْبَاؤُكُمْ وَ إِخْوَانُكُمْ وَ أَزْوَاجُكُمْ وَ عَشِيرَتُكُمْ وَ أَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَ بَنَاتُكُمْ وَ بُحَارٌ تَحْشَوْنَ كَسَادَهَا وَ مَسَاكِينٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ جِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)

آيات تبين أن الأعمال إنما تكون حيه مرضيه إذا صدرت عن حقيقه الإيمان بالله و رسوله و اليوم الآخر و إلا فإنما هي حبط لا تهدي صاحبها إلى سعادته، و إن من لوازم الإيمان بحقيقته قصر الولايه و الحب و الوداد في الله و رسوله.

و هي ظاهره الاتصال و الارتباط فيما بينها أنفسها، و أما اتصالها بما تقدمها من الآيات فليس بذاك الواضح، و ما ذكره بعض المفسرين في وجه اتصالها بما قبلها لا يخلو من تكلف.

قوله تعالى: «مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ» العماره ضد الخراب يقال: عمر الأرض إذا بنى بها بناء، و عمر البيت إذا أصلح ما أشرف منها على الفساد، و التعمير بمعناه و منه العمر لأنه عماره البدن بالروح، و العمره بمعنى زياره البيت الحرام لأن فيها تعميره.

و المسجد اسم مكان بمعنى المحل الذى يتعلق به السجده كالبيت الذى يبنى ليسجد فيه الله تعالى، و أعضاء السجده التى تتعلق بها السجده نوع تعلق و هى الجبهه و الكفان و الركبتان و رءوس إبهامى القدمين.

و قوله: «مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ» الآية لنفى الحق و الملك فإن اللام للملك و الحق، و النفى الحالى للكون السابق يفيد أنه لم يتحقق منهم سبب سابق يوجب لهم أن يملكوا هذا الحق و هو حق أن يعمرؤا مساجد الله و يرموا ما استرم منها أو يزوروها كقوله تعالى: «مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ» الأنفال: -٦٧ و قوله: «وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُغَلَّ:» آل عمران: -١٦١.

و المراد بالعماره فى قوله: «أَنْ يَعْمُرُوا» إصلاح ما أشرف على الخراب من البناء و رم ما استرم منه دون عماره المسجد بالزياره فإن المراد بمساجد الله هى المسجد الحرام و كل مسجد لله و لا عمره فى غير المسجد الحرام، و الدخول فى المساجد للعباده فيها و إن أمكن أن يسمى عماره و زياره لكن التعبير المعهود من القرآن فيه الدخول.

على أن فى قوله فى الآية الآتيه: «أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» تأييدا ما لكون المراد بالعماره هو إصلاح البناء دون زياره البيت الحرام.

و المراد بمساجد الله بيوت العباده المبنيه لله لكن السياق يدل على أن المراد نفى جواز عمارتهم للمسجد الحرام، و يؤيده قراءه من قرأ «أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ» بالإفراد.

و لا- ضير فى التعبير بالجمع و المقصود الأصيل بيان حكم فرد خاص من أفراده لأن الملاك عام، و التعليل الوارد فى الآية غير مقيد بخصوص المسجد الحرام فالكلام فى معنى:

ما كان لهم أن يعمرؤا المسجد الحرام لأنه مسجد و المساجد من شأنها ذلك.

و قوله: «شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ» المراد بالشهاده أدائها و هو الاعتراف إما قولا كمن يعترف بالكفر لفظا، و إما فعلا كمن يعبد الأصنام و يتظاهر بكفره

فكل ذلك من الشهادة و الملاك واحد.

فمعنى الآية: لا يحق و لا يجوز للمشركين أن يرموا ما استرم من المسجد الحرام كسائر مساجد الله و الحال أنهم معترفون بالكفر بدلاله قولهم أو فعلهم.

قوله تعالى: «أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ» في مقام التعليل لما أفيد من الحكم في قوله: «مَا كَانَ» إلخ و لذلك جىء به بالفصل دون الوصل.

و المراد بالجملة الأولى بيان بطلان الأثر و ارتفاعه عن أعمالهم، و العمل إنما يؤتى به للتوسل به إلى أثر مطلوب، و إذ كانت أعمالهم حابطة لا أثر لها لم يكن ما يجوز لهم الإتيان بها، و الأعمال العبادية كعماره مساجد الله إنما تقصد لما يطمع فيه و يرجى من أثرها و هو السعادة و الجنة، و العمل الحابط لا يتعقب سعادته و لاجنه البتة.

و المراد بالجملة الثانية بيان ظرفهم الذى يستقرون فيه لو لا-السعادة و الجنة و هو النار فكأنه قيل: أولئك لا يهديهم أعمالهم العبادية إلى الجنة بل هم فى النار الخالدة، و لا تفيد لهم سعادته بل هم فى الشقاوة المؤبدة.

و فى الآية دلالة على أصليين لطيفين من أصول التشريع:

أحدهما: أن تشريع الجواز بالمعنى الأعم الشامل للواجبات و المستحبات و المباحات يتوقف على أثر فى الفعل ينتفع به فاعله فلا لغو مشروعاً فى الدين، و هذا أصل يؤيده العقل، و هو منطبق على الناموس الجارى فى الكون: أن لا فعل إلا لنفع عائد إلى فاعله.

و ثانيهما: أن الجواز فى جميع موارد مسبق بحق مجعول من الله لفاعله فى أن يأتى بالفعل من غير مانع.

قوله تعالى: «إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ» الآية السياق كاشف عن أن الحصر من قبيل قصر الأفراد كان متوهماً يتوهم أن للمشركين و المؤمنين جميعاً أن يعمروا مساجد الله فأفرد و قصر ذلك فى المؤمنين، و لازم ذلك أن يكون المراد بقوله: «يَعْمُرُ» إنشاء الحق و الجواز فى صورته الإخبار دون الإخبار، و هو ظاهر.

و قد اشترط سبحانه فى ثبوت حق العماره و جوازها أن يتصف العامر بالإيمان بالله و اليوم الآخر قبال ما نفى عن المشركين أن يكون لهم ذلك و لم يقنع بالإيمان بالله

وحده لأن المشركين يدعون به تعالى بل شفع ذلك بالإيمان باليوم الآخر لأن المشركين ما كانوا مؤمنين به، وبذلك يختص حق العماره و جوازها بأهل الدين السماوى من المؤمنين.

و لم يقنع بذلك أيضا بل ألحق به قوله: «وَ أَقَامَ الصَّلَاةَ وَ آتَى الزَّكَاةَ وَ لَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ» لأن المقام مقام بيان من ينتفع بعمله فيحق له بذلك أن يقترفه، و من كان تاركا للفروع المشروعه فى الدين و خاصه الركنين: الصلاة و الزكاه فهو كافر بآيات الله لا ينفعه مجرد الإيمان بالله و اليوم الآخر و إن كان مسلما، إذا لم ينكرها بلسانه، و لو أنكرها بلسانه أيضا كان كافرا غير مسلم.

و قد خصص من بينها الصلاة و الزكاه بالذكر لكونهما الركنين الذين لا غنى عنهما فى حال من الأحوال.

و بما ذكرنا من اقتضاء المقام يظهر أن المراد بقوله: «وَ لَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ» الخشيه الدينيه و هى العباده دون الخشيه الغريزيه التى لا- يسلم منها إلا- المقربون من أولياء الله كالأنبياء قال تعالى: «الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ:» الأحزاب:- ٣٩.

و الوجه فى التكنيه عن العباده بالخشيه أن الأعراف عند الإنسان من علل اتخاذ الإله للعباده الخوف من سخطه أو الرجاء لرحمته و رجاء الرحمه، أيضا يعود بوجه إلى الخوف من انقطاعها و هو السخط فمن عبد الله سبحانه أو عبد شيئا من الأصنام فقد دعاه إلى ذلك أما الخوف من شمول سخطه أو الخوف من انقطاع نعمته و رحمته فالعباده ممثله للخوف و الخشيه مصداق لها لتمثيلها إياها، و بينهما حاله الاستلزام، و لذلك كنى بها عنها، فالمعنى -و الله أعلم- و لم يعبد أحدا من دون الله من الآلهه.

و قوله: «فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ» أى أولئك الذين آمنوا بالله و اليوم الآخر و لم يعبدوا أحدا غير الله سبحانه يرجى فى حقهم أن يكونوا من المهتدين، و هذا الرجاء قائم بأنفسهم أو بأنفس المخاطبين بالآيه، و أما هو تعالى فمن المستحيل أن يقوم به الرجاء الذى لا يتم إلا مع الجهل بتحقيق الأمر المرجو الحصول.

و إنما أخذ الاهتداء مرجو الحصول لا محقق الوقوع مع أن من آمن بالله و اليوم الآخر حقيقه و حققه أعماله العباديه فقد اهتدى حقيقه لأن حصول الاهتداء مره أو مرات لا يستوجب كون العامل من المهتدين، و استقرار صفه الاهتداء و لزومها له،

فالتلبس بالفعل الواقع مره أو مرات غير التلبس بالصفه اللازمه فأولئك حصول الأهداء لهم محقق، و أما حصول صفه المهتدين فهو مرجو التحقق لا محقق.

و قد تحصل من الآيه أن عماره المساجد لا تحقق و لا تجوز لغير المسلم أما المشركون فلعدم إيمانهم بالله و اليوم الآخر، و أما أهل الكتاب فلأن القرآن لا يعد إيمانهم بالله إيمانا قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا» النساء: ١٥١، و قال أيضا فى آيه ٢٩ من السوره: «قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ لَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ لَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» الآيه.

قوله تعالى: «أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَ عِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ جَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» الآيه، السقايه كالحكايه و الجنايه و النكايه مصدر يقال:

سقى يسقى سقايه.

و السقايه أيضا الموضع الذى يسقى فيه الماء، و الإناء الذى يسقى به قال تعالى:

«جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ» يوسف: ٧٠، و قد روى فى الآثار أن سقايه الحاج كانت إحدى الشئون الفاخره و المآثر التى يباهى بها فى الجاهليه، و أن السقايه كانت حياضا من آدم على عهد قصى بن كلاب أحد أجداد النبى ص توضع بفناء الكعبه، و يستقى فيها الماء العذب من الآبار على الإبل، و يسقى الحاج فجعل قصى أمر السقايه عند وفاته لابنه عبد مناف و لم يزل فى ولده حتى ورثه العباس بن عبد المطلب.

و سقايه العباس هو الموضع الذى كان يسقى فيه الماء فى الجاهليه و الإسلام و هو فى جهه الجنوب من زمزم بينهما أربعون ذراعا، و قد بنى عليه بناء هو المعروف اليوم بسقايه العباس.

و المراد بالسقايه فى الآيه-على أى حال-معناها المصدرى و هو السقى، و يؤيده مقابلتها فى الآيه عماره المسجد الحرام و المراد بها المعنى المصدرى قطعاً بمعنى الشغل.

و قد قوبل فى الآيه سقايه الحاج و عماره المسجد الحرام بمن آمن بالله و اليوم الآخر و جاهد فى سبيل الله، و لا معنى لدعوى المساواه بين الإنسان و بين عمل من الأعمال كالسقايه و العماره أو نفيها فالمعادله و المساواه إما بين عمل و عمل أو بين إنسان ذى عمل و إنسان ذى عمل.

و لذلك اضطر المفسرون إلى القول بأن تقدير الكلام: أ جعلتم أهل سقايه الحاج و أهل عماره المسجد الحرام كمن آمن بالله و اليوم الآخر حتى يستقيم السياق.

و أوجب منه النظر فى قيود الكلام المأخوذه فى الآيه الكريمه فقد أخذ فى أحد الجانبين سقايه الحاج و عماره المسجد الحرام و حدهما من غير أى قيد زائد، و فى الجانب الآخر الإيمان بالله و اليوم الآخر و الجهاد فى سبيل الله و إن شئت فقل: الجهاد فى سبيل الله مع اعتبار الإيمان معه.

و هو يدل على أن المراد: السقايه و العماره خاليتين من الإيمان، و يؤيده قوله تعالى فى ذيل الآيه: «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» على تقدير كونه تعريضا لأهل السقايه و العماره لا تعريضا لمن يسوى بينهما كما يتبادر من السياق.

و هذا يكشف أولا- عن أن هؤلاء الذين كانوا يسوون بين كذا و كذا و بين كذا إنما كانوا يسوون بين عمل جاهلى خال عن الإيمان بالله و اليوم الآخر كالسقايه و العماره من غير أن يكون عن إيمان، و بين عمل دينى عن إيمان بالله و اليوم الآخر كالجهاد فى سبيل الله عن إيمان، أى كانوا يسوون بين جسد عمل لا حياه فيه و بين عمل حى طيب نفعه فأنكره الله عليهم.

و ثانيا: أن هؤلاء المسوين كانوا من المؤمنين يسوون بين عمل من غير إيمان، كان صدر عنهم قبل الإيمان أو صدر عن مشرك غيرهم، و بين عمل صدر عن مؤمن بالله عن محض الإيمان حال إيمانه كما يشهد به سياق الإنكار و بيان الدرجات فى الآيات.

بل يشعر بل يدل ذكر نفس السقايه و العماره من غير ذكر صاحبيهما على أن صاحبيهما كانا من أهل الإيمان عند التسويه فلم يذكرنا حفظا لكرامتهما و هما مؤمنان حين الخطاب و وقايه لهما بالنظر إلى التعريض الظاهر الذى فى آخر الآيه من أن يسميا ظالمين.

بل يدل قوله تعالى فى الآيه التاليه فى مقام بيان أجر هؤلاء المجاهدين فى سبيل الله عن إيمان: «الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا فى سَبِيلِ اللَّهِ» على أن طرفى التسويه فى قوله: «أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَ عِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ» الآيه كانا من أهل مكه، و أن أهل أحد الطرفين و هو الذى آمن و جاهد كان ممن أسلم و هاجر، و أهل الطرف الآخر أسلم و لم يهاجر فإن هذا هو الوجه فى ذكره تعالى أولا الإيمان و الجهاد فى أحد

الطرفين ثم إضافه الهجره إلى ذلك عند ما أعيد ثانيا، وقد ذكر تعالى السقايه و العماره فى الجانب الآخر و لم يزد على ذلك شيئا لا أولا و لا ثانيا فما هذه القيود بلاغيه فى قوله الفصل.

و هذا كله يؤيد ما ورد فى سبب نزول الآيه أن الآيات نزلت فى العباس و شبيهه و على (ع) حين تفاخروا فذكر العباس سقايه الحاج، و شبيهه عماره المسجد الحرام، و على الإيمان و الجهاد فى سبيل الله فنزلت الآيات و ستجىء الروايه فى البحث الروائى المتعلق بالآيات.

و كيف كان فالآيه و ما يتلوها من الآيات تبين أن الزنه و القيمه إنما هو للعمل إذا كان حيا بولوج روح الإيمان فيه و أما الجسد الخالى الذى لا روح فيه و لا حياه له فلا وزن له فى ميزان الدين و لا قيمه له فى سوق الحقائق فليس للمؤمنين أن يعتبروا مجرد هياكل الأعمال، و يجعلوها ملاكات للفضل و أسبابا للقرب منه تعالى إلا بعد اعتبار حياتها بالإيمان و الخلوص.

و من هذه الجهه ترتبط الآيه: «أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَ عِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» و ما بعدها من الآيات بالآيتين اللتين قبلها: «مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَيْهِمْ أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ» إلى آخر الآيتين.

و بذلك كله يظهر أولا- أن قوله: «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» جملة حاله تبين وجه الإنكار لحكمهم بالمساواه فى قوله: «أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَ عِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ» الآيه.

و ثانيا: أن المراد بالظلم هو ما كانوا عليه من الشرك فى حال السقايه و العماره لا حكمهم بالمساواه بين السقايه و العماره و بين الجهاد عن إيمان.

و ثالثا: أن المراد نفى أن ينفعهم العمل و يهديهم إلى السعاده التى هى عظم الدرجه و الفوز و الرحمه و الرضوان و الجنه الخالده.

قوله تعالى: «الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ» إلى آخر الآيه بيان لحق الحكم الذى عند الله فى المسأله بعد إنكار المساواه، و هو أن الذى آمن و هاجر و جاهد فى سبيل الله ما استطاع ببذل ما عنده من مال و نفس، أعظم درجه عند الله و إنما عبر فى صورته الجمع-الذين آمنوا إلخ-إشاره إلى أن ملاك الفصل هو الوصف دون الشخص.

و ما تقدم من دلالة الكلام على أن الأعمال من غير إيمان بالله لا فضل لها و لا درجه

لصاحبها عند الله، قرينه على أن ليس المراد بالقياس الذى يدل عليه أفعل التفضيل فى قوله: «أَعْظَمُ دَرَجَةً» إلخ هو أن بين الفريقين اشتراكا فى الدرجات غير أن درجه من جاهد عن إيمان أعظم ممن سقى و عمر.

بل المراد بيان أن النسبه بينهما نسبه الأفضل إلى من لا فضل له كالمقاييسه المأخوذه بين الأكثر و الأقل فإنها تستدعى وجود حد متوسط بينهما يقاسان إليه فهناك ثلاثه أمور أمر متوسط يؤخذ مقياسا معدلا و آخر يكون أكثر منه، و آخر يكون أقل منه فإذا قيس الأكثر من الأقل كان الأكثر مقيسا إلى ما لا كثره فيه أصلا.

فقوله: «أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ» أى بالقياس إلى هؤلاء الذين لا درجه لهم أصلا، و هذا نوع من الكنايه عن أن لا نسبه حقيقه بين الفريقين لأن أحدهما ذو قدم رفيع فيما لا قدم للآخر فيه أصلا.

و يدل على ذلك أيضا قوله: «وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ» بما يدل على انحصار الفوز فيهم و ثبوتها لهم على نهج الاستقرار.

قوله تعالى: «يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَاتٍ» إلى آخر الآيتين ظاهر السياق أن ما يعده من الفضل فى حقهم بيان و تفصيل لما ذكر فى الآيه السابقيه من فوزهم جىء به بلسان التبشير.

فالمعنى «يُبَشِّرُهُمْ» أى هؤلاء المؤمنين «رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ» عظيمه لا يقدر قدرها «وَرِضْوَانٍ» كذلك «وَجَنَاتٍ لَهُمْ فِيهَا» فى تلك الجنات «نَعِيمٌ مُّقِيمٌ» لا يزول و لا ينفد حال كونهم «خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا» لا ينقطع خلودهم بأجل و لا أمد.

ثم لما كان المقام مقام التعجب و الاستبعاد لكونها بشاره بأمر عظيم لم يعهد فى ما نشاهده من أنواع النعيم الذى فى الدنيا، رفع الاستبعاد بقوله: «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ».

و سيوافيك الكلام فى توضيح معنى رحمته تعالى و رضوانه فيما سيمر من موضع مناسب و قد تقدم بعض الكلام فيهما.

قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَ إِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ» إلى آخر الآيه نهى عن تولى الكفار و لو كانوا آباء و إخوانا فإن الملاك عام، و الآيه التاليه

تنهى عن تولى الجميع غير أن ظاهر لفظ الآيه النهى عن اتخاذ الآباء و الإخوان أولياء إن استحبوا الكفر و رجحوه على الإيمان.

و إنما ذكر الآباء و الإخوان دون الأبناء و الأزواج مع كون القبيلين و خاصه الأبناء محبوبين عندهم كالأباء و الإخوان لأن التولى يعطى للتولى أن يداخل أمور وليه و يتصرف فى بعض شئون حياته، و هذا هو المحذور الذى يستدعى النهى عن تولى الكفار حتى لا يداخلوا فى أمورهم الداخليه و لا يأخذوا بمجامع قلوبهم، و لا يكف المؤمنون و لا يستنكفوا عن الإقدام فيما يسوؤهم و يضرهم، و من المعلوم أن النساء و الذرارى لا يترقب منهم هذا الأثر السيئ إلا بواسطه، فلذلك خص النهى عن التولى بالآباء و الإخوان فهم الذين يخاف نفوذهم فى قلوب المؤمنين و تصرفهم فى شئونهم.

و قد ورد النهى عن اتخاذ الكفار أولياء فى مواضع من كلامه تقدم بعضها فى سورة المائده و آل عمران و النساء و الأعراف و فيها إنذار شديد و تهديدات بالغه كقوله تعالى: «وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ» المائده: -٥١، و قوله: «وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ»: آل عمران: -٢٨، و قوله: «وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ»: آل عمران: -٢٨، و قوله: «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا»: النساء: -١٤٤.

و أندرهم فى الآيه التى نحن فيها بقوله: «و من يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون» و لم يقل: «و من يتولهم منكم فإنه منهم» إذ من الجائز أن يتوهم بعض هؤلاء أنه منهم لأنهم آباؤه و إخوانه فلا يؤثر فيه التهديد أثرا جديدا يبعثه نحو رفض الولايه.

و كيف كان فقوله: «وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» بما فى الجملة من المؤكدات كاسميه الجملة، و دخول اللام على الخبر و ضمير الفصل يفيد تحقق الظلم منهم و استقراره فيهم، و قد كرر الله فى كلامه أن الله لا يهدى القوم الظالمين، و قال فى نظير الآيه من سورة المائده: «وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» فهؤلاء محرومون من الهدايه الإلهيه لا ينفعهم شىء من أعمالهم الحسنه فى جلب السعاده إليهم، و السماحه بالفوز و الفلاح عليهم.

قوله تعالى: «قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ» إلى آخر الآيه التفت من مخاطبتهم إلى مخاطبه النبى ص إيماء إلى الإعراض عنهم لما يستشعر من حالهم أن

قلوبهم مائله إلى الاشتغال بما لا ينفع معه النهى عن تولى آبائهم وإخوانهم الكافرين، وإيجاد الداعى فى نفوسهم إلى الصدور عن أمر الله ورسوله، وقاتل الكافرين جهادا فى سبيل الله وإن كانوا آباءهم وإخوانهم.

والذى يمنعهم من ذلك هو الحب المتعلق بغير الله ورسوله والجهاد فى سبيل الله، وقد عد الله سبحانه أصول ما يتعلق به الحب النفسانى من زينه الحياه الدنيا، وهى الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيره- وهؤلاء هم الذين يجمعهم المجتمع الطبيعى بقرابه نسبيه قريبه أو بعيده أو سببيه- والأموال التى اكتسبوها وجمعوها، والتجاره التى يخشون كسادها والمسكن التى يرضونها- وهذه أصول ما يقوم به المجتمع فى المرتبه الثانيه-.

وذكر تعالى أنهم إن تولوا أعداء الدين، وقدموا حكم هؤلاء الأمور على حب الله ورسوله والجهاد فى سبيله فليترصبوا و لينتظروا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين.

ومن المعلوم أن الشرط أعنى قوله: «إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ» إلى قوله: «فِي سَبِيلِهِ» فى معنى أن يقال: إن لم تنتهوا عما ينهاكم عنه من اتخاذ الآباء والإخوان الكافرين أولياء باتخاذكم سببا يودى إلى خلاف ما يدعوكم إليه، وإهمالكم فى أمر غرض الدين وهو الجهاد فى سبيل الله.

فقوله فى الجزاء: «فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ» لا محاله إما أمر يتدارك به ما عرض على الدين من ثلمه و سقوط غرض فى ظرف مخالفتهم، وإما عذاب يأتيهم عن مخالفه أمر الله ورسوله والإعراض عن الجهاد فى سبيله.

غير أن قوله تعالى فى ذيل الآيه: «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» يعرض لهم أنهم خارجون حينئذ عن زى العبوديه، فاسقون عن أمر الله ورسوله فهم بمعزل من أن يهديهم الله بأعمالهم و يوفقهم لنصره الله ورسوله، وإعلاء كلمه الدين وإمحاء آثار الشرك.

فذيل الآيه يهدى إلى أن المراد بهذا الأمر الذى يأمرهم الله أن يترصبوا له حتى يأتى به أمر منه تعالى، متعلق بنصره دينه وإعلاء كلمته فينطبق على مثل قوله تعالى

فى سورة المائده بعد آيات ينهى فيها عن تولي الكافرين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَزِدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ المائدة: ٥٤. والآيه بقودها وخصوصياتها- كما ترى- تنطبق على ما تفيداه الآيه التي نحن فيها.

فالمراد- والله أعلم- إن اتخذتم هؤلاء أولياء، واستنكفتم عن إطاعة الله ورسوله و الجهاد فى سبيل الله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره، و يبعث قوما لا- يحبون إلا- الله، و لا- يوالون أعداءه و يقومون بنصره الدين و الجهاد فى سبيل الله أفضل قيام فإنكم إذا فاسقون لا ينتفع بكم الدين، و لا يهدى الله شيئا من أعمالكم إلى غرض حق و سعاده مطلوبه.

و ربما قيل: إن المراد بقوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرِهِ﴾ الإشاره إلى فتح مكة، و ليس بسديد فإن الخطاب فى الآيه للمؤمنين من المهاجرين و الأنصار و خاصه المهاجرين، و هؤلاء هم الذين فتح الله مكة بأيديهم، و لا معنى لأن يخاطبوا و يقال لهم: إن كان آباؤكم و أبناءكم «إلخ» أحب إليكم من الله و رسوله و جهاد فى سبيله فواليتموهم و استنكفتم عن إطاعة الله و رسوله و الجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يفتح الله مكة بأيديكم و الله لا- يهدى القوم الفاسقين، أو فتربصوا حتى يفتح الله مكة و الله لا يهديكم لمكان فسقكم فتأمل.

(بحث روائى)

فى تفسير البرهان، فى قوله تعالى: ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ الآيه: عن أمالى الشيخ بإسناده عن الأعمش عن سالم بن أبى الجعد يرفعه إلى أبى ذر- فى حديث الشورى:-

فىما احتج به على (ع) على القوم: و قال لهم فى ذلك: فهل فيكم أحد نزلت فيه هذه الآيه «أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَ عِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ- كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» غيرى؟ قالوا: لا.

و في تفسير القمي، قال: و في روايه أبي الجارود عن أبي جعفر (ع) قال:

نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب (ع): «الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا - إِلَى قَوْلِهِ - الْفَائِزُونَ» ثم وصف ما لعلی (ع) عنده فقال: يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَ رِضْوَانٍ وَ جَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ».

و في المجمع، روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بإسناده عن أبي بريده عن أبيه قال:

بينما شبيهه و العباس يتفاخران - إذ مر عليهما علي بن أبي طالب قال: بما تفتخران؟ قال العباس: لقد أوتيت من الفضل ما لم يؤت أحد سقايه الحاج، و قال شبيهه:

أوتيت عماره المسجد الحرام، و قال علي: و أنا أقول لكما لقد أوتيت علي صغرى ما لم تؤتيا - فقالا: و ما أوتيت يا علي؟ قال: ضربت خراطيمكما بالسيف - حتى آمنتما بالله تبارك و تعالى و رسوله.

فقام العباس مغضبا يجر ذيله - حتى دخل علي رسول الله ص فقال: أ ما ترى ما استقبلني به علي؟ فقال: ادعوا لي عليا، فدعى له فقال: ما حملك يا علي ما استقبلت به عمك؟ فقال: يا رسول الله صدقته الحق فإن شاء فليغضب، و إن شاء فليرض.

فنزل جبرئيل (ع) و قال: يا محمد ربك يقرأ عليك السلام و يقول: اتل عليهم: «أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَ عِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ - كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ» إلى قوله: «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ».

و في تفسير الطبري، بإسناده عن محمد بن كعب القرظي قال: افتخر طلحة بن شبيه و العباس و علي بن أبي طالب - فقال طلحة: أنا صاحب البيت معي مفتاحه، و قال العباس: و أنا صاحب السقايه و القائم عليها، فقال علي: ما أدري ما تقولان - لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس، و أنا صاحب الجهاد، فأنزل الله: «أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ» الآية كلها.

و في الدر المنثور، أخرج الفاريابي عن ابن سيرين قال: قدم علي بن أبي طالب مكة فقال للعباس: أي عم أ لا تهاجر؟ أ لا تلحق برسول الله ص؟ فقال: أعمر المسجد الحرام و أحجب البيت فأنزل الله: «أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ» الآية، و قال لقوم قد سماهم: أ لا تهاجرون؟ أ لا - تلحقون برسول الله ص؟ فقالوا: نقيم مع إخواننا و عشائرننا و مساكننا - فأنزل الله تعالى: «قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ» الآية كلها

وفيه، أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: "قال العباس حين أسر يوم بدر: إن كنتم سبقتمونا بالإسلام و الهجره و الجهاد-لقد كنا نعم المسجد الحرام و نسقى الحاج و نفك العانى (1) فأنزل الله: « أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ » الآية، يعنى أن ذلك كان فى الشرك فلا أقبل ما كان فى الشرك.

وفيه، أخرج مسلم و أبو داود و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن حبان و الطبرانى و أبو الشيخ و ابن مردويه عن النعمان بن بشير قال: كنت عند منبر رسول الله ص فى نفر من أصحابه-فقال رجل منهم: ما أبالى أن لا أعمل لله عملا بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج، و قال آخر: بل عماره المسجد الحرام، و قال آخر: بل الجهاد فى سبيل الله خير مما قلتم-.

فجرهم عمر و قال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ص، و ذلك يوم الجمعة، و لكن إذا صليتم الجمعة دخلت على رسول الله ص -فاستفتيته فيما اختلفتم فيه فأنزل الله: « أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ » إلى قوله: « وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ».

أقول: قال صاحب المنار فى تفسيره بعد إيراد هذه الروايات الأربع الأخيره:

و المعتمد من هذه الروايات حديث النعمان لصحة سنده و موافقه متنه لما دلت عليه الآيات من كون موضوعها فى المفاضله أو المساواه بين خدمه البيت و حجابته-من أعمال البر البدنيه الهيئه المستلذه-و بين الإيمان و الجهاد بالمال و النفس و الهجره، و هى أشق العبادات النفسيه البدنيه الماليه، و الآيات تتضمن الرد عليها كلها. انتهى.

أما ما ذكره من رجحان روايه النعمان على غيرها بصحة السند ففيه أولا- أن روايه القرظى أيضا فى مضمونها موافقه لروايه الحاكم فى المستدرک و قد صححها.

و ثانيا: أن روايات التفسير إذا كانت آحادا لا حجه لها إلا ما وافق مضامين الآيات بقدر ما يوافقها على ما بين فى فن الأصول فإن الحجيه الشرعيه تدور مدار الآثار الشرعيه المترتبه فتتخصص فى الأحكام الشرعيه و أما ما وراءها كالروايات الوارده فى القصص و التفسير الخالى عن الحكم الشرعى فلا حجه شرعيه فيها.

و أما الحجيه العقليه أعنى العقلانيه فلا مسرح لها بعد توافر الدس و الجعل فى

ص: ٢١١

(١-١) العانى: الأسير.

الأخبار سيما أخبار (١) التفسير و القصص إلا- ما تقوم قرائن قطعيه يجوز التعويل عليها على صحه متنه، و من ذلك موافقه متنه لظواهر الآيات الكريمه.

فالذى يههم الباحث عن الروايات غير الفقيهه أن يبحث عن موافقتها للكتاب فإن وافقتها فهى الملاك لاعتبارها و لو كانت مع ذلك صحيحه السند فإنما هى زينه زينت بها و إن لم توافق فلا قيمه لها فى سوق الاعتبار.

و أما ترك البحث عن موافقه الكتاب، و التوغل فى البحث عن حال السند -إلا ما كان للتوسل إلى تحصيل القرائن- ثم الحكم باعتبار الروايه بصحه سندها ثم تحميل ما يدل عليه متن الروايه على الكتاب، و اتخاذها تبعاً لذلك كما هو دأب كثير منهم فمما لا سبيل إليه من جهه الدليل.

و أما ما ذكره من رجحان روايه النعمان على غيرها من جهه المتن مبينا ذلك بأن الآيات تدل على أن موضوع المساواه أو المفاضله كان بين خدمه البيت أو حجابته و هى من أعمال البر البدنيه الهيئه المستلذه، و بين الإيمان و الجهاد و الهجره و هى من أعمال البر النفسيه و البدنيه الشاقه، و الآيات تتضمن الرد عليها كلها. انتهى.

ففيه أولاً: أن الذى ذكره من مدلول الآيات مشترك بين جميع ما أورده من الروايات:

أما روايه ابن عباس التى مضمونها وقوع الكلام فى المساواه أو المفاضله حين أسر العباس يوم بدر بين العباس و بين المسلمين حيث عيروه فقد ذكر فيها صريحاً المقايسه بين الإسلام و الهجره و الجهاد و بين سقايه الحاج و عماره المسجد و فك العانى، و هناك روايات أخر فى معناه.

و أما روايه ابن سيرين الداله على وقوع النزاع بين على و العباس بمكه حين دعاه إلى الهجره و اللحق بالنبى ص فأجابه بأن له عماره المسجد الحرام و حجابته البيت

و قد روى هذا المعنى ابن مردويه عن الشعبى و فيها: " أن العباس قال لعلى: أنا عم النبى ص، و أنت ابن عمه، و إلى سقايه الحاج و عماره المسجد الحرام، فأنزل الله:

« أَ جَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَالْحَاجَّةِ الْآيَةَ.

ص: ٢١٢

١- (١) و قد اعترف فى مواضع من كلامه و نقل عن أحمد أنه قال: لا أصل لها.

و رواه أيضا ابن أبي شيبة و أبو الشيخ و ابن مردويه عن عبد الله بن عبيده و فيها":

أن العباس قال لعلى: أ و لست فى أفضل من الهجره؟ لست أسقى الحاج و أ عمر المسجد الحرام فنزلت هذه الآية.

و على أى حال فالواقع فى هذه الروايه أيضا المقايسه بين السقايه و العماره و بين الهجره و ما يترتب عليها مما يستلزمه اللحوق بالنبي ص كالجهاد و غيره من الأعمال الشريفه الدينيه.

و أما روايه القرظى و ما فى معناها كالذى رواه الحاكم و صححه، و ما رواه عبد الرزاق عن الحسن قال: نزلت فى على و العباس و عثمان و شيبه (1) تكلموا فى ذلك، و كذا روايه النعمان التى تقدمت فكون المنازعه فيها فى السقايه و العماره و الإيمان و الجهاد ظاهر فإذا كان الحال هذا الحال فأى مزيه فى روايه النعمان بن بشير توجب اختصاصها بموافقه الكتاب من بين سائر الروايات.

و ثانيا: أن قوله: إن موضوع المفاضله هى أعمال البر الهينه المستلذه كالسقايه و الحجابه و أعمال البر الشاقه كالإيمان و الهجره و الجهاد لا يوافق ما يدل عليه الآيات فإنها كما تقدم ظاهره الدلاله على أن المقايسه كانت بينهم بين أجساد الأعمال الخاليه عن روح الإيمان و ليست من البر حينئذ و بين أعمال حيه بولوج روح الإيمان فيها كالهجره و الجهاد عن إيمان بالله و اليوم الآخر.

فالأيات تدل على أنهم كانوا يسوون أو يفضلون غير أعمال البر كالسقايه و العماره من غير إيمان على أعمال البر كالجهد عن إيمان و هجره و الهجره عن إيمان فأين ما ذكره من أعمال البر الهينه قبال أعمال البر الشاقه (2)؟ و دلاله الآيات - بما فيها من القيود المأخوذه - على ذلك بمكان من الظهور و الجلاء فقد قيد الجهد فيها بالإيمان بالله و اليوم الآخر، و أطلق السقايه و العماره من غير تقييد بالإيمان ثم قال تعالى: « لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ » ثم زاد: « وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ »

ص: ٢١٣

(١ - ١) ابن شيبه ظ.

(٢ - ٢) نعم زعم هو أن السقايه و العماره من العباس فى حال شركه من أعمال البر كما زعمه العباس غير أن الآيات بنزولها نبهت العباس أنه كان قد أخطأ فى مزعمته كما يشعر به ذيل روايه ابن عباس و لم يتنبه هو لما تنبه له العباس رضى الله عنه.

و حاشا أن يكون الآتى بأعمال البر عند الله من القوم الظالمين المحرومين عن نعمه الهدايه الإلهيه.

حتى لو فرض أن المراد بالظالمين أولئك المسوون أو المفضلون من المؤمنين للسقايه و عماره على الجهاد فإن المؤمن على إيمانه إذا حكم بمثل هذا الحكم فإنما هو خاط يهتدى إذا دل على الصواب لا ظالم محروم من الهدايه فافهم ذلك.

و ثالثا: ما تقدم من أن قوله: «كَمْ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ» الآية و قوله: «لَا يَشْتَوُونَ» الآية دليل على أن للشخص دخلا فيما تتضمن الآيات من الحكم.

و التدبر فى الآيات الكريمه و التأمل فيما ذكرناه هنا و هناك يوضح للباحث الناقد أن أضعف الروايات و أبعدها من الانطباق على مضمون الآيات هى روايه النعمان بن بشير فإنها لا تقبل الانطباق على الآيات الكريمه بما فيها من القيود المأخوذه.

و يليها فى الضعف روايه ابن سيرين و ما فى معناها من الروايات فإن ظاهرها أن العباس إنما دعى إلى الهجره و هو مسلم فافتخر بالسقايه و الحجابه و الآيات لا تساعد على ذلك كما مر.

على أن الواقع فى روايه ابن سيرين ذكر العباس للسقايه و حجابه البيت و لم يكن له حجابه إنما هى السقايه.

و يليها فى الضعف روايه ابن عباس فظاهرها أن المقايسه إنما كانت بين الأعمال فقط و الآيه لا تساعد على ذلك.

على أن فيها أن العباس ذكر فيما ذكر سقايه الحاج و عماره المسجد و فك العانى و هو الأسير. و لو كان لذكر فى الآيه،

و قد وقع فى روايه ابن جرير و أبى الشيخ عن الضحاك فى هذا المعنى قال: "أقبل المسلمون على العباس و أصحابه-الذين أسروا يوم بدر يعيرونهم بالشرك. فقال العباس: أما و الله لقد كنا نعلم المسجد الحرام، و نفك العانى، و نحجب البيت و نسقى الحاج-فأنزل الله: «أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ» الآية، و الكلام فى فك العانى و حجابه البيت الواقعين فيها كالكلام فى سابقها.

فأسلم الروايات فى الباب و أقربها إلى الانطباق على الآيات مضمونا روايه القرظى و ما فى معناها كروايه الحاكم فى المستدرک و روايه عبد الرزاق عن الحسن و روايه أبى

نعيم و ابن عساكر عن أنس الآتيه و قد تقدم توضيح ذلك.

و فى الدر المنثور، أخرج أبو نعيم فى فضائل الصحابه و ابن عساكر عن أنس قال:

قعد العباس و شبيهه صاحب البيت يفتخران-فقال العباس: أنا أشرف منك أنا عم رسول الله ص، و وصى أبيه، و ساقى الحجيج، فقال شبيهه: أنا أشرف منك أنا أمين الله على بيته و خازنه-أ فلا ائتمنك كما ائتمنى؟.

فاطلع عليهما على فأخبراه بما قال-فقال على: أنا أشرف منكما أنا أول من آمن و هاجر-فانطلق ثلاثتهم إلى النبي ص فأخبروه فما أجابهم بشيء-فانصرفوا فنزل عليه الوحي بعد أيام-فأرسل إليهم فقرا عليهم: «- أَ جَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَ عِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى آخِرِ الْعَشْرِ.

و فى تفسير القمى، عن أبيه عن صفوان عن ابن مسكان عن أبي بصير عن أبي جعفر (ع): قال: نزلت فى على و العباس و شبيهه. قال العباس: أنا أفضل لأن سقايه الحاج بيدى، و قال شبيهه: أنا أفضل لأن حجابيه البيت بيدى، و قال على: أنا أفضل فإنى آمنت قبلكما- ثم هاجرت و جاهدت فرضوا برسول الله ص فأنزل الله: «- أَ جَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ -إلى قوله -إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ»:

أقول: و رواه العياشى عن أبي بصير عن أبي عبد الله (ع) مثله، و فيه عثمان بن أبي شبيهه مكان شبيهه .

و فى الكافى، عن أبي على الأشعري عن محمد بن عبد الجبار عن صفوان بن يحيى عن ابن مسكان عن أبي بصير عن أحدهما (ع): فى قول الله: «- أَ جَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَ عِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ -كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ» نزلت فى حمزه و على و جعفر و العباس و شبيهه، إنهم فخروا بالسقايه و الحجابيه-فأنزل الله عز ذكره: «- أَ جَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَ عِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ -كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ» و كان على و حمزه و جعفر هم الذين آمنوا بالله و اليوم الآخر-و جاهدوا فى سبيل الله. لا يستون عند الله:

أقول: و رواه أيضا العياشى فى تفسيره عن أبي بصير عن أحدهما (ع) مثله .

و الروايه لا- تلائم ما يثبتته النقل القطعى فقد كان حمزه من المهاجرين الأولين لحق برسول (ص) ثم استشهد فى غزوه أحد فى السنه الثالثه من الهجره، و قد كان جعفر

هاجر إلى الحبشه قبل هجره النبي ص ثم رجع إلى المدينه أيام فتح خيبر و قد استشهد حمزه قبل ذلك بمدته فلو كان من الخمسه اجتماع على التفاسر فقد كان قبل الهجره النبويه و حينئذ فما معنى ما وقع فى الروايه: «و كان على و حمزه و جعفر هم الذين آمنوا بالله و اليوم الآخر و جاهدوا فى سبيل الله»؟.

و إن كان المراد بالنزول فيهم انطباق الآيه عليهم على سبيل الجرى فقد كان العباس مثلهم فإنه آمن يوم أسر بيدر ثم حضر بعض غزوات النبي ص.

و فى تفسير البرهان، عن الجمع بين الصحاح الستة للعبدى فى الجزء الثانى من صحيح النسائى بإسناده قال: افتخر طلحه بن شيبه من بنى عبد الدار- و العباس بن عبد المطلب و على بن أبى طالب- فقال طلحه: بيدي مفتاح البيت و لو أشاء بت فيه، و قال العباس:

أنا صاحب السقايه و القائم عليها- لو أشاء بت فى المسجد، و قال على: ما أدرى ما تقولان؟ لقد صليت إلى القبلة سته أشهر قبل الناس- و أنا صاحب الجهاد فأنزل الله:

« أَ جَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » الآيه.

أقول: المراد بالصلاه سته أشهر قبل الناس التقدم فى الإيمان بالله على ما تعرضت له الآيه و إلا كان من الواجب أن تذكر فى الآيه، و قد ذكر ثالث القوم طلحه بن شيبه، و قد تقدم فى بعضها أنه شيبه، و فى بعضها أنه عثمان بن أبى شيبه.

و فى تفسير البرهان، عن ابن شهر آشوب عن أبى حمزه عن أبى جعفر (ع): فى قوله تعالى: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا - لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ - إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ » قال: الإيمان و لايه على بن أبى طالب.

أقول: هو من باطن القرآن مبنى على تحليل معنى الإيمان إلى مراتب كماله.

و فى تفسير القمى: لما أذن أمير المؤمنين - أن لا- يدخل المسجد الحرام مشرك بعد ذلك- جزعت قريش جزعا شديدا، و قالوا: ذهبت تجارتنا و ضاعت عيالنا- و خربت دورنا فأنزل الله فى ذلك: « قُلْ - يَا مُحَمَّد- إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَ أَبْنَاؤُكُمْ وَ إِخْوَانُكُمْ وَ أَزْوَاجُكُمْ وَ عَشِيرَتُكُمْ - إِلَى قَوْلِهِ - وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ».

أقول: و على هذا كان من الجرى أن يفسر قوله فى الآيه: « حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ » بتدارك ما ينزل بهم من الكساد و فتح باب الرزق عليهم من وجه آخر كما

وقع مثله في قوله تعالى في ضمن الآيات التالية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: التوبة: ٢٨.

بل اتحد حينئذ موردا الآيتين، ولسان الرفق وكرامه الخطاب بمثل قوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يأبى أن يكون الخطاب بقوله: «إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ» الآية متوجها إليهم بأعيانهم على ما في آخرها من الخشونة في قوله: «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ».

على أن الآية تذكر حب الآباء والإخوان والعشير والأموال التي اقتترفوها، ولم يذكر شيء منها في الرواية، ولا حسبت قريش ضيعه بالنسبة إليها فما معنى ذكرها في الآية والتهديد على اختيار حبها على حب الله ورسوله؟ وما معنى ذكر الجهاد في سبيله في الآية؟ فافهم ذلك.

و في الدر المنثور، أخرج أحمد و البخارى عن عبد الله بن هشام قال: كنا مع رسول الله ص وهو أخذ بيد عمر بن الخطاب- فقال: والله لأنت يا رسول الله أحب إلى من كل شيء إلا من نفسي. فقال النبي ص: لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه.

[سورة التوبة (٩): الآيات ٢٥ الى ٢٨]

إشارة

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثَرْتُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَيِّئَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨)

تشير الآيات إلى قصه غزوه حنين و تمتن بما نصر الله فيه المؤمنين كسائر المواطن من الغزوات التي نصرهم الله بعجيب نصرته على ضعفهم و قتلهم، و أظهر أعاجيب آياته بتأييد نبيه ص و إنزال جنود لم يروها و إنزال السكينه على رسوله و المؤمنين و تعذيب الكافرين بأيدي المؤمنين.

و فيها الآيه التي تحرم على المشركين أن يدخلوا المسجد الحرام بعد عام تسع من الهجره، و هي العام الذي أذن فيه على (ع) ببراءه، و منع طواف البيت عريانا، و دخول المشركين في المسجد الحرام.

قوله تعالى: «لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ -إلى قوله- ثُمَّ وَلَّيْتُم مِّدْبَرِينَ» المواطن جمع موطن و هو الموضع الذي يسكنه الإنسان و يتوطن فيه.

و حنين اسم واد بين مكه و الطائف وقع فيه غزوه حنين قاتل فيه النبي ص هوازن و ثقيف و كان يوما شديدا على المسلمين انهزموا أولا ثم أيدهم الله بنصره فغلبوا.

و الإعجاب الإسرار و العجب سرور النفس بما يشاهده نادرا، و الرحب السعه في المكان و ضده الضيق.

و قوله: «لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ» ذكر لنصرته تعالى لهم في مواطن كثيره و مواضع متعدده يدل السياق على أنها مواطن الحروب كوقائع بدر و أحد و الخندق و خيبر و غيرها، و يدل السياق أيضا أن الجملة كالمقدمه الممهده لقوله: «وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ» الآيه فإن الآيات الثلاث مسوقه لتذكير قصه وقعه حنين، و عجيب ما أفاض الله عليهم من نصرته و خصهم به من تأييده فيها.

و قد استظهر بعض المفسرين كون الآيه و ما يتلوها إلى تمام الآيات الثلاث تتمه لقول النبي ص فيما أمره ربه أن يواجه به المؤمنين في قوله: «قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ»

الآيه و تكلف فى توجيه الفصل الذى فى قوله: «لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ».

و لا دليل من جهه اللفظ على ذلك بل الدليل على خلافه فإن قصه حنين و ما يشتمل عليه من الامتنان بنصر الله و إنزال السكينه و إنزال الجنود و تعذيب الكافرين و التوبه على من يشاء أمر مستقل فى نفسه ذو أهميه فى ذاته و هو أهم هدفا من قوله تعالى: «قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَآبْنَاؤُكُمْ» الآيه أو هو مثله لا يقصر عنه فلا معنى لاتباعه إياه و عطفه عليه فى المعنى.

و حينئذ لو كان مما يجب أن يخاطب به القوم لكان من الواجب أن يقال. و قل لهم لقد نصركم الله فى مواطن كثيره الآيه، على ما جرى عليه القرآن فى نظائره كقوله تعالى: «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ - إلى أن // قال X - قُلْ أَيْنَ كُنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ:» حم السجده: - ٩ و غيره من الموارد.

على أن سياق الآيات و ما يجب أن تشتمل عليه من الالتفات و غيره - لو كانت الآيات مقوله للقول - لا تلائم كونها مقوله للقول السابق.

و الخطاب فى قوله: «لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ» و ما يتلوه من قوله: «إِذْ أَعْجَبَتْكُم كَثْرَتُكُمْ» الآيه، للمسلمين و هم الذين يؤلفون مجتمعا إسلاميا واحدا حضروا بوحدتهم هذه الوحده أمثال وقائع بدر و أحد و الخندق و خيبر و حنين و غيرها.

و هؤلاء فيهم المنافقون و الضعفاء فى الإيمان و المؤمنون صدقا على اختلافهم فى المنازل إلا أن الخطاب متوجه إلى الجميع باعتبار اشتماله على من يصح أن يخاطب بمثل قوله: «إِذْ أَعْجَبَتْكُم كَثْرَتُكُمْ» إلى آخر الآيه.

و قوله: «و يَوْمَ حُنَيْنٍ» أى و يوما وقعت فيه القتال بينكم و بين أعدائكم بوادى حنين، و إضافه اليوم إلى أمكنه الوقائع العظيمه شائع فى العرف كما يقال: يوم بدر و يوم أحد و يوم الخندق نظير إضافته إلى الجماعه المتلبسين بذلك كيوم الأحزاب و يوم تميم، و إضافته إلى نفس الحادثه كيوم فتح مكه.

و قوله: «إِذْ أَعْجَبَتْكُم كَثْرَتُكُمْ» أى أسرتكم الكثره التى شاهدتموها فى أنفسكم فانقطعتم عن الاعتماد بالله و الثقة بأيده و قوته و استندتم إلى الكثره فرجوتهم أن ستدفع عنكم كيد العدو و تهزم جمعهم، و إنما هو سبب من الأسباب الظاهريه

لا أثر فيها إلا ما شاء الله الذي إليه تسبب الأسباب.

و بالنظر إلى هذا المعنى أردف قوله: «إِذْ أَعْجَبْتُمْ كَثْرَتَكُمْ» بقوله: «فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً» أى اتخذتموها سبباً مستقلاً دون الله فأنساكم الاعتماد بالله، و ركنتم إليها فبان لكم ما فى وسع هذا السبب الموهوم و هو أن لا غنى عنده حتى يغنيكم فلم يغن عنكم شيئاً لا نصراً و لا شيئاً آخر.

و قوله: «وَ ضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ» أى مع ما رحبت، و هو كناية عن إحاطه العدو بهم إحاطه لا يجدون مع ذلك مأمناً من الأرض يستقرون فيه و لا كهفا يأوون إليه فيقيهم من العدو، أى فررتهم فراراً لا تلوون على شىء.

فهو قريب المعنى من قوله تعالى فى قصه الأحزاب: «إِذْ جَاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُوناً» الأحزاب: -١٠.

و قول بعضهم: أى ضاقت عليكم الأرض فلم تجدوا موضعاً تفرون إليه. غير سديد.

و قوله: «ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ» أى جعلتم العدو يلى أديباركم و هو كناية عن الانهزام و هذا هو الفرار من الزحف ساقهم إليه اطمئنانهم بكثرتهم و الانقطاع من ربهم، قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ وَ مَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُمْ إِلَىٰ أُنُوفِهِمْ فَفَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَ بئس المصير» الأنفال: -١٦ و قال: «وَ لَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الْأَدْبَارَ وَ كَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً» الأحزاب: -١٥.

فهذا كله أعنى ضيق الأرض عليهم بما رحبت ثم انهزامهم و فرارهم من الزحف على ما فيه من كبير الإثم، و وقوفهم هذا الموقف الذى يستتبع العتاب من ربهم إنما ساقهم إليه اعتمادهم و اطمئنانهم إلى هذه الأسباب السرايه التى لا تغنى عنهم شيئاً.

و الله سبحانه بسعه رحمته و عظم منه امتن عليهم بنصره و إنزال سكينته و إنزال جنود لم يروها، و تعذيب الكافرين و وعد مجمل بمغفرته و عدا ليس بالمقطوع وجوده حتى تبطل به صفة الخوف من قلوبهم، و لا بالمقطوع عدمه حتى تزول صفة الرجاء من نفوسهم بل و عدا يحفظ فيهم الاعتدال و التوسط بين صفتى الخوف

و الرجاء، و يريهم تربيته حسنه تعدهم و تهيئهم للسعاده الواقعيه.

و قد أغرب بعض المفسرين فى تفسير الآيه مستظها بما جمع به بين الروايات على اختلافها فأصر على ما ملخصه أن المسلمين لم يفروا على جبن، و إنما انكشفوا عن موضعهم لما فاجأهم من شد كئاب ثقيف و هوازن عليهم شد رجل واحد فاضطربوا اضطرابه زلزلتهم و كشفتهم عن موضعهم دفعه واحده و هذا أمر طبيعى فى الإنسان إذا فاجأه الخطر و دهمته بليه دفعه و من غير مهل اضطربت نفسه و خلى عن موضعه.

و يشهد به نزول السكينه على رسول الله ص و عليهم جميعا فقد كان الاضطراب شمله و إياهم جميعا، غير أن النبى ص أصابه ما أصابه من الاضطراب و القلق حزنا و أسفا مما وقع، و المسلمون شملهم ذلك لما فوجئوا به من حمله الكئاب حمله رجل واحد.

و من الشواهد أنهم بمجرد ما سمعوا نداء الرسول ص و نداء العباس بن عبد المطلب رجعوا من فورهم و هزموا الكفار بالسكينه النازله عليهم من عند الله تعالى.

ثم ذكر ما نزل من الآيات فى صفه الصحابه كآيه بيعه الرضوان، و قوله تعالى:

« مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ » الآيه، و قوله: « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ » الآيه، و ما ورد من طريق الروايه فى مدح صحابه النبى ص. انتهى.

و الذى أورده من الخلط بين البحث التفسيرى الذى لا هم له إلا الكشف عما يدل عليه الآيات الكريمه، و بين البحث الكلامى الذى يرام به إثبات ما يدعيه المتكلم فى شىء من المذاهب من أى طريق أمكن من عقل أو كتاب أو سنه أو إجماع أو المختلط منها و البحث التفسيرى لا يبيح لباحثه شيئا من ذلك، و لا تحمىل أى نظر من الأنظار العلميه على الكتاب الذى أنزله الله تيبانا.

أما قوله: إنهم لم يفروا جبنًا و لا خذلانا للنبى ص، و إنما كان انكشافا لأمر فاجأهم فاضطربوا و زلزلوا ففروا ثم كروا فهذا مما لا يندفع به صريح قوله تعالى:

« ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ » مع اندراج هذا الفعل منهم تحت كليه قوله تعالى فى آيه تحريم الفرار من الزحف: « فَلَا تَوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ - إِلَى أَنْ قَالَ - فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ » الآيه.

و لم يقيد سبحانه النهى عن توليه الأدبار بأنه يجب أن يكون عن جبن أو لغرض الخذلان، ولا أستثنى من حكم التحريم كون الفرار عن اضطراب مفاجئ، ولا- أورد في استثنائه إلا- ما ذكره بقوله: «إِلَّا- مُتَّحِرِّفًا لِفِتْنَةٍ أَوْ مُتَّحِيزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ» و ليس هذان المستثنيان في الحقيقة من الفرار من الزحف.

و لم يورد تعالى أيضا فيما حكى من عهدهم شيئا من الاستثناء إذ قال: «وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الدُّبَارَ وَ كَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا:» الأحزاب:-: ١٥.

و أما استشهاده على ذلك بأن الاضطراب كان مشتركا بينهم و بين النبي ص، و استدلاله على ذلك بقوله تعالى: «ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» حيث إن نزول السكينة بعد انكشافهم بزمان-على ما تدل عليه كلمه ثم-يلتزم نزول الاضطراب عند ذلك على النبي ص و إن كان عن حزن و أسف إذ لا يتصور في حقه(ص)التزلزل في ثباته و شجاعته.

فلننظر فيما اعتبره للنبي ص من الحزن و الأسف هل كان ذلك حزنا و أسفا على ما وقع من الأمر من انهزام المسلمين و ما ابتلاههم الله به من الفتنة و المحنة جزاء لما أعجبوا من كثره عددهم، و بالجملة حزنا مكروها عند الله؟ فقد نزهه الله عن ذلك و أدبه بما نزل عليه من كتابه و علمه من علمه، و قد أنزل عليه مثل قوله عز من قائل: «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ:» آل عمران:-: ١٢٨، و قال: «سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنْسَى:» الأعلى:-: ٦.

و لم يرد في شيء من روايات القصة أنه(ص)زال عن مكانه يومئذ أو اضطرب اضطرابا مما نزل على المسلمين من الوهن و الانهزام.

و إن كان ذلك حزنا و أسفا على المسلمين لما أصابهم من ناحيه خطئهم في الاعتماد بغير الله و الركون إلى سراب الأسباب الظاهره، و الذهول عن الاعتصام بالله سبحانه حتى أوقعهم في خطيئه الفرار من الزحف لما كان هو(ص)عليه من الرأفه و الرحمه بالمؤمنين فهذا أمر يحبه الله سبحانه و قد مدح رسوله ص به إذ قال: «بِالْمُؤْمِنِينَ رَوْفٌ رَحِيمٌ:» التوبه:-: ١٢٨.

و ليس يزول مثل هذا الأسف و الحزن بنزول السكينة عليه، و لا أن السكينة لو فرض نزولها لأجله مما حدث بعد وقوع الانهزام حتى يكون النبي ص خاليا عنها

قبل ذلك بل كان(ص) على بينه من ربه منذ بعثه الله إلى أن قبضه إليه،و كانت السكينة بهذا المعنى نازله عليه حيناً بعد حين.

ثم السكينة التي نزلت على المؤمنين ما هي؟ وما ذا يحسبها؟أ كانت هي الحالة النفسانية التي تحصل من السكون و الطمأنينه كما فسرها بها و استشهد عليه بقول صاحب المصباح:أنها تطلق على الرزانه و المهابه و الوقار حتى كانت ثبات الكفار و سكونهم في مواقفهم الحربية عن سكينة نازله إليهم؟فإن كانت السكينة هي هذه فقد كانت في أول الوقعه عند كفار هوازن و ثقيف خصماء المسلمين ثم تركتهم و نزلت على عامه جيش المسلمين من مؤمن ثبت مع رسول الله ص و من مؤمن لم يثبت و اختار الفرار على القرار، و من منافق و من ضعيف الإيمان مريض القلب فإنهم جميعاً رجعوا ثانياً إلى النبي ص، و ثبتوا معه حتى هزموا العدو فهم جميعاً أصحاب السكينة أنزلها الله إليهم فما باله تعالى يقصر إنزال السكينة على رسوله و على المؤمنين إذ يقول: « ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ».

على أنه إن كانت السكينة هي هذه،و هي مبتدله مبدوله لكل مؤمن و كافر فما معنى ما امتن الله به على المؤمنين بما ظاهره أنها عطيه خاصه غير مبتدله؟و لم يذكرها في كلامه إلا في موارد معدوده-بضعه موارد-لا تبلغ تمام العشره.

و بذلك يظهر أن السكينة أمر وراء السكون و الثبات لا أن لها معنى في اللغة أو العرف وراء مفهوم الحالة النفسانية الحاصله من السكون و الطمأنينه بل بمعنى أن الذي يريده تعالى من السكينة في كلامه له مصداق غير المصداق الذي نجده عند كل شجاع باسل له نفس ساكنه و جاش مربوط،و إنما هي نوع خاص من الطمأنينه النفسانية له نعت خاص و صفه مخصوصه.

كيف؟و كلما ذكرها الله سبحانه في كلامه امتناناً بها على رسوله و على المؤمنين خصها بالإنزال من عنده فهي حاله إلهيه لا ينسى العبد معها مقام ربه لا كما عليه عامه الشجعان أولوا الشده و البساله المعجبون ببسالتهم المعتمدون على أنفسهم.

و قد احتفت في كلامه بأوصاف و آثار لا تعم كل وقار و طمأنينه نفسانية كما قال في حق رسوله: « إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ »

وَ أَيْدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا:» التوبه:-٤٠ و قال تعالى في المؤمنين «لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ:» الفتح:-١٨ فذكر أنه إنما أنزل السكينة عليهم لما علمه من قلوبهم فنزلها يحتاج إلى حاله قلبيه طاهره سابقه يدل السياق على أنها الصدق و نزاهه القلب عن إبطان نيه الخلاف.

و قال أيضا: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ:» الفتح:-٤ فذكر أن من أثرها زياده الإيمان مع الإيمان و قال أيضا: «إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ لَزَمَهُمْ كَلِمَةُ التَّقْوَى وَ كَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَ أَهْلَهَا:» الفتح:-٢٦.

و الآية- كما ترى- تذكر أن نزول السكينة من عنده تعالى مسبق باستعداد سابق و أهليه و أحقيه قلبيه و هو الذي أشير إليه في الآية السابقيه بقوله: «فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ.» و تذكر أن من آثارها لزوم كلمه التقوى، و طهاره ساحه الإنسان عن مخالفه الله و رسوله باقتراف المحارم و ورود المعاصي.

و هذا كالمفسر يفسر قوله في الآية الأخرى: «لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ» فازدياد الإيمان مع الإيمان بنزول السكينة هو أن يكون الإنسان على وقايه إلهيه من اقتراف المعاصي و هتك المحارم مع إيمان صادق بأصل الدعوه الحقه.

و هذا نعم الشاهد يشهد أولا: أن المراد بالمؤمنين في قوله في الآية المبحوث عنها «ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» غير المنافقين و غير مرضى القلوب و ضعفاء الإيمان، و لا يبقى إلا من ثبت من المؤمنين مع النبي ص، و هم ثلاثة أو أربعة أو تسعه أو عشره أو ثمانون أو دون المائة على اختلاف الروايات في إحصائهم، و من فر و انكشف عن النبي ص أولا ثم رجع و قاتل ثانيا و فيهم جل أصحاب النبي ص و عدده من خواصهم.

فهل المراد بالمؤمنين الذين نزلت عليهم، جميع من ثبت مع النبي ص و من فر أولا ثم رجع ثانيا، أو أنهم هم الذين ثبتوا معه من المؤمنين حتى نزل النصر؟.

الذي يستفاد من آيات السكينة أن نزولها متوقف على طهاره قلبيه و صفاء نفسى سابق حتى يقرها الله تعالى بالسكينة، و هؤلاء كانوا مقترفين لكبيره الفرار من الزحف

آثمين قلوبا، ولا محل لنزول السكينة على من هذا شأنه فإن كانوا ممن نزلت عليهم السكينة كان من الواجب أن يندموا على ما فعلوا، ويتوبوا إلى ربهم توبه نصوحا بقلوب صادقه حتى يعلم الله ما فى قلوبهم فينزل السكينة عليهم فيكونون أذنبوا أولا ثم تابوا ورجعوا ثانيا، فأنزل الله سكينته عليهم و نصرهم على عدوهم، ولعل هذا هو الذى يشير إليه التراخى المفهوم من قوله تعالى « ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ » حيث عبر بـثم».

لكن يبقى عليه أولا: أنه كان من اللازم على هذا أن يتعرض فى الكلام لتوبتهم فيختص حينئذ قوله: « ثُمَّ يُتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » على الكفار الذين أسلموا بعد منهم، ولا أثر من ذلك فى الكلام ولا قرينه تخص قوله: « ثُمَّ يُتُوبُ اللَّهُ » إلخ بالكافرين الذين أسلموا بعد، فافهم ذلك.

و ثانيا: أن فى ذلك غمضا عن جميل المسعى و المحنه الحسنه التى امتحن بها أولئك النفر القليل الذين ثبتوا مع النبى ص حين تركه جموع المسلمين بين الأعداء و انهزموا فارين لا يلوون على شىء، و من المستبعد من دأب القرآن أن يهمل أمر من تحمل محنه فى ذات الله، و ألقى نفسه فى أشق المهالك ابتغاء مرضاته- و هو شاكر عليم- فلا يحمده و لا يشكر سعيه.

و المعهود من دأب القرآن أنه إذا عم قوما بعتاب أو توبيخ و ذم، و فيهم من هو برىء من استحقاق اللوم أو العتاب أو طاهر من دنس الإثم و الخطيئه أن يستثنيه منهم و يخصه بجميل الذكر، و يحمده على عمله و إحسانه كما نراه كثيرا فى الخطابات التى تعمم اليهود أو النصارى عتابا أو ذما و توبيخا فإنه تعالى يخاطبهم بما يخاطب و يوبخهم و ينسب إليهم الكفر بآياته و التخلف عن أوامره و نواهيه، ثم يمدح منهم الأقلين الذين آمنوا به و بآياته و أطاعوه فيما أراد منهم.

و أوضح من ذلك ما يتعرض من الآيات لوقعه أحد، و تمتن على المؤمنين بما أنزل الله عليهم من النصره و الكرامه، و يعاتبهم على ما أظهره من الوهن و الفشل ثم يستثنى الثابتين منهم على أقدام الصدق، و يعدهم وعدا حسنا إذ قال مره بعد مره:

« وَ سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ: » آل عمران:- ١٤٤، « وَ سَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ: » آل عمران:- ١٤٥.

و نجد مثله فى ما يذكره الله سبحانه من أمر وقعه الأحزاب فإن فى كلامه عتابا

شديدا لجمع من المؤمنين، و توبيخا و ذما للمنافقين و الذين فى قلوبهم مرض حتى قال فيما قال: «وَلَقَدْ كَانُوا لِعَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَ كَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا»: الأحزاب: ١٥، ثم إنه تعالى ختم القصة بمثل قوله: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَ مَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا»: الأحزاب: ٢٣.

فما باله تعالى لم يتعرض لحالهم فى قصه حين، و ليست بأهون من غيرها، و لا خصهم بشيء من الشكر، و لا حمدهم بما يمتنون به من لطيف حمده تعالى كغيرهم فى غيرها.

فهذا الذى ذكرناه مما يقرب إلى الاعتبار أن يكون المراد بالمؤمنين الذين ذكر نزول السكينه عليهم هم الذين ثبتوا مع النبى ص، و أما سائر المؤمنين ممن رجع بعد الانكشاف فهم تحت شمول قوله: «ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَيَّ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» يشمل من شملته العنايه منهم كما يشمل من شملته العنايه و التوفيق من كفار هوازن و ثقيف و من الطلقاء و الذين فى قلوبهم مرض. هذا ما يهدى إليه البحث التفسيري، و أما الروايات فلها شأنها و سيأتى طرف منها.

و أما ما ذكره من شهاده رجوعهم من فورهم حين سمعوا نداء النبى ص و نداء العباس فذلك مما لا يبطل ما قدمناه من ظهور قوله تعالى: «ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ» إذا انضم إلى قوله: «إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ» الآية فى أن ما ظهر منهم فى الوقعه من الفعل كان فرارا من الزحف فعلوه عن جبن أو تعمد فى خذلان أو عن قلق و اضطراب و تزلزل.

و أما ما ذكره من الآيات التى تمدحهم و تذكر رضى الرب عنهم و استحقاقهم جزيل الأجر من ربهم، ففيه أن هذه المحامد مقيده فيها بقيود لا يتحتم معها لهم الأمر فإن الآيات إنما تحمد من تحمده منهم لما به من نعوت العبوديه كالإيمان و الإخلاص و الصدق و النصيحه و المجاهده الدينيه فالحمد باق ما بقيت الصفات، و الوعد الحسن على اعتباره ما لبثت فيهم النعوت و الأحوال الموجبه له فإذا زالت لحادثه أو خطيئه زال بتبعه.

و ليس ما عندهم من مبادئ الخير و البركات بأعظم و لا أهم مما عند الأنبياء من صفه العصمه يستحيل معها صدور الذنب منهم، و قد قال الله تعالى بعد ثناء طويل عليهم: «وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»: الأنعام: ٨٨.

وقد قال تعالى قبال ما ظنوا أنهم مصنونون عن ما يكرهونه من أقسام المجازاه كرامه لإسلامهم كما ظن نظيره أهل الكتاب: «لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ» النساء: -١٢٣.

و الذى ورد فى بيعه الرضوان من قوله: «لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ» فإنما رضاه تعالى من صفاته الفعلية التى هى عين أفعاله الخارجيه منتزعه منها فهو عين ما أفاض عليهم من الحالات الطاهره النفسيه التى تستعقب بطباعها جزيل الجزاء و خير الثواب إن بقيت أعمالهم على ما هى عليها و إن تغيرت تغير الرضى سخطا و النعمه نقمه و لم يأخذ أحد عليه تعالى عهدا أن لا يخلف عهده فيحمله على السعاده و الكرامه أحسن أو أساء، أطاق أو عصى، آمن أو كفر.

و ليس رضى الرب من صفاته الذاتيه التى يتصف بها فى ذاته فلا يعرضه تغير أو تبدل و لا يطرأ عليه زوال أو دثور.

قوله تعالى: «ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ» إلى آخر الآيه السكينه - كما تقدم - حاله قلبيه توجب سكون النفس و ثبات القلب ملازمه لازدياد الإيمان مع الإيمان و لكلمه التقوى التى تهدى إلى الورع عن محارم الله على ما تفسرها الآيات.

و هى غير العداله التى هى ملكه نفسانيه تردع عن ركوب الكبائر و الإصرار على الصغائر فإن السكينه تردع عن الصغائر و الكبائر جميعا.

وقد نسب الله السكينه فى كتابه إلى نفسه نسبه تشعر بنوع من الاختصاص كما نسب الروح إلى نفسه دون العداله و وصفها بالإنزال فلها اختصاص عندى به تعالى بل ربما يشعر بعض الآيات بأنه عدها من جنوده كقوله تعالى: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزِدُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» الفتح: -٤.

و فى غير واحد من الآيات المشتمله على ذكر السكينه ذكر الجنود كقوله: «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيْدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا» التوبه: -٤٠، و كما فى الآيه المبحوث عنها:

«ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا».

و الذى يفهم من السياق أن هذه الجنود هى الملائكه النازله إلى المعركه، أو أن يقال من جملتها الملائكه النازله و الذى ينتسب إلى السكينه و الملائكه أن يعذب بهم

الكفار و يسدد و يسعد بهم المؤمنون كما اشتملت عليه آيات آل عمران القاصه قصه أحد، و آيات فى أول سوره الفتح فراجعها حتى يتبين لك حقيقه الحال إن شاء الله تعالى.

و قد تقدم فى قوله تعالى: «فِيهِ سَيِّئَاتُهُ مِنْ رَبِّكُمْ» البقره:- ٢٤٨ فى الجزء الثانى من الكتاب بعض ما يتعلق بالسكينه الإلهيه من الكلام مما لا يخلو من نفع فى هذا المقام.

قوله تعالى: «ثُمَّ يُتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» قد تقدم مرارا أن التوبه من الله سبحانه هى الرجوع إلى عبده بالعنايه و التوفيق أولا ثم بالعفو و المغفره ثانيا، و من العبد الرجوع إلى ربه بالندامه و الاستغفار، و لا يتوب الله على من لا يتوب إليه.

و الإشاره فى قوله: «مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ» على ما يعطيه السياق إلى ما ذكره فى الآيتين السابقتين من خطيئتهم بالركون إلى غير الله سبحانه و معصيتهم بالفرار و التولى ثم إنزال السكينه و إنزال الجنود و تعذيب الذين كفروا.

و الملائم لذلك أن يكون الموصول فى «مَنْ يَشَاءُ» شاملا للمسلمين و الكافرين جميعا فقد ذكر من الفريقين جميعا ما يصلح لأن يتوب الله عليهم فيه إن تابوا و هو من الكفار كفرهم و من المسلمين خطيئتهم و معصيتهم، و لا وجه لتخصيص التوبه على بعضهم مع ما فى آيات التوبه من عموم الحكم و سعته و لم يقيد فى هذه الآيه المبحوث عنها بما يوجب اختصاصها بأحد الفريقين: المسلمين أو الكافرين مع وجود المقتضى فيهما جميعا.

و مما ذكرنا يظهر فساد ما فسر به بعضهم الآيه مع قصر الإشاره على التعذيب إذ قال: إن معناها ثم يتوب الله تعالى بعد هذا التعذيب الذى يكون فى الدنيا على من يشاء من الكافرين فيهدىهم إلى الإسلام و هم الذين لم يحط بهم خطيئات جهاله الشرك و خرافاته من جميع جوانب أنفسهم، و لم يختم على نفوسهم بالإصرار على الجحود و التكذيب أو الجمود على ما ألفوا بمحض التقليد. انتهى.

و قد عرفت أن تخصيص الآيه بما ذكر و التصرف فى سائر قيوده كقصر الإشاره على التعذيب و غير ذلك مما لا دليل عليه البته.

و الوجه فى التعبير بالاستقبال فى قوله: «ثُمَّ يُتُوبُ اللَّهُ» الإشاره إلى انفتاح باب التوبه دائما، و جريان العنايه و فيضان العفو و المغفره الإلهيه مستمرا بخلاف ما

يشير إليه قوله: «ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ» الآية، فإن ذلك أمور محدوده غير جاريه.

قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا» قال في المجمع: كل مستقذر نجس يقال: رجل نجس و امرأه نجس و قوم نجس لأنه مصدر، و إذا استعملت هذه اللفظه مع الرجس قيل: رجس نجس - بكسر النون - قال: و العيله الفقر يقال عال يعيل إذا افتقر. انتهى.

و النهى عن دخول المشركين المسجد الحرام بحسب المتفاهم العرفى يفيد أمر المؤمنين بمنعهم عن دخول المسجد الحرام، و فى تعليقه تعالى منع دخولهم المسجد بكونهم نجسا اعتبار نوع من القذاره لهم كاعتبار نوع من الطهاره و النزاهه للمسجد الحرام، و هى كيف كانت أمر آخر وراء الحكم باجتناى ملاقاتهم بالرطوبه و غير ذلك.

و المراد بقوله: «عَامِهِمْ هَذَا» سنه تسع من الهجره، و هى السنه التى أذن فيها على (ع) بالبراءه، و منع طواف البيت عريانا، و حج المشركين البيت.

و قوله: «وَ إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً» الآية، أى و إن خفتم فى إجراء هذا الحكم أن ينقطعوا عن الحج، و يتعطل أسواقكم، و تذهب تجارتكم ففتقروا و تعيلوا فلا تخافوا فسوف يغنيكم الله من فضله، و يؤمنكم من الفقر الذى تخافونه.

و هذا وعد حسن منه تعالى فيه تطيب نفوس أهل مكه و من كان له تجاره هناك بالموسم، و كان حاضر العالم الإسلامى يبشرهم يومئذ بمضمون هذا الوعد فقد كان الإسلام تعلق كلمته، و ينتشر صيته حالا بعد حال، و كانت عامه المشركين فى عتبه الاستئصال بعد إيذان براءه لم يبق لهم إلا أربعة أشهر إلا شردمه قليله من العرب كان النبى ص عاهدهم عند المسجد الحرام إلى أجل ما بعده من مهل فالجميع كانوا فى معرض قبول الإسلام.

(بحث روائى)

إشاره

فى الكافى، عن على بن إبراهيم عن بعض أصحابه ذكره قال: لما سم المتوكل نذر إن عوفى أن يتصدق بمال كثير - فلما عوفى سأل الفقهاء عن حد المال الكثير - فاختلّفوا عليه فقال بعضهم: مائه ألف، و قال بعضهم: عشره آلاف - فقالوا فيه أقاويل مختلفه فاشتبه عليه الأمر -.

فقال رجل من ندمائه يقال له صفوان: ألا تبعث إلى هذا الأسود فتسأله عنه؟.

فقال له المتوكل: من تعنى ويحك؟ فقال: ابن الرضا. فقال له: و هو يحسن من هذا شيئاً؟ فقال: إن أخرجك من هذا فلى عليك كذا و كذا- وإلا- فاضربنى مائه مقرعه فقال المتوكل: رضيت، يا جعفر بن محمود اذهب إلى أبى الحسن على بن محمد- فأسأله عن حد المال الكثير، فسأله فقال له: الكثير ثمانون-.

فقال له جعفر بن محمود: يا سيدى إنه يسألنى عن العله فيه- فقال له أبو الحسن (ع): إن الله عز و جل يقول: «لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ» فعددنا تلك المواطن فكان ثمانين:

أقول: و رواه القمى أيضا فى تفسيره

و بعض أصحابه الذى ذكر فى الروايه أنه سماه هو محمد بن عمرو على ما ذكره فى التفسير. و معنى الروايه أن الثمانين من مصاديق الكثير بدلاله من الكتاب لا أن الكثير معناه الثمانون و هو ظاهر.

و فى المجمع، ذكر أهل التفسير و أصحاب السير: " أن رسول الله ص لما فتح مكه خرج منها- متوجها إلى حنين لقتال هوازن و ثقيف- فى آخر شهر رمضان أو فى شوال فى سنه ثمان من الهجره، و قد اجتمع رؤساء هوازن إلى مالك بن عوف النصرى، و ساقوا معهم أموالهم و نساءهم و ذراريهم و نزلوا بأوطاس-.

قال: و كان دريد بن الصمه فى القوم، و كان رئيس چشم، و كان شيخا كبيرا- قد ذهب بصره من الكبر فقال: بأى واد أنتم؟ قالوا: بأوطاس. قال: نعم مجال الخيل، لا حزن ضرر، و لا سهل دهس، ما لى أسمع رغاء البعير و نهيق الحمير و خوار البقر- و نغاء الشاه و بكاء الصبيان؟ فقالوا: إن مالك بن عوف- ساق مع الناس أبناءهم و أموالهم و نساءهم- ليقاتل كل منهم عن أهله و ماله فقال دريد: راعى ضأن و رب الكعبه-.

ثم قال: ائتونى بمالك فلما جاءه قال: يا مالك- إنك أصبحت رئيس قومك، و هذا يوم له ما بعده، رد قومك إلى عليا بلادهم، و ألق الرجال على متون الخيل- فإنه لا ينفعك إلا رجل بسيفه و فرسه- فإن كانت لك لحق بك من وراءك، و إن كانت عليك لا تكون قد فضحت فى أهللك و عيالك؛ فقال له مالك: إنك قد كبرت و ذهب علمك و عقلك-.

و عقد رسول الله ص لواء الأ- كبر- و دفعه إلى على بن أبى طالب (ع)، و كل من دخل مكه برايه أمره أن يحملها، و خرج بعد أن أقام بمكه خمسه عشر يوما- و بعث إلى صفوان بن أميه فاستعار منه مائه درع- فقال صفوان: عاريه أم غصب؟ فقال (ص):

عاريه مضمونه مؤداه، فأعاره صفوان مائه درع و خرج معه، و خرج من مسلمة الفتح ألفا رجل، و كان (ص) دخل مكة في عشره آلاف رجل - و خرج منها في اثني عشر ألفا -.

و بعث رسول الله ص رجلا من أصحابه - فانتبهى إلى مالك بن عوف و هو يقول لقومه: ليصير كل رجل منكم أهله و ماله خلف ظهره، و اكسروا جفون سيوفكم، و أكمنا في شعاب هذا الوادي و في السحر - فإذا كان في غبش الصبح - فاحملوا حملة رجل واحد فهدوا القوم - فإن محمدا لم يلق أحدا يحسن الحرب -.

و لما صلى رسول الله ص بأصحابه الغداة - انحدر في وادي حنين - فخرجت عليهم كتائب هوازن من كل ناحيه، و انهزمت بنو سليم و كانوا على المقدمه و انهزم ما وراءهم، و خلى الله تعالى بينهم و بين عدوهم لإعجابهم بكثرتهم - و بقى على (ع) و معه الرايه يقاتلهم في نفر قليل - و مر المنهزمون برسول الله ص لا يلوون على شيء.

و كان العباس بن عبد المطلب أخذ بلجام بغله رسول الله ص - و الفضل عن يمينه، و أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب عن يساره، و نوفل بن الحارث و ربيعه بن الحارث في تسعه من بني هاشم، و عاشرهم أيمن بن أم أيمن، و في ذلك يقول العباس:

نصرنا رسول الله في الحرب تسعه

و قد فر من قد فر عنه فأقشعوا

و قولى إذا ما الفضل كر بسيفه

على القوم أخرى يا بنى ليرجعوا

و عاشرنا لاقى الحمام بنفسه

لما ناله في الله لا يتوجع

و لما رأى رسول الله ص هزيمة القوم عنه - قال للعباس - و كان جهوريا صيتا - اصعد هذا الظرب - فناد: يا معشر المهاجرين و الأنصار - يا أصحاب سوره البقره - يا أهل بيعة الشجره إلى أين تفرون؟ هذا رسول الله -.

فلما سمع المسلمون صوت العباس - تراجعوا و قالوا: لبيك لبيك، و تبادر الأنصار خاصه و قاتلوا المشركين - حتى قال رسول الله ص: الآن حمى الوطيس.

أنا النبي لا كذب (1) أنا ابن عبد المطلب، و نزل النصر من عند الله، و انهزمت هوازن هزيمة قبيحه ففروا في كل وجه، و لم يزل المسلمون في آثارهم.

و فر مالك بن عوف فدخل حصن الطائف، و قتل منهم زهاء مائه رجل، و أغنم الله المسلمين أموالهم و نساءهم، و أمر رسول الله بالذراري و الأموال أن تحدر إلى الجعرانه، و ولي على الغنائم بديل بن ورقاء الخزاعي.-

و مضى (ص) في أثر القوم-فوافى الطائف في طلب مالك بن عوف-فحاصر أهل الطائف بقيه الشهر-فلما دخل ذو القعدة انصرف و أتى الجعرانه، و قسم بها غنائم حنين و أوطاس.-

قال سعيد بن المسيب: حدثني رجل كان في المشركين يوم حنين قال: لما التقينا نحن و أصحاب رسول الله ص لم يقفوا لنا حلب شاه-فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم حتى إذ انتهينا إلى صاحب البغلة الشهباء يعني رسول الله ص-فتلقانا رجال بيض الوجوه فقالوا لنا: شامت الوجوه ارجعوا فرجعنا-فركبوا أكتافنا فكانوا إياها يعني الملائكة.-

قال الزهري: و بلغني أن شبيه بن عثمان قال: استدبرت رسول الله ص- و أنا أريد أن أقتله بطلحه بن عثمان و عثمان بن طلحه-و كانا قد قتلنا يوم أحد فأطلع الله رسوله علي ما في نفسي-فالتفت إلى و ضرب في صدري، و قال: أعيدك بالله يا شبيه فأرعدت فرائصي-فنظرت إليه و هو أحب إلى من سمعي و بصري-فقلت: أشهد أنك رسول الله، و أن الله أطلعك على ما في نفسي.-

و قسم رسول الله ص الغنائم بالجعرانه-و كان معه من سبي هوازن ستة آلاف من الذراري و النساء، و من الإبل و الشاه ما لا يدري عدته.

قال أبو سعيد الخدري: قسم رسول الله ص للمتألفين من قريش-و من سائر العرب ما قسم، و لم يكن في الأنصار منها شيء قليل و لا كثير-فمشى سعد بن عباده إلى رسول الله ص-فقال: يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار-وجدوا عليك في قسمك هذه الغنائم في قومك-و في سائر العرب و لم يكن فيهم من ذلك شيء-فقال (ص): فأين أنت من ذلك يا سعد؟ فقال: ما أنا إلا امرؤ من قومي-فقال رسول الله ص: فاجمع لي قومك في هذه الحظيره-فجمعهم فخرج رسول الله ص فقام فيهم خطيبا-فحمد الله و أثني عليه ثم قال:

يا معشر الأنصار أ و لم آتكم ضلالا فهداكم الله، و عاله فأغناكم الله و أعداء فألف

بين قلوبكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله-.

ثم قال: أ لا تجيبونى يا معشر الأنصار؟ فقالوا: و ما نقول؟ و بما ذا نجيبك؟ المن لله و لرسوله. فقال رسول الله ص: أما و الله لو شئتم لقلتم فصدقتم: جئنا طريدا فأويناك، و عائلا فأسيناك، و خائفا فأمناك، و مخذولا فنصرناك. فقالوا:

المن لله و لرسوله-.

فقال رسول الله ص: وجدتكم فى أنفسكم- يا معشر الأنصار فى لعاعه من الدنيا- تألفت بها قوما ليسلموا- و كلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام. أ فلا- ترضون يا معشر الأنصار- أن تذهب الناس إلى رحالهم بالشاه و البعير، و تذهبون برسول الله إلى رحالكهم؟ فوالذى نفسى بيده لو أن الناس سلكوا شعبا- و سلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار- و لو لا الهجره لكنت امرأ من الأنصار- اللهم ارحم الأنصار و أبناء الأنصار و أبناء أبناء الأنصار- فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم، و قالوا: رضينا بالله و رسوله قسما ثم تفرقوا-.

و قال أنس بن مالك: و كان رسول الله ص أمر مناديا فنادى يوم أوطاس:

ألا لا توطأ الجبالى حتى يضعن، و لا غير الجبالى حتى يستبرأن بحيضه-.

ثم أقبلت وفود هوازن- و قدمت على رسول الله ص بالجعرانه مسلمين- فقام خطيبهم و قال: يا رسول الله- إنما فى الحظائر من السبايا خالاتك و حواضنك اللاتى- كن يكفلنك فلو أنا ملحنا ابن أبى شمر أو النعمان بن المنذر- ثم أصابنا منهما مثل الذى أصابنا منك- رجونا عائدتهما و عطفهما و أنت خير المكفولين- ثم أنشد أبياتا-.

فقال (ص): أى الأمرين أحب إليكم: السبى أو الأموال؟ قالوا: يا رسول الله خيرتنا بين الحسب و بين الأموال، و الحسب أحب إلينا و لا نتكلم فى شاه و لا بعير- فقال رسول الله ص: أما الذى لبنى هاشم فهو لكم- و سأكلم لكم المسلمين و أشفع لكم فكلموهم و أظهروا إسلامكم-.

فلما صلى رسول الله ص الهاجره قاموا فتكلموا- فقال النبى ص: قد رددت الذى لبنى هاشم- و الذى بيدي عليهم فمن أحب منكم أن يعطى غير مكره فليفعل- و من كره أن يعطى فليأخذ الفداء و على فداؤهم فأعطى الناس ما كان بأيديهم منهم- إلا قليلا من الناس سألوا الفداء-.

ص: ٢٣٣

و أرسل رسول الله ص إلى مالك بن عوف و قال: إن جئتني مسلما رددت إليك أهلك و مالك- و لك عندى مائه ناقه فخرج إليه من الطائف-فرد عليه أهله و ماله و أعطاه مائه من الإبل-و استعمله على من أسلم من قومه).

أقول: و روى القمى فى تفسيره مثله

و لم يرو ما نسب من الرجز إليه(ص) و كذا ما أسنده إلى راو معين كالمسيب و الزهرى و أنس و أبى سعيد، و روى هذه المعانى بطرق كثيره من طرق أهل السنه.

و فى روايه على بن إبراهيم القمى زياده يسيره هى ما يأتى:

قال على بن إبراهيم: " فلما رأى رسول الله ص الهزيمة- ركض يحوم على بغلته قد شهر سيفه (1) فقال: يا عباس اصعد هذا الظرب- و ناد: يا أصحاب [سوره] البقره يا أصحاب الشجره- إلى أين تفرون؟ هذا رسول الله-.

ثم رفع رسول الله ص يده و قال: اللهم لك الحمد و لك الشكر و إليك المشتكى- و أنت المستعان فنزل إليه جبرئيل- فقال: يا رسول الله دعوت بما دعا به موسى بن عمران- حين فلق الله له البحر و نجاه من فرعون-.

ثم قال رسول الله ص لأبى سفيان بن الحارث: ناولنى كفا من حصى فناوله فرماه فى وجوه المشركين- ثم قال: شأهت الوجوه. ثم رفع رأسه إلى السماء و قال:

اللهم إن تهلك هذه العصابه لم تعبد- و إن شئت أن لا تعبد لا تعبد-.

فلما سمعت الأنصار نداء العباس عطفوا- و كسروا جفون سيوفهم و هم ينادون:

ليبك و مروا برسول الله ص- و استحيوا أن يرجعوا إليه و لحقوا بالرايه- فقال رسول الله ص للعباس: من هؤلاء يا أبا الفضل؟ فقال: يا رسول الله- هؤلاء الأنصار فقال رسول الله ص: الآن حمى الوطيس فنزل النصر من السماء و انهزمت هوازن.

و فى الدر المنثور، أخرج أبو الشيخ عن محمد بن عبيد الله بن عمير الليثى قال: "

كان مع النبى ص أربعة آلاف من الأنصار- و ألف من جهينه، و ألف من مزينه- و ألف من أسلم و ألف من غفار و ألف من أشجع- و ألف من المهاجرين و غيرهم فكان معه عشره

ص: ٢٣٤

(١- ١) و فى نسخه البحار: ركض نحو على بغلته فرآه قد شهر سيفه.

آلاف- و خرج باثني عشر ألفا و فيها قال الله تعالى في كتابه: «وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثُرَتْكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا»

و في سيره ابن هشام، عن ابن إسحاق قال: " فلما انهزم الناس، و رأى من كان مع رسول الله ص من جفاه أهل مكة الهزيمة- تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن:

فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر. و إن الأذلام لمعه في كنانته و صرخ جبله بن الحنبل- قال ابن هشام: كلدته بن الحنبل- و هو مع أخيه صفوان بن أمية مشرك في المدة- التي جعل له رسول الله ص-: أ لا بطل السحر اليوم، فقال له صفوان اسكت فض الله فاك- فوالله لأن يربني رجل من قريش- أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن-.

قال ابن إسحاق: و قال شيبه بن عثمان بن أبي طلحه أخو بني عبد الدار: قلت:

اليوم أدرك ثارى- و كان أبوه قتل يوم أحد- اليوم أقتل محمدا قال: فأدرت برسول الله ص لأقتله فأقبل شىء حتى تغشى فؤادى- فلم أطق ذاك فعلمت أنه ممنوع منى.

(فهرس أسماء شهداء حنين)

في سيره ابن هشام، قال ابن إسحاق: " و هذه تسميه من استشهد يوم حنين من المسلمين:

من قريش ثم من بنى هاشم أيمن بن عبيد- و من بنى أسد بن عبد العزى- يزيد بن زمعه بن الأسود بن المطلب بن أسد- جمح به فرس يقال له الجناح فقتل-.

و من الأنصار سراقه بن الحارث بن عدى من بنى العجلان- و من الأشعريين أبو عامر الأشعري.

أقول: و أما الثباه مع رسول الله ص فقد عدوا في بعض الروايات ثلاثه و في بعضها أربعة و في بعضها تسعة عاشرهم أيمن بن عبيد- و هو ابن أم أيمن- و في بعضها ثمانين و في بعضها: دون المائة.

و المتعمد من بينها ما روى عن العباس أنهم كانوا تسعة عاشرهم أيمن و له في ذلك شعر تقدم نقله و ذلك أنه كان ممن ثبت مع النبي ص طول الوقعه و شاهد ما كان من الأمر و هو الذى كان ينادى المنهزمين و يستلحقهم بأمر النبي ص و قد باهى بما قاله من الشعر.

و من الممكن أن يثبت جمع بعد انهزام الناس هنيئته ثم يلحقوا بالمنهزمين أو يرجع جمع قبل رجوع غيرهم فيلحقوا بالرايه فيعدوا ممن ثبت و قاتل فالحرب العوان لا يجرى على ما يجرى عليه السلم من النظم.

و من هنا يعلم ما فى قول بعضهم: إن الأرحح روايه الثمانين كما عن عبد الله بن مسعود و إليها يرجع ما رواه ابن عمر أنهم كانوا دون المائة فإن الحججه لمن حفظ على من لم يحفظ، انتهى ملخصا.

و ذلك أن كون الحججه لمن حفظ على من لم يحفظ حق لكن الحفظ فى حال الحرب على ما فيه من التحول السريع فى الأوضاع الحاضره غير الحفظ فى غيره فلا يعتمد إلا على ما شهدت القرائن لصحته و أيد الاعتبار وثاقه حفظه و قد كان العباس مأمورا بما من شأنه حفظ هذا الشأن و ما يرتبط به.

[سوره التوبه (٩): الآيات ٢٩ الى ٣٥]

اشاره

قَاتَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ لَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ لَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صَاغِرُونَ (٢٩) وَ قَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزٌ إِنَّ لِلَّهِ وَ قَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَ رُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ مَا أُمِرُوا إِلَّا لِيُعْبَدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَ يَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَ الرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ وَ لَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتَكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَ جُنُوبُهُمْ وَ ظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٥)

الآيات تأمر بقتال أهل الكتاب ممن يمكن تبقيته بالجزية و تذكر أمورا من وجوه انحرافهم عن الحق فى الاعتقاد و العمل.

قوله تعالى: « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » أهل الكتاب هم اليهود و النصارى على ما استفاد من آيات كثيرة من القرآن الكريم و كذا المجوس على ما يشعر أو يدل عليه قوله تعالى: « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ »: الحج: ١٧ حيث عدوا فى الآيه مع سائر أرباب النحل السماويه فى قبال الذين أشركوا، و الصابئون كما تقدم طائفه من المجوس صبوا إلى دين اليهود فاتخذوا طريقا بين الطريقين.

و السياق يدل على أن لفظه « مِنْ » فى قوله: « مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » بيانيه لا تبعيضية فإن كلا من اليهود و النصارى و المجوس أمه واحده كالمسلمين فى إسلامهم و إن تشعبوا شعبا مختلفه و تفرقوا فرقا متشعبه اختلط بعضهم ببعض و لو كان المراد قتال البعض و إثبات الجزية على الجميع أو على ذلك البعض بعينه لاحتاج المقام فى إفاده ذلك إلى بيان غير هذا البيان يحصل به الغرض.

و حيث كان قوله: « مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » بيانا لما قبله من قوله: « الَّذِينَ »

«الآية فالأوصاف المذكوره أوصاف عامه لجميعهم و هي ثلاثه أوصاف وصفهم الله سبحانه بها: عدم الإيمان بالله و اليوم الآخر، و عدم تحريم ما حرم الله و رسوله، و عدم التدين بدين الحق.

فأول ما وصفهم به قوله: «الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ» و هو تعالى ينسب إليهم في كلامه أنهم يشتونه إليها و كيف لا؟ و هو يعدهم أهل الكتاب، و ما هو إلا الكتاب السماوى النازل من عند الله على رسول من رسله و يحكى عنهم القول أو لازم القول بالألوهيه في مئات من آيات كتابه.

و كذا ينسب إليهم القول باليوم الآخر في أمثال قوله: «وَ قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً.» البقره: -٨٠، و قوله: «وَ قَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى.» البقره: -١١١.

غير أنه تعالى لم يفرق في كلامه بين الإيمان به و الإيمان باليوم الآخر فالكفر بأحد الأمرين كفر بالله و الكفر بالله كفر بالأمرين جميعا، و حكم فيمن فرق بين الله و رسله فآمن ببعض دون بعض أنه كافر كما قال: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ يَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا.» أولئك هم الكافرون حقا وَ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا.» النساء: -١٥١.

فعد أهل الكتاب ممن لم يؤمن بنبوه محمد ص كفارا حقا و إن كان عندهم إيمان بالله و اليوم الآخر، لا بلسان أنهم كفروا بآيه من آيات الله و هي آيه النبوه بل بلسان أنهم كفروا بالإيمان بالله فلم يؤمنوا بالله و اليوم الآخر كما أن المشركين أرباب الأصنام كفرون بالله إذ لم يوحدوه و إن أثبتوا إليها فوق الآلهه.

على أنهم يقررون أمر المبدإ و المعاد تقريرا لا يوافق الحق بوجه كقولهم بأن المسيح ابن الله و عزيرا ابن الله يضاھئون في ذلك قول الذين كفروا من أرباب الأصنام و الأوثان أن من الآلهه من هو إله أب إله و من هو إله ابن إله، و قول اليهود في المعاد بالكرامه و قول النصارى بالتفدييه.

فالظاهر أن نفى الإيمان بالله و اليوم الآخر عن أهل الكتاب إنما هو لكونهم لا يرون ما هو الحق من أمر التوحيد و المعاد و إن أثبتوا أصل القول بالألوهيه لا لأن

منهم من ينكر القول بألوهية الله سبحانه أو ينكر المعاد فإنهم قائلون بذلك على ما يحكيه عنهم القرآن وإن كانت التوراه الحاضره اليوم لا- خير فيها عن المعاد أصلاً). ثم وصفهم ثانياً بقوله: «وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ» وذلك كقول اليهود بإباحه أشياء عدها و ذكرها لهم القرآن فى سورتي البقره و النساء و غيرهما و قول النصارى بإباحه الخمر و لحم الخنزير، و قد ثبت تحريمهما فى شرائع موسى و عيسى و محمد(ع) و أكلهم أموال الناس بالباطل كما سينسبه إليهم فى الآيه الآتية:

«إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَ الرَّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ».

و المراد بالرسول فى قوله: «مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ» أما رسول أنفسهم الذى قالوا بنبوته كموسى(ع) بالنسبه إلى اليهود، و عيسى(ع) بالنسبه إلى النصارى فالمعنى لا يحرم كل أمه منهم ما حرمه عليهم رسولهم الذى قالوا بنبوته، و اعترفوا بحقانيته و فى ذلك نهايه التجرى على الله و رسوله و اللعب بالحق و الحقيقه.

و أما النبى محمد ص الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراه و الإنجيل يحل لهم الطيبات و يحرم عليهم الخبائث و يضع عنهم إصرهم و الأغلال التى كانت عليهم.

و يكون حينئذ توصيفهم بعدم تحريمهم ما حرم الله و رسوله بغرض تأنيبهم و الطعن فيهم و لبعث المؤمنين و تهيجهم على قتالهم لعدم اعتنائهم بما حرمه الله و رسوله فى شرعهم و استرسالهم فى الوقوع فى محارم الله و هتك حرمانه.

و ربما أيد هذا الاحتمال أن لو كان المراد بقوله: «و رَسُولُهُ» رسول كل أمه بالنسبه إليها كموسى بالنسبه إلى اليهود و عيسى بالنسبه إلى النصارى كان من حق الكلام أن يقال:

«و لا- يحرمون ما حرم الله و رسوله» على ما هو دأب القرآن فى نظائره للدلاله على كثره الرسل كقوله: «و يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ» النساء:- ١٥٠، و قوله: «قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَلِى اللَّهِ شَكٌّ» إبراهيم:- ١٠، و قوله: «و جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ» يونس:- ١٣.

على أن النصارى رفضوا محرمات التوراه و الإنجيل فلم يحرموا ما حرم موسى و عيسى(ع)، و ليس من حق الكلام فى مورد هذا شأنه: أنهم لا يحرمون ما حرم الله و رسوله.

على أن المتدبر فى المقاصد العامه الإسلاميه لا- يشك فى أن قتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزيه ليس لغرض تمتع أولياء الإسلام و لا المسلمين من متاع الحياه الدنيا و استرسالهم

و انهماكهم فى الشهوات على حد المترفين من الملوك و الرؤساء المسرفين من أقوىاء الأمم.

و إنما غرض الدين فى ذلك أن يظهر دين الحق و سنه العدل و كلمه التقوى على الباطل و الظلم و الفسق فلا يعترضها فى مسيرها اللعب و الهوى فتسلم التربيه الصالحه المصلحه من مزاحمه التربيه الفاسده المفسده حتى لا ينجر إلى أن تجذب هذه إلى جانب، و تلك إلى جانب، فيتشوش أمر النظام الإنسانى إلا أن لا يرتضى واحد أو جماعه التربيه الإسلاميه لنفسه أو لأنفسهم فيكونون أحرارا فيما يرتضونه لأنفسهم من تربيه دينهم الخاصه على شرط أن يكونوا على شىء من دين التوحيد، و هو اليهوديه أو النصرانيه أو المجوسيه، و أن لا يتظاهروا بالمزاحمه، و هذا غايه العدل و النصفه من دين الحق الظاهر على غيره.

و أما الجزيه فهى عطيه مالىه مأخوذه منهم مصروفه فى حفظ ذمتهم و حسن إدارتهم و لا غنى عن مثلها لحكومهم قائمه على ساقها حقه أو باطله.

و من هذا البيان يظهر أن المراد بهذه المحرمات: المحرمات الإسلاميه التى عزم الله أن لا تشيع فى المجتمع الإسلامى العالمى كما أن المراد بدين الحق هو الذى يعزم أن يكون هو المتبع فى المجتمع.

و لازم ذلك أن يكون المراد بالمحرمات: المحرمات التى حرمها الله و رسوله محمد ص الصادع بالدعوه الإسلاميه، و أن يكون الأوصاف الثلاثه: «الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ» الآيه فى معنى التعليل تفيد حكمه الأمر بقتال أهل الكتاب.

و بذلك كله يظهر فساد ما أورد على هذا الوجه أنه لا يعقل أن يحرم أهل الكتاب على أنفسهم ما حرم الله و رسوله علينا إلا إذا أسلموا، و إنما الكلام فى أهل الكتاب لا فى المسلمين العاصين.

وجه الفساد أنه ليس من الواجب أن يكون الغرض من قتالهم أن يحرموا ما حرم الإسلام و هم أهل الكتاب بل أن لا يظهر فى الناس التبرز بالمحرمات من غير مانع يمنع شيوعها و الاسترسال فيها كشرب الخمر و أكل لحم الخنزير و أكل المال بالباطل على سبيل العلن بل يقاتلون ليدخلوا فى الذمه فلا يتظاهروا بالفساد، و يحتبس الشر فيما بينهم أنفسهم.

و لعله إلى ذلك الإشاره بقوله: «وَهُمْ صَاغِرُونَ» على ما سيجىء فى الكلام على ذيل الآيه.

ثم وصفهم ثالثاً بقوله: «وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ» أى لا يأخذونه ديناً و سنه حيويه لأنفسهم.

و إضافة الدين إلى الحق ليست من إضافة الموصوف إلى صفته على أن يكون المراد الدين الذى هو حق بل من الإضافة الحقيقية، و المراد به الدين الذى هو منسوب إلى الحق لكون الحق هو الذى يقتضيه للإنسان و بيعته إليه، و كون هذا الدين يهدى إلى الحق و يصل متبعيه إليه فهو من قبيل قولنا طريق الحق و طريق الضلال بمعنى الطريق الذى هو للحق و الطريق الذى هو للضلال أى إن غايته الحق أو غايته الضلال.

و ذلك أن المستفاد من مثل قوله تعالى: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ:» الروم: ٣٠، و قوله:

«إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ:» آل عمران: ١٩، و سائر ما يجرى هذا المجرى من الآيات أن لهذا الدين أصلاً فى الكون و الخلقه و الواقع الحق؛ يدعو إليه النبى ص، و يندب الناس إلى الإسلام و الخضوع له و يسمى اتخاذه سنه فى الحياه إسلاماً لله تعالى فهو يدعو إلى ما لا مناص للإنسان عن استجابته و التسليم له و هو الخضوع للسنه العمليه الاعتباريه التى يهدى إليها السنه الكونيه الحقيقيه، و بعبارة أخرى التسليم لإرادته الله التشريعيه المنبعثه عن إرادته التكوينيّه.

و بالجملة للحق الذى هو الواقع الثابت دين و سنه ينبعث منه كما أن للضلال و الغى ديناً يدعو إليه، و الأول اتباع للحق كما أن الثانى اتباع للهوى، قال تعالى:

«وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ.»

و الإسلام دين الحق بمعنى أنه سته التكوين و الطريقه التى تنطبق عليها الخلقه و تدعو إليها الفطره فطره الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم.

فتلخص مما تقدم أولاً: أن المراد بعدم إيمان أهل الكتاب بالله و اليوم الآخر عدم تلبسهم بالإيمان المقبول عند الله، و بعدم تحريمهم ما حرم الله و رسوله عدم مبالا-تهم فى التظاهر باقتراف المناهى التى يفسد التظاهر بها المجتمع البشرى و يخيب بها سعى الحكومه الحقه الجاريه فيه، و بعدم تدينهم بدين الحق عدم استئنائهم بسنه الحق المنطبقه على الخلقه و المنطبقه عليها الخلقه و الكون.

و ثانيا: أن قوله: «الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ» إلى آخر الأوصاف الثلاثة مسوق لبيان الحكمه فى الأمر بقتالهم و يترتب عليه فائده التحريض و التحضيض عليه.

و ثالثا: أن المراد قتال أهل الكتاب جميعا لا بعضهم بجعل «مِنْ» فى قوله:

«مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» للتبعض.

قوله تعالى: «حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ» قال الراغب فى المفردات:، الجزية ما يؤخذ من أهل الذمه، و تسميتها بذلك للاجتراء بها فى حقن دمهم. انتهى.

و فى المجمع:، الجزية فعله من جزى يجرى مثل العقده و الجلسه و هى عطيه مخصوصه جزاء لهم على تمسكهم بالكفر عقوبه لهم. عن على بن عيسى. انتهى.

و الاعتماد على ما ذكره الراغب فإنه المتأيد بما ذكرناه آنفا أن هذه عطيه مالىه مصروفه فى جهه حفظ ذمتهم و حقن دمائهم و حسن إدارتهم.

و قال الراغب أيضا: الصغر و الكبر من الأسماء المتضاده التى تقال عند اعتبار بعضها ببعض فالشئ قد يكون صغيرا فى جنب الشئ و كبيرا فى جنب آخر- إلى أن قال- يقال: صغر صغرا- بالكسر فالفتح- فى ضد الكبير و صغر صغرا و صغارا- بالفتحتين فيهما- فى الذله. و الصاغر الراضى بالمنزله الدينيه: «حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ» انتهى.

و الاعتبار بما ذكر فى صدر الآيه من أوصافهم المقتضيه لقتالهم ثم إعطاؤهم الجزية لحفظ ذمتهم يفيد أن يكون المراد بصغارهم خضوعهم للسنه الإسلاميه و الحكومه الدينيه العادله فى المجتمع الإسلامى فلا- يكافئوا المسلمين و لا- يبارزوهم بشخصيه مستقله حره فى بث ما تهواه أنفسهم و إشاعه ما اختلقته هوساتهم من العقائد و الأعمال المفسده للمجتمع الإنسانى مع ما فى إعطاء المال بأيديهم من الهوان.

فظاهر الآيه أن هذا هو المراد من صغارهم لا إهانتهم و السخرية بهم من جانب المسلمين أو أولياء الحكومه الدينيه فإن هذا مما لا يحتمله السكينه و الوقار الإسلامى و إن ذكر بعض المفسرين.

و اليد: الجارحه من الإنسان و تطلق على القدره و النعمه فإن كان المراد به فى

قوله: «حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ» هو المعنى الأول فالمعنى حتى يعطوا الجزية متجاوزة عن يدهم إلى يدكم، وإن كان المراد هو المعنى الثانى فالمعنى: حتى يعطوا الجزية عن قدره و سلطه لكم عليهم و هم صاغرون غير مستعنين عليكم و لا مستكبرين.

فمعنى الآيه-و الله أعلم-قاتلوا أهل الكتاب لأنهم لا- يؤمنون بالله و اليوم الآخر إيماناً مقبولاً- غير منحرف عن الصواب و لا يحرمون ما حرمه الإسلام مما يفسد اقترافه المجتمع الإنسانى و لا يدينون ديناً منطبقاً على الخلقه الإلهيه قاتلوهم و دوموا على قتالهم حتى يصغروا عندكم و يخضعوا لحكومتكم، و يعطوا فى ذلك عطيه ماليه مضروبه عليهم يمثل صغارهم، و يصرف فى حفظ ذمتهم و حقن دمائهم و حاجه إداره أمورهم.

قوله تعالى: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ» إلى آخر الآيه المضاهاه المشاكله. و الإفك على ما ذكره الراغب كل مصروف عن وجهه الذى يحق أن يكون عليه فمعنى «يُؤَفِّكُونَ» يصرفون فى اعتقادهم عن الحق إلى الباطل.

و قوله: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ» عزير هذا هو الذى يسميه اليهود عزرا غيرت اللفظه عند التعريب كما غير لفظ «يسوع» فصار بالتعريب «عيسى» و لفظ «يوحنا» فصار كما قيل «يحيى».

و عزرا هذا هو الذى جدد دين اليهود و جمع أسفار التوراه و كتبها بعد ما افتقدت فى غائله بخت نصر ملك بابل الذى فتح بلادهم و خرب هيكلهم و أحرق كتبهم و قتل رجالهم و سبى نساءهم و ذراريهم و الباقين من ضعفائهم و سيرهم معه إلى بابل فبقوا هنالك ما يقرب من قرن ثم لما فتح «كورش» ملك إيران بابل شفع لهم عنده عزرا و كان ذا وجه عنده فأجاز له أن يعيد اليهود إلى بلادهم و أن يكتب لهم التوراه ثانياً بعد ما افتقدوا نسخها و كان ذلك فى حدود سنه ٤٥٧ قبل المسيح على ما ذكروا فراجت بينهم ثانياً ما جمعه عزرا من التوراه و إن كانوا افتقدوا أيضاً فى زمن أنتيوكس صاحب سوريه الذى فتح بلادهم حدود سنه ١٦١ ق م و تتبع مساكنهم فأحرق ما وجدته من نسخ التوراه و قتل من وجدت عنده أو أخذت عليه على ما فى كتب التاريخ.

و لما نالهم من خدمته عظموا قدره و احترموا أمره و سموه ابن الله و لا- ندرى أ كان دعاؤه بالبنوه بالمعنى الذى يسمى به النصارى المسيح ابن الله-و المراد أن فيه شيئاً من جوهر الربوبيه أو هو مشتق منه أو هو هو-أو أنها تسميه تشرifiه كما

قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه؟ وإن كان ظاهر سياق الآية التاليه: «اتَّخَذُوا أَحِبَّارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ الْآيَةَ يُؤِيدُ الثَّانِي عَلَى مَا سَيَأْتِي.

□
و قد ذكر بعض المفسرين: أن هذا القول منهم: «عَزَّيْرُ ابْنِ اللَّهِ» كلمه تكلم بها بعض اليهود ممن فى عصره (ص) لا جميع اليهود فنسب إلى الجميع كما أن قولهم:

□
«إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ» و كذا قولهم: «يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ» مما قاله بعض يهود المدينه ممن عاصر النبى ص فنسب فى كلامه تعالى إلى جميعهم لأن البعض منهم راضون بما عمله البعض الآخر، و الجميع ذو رأى متوافق الأجزاء و رويه متشابهه التأثير.

□
و قوله: «وَقَالَتِ الْنَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ» كلمه قالتها النصارى، و قد تقدم الكلام فيها و فى ما يتعلق بها فى قصه المسيح (ع) من سوره آل عمران فى الجزء الثالث من الكتاب.

□
و قوله: «يُضَاهِوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ» تنبئ الآيه عن أن القول بالبنوه منهم مضاهاه و مشاكله لقول من تقدمهم من الأمم الكافره و هم الوثنيون عبده الأصنام فإن من آلهتهم من هو إله أب إله و من هو إله ابن إله و، من هى إلهه أم إله أو زوجه إله، و كذا القول بالثالوث مما كان دائرا بين الوثنيين من الهند و الصين و مصر القديم و غيرهم و قد مر نبذه من ذلك فيما تقدم من الكلام فى قصه المسيح فى ثالث أجزاء هذا الكتاب.

و تقدم هناك أن تسرب العقائد الوثنيه فى دين النصارى و مثلهم اليهود من الحقائق التى كشف عنها القرآن الكريم فى هذه الآيه: «يُضَاهِوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ».

و قد اعتنى جمع (1) من محققى هذا العصر بتطبيق ما تضمنته كتب القوم أعنى العهدين: العتيق و الجديد على ما حصل من مذاهب البوذيين و البرهمانيين فوجدوا معارف العهدين منطبقه على ذلك حذو النعل بالنعل حتى كثيرا من القصص و الحكايات الموجوده فى الأناجيل فلم يبق ذلك ريبا لأى باحث فى أصاله قوله تعالى: «يُضَاهِوْنَ» الآيه فى هذا الباب.

□ □
ثم دعا عليهم بقوله: «قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْى يُؤْفَكُونَ» و ختم به الآيه.

ص: ٢٤٤

قوله تعالى: «اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ» الأحبار جمع حبر بفتح الحاء و كسرهما و هو العالم و غلب استعماله فى علماء اليهود و الرهبان جمع راهب و هو المتلبس بلباس الخشيه و غلب على المتسكين من النصارى.

و اتخذهم الأحبار و الرهبان أربابا من دون الله هو إصغائهم لهم و إطاعتهم من غير قيد و شرط و لا- يطاع كذلك إلا الله سبحانه.

و أما اتخاذهم المسيح بن مريم ربا من دون الله فهو القول بألوهيته بنحو كما هو المعروف من مذاهب النصارى، و فى إضافة المسيح إلى مريم إشاره إلى عدم كونهم محقين فى هذا الاتخاذ لكونه إنسانا ابن مرأه.

و لكون الاتخاذين مختلفين من حيث المعنى فصل بينهما فذكر اتخاذهم الأحبار و الرهبان أربابا من دون الله أولا، ثم عطف عليه قوله: «وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ».

و الكلام كما يدل على اختلاف الربوبيتين كذلك لا- يخلو عن دلالة على أن قولهم بنوه عزيز و بنوه المسيح على معنيين مختلفين، و هو البنوه التشرifiه فى عزيز و البنوه بنوع من الحقيقه فى المسيح(ع) فإن الآيه أهملت ذكر اتخاذهم عزيزا ربا من دون الله، و لم يذكر مكانه إلا اتخاذهم الأحبار و الرهبان أربابا من دون الله.

فهو رب عندهم بهذا المعنى إما لاستلزام التشرifi بالبنوه ذلك أو لأنه من أحبارهم و قد أحسن إليهم فى تجديد مذهبهم ما لا يقاس به إحسان غيره، و أما المسيح فبنوته غير هذه البنوه.

و قوله: «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» جملة حاله أى اتخذوا لهم أربابا و الحال هذه.

و فى الكلام دلالة أولا: على أن الاتخاذ بالربوبيه بواسطه الطاعه كالاتخاذ بها بواسطه العباده فالطاعه إذا كانت بالاستقلال كانت عباده، و لازم ذلك أن الرب الذى هو المطاع من غير قيد و شرط و على نحو الاستقلال إله، فإن الإله هو المعبود الذى من حقه أن يعبد، يدل على ذلك كله قوله تعالى: «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا» حيث بدل الرب بالإله، و كان مقتضى الظاهر أن يقال و ما أمرُوا إلا ليتخذوا ربا واحدا فالاتخاذ للربوبيه بواسطه الطاعه المطلقه عباده، و اتخاذ الرب معبودا اتخاذ

له إلهافهم ذلك.

و ثانياً: عليّ أن الدعوه إلى عباده الله وحده فيما وقع من كلامه تعالى كقوله تعالى: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ»: الأنبياء: ٢٥- وقوله فلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ»: الشعراء: ٢١٣ و أمثال ذلك كما أريد بها قصر العباده بمعناها المتعارف فيه تعالى كذلك أريد قصر الطاعه فيه تعالى، وذلك أنه تعالى لم يؤاخذهم في طاعتهم لأخبارهم و رهبانهم إلا بقوله عز من قائل: «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ».

و على هذا المعنى يدل قوله تعالى: «أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَ أَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ»: يس-٦١، وهذا باب يفتح منه ألف باب.

و في قوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» تتميم لكلمه التوحيد التي يتضمنها قوله: «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا» فإن كثيرا من عبده الأصنام كانوا يعتقدون بوجود آلهه كثيره، و هم مع ذلك لا يخلصون بالعباده إلا واحدا منها فعباده إله واحد لا يتم به التوحيد إلا مع القول بأنه لا إله إلا هو.

و قد جمع تعالى بين العبادتين مع الإشاره إلى مغايره ما بينهما و أن قصر العباده بكلا معنيها عليه تعالى هو معنى الإسلام له سبحانه الذي لا مفر منه للإنسان؛ فيما أمر به نبيه ص من دعوه أهل الكتاب بقوله: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ إِلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَ لَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ»: آل عمران: ٦٤.

و قوله تعالى في ذيل الآية: «سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ» تنزيه له تعالى عما يتضمنه قولهم بربوبيه الأبحار و الرهبان، و قولهم بربوبيه المسيح (ع) من الشرك.

و الآيه بمنزله البيان التعليلي لقوله تعالى في أول الآيات: «الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ» فإن اتخاذه إله أو آلهه دون الله سبحانه لا يجمع الإيمان بالله، و لا الإيمان بيوم لا ملك فيه إلا الله.

قوله تعالى: «يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ إِلَى آخِرِ آيِهِ، الْإِطْفَاءُ إِخْمَادُ النَّارِ أَوْ النُّورِ، وَ الْبَاءُ فِي قَوْلِهِ: «بِأَفْوَاهِهِمْ» لِلآلِهَةِ أَوْ السَّبِيهِ.

و إنما ذكر الأفواه لأن النفخ الذي يتوسل به إلى إخماد الأنوار و السرج يكون

بالأفواه، قال في المجمع:، وهذا من عجب البيان مع ما فيه من تصغير شأنهم و تضعيف كيدهم لأن الفم يؤثر في الأنوار الضعيفه دون الأقباس العظيمة. انتهى.

وقال في الكشاف:، مثل حالهم في طلبهم أن يبطلوا نبوه محمد ص بالتكذيب بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم منبث في الآفاق يريد الله أن يزيده، و يبلغه الغايه القصوى في الإشراق و الإضاءة ليطفئه بنفخه و يطمسه. انتهى، و الآيه إشاره إلى حال الدعوه الإسلاميه، و ما يريده منه الكافرون، و فيها وعد جميل بأن الله سيتم نوره.

قوله تعالى: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ» الهدى الهدايه الإلهيه التي قارنها برسوله ليهدي بأمره، و دين الحق هو الإسلام بما يشتمل عليه من العقائد و الأحكام المنطبقه على الواقع الحق.

و المعنى أن الله هو الذى أرسل رسوله و هو محمد ص مع الهدايه-أو الآيات و البيئات- و دين فطرى ليظهر و ينصر دينه الذى هو دين الحق على كل الأديان و لو كره المشركون ذلك.

و بذلك ظهر أن الضمير فى قوله: «لِيُظْهِرَهُ» راجع إلى دين الحق كما هو المتبادر من السياق، و ربما قيل: إن الضمير راجع إلى الرسول، و المعنى ليظهر رسوله و يعلمه معالم الدين كلها و هو بعيد.

و فى الآيتين من تحريض المؤمنين على قتال أهل الكتاب و الإشاره إلى وجوب ذلك عليهم ما لا يخفى فإنهما تدلان على أن الله أراد انتشار هذا الدين فى العالم البشرى فلا بد من السعى و المجاهده فى ذلك، و أن أهل الكتاب يريدون أن يطفئوا هذا النور بأفواههم فلا بد من قتالهم حتى يفنوا أو يستبقوا بالجزيه و الصغار، و أن الله سبحانه يأبى إلا أن يتم نوره، و يريد أن يظهر هذا الدين على غيره فالدائر به مشيه الله لهم على أعدائهم فلا ينبغي لهم أن يهنوا و يحزنوا و هم الأعلون إن كانوا مؤمنين.

قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَجْبَارِ وَ الرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَ يَصِيدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» الظاهر أن الآيه إشاره إلى بعض التوضيح لقوله فى أول الآيات: وَ لَا يَحْرَمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ لَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ» كما أن الآيه السابقه كالتوضيح لقوله فيها: «الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ».

أما إيضاح قوله تعالى: «وَلَا يُحْرَمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ» بقوله: «إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ» فهو إيضاح بأوضح المصاديق و أهمها تأثيرا فى إفساد المجتمع الإنسانى الصالح، وإبطال غرض الدين.

فالقرآن الكريم يعد لأهل الكتاب و خاصة لليهود جرائم و آثاما كثيره مفصله فى سوره البقره و النساء و المائده و غيرها لكن الجرائم و التعديات الماليه شأنها غير شأن غيرها، و خاصة فى هذا المقام الذى تعلق الغرض بإفساد أهل الكتاب المجتمع الإنسانى الصالح لو كانوا مبسوطى اليد و استقلالهم الحيوى قائما على ساق، و لا مفسد للمجتمع مثل التعدى المالى.

فإن أهم ما يقوم به المجتمع الإنسانى على أساسه هو الجبهه الماليه التى جعل الله لهم قياما فجعل المآثم و المساوى و الجنائيات و التعديات و المظالم تنتهى بالتحليل إما إلى فقر مفرط يدعو إلى اختلاس أموال الناس بالسرقه و قطع الطرق و قتل النفوس و البخس فى الكيل و الوزن و الغصب و سائر التعديات الماليه، و إما إلى غنى مفرط يدعو إلى الإتراف و الإسراف فى المأكل و المشرب و الملبس و المنكح و المسكن، و الاسترسال فى الشهوات و هتك الحرمات، و بسط التسلط على أموال الناس و أعراضهم و نفوسهم.

و تنتهى جميع المفاسد الناشئه من الطريقتين كليهما بالتحليل إلى ما يعرض من الاختلال على النظام الحاكم فى حيازه الأموال و اقتناء الثروه، و الأحكام المشرعه لتعديل الجهات المملكه المميزه لأكل المال بالحق من أكله بالباطل، فإذا اختل ذلك و أذعنت النفوس بإمكان القبض على ما تحتها من المال، و تتوق إليه من الثروه بأى طريق أمكن لقن ذلك إياها أن يظفر بالمال و يقبض على الثروه بأى طريق ممكن حق أو باطل، و أن يسعى إلى كل مشتهى من مشتهيات النفس مشروع أو غير مشروع أدى إلى ما أدى، و عند ذلك يقوم البلوى بفسو الفساد و شيوع الانحطاط الأخلاقى فى المجتمع، و انقلاب المحيط الإنسانى إلى محيط حيوانى ردى لا- هم فيه إلا- البطن و ما دونه و لا- يملك فيه إراده أحد بسياسه أو تربيه و لا- تفقه فيه لحكمه و لا إصغاء إلى موعظه.

و لعل هذا هو السبب الموجب لاختصاص أكل المال بالباطل بالذكر، و خاصة من الأخبار و الرهبان الذين إليهم تربيه الأمه و إصلاح المجتمع.

و قد عد بعضهم من أكلهم أموال الناس بالباطل ما يقدمه الناس إليهم من المال

حبا لهم لتظاهروهم بالزهد و التمسك، و أكل الربا و السحت، و ضبطهم أموال مخالفيهم و أخذهم الرشا على الحكم، و إعطاء أوراق المغفرة و بيعها، و نحو ذلك.

و الظاهر أن المراد بها أمثال أخذ الرشوة على الحكم كما تقدم من قصتهم في تفسير قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ» X الآية X: المائدة: -٤١، في الجزء الخامس من الكتاب.

و لو لم يكن من ذلك إلا ما كانت تأتي به الكنيسة من بيع أوراق المغفرة لكفى به مقتا و لوما.

و أما ما ذكره من تقديم الأموال إليهم لترهدهم، و كذا تخصيصهم بأوقاف و وصايا و ميراث عامه فليس بمعدود من أكل المال بالباطل، و كذا ما ذكره من أكل الربا و السحت فقد نسبه تعالى في كلامه إلى عامه قومهم كقوله تعالى: «وَ أَخَذِهِمُ الرَّبُّوا وَ قَدْ نُهِوا عَنْهُ:» النساء: -١٦١، و قوله: «سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَالُونَ لِلْسُّحْتِ»: المائدة: -٤٢، و إنما كلامه تعالى في الآية التي نحن فيها فيما يخص أحبارهم و رهبانهم من أكل المال بالباطل لا ما يعمهم و عامتهم.

إلا أن الحق أن زعماء الأمة الدينيه و مربيهم في سلوك طريق العبوديه المعتنين بإصلاح قلوبهم و أعمالهم إذا انحرفوا عن طريق الحق إلى سبيل الباطل كان جميع ما أكلوه لهذا الشأن و استدرروه من منافعه سحتا محرما لا يبيحه لهم شرع و لا عقل.

و أما إيضاح قوله تعالى: «وَ لَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ» بقوله: «وَ يَصِيدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» فهو أيضا مبني على ما قدمناه من النكته في توصيفهم بالأوصاف الثلاثه التي ثالثها قوله: «وَ لَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ» و هو بيان ما يفسد من صفاتهم و أعمالهم المجتمع الإنساني و يسد طريق الحكومه الدينيه العادله دون البلوغ إلى غرضها من إصلاح الناس و تكوين مجتمع حي فعال بما يليق بالإنسان الفطري المتوجه إلى سعاده الفطريه.

و لذا خص بالذكر من مفاسد عدم تدبيرهم بدين الحق ما هو العمده في إفساد المجتمع الصالح، و هو صدهم عن سبيل الله و منعهم الناس عن أن يسلكوه بما قدروا عليه من طرقه الظاهره و الخفيه، و لا يزالون مصرين على هذه السليقه منذ عهد النبي ص حتى اليوم.

قوله تعالى: «وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» قال الراغب: الكنز جعل المال بعضه على بعض وحفظه، وأصله من كترت التمر في الوعاء، و زمن الكناز وقت ما يكثر فيه التمر، و ناقة كناز مكتنزه اللحم، و قوله: «وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ» أى يدخرونها، انتهى.

ففى مفهوم الكنز حفظ المال المكنوز و ادخاره و منعه من أن يجرى بين الناس فى وجوه المعاملات فىنمو نماء حسنا، و يعم الانتفاع به فى المجتمع فىنتفع به هذا بالأخذ و ذاك بالرد، و ذلك بالعمل عليه و قد كان دأبهم قبل ظهور البنوك و المخازن العامه أن يدفنوا الكنوز فى الأرض سترأ عليها من أن تقصد بسوء.

و الآيه و إن اتصلت فى النظم اللفظى بما قبلها من الآيات الدامه لأهل الكتاب و الموبخه لأخبارهم و رهبانهم فى أكلهم أموال الناس بالباطل و الصد عن سبيل الله إلا أنه لا دليل من جهه اللفظ على نزولها فىهم و اختصاصها بهم البته.

فلا سبيل إلى القول بأن الآيه إنما نزلت فى أهل الكتاب و حرمت الكنز عليهم، و أما المسلمون فهم و ما يقتنون من ذهب و فضه يصنعون بأموالهم ما يشاءون من غير بأس عليهم.

و الآيه توعد الكائزين إيعادا شديدا، و بهدهم بعذاب شديد غير أنها تفسر الكنز المدلول عليه بقوله: «الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَ الفِضَّةَ» بقوله: «وَ لا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» فتدل بذلك على أن الذى يبغضه الله من الكنز ما يلازم الكف عن إنفاقه فى سبيل الله إذا كان هناك سبيل.

و سبيل الله على ما يستفاد من كلامه تعالى هو ما توقف عليه قيام دين الله على ساقه و أن يسلم من انهدام بنيانه كالجهاد و جميع مصالح الدين الواجب حفظها، و شئون مجتمع المسلمين التى يفسخ عقد المجتمع لو انفسخت، و الحقوق المالىه الواجبه التى أقام الدين بها صلب المجتمع الدينى، فمن كنز ذهباً أو فضه و الحاجه قائمه و الضروره عاكفه فقد كنز الذهب و الفضة و لم ينفقها فى سبيل الله فليبشر بعذاب أليم فإنه آثر نفسه على ربه و قدم حاجه نفسه أو ولده الاحتماليه على حاجه المجتمع الدينى القطعيه.

و يستفاد هذا مما فى الآيه التاليه من قوله: «هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ» فإنه يدل

على أن توجه العتاب عليهم لكونهم خصوه بأنفسهم و آثروها فيما خافوا حاجتها إليه على سبيل الله الذى به حياه المجتمع الإنسانى فى الدنيا و الآخرة، و قد خانوا الله و رسوله فى ذلك من جهه أخرى و هى الستر و التغييب إذ لو كان ظاهرا جاريا على الأيدى كان من الممكن أن يأمره ولى الأمر بإنفاقه فى حاجه دينيه قائمه لكن إذا كثر كثر و أخفى عن الأنظار لم يلتفت إليه، و بقيت الحاجه الضروريه قائمه فى جانب و المال المكنوز الذى هو الوسيله الوحيده لرفع الحاجه فى جانب مع عدم حاجه من كثره إليه.

فآليه إنما تنهى عن الكثر لهذه الخصيصه التى هى إيثار الكانز نفسه بالمال من غير حاجه إليه على سبيل الله مع قيام الحاجه إليه، و ناهيك أن الإسلام لا يحد أصل الملك من جهه الكميّه بحد فلو كان لهذا الكانز أضعاف ما كثره من الذهب و الفضة و لم يدخرها كثر بل وضعها فى معرض الجريان يستفيد به لنفسه ألوفاً و ألوفاً، و يفيد غيره ببيع أو شراء أو عمل و غير ذلك لم يتوجه إليه نهى دينى لأنه حيث نصبها على أعين الناس و أجراها فى مجرى النماء الصالح النافع لم يخفها و لم يمنعها من أن يصرف فى سبيل الله فهو و إن لم ينفقها فى سبيل الله إلا- أنه بحيث لو أراد ولى أمر المسلمين لأمره بالإنفاق فيما يرى لزوم الإنفاق فيه فليس هو إذا لم ينفق و هو بمرأى و مسمع من ولى الأمر بخائن ظلوم.

فآليه ناظره إلى الكثر الذى يصاحبه الامتناع عن الإنفاق فى الحقوق المالىه الواجبه لا بمعنى الزكاه الواجبه فقط بل بمعنى يعمها و غيرها من كل ما يقوم عليه ضروره المجتمع الدينى من الجهاد و حفظ النفوس من الهلكه و نحو ذلك.

و أما الإنفاق المستحب كالتوسعه على العيال، و إعطاء المال و بذله على الفقراء فى الزائد على ضروره حياتهم فهو و إن أمكن أن يطلق عليه فيما عندنا الإنفاق فى سبيل الله إلا أن نفس أدلته المبينه لاستحبابه تكشف عن أنه ليس من هذا الإنفاق فى سبيل الله المذكور فى هذه الآيه فكثر المال و عدم إنفاقه إنفاقاً مندوباً مع عدم سبيل ضرورى ينفق فيه ليس من الكثر المنهى عنه فى هذه الآيه فهذا ما تدل عليه الآيه الكريمه، و قد طال فيها- لما يتعلق بها من بعض الأبحاث الكلاميه- المشاجره بين المفسرين، و سنورد فيه كلاماً بعد الفراغ عن البحث الروائى المتعلق بالآيات إن شاء الله تعالى.

و قوله فى ذيل الآيه: «فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» إيعاد بالعذاب يدل على تحريمه الشديد.

قوله تعالى: «يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ» إلى آخر الآيه. إحماء الشيء جعله حاراً في الإحساس، والإحماء عليه الإيقاد ليتسخن و الإحماء فوق التسخين، والكي إصاق الشيء الحار بالبدن.

و المعنى: أن ذلك العذاب المبشر به في يوم يوقد على تلك الكنوز في نار جهنم فتكون محماه بالنار فتلتصق بجباههم و جنوبهم و ظهورهم و يقال لهم عند ذلك: «هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكذبون» فقد عاد عذاباً عليكم تعذبون به.

و لعل تخصيص الجباه و الجنوب و الظهر لأنهم خضعوا لها و هو السجده التي تكون بالجباه و لاذوا إليها و اللواذ بالجنوب، و اتكئوا عليها و الاتكاء بالظهور، و قيل غير ذلك و الله أعلم.

(بحث روائى)

فى الكافى، بإسناده عن حفص بن غياث عن أبى عبد الله (ع): فى حديث الأسياف الذى ذكره عن أبيه -قال: و أما السيوف الثلاثة المشهوره فسيف على مشركى العرب، قال الله عز و جل: «فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ».

قال: و السيف الثانى على أهل الذمه -قال الله عز و جل: «وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا» نزلت هذه الآيه فى أهل الذمه -ثم نسخها قوله عز و جل: «قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ - وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ - وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ - حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ» فمن كان منهم فى دار الإسلام فلن يقبل منه إلا الجزية أو القتل - و مالهم فىء و ذراريتهم سبى، و إذا قبلوا الجزية على أنفسهم حرم علينا سبيهم، و حرمت أموالهم، و حلت لنا مناكحتهم، و من كان منهم فى دار الحرب حل لنا سبيهم - و أموالهم و لم يحل مناكحتهم، و لم يقبل إلا الدخول فى دار الإسلام أو الجزية أو القتل.

و فيه، بإسناده عن طلحه بن زيد عن أبى عبد الله (ع) قال: جرت السنه أن لا تؤخذ الجزية من المعتوه - و لا من المغلوب على عقله.

و فيه، بإسناده عن أبى يحيى الواسطى عن بعض أصحابنا قال: سئل أبو عبد الله

(ع) عن المجوس أ كان لهم شىء؟ فقال: نعم-أ ما بلغك كتاب رسول الله ص إلى أهل مكة: أن أسلموا و إلا نابذتكم بحرب فكتبوا إلى رسول الله ص: أن خذ منا الجزية و دعنا على عباده الأوثان. فكتب إليهم النبي ص: إنى لست آخذ الجزية إلا من أهل الكتاب.-

فكتبوا إليه- يريدون بذلك تكذيبه-: زعمت أنك لا تأخذ الجزية إلا من أهل الكتاب- ثم أخذت الجزية من مجوس هجر. فكتب إليهم النبي ص- أن المجوس كان لهم نبي فقتلوه و كتاب أحرقوه. أتاهم نبيهم بكتابهم فى اثنى عشر ألف جلد ثور.

أقول: و فى هذه المعانى روايات أخرى مودعه فى جوامع الحديث و استيفاء الكلام فى مسائل الجزية و الخراج و غيرهما فى الفقه.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن عساكر عن أبى أمامه عن رسول الله ص قال:

القتال قتالان: قتال المشركين- حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية عن يد و هم صاغرون، و قتال الفئة الباغية حتى تفىء إلى أمر الله- فإذا فاءت أعطيت العدل.

و فيه، أخرج ابن أبي شيبة و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و البيهقى فى سننه عن مجاهد": فى قوله: «قاتلوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ» الآية- قال:

نزلت هذه حين أمر محمد ص و أصحابه بغزوه تبوك.

أقول: و قد تقدمت الروايات فى ذيل آيه المباهله أن النبي ص أقر الجزية على نصارى نجران، و كان ذلك على ما دل عليه أمثل الروايات سنه ست من الهجره قبل غزوه تبوك بسنين، و كذا دعوته (ص) ملوك الروم و مصر و العجم و هم من أهل الكتاب كانت سنه ست.

و فيه، أخرج ابن أبى شيبة عن الزهرى قال": أخذ رسول الله ص الجزية من مجوس أهل هجر- و من يهود اليمن و نصاراهم من كل حالم دينار.

و فيه، أخرج مالك و الشافعى و أبو عبيد فى كتاب الأموال و ابن أبى شيبة عن جعفر عن أبيه أن عمر بن الخطاب استشار الناس فى المجوس فى الجزية فقال عبد الرحمن بن عوف سمعت رسول الله ص يقول: سنوا بهم سنه أهل الكتاب.

و فيه، أخرج عبد الرزاق فى المصنف عن على بن أبى طالب: أنه سئل عن أخذ

الجزية من المجوس فقال: والله ما على الأرض اليوم أحد أعلم بذلك مني - إن المجوس كانوا أهل كتاب يعرفونه، و علم يدرسونه فشرّب أميرهم الخمر فسكر - فوقع على أخته فرآه نفر من المسلمين - فلما أصبح قالت أخته: إنك قد صنعت بها كذا و كذا، وقد رآك نفر لا يسترون عليك فدعا أهل الطمع - ثم قال لهم قد علمتم أن آدم (ع) قد أنكح بنيه بناته.

فجاء أولئك الذين رأوه فقالوا: ويل للأبعد إن في ظهر ك حد الله - فقتلهم أولئك الذين كانوا عنده - ثم جاءت امرأه فقالت له: بلى - قد رأيتك فقال لها: ويحا لبغى بنى فلان - قالت: أجل و الله قد كانت بغيه ثم تابت فقتلها، ثم أسرى على ما في قلوبهم و على كتبهم فلم يصبح عندهم شيء.

و في تفسير العياشي،: في قوله تعالى: «وَ قَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ» الآية: عن عطيه العوفى عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ص: اشتد غضب الله على اليهود حين قالوا: عزير ابن الله، و اشتد غضب الله على النصارى حين قالوا:

المسيح ابن الله، و اشتد غضب الله على من أراق دمي و آذاني في عترتي.

و في الدر المنثور، أخرج البخارى في تاريخه عن أبى سعيد الخدرى قال: لما كان يوم أحد شج رسول الله ص في وجهه و كسرت رباعيته - فقام رسول الله ص يومئذ رافعا يديه يقول: إن الله عز و جل اشتد غضبه على اليهود - أن قالوا: عزير ابن الله - و اشتد غضبه على النصارى أن قالوا المسيح ابن الله - و إن الله اشتد غضبه على من أراق دمي و آذاني في عترتي.

أقول: و قد روى في الدر المنثور، و غيره عن ابن عباس و كعب الأحبار و السدى و غيرهم روايات في قصة عزير هي أشبه بالإسرائيليات، و الظاهر أن الجميع تنتهي إلى كعب.

و في الإحتجاج، للطبرسى عن على (ع) قال: « قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ » أى لعنهم الله - أنى يؤفكون فسمى اللعنة قتالا، و كذلك: « قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ » أى لعن الإنسان:

أقول: و روى ذلك من طرق أهل السنه عن ابن عباس

و هو على أى حال تفسير يلزم المعنى لا بالمراد اللفظى.

و فى الكافى، بإسناده عن أبى بصير، عن أبى عبد الله (ع) قال: قلت له:

« اتَّخَذُوا أَحِبَّاءَهُمْ وَ رُحَبَاءَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ » فقال: أما و الله ما دعوهم إلى عباده أنفسهم، و لو دعوهم إلى عباده أنفسهم ما أجابوهم، و لكن أحلوا لهم حراما -

و حرموا عليهم حلالا فعبدوهم من حيث لا يشعرون.

أقول: و روى هذا المعنى البرقى فى المحاسن، و رواه العياشى فى تفسيره عن أبى بصير و عن جابر جميعا عن أبى عبد الله (ع) و عن حذيفه، و رواه فى الدر المنثور، عن عده من أصحاب الطرق عن حذيفه.

و فى تفسير القمى، قال: و فى روايه أبى الجارود عن أبى جعفر (ع): فى قوله:

«إِتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَ رُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ» قال: أما المسيح فبعض عظموه فى أنفسهم - حتى زعموا أنه إله و أنه ابن الله، و طائفه منهم قالوا: ثالث ثلاثة، و طائفه منهم قالوا: هو الله -.

و أما قوله: «أَحْبَابَهُمْ وَ رُهْبَانَهُمْ» فإنهم أطاعوا و أخذوا بقولهم، و اتبعوا ما أمروهم به، و دانوا بما دعوهم إليه فاتخذوهم أربابا بطاعتهم لهم - و تركهم أمر الله و كتبه و رسله فنبذوه وراء ظهورهم، و ما أمرهم به الأحبار و الرهبان اتبعوهم - و أطاعوهم و عصوا الله. الحديث.

و فى تفسير البرهان، عن المجمع قال: و روى الثعلبى بإسناده عن عدى بن حاتم قال:

أتيت رسول الله ص و فى عنقى صليب من ذهب - فقال لى: يا عدى اطرح هذا الربى.

و فى تفسير البرهان، عن الصدوق بإسناده عن أبى بصير قال: قال أبو عبد الله (ع): فى قوله عز و جل: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينِ الْحَقِّ» الآية - و الله ما نزل تأويلها بعد و لا ينزل تأويلها حتى يخرج القائم - فإذا خرج القائم لم يبق كافر بالله و لا مشرك بالإمام - إلا كره خروجه حتى لو كان الكافر فى بطن صخره قالت:

يا مؤمن فى بطنى كافر فاكسرنى و اقتله.

أقول: و روى ما فى معناه العياشى عن أبى المقدم عن أبى جعفر (ع) و عن سماعه عن أبى عبد الله (ع)، و كذا الطبرسى مثله عن أبى جعفر (ع)، و فى تفسير القمى، أنها نزلت فى القائم من آل محمد ((ع))، و معنى نزولها فيه كونه تأويلها كما يدل عليه روايه الصدوق.

و فى الدر المنثور، أخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر و البيهقى فى سننه عن جابر: " فى قوله: «لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ» قال: لا يكون ذلك حتى لا يبقى يهودى و لا نصرانى صاحب مله - إلا الإسلام حتى تأمن الشاه الذئب، و البقره الأسد، و الإنسان الحيه، و حتى لا تقرض فأره جرابا، و حتى يوضع الجزيه و يكسر الصليب - و يقتل

الخنزير، و ذلك إذا نزل عيسى بن مريم (ع).

أقول: والمراد بوضع الجزية أن تصير متروكه لا حاجة إليها لعدم الموضوع بقريته صدر الحديث، وما دلت عليه هذه الروايات من عدم بقاء كفر ولا شرك يومئذ يؤيدها روايات أخرى، وهناك روايات أخرى تدل على وضع المهدي (ع) الجزية على أهل الكتاب بعد ظهوره.

وربما أيده قوله تعالى في أهل الكتاب: «وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» المائدة: ٦٤، «فَأَعْرَضْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» المائدة: ١٤، وما في معناه من الآيات فإنها لا تخلو من ظهور ما في بقائهم إلى يوم القيامة إن لم تكن كناية عن ارتفاع المودة بينهم ارتفاعاً أبدياً، وقد تقدم في ذيل الآيات بعض الكلام في هذا المعنى.

وفي الدر المنثور، أيضاً أخرج ابن الضريس عن علباء بن أحمر: "أن عثمان بن عفان لما أراد أن يكتب المصاحف - أرادوا أن يلقوا الواو التي في براءه: «وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ» قال أبي: لتلحقنها أو لأضعن سيفي على عاتقي فألحقوها.

وفي أمالي الشيخ، قال: أخبرنا جماعه عن أبي المفضل و ساق إسناده قال: قال رسول الله ص: لما نزلت هذه الآية: «وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ - وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» كل ما يؤدي زكاته فليس بكنز - وإن كان تحت سبع أرضين، وكل مال لا يؤدي زكاته فهو كنز وإن كان فوق الأرض.

أقول: و روى ما في معناه في الدر المنثور، عن ابن عدى و الخطيب عن جابر عن النبي ص و كذا بطرق أخرى عن ابن عباس و غيره.

وفيه، أيضاً بإسناده عن أبي عبد الله (ع) عن أبيه أبي جعفر (ع): أنه سئل عن الدنانير و الدراهم و ما على الناس. فقال أبو جعفر (ع): هي خواتيم الله في أرضه - جعلها الله مصلحه لخلقه، و بها يستقيم شئونهم و مطالبهم - فمن أكثر له منها فقال بحق الله تعالى فيها - أدى زكاتها فذاك الذي طلبه، و خلص له، و من أكثر له منها فبخل بها و لم يؤد حق الله فيها - و اتخذ منها الأبنية فذاك الذي حق عليه و عيد الله عز و جل - في كتابه يقول الله تعالى: «يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ

وَ جُنُوبُهُمْ وَ ظُهُورُهُمْ - هَذَا مَا كُنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ

«.

أقول: و الروايه تؤيد ما استفدناه سابقا من الآيه.

و فى تفسير القمى، قال: " كان أبو ذر الغفارى يغدو كل يوم - و هو فى الشام فينادى بأعلى صوته: بشر أهل الكنوز بكى فى الجباه، و كى فى الجنوب - و كى فى الظهر حتى يتردد الحر فى أجوافهم.

أقول: و قد استفاد الطبرسى فى المجمع، من الروايه الوجه فى تخصيص الجباه و الجنوب و الظهر من بين أعضاء الإنسان بالذكر فى الآيه، و أن الغرض من تعذيبهم بهذا الوجه إيراد حر النار فى أجوافهم و هى داخل الرءوس فتكوى جباههم و داخل الصدور و البطن فتكوى جنوبهم و ظهورهم.

و يمكن تميم ما ذكره بأنهم يكبون على وجوههم و رءوسهم منكوسه على ما يشعر به الأخبار و بعض الآيات ثم تكوى أعضاؤهم من فوق فينتج ذلك كى الجباه و الجنوب و الظهر.

و فى الدر المنثور، أخرج عبد الرزاق فى المصنف عن أبي ذر قال: " بشر أصحاب الكنوز بكى فى الجباه و فى الجنوب و فى الظهر.

و فيه، أخرج ابن سعد و ابن أبى شيبه و البخارى و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن زيد بن وهب قال: " مررت على أبي ذر بالربذه فقلت: ما أنزلك بهذه الأرض؟ قال: كنا بالشام فقرأت: « وَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَ الفِضَّةَ - وَ لَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » فقال معاويه: ما هذه فىنا هذه فى أهل الكتاب. قلت أنا: إنها لفينا و فيهم.

و فيه، أخرج مسلم و ابن مردويه عن الأحنف بن قيس قال: " جاء أبو ذر فقال:

بشر الكانزين بكى من قبل ظهورهم يخرج من جنوبهم، و كى من جباههم يخرج من أففائهم، فقلت: ما ذا؟ قال: ما قلت إلا - ما سمعت من نبيهم (ص).

و فيه، أخرج أحمد فى الزهد عن أبى بكر المنكدر قال: " بعث حبيب بن سلمه إلى أبى ذر - و هو أمير الشام بثلاثمائة دينار، و قال: استعن بها على حاجتك؛ فقال

أبو ذر: أرجع بها إليه-أ ما وجد أحدا أغر بالله منا ما لنا إلا الظل نتواري به، و ثلاثة من غنم تروح علينا،-و مولاه لنا تصدق علينا بخدمتها-ثم إنى لأنا أتخوف الفضل.

و فيه، أخرج البخارى و مسلم عن الأحنف بن قيس قال: جلست إلى ملاء من قريش-فجاء رجل خشن الشعر و الثياب و الهيئه حتى قام عليهم فسلم-ثم قال: بشر الكانزين برضف يحمى عليه فى نار جهنم-ثم يوضع على حلمه ثدى أحدهم حتى يخرج من نغض كتفه،-و يوضع على نغض كتفه حتى يخرج من حلمه ثديه فيتدللدل-.

ثم ولى و جلس إلى ساريه فتبعته-و جلست إليه و أنا لا أدرى من هو؟فقلت:

لا أرى القوم إلا قد كرهوا ما قلت،قال:إنهم لا يعقلون شيئا قال لى خليلى.

قلت:من خليلك؟قال:النبي ص،أ تبصر أحدا؟قلت:نعم.قال:ما أحب أن يكون لى مثل أحد ذهباً أنفقه كله-إلا ثلاثة دنانير و إن هؤلاء لا يعقلون-إنما يجمعون للدنيا و الله لا أسألهم دنيا،و لا أستفتيهم عن دين حتى ألقى الله عز و جل.

و فى تاريخ الطبرى،عن شعيب عن سيف عن محمد بن عوف عن عكرمه عن ابن عباس": أن أبا ذر دخل على عثمان و عنده كعب الأبحار-فقال لعثمان:لا ترضوا من الناس بكف الأذى حتى يبذلوا المعروف،و قد ينبغى لمؤدى الزكاه أن لا يقتصر عليها-حتى يحسن إلى الجيران و الإخوان و يصل القرابات-.

فقال:كعب من أدى الفريضة فقد قضى ما عليه،فرفع أبو ذر محجنه فضربه فشجه فاستوهبه عثمان فوهبه له-و قال:يا أبا ذر اتق الله و اكفف يدك و لسانك، و قد كان قال له:يا ابن اليهوديه ما أنت و ما هاهنا.

أقول:و قصص أبى ذر و اختلافه مع عثمان و معاويه معروفه مضبوطه فى كتب التاريخ و التدبر فيما مر من أحاديثه و ما قاله لمعاويه إن الآيه لا تختص بأهل الكتاب و ما خاطب به عثمان و واجه به كعبا يدل على أنه إنما فهم من الآيه ما قدمناه أنها توعده على الكف عن الإنفاق فى السبيل الواجب.

و يؤيده تحليل الحال الحاضر يومئذ فقد كان الناس يومئذ انقسموا قسمين و تبعضوا شطرين عامه لا يقدرين على قوت اليوم،و لا يجدون ما يستر عوراتهم و ما لهم إلى أوجب حوائجهم سبيل،و خاصه أسكرتهم الدنيا بجماع ما فيها من مال و منال

يكتزون مئآت الألوف و ألوف الألوف من عطايا الخلافة و غنائم الحروب و مال الخراج.

و يكفيك فى التبصر فىه أن تراجع ما ضبطته التوارىخ من أموال الصحابه من نقد و رقيق و ضيعه و شامخات القصور و ناجمات الدور، و ما أحدثه معاويه و سائر بنى أميه بالشام و غيره من أزياء قيصرانيه و كسروانيه.

و الإسلام لا يرتضى شيئاً من ذلك و لا ينفذ هذا الاختلاف الفاحش دون أن تتقارب الطبقات بالإنفاق، و تصلح عامه الأوضاع بانعطاف الأغنياء على الفقراء، و الأقوياء على الضعفاء.

و ربما قيل: إن أبا ذر كان يرى باجتهاد منه أن الزائد على القدر الواجب من المال الذى ينفق لسد الجوع و ستر العوره كتر يجب إنفاقه فى سبيل الله أو أنه كان يدعو إلى الزهد فى الدنيا.

لكن الذى يوجد من بعض كلامه فى الروايات يكذبه فإنه لا يستند فى شىء مما قاله إلى اجتهاده و رأى نفسه بل بقوله: ما قلت لهم إلا ما سمعت من نبيهم، و قال خليلي كذا و كذا،

و قد صحت الروايه و استفاضت من طرق الفريقين عن النبي ص أنه قال: «ما أظلت الخضراء-و لا أقلت الغبراء ذا لهجه أصدق من أبى ذر».

و بذلك يظهر فساد ما ذكره شداد بن أوس

فيما روى عنه أحمد و الطبراني قال:

«كان أبو ذر يسمع عن رسول الله ص-ثم يخرج إلى باديته ثم يرخص فيه رسول الله ص بعد ذلك-فيحفظ من رسول الله ص الرخصه فلا يسمعها أبو ذر-فيأخذ أبو ذر بالأمر الأول الذى سمع قبل ذلك.

و ذلك أن الذى ذكر من أبى ذر أنما هو قوله: إن آيه الكتر لا تختص بأهل الكتاب بل يعمهم و المسلمين، و ليس هذا مصداقاً لما ذكره فى الروايه من العزيمه و الرخصه، و كذا قوله: إن تأديه الزكاه فحسب لا يكفى فى جواز الكتر و عدم إنفاقه فى الواجب من سبيل الله، و كيف يتصور فى حقه أن لا يكون يسمع أن الإنفاق منه مستحب كما أن منه واجبا و أن لا يعلم أن أدله الإنفاق المندوب أحسن مابين لآيه الكتر.

و أوهم من ذلك ما تعلق به الطبرى فى تاريخه

فقد روى عن شعيب عن سيف عن عطيه عن يزيد الفقعسى قال: لما ورد ابن السوداء الشام لقى أبا ذر فقال: يا

أبا ذر أ لا- تعجب إلى معاويه يقول: المال مال الله أ لا- إن كل شىء لله: كأنه يريد أن يحتجبه دون المسلمين، و يمحو اسم المسلمين-.

فأتاه أبو ذر فقال: ما يدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله؟ قال:

يرحمك الله يا أبا ذر- أ لسنا عباد الله و المال ماله و الخلق خلقه و الأمر أمره؟ قال:

فلا تقله، قال: فإنى لا أقول: إنه ليس لله، و لكن سأقول: مال المسلمين-.

قال: و أتى ابن السوداء أبا الدرداء فقال له: من أنت؟ أظنك و الله يهوديا؟ فأتى عباده بن الصامت فتعلق به فأتى به معاويه- فقال: هذا و الله الذى بعث عليك أبا ذر-.

و قام أبو ذر بالشام و جعل يقول: يا معشر الأغنياء و أسوأ الفقراء- بشر الذين يكتزون الذهب و الفضة- و لا ينفقونها فى سبيل الله بمكان من نار- تكوى بها جباههم و جنوبهم و ظهورهم. الحديث.

و محصله أن أبا ذر إنما بادر إلى ما بادر و ألح عليه بتسويل من ابن السوداء و هذان اللذان روى عنهما الحديث و عنهما يروى جل قصص عثمان أعنى شعيبا و سيفا هما من الكذابين الوضاعين المشهورين ذكرهما علماء الرجال و قدحوا فيهما.

و الذى اختلقاه من حديث ابن السوداء و هو الذى سموه عبد الله بن سيبا، و إليهما ينتهى حديثه، من الأحاديث الموضوعه، و قد قطع المحققون من أصحاب البحث أخيرا أن ابن السوداء هذا من الموضوعات الخرافيه التى لا أصل لها.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن مردويه عن جابر قال: قال رسول الله ص: ما من ذى كنز لا يؤدى حقه- إلا جىء به يوم القيامة تكوى به جبينه و جبهته، و قيل له: هذا كنزك الذى بخلت به.

و فيه، أخرج الطبرانى فى الأوسط و أبو بكر الشافعى فى الغيلانيات عن على قال: قال رسول الله ص: إن الله فرض على أغنياء المسلمين فى أموالهم- القدر الذى يسع فقراءهم، و لن يجهد الفقراء إذا جاعوا أو عروا إلا- بما يمنع أغنيائهم. أ لا- و إن الله يحاسبهم حسابا شديدا- أو يعذبهم عذابا أليما.

و فيه، أخرج الحاكم و صححه و ضعفه الذهبى عن أبى سعيد الخدرى عن بلال

قال:قال رسول الله ص: يا بلال الق الله فقيرا و لا- تلقه غنيا.قلت:و كيف لى بذلك؟قال:إذا رزقت فلا- تخبأ،و إذا سئلت فلا تمنع،قلت:و كيف لى بذلك؟قال:هو ذاك و إلا فالنار.

(كلام فى معنى الكنز)

لا- ريب أن المجتمع الذى أوجده الإنسان بحسب طبعه الأولى إنما يقوم بمبادله المال و العمل،و لو لا ذلك لم يعيش المجتمع الإنسانى و لا- طرفه عين فإنما يتزود الإنسان من مجتمعه بأن يحرز أمورا من أوليات المادة الأرضيه و يعمل عليها ما يسعه من العمل ثم يقتنى من ذلك لنفسه ما يحتاج إليه،و يعوض ما يزيد على حاجته من سائر ما يحتاج إليه مما عند غيره من أفراد المجتمع كالخباز يأخذ لنفسه من الخبز ما يقتات به و يعوض الزائد عليه من الثوب الذى نسجه النساج و هكذا فإنما أعمال المجتمعين فى ظرف اجتماعهم بيع و شرى و مبادله و معاوضه.

و الذى يتحصل من الأبحاث الاقتصادية أن الإنسان الأولى كان يعوض فى معاملاته العين بالعين من غير أن يكونوا متنبهين لأزيد من ذلك غير أن النسب بين الأعيان كانت تختلف عندهم باشتداد الحاجه و عدمه،و بوفور الأعيان المحتاج إليها و اعوازاها فكلما كانت العين أمس بحاجه الإنسان أو قل وجودها توفرت الرغبات إلى تحصيلها، و ارتفعت نسبتها إلى غيرها،و كلما بعدت عن ميسر الحاجه أو ابتذلت بالكثرة و الوفور انصرفت النفوس عنها و انخفضت نسبتها إلى غيرها و هذا هو أصل القيمه.

ثم إنهم عمدوا إلى بعض الأعيان العزيزه الوجود عندهم فجعلوها أصلا فى القيمه تقاس إليه سائر الأعيان المالىه بمالها من مختلف النسب كالحنطه و البيضه و الملح فصارت مدارا تدور عليها المبادلات السوقيه،و هذه السليقه دائره بينهم فى بعض المجتمعات الصغيره فى القرى و بين القبائل البدويه حتى اليوم.

و لم يزالوا على ذلك حتى ظفروا ببعض الفلزات كالذهب و الفضة و النحاس و نحوها فجعلوها أصلا إليه يعود نسب سائر الأعيان من جهه قيمها،و مقياسا واحدا يقاس إليها غيرها فهى النقود القائمه بنفسها و غيرها يقوم بها.

ثم آل الأمر إلى أن يحوز الذهب المقام أول و الفضة تتلوه، و يتلوها غيرهما، و سكت الجميع بالسكك الملوكيه أو الدوليه فصارت ديناراً و درهما و فلساً و غير ذلك بما يطول شرحه على خروجه من غرض البحث.

فلم يلبث النقدان حتى عادا أصلا في القيمه بهما يقوم كل شىء، و إليهما يقاس ما عند الإنسان من مال أو عمل، و فيهما يرتكز ارتفاع كل حاجه حيويه، و هما ملاك الثروه و الوجد كالمتعلق بهما روح المجتمع في حياته يختل أمره باختلال أمرهما، إذا جريا في سوق المعاملات جرت المعاملات بجريانهما، و إذا وقفا وقفت.

و قد أوضحت ما عليهما من الوظيفه المحوله إليهما في المجتمعات الإنسانيه من حفظ قيم الأمتعه و الأعمال، و تشخيص نسب بعضها إلى بعض، الأوراق الرسميه الدائره اليوم فيما بين الناس كالبنود و الدولار و غيرهما و الصكوك البنجيه المنتشره فإنها تمثل قيم الأشياء من غير أن تتضمن عينيه لها قيمه في نفسها فهي قيم خالصه مجردة تقريبا.

فالتأمل في مكانه الذهب و الفضة الاجتماعيه بما هما نقدان حافظان للقيم و مقياسان يقاس إليهما الأمتعه و الأموال بما لها من النسب الدائره بينها تنور أنهما ممثلان لنسب الأشياء بعضها إلى بعض، و إذ كانت بحسب الاعتبار ممثلات للنسب-و إن شئت فقل:

نفس النسب-تبطل النسب ببطان اعتبارها، و تحبس بحبسها و منع جريانها و تقف بوقوفها.

و قد شاهدنا في الحربين العالميين الأخيرين ما ذا أوجده بطلان اعتبار نقود بعض الدول؟ كالمئات في الدوله التزاريه و المارك في الجرمن من البلوى و سقوط الثروه و اختلال أمر الناس في حياتهم، و الحال في كترهما و منع جريانهما بين الناس هذا الحال.

و إلى ذلك يشير قول أبى جعفر(ع) في روايه الأمالي المتقدمه: «جعلها الله مصلحه لخلقه و بها يستقيم شئونهم و مطالبهم».

و من هنا يظهر أن كترهما إبطال لقيم الأشياء و إماته لما في وسع المكنوز منهما من إحياء المعاملات الدائره و قيام السوق في المجتمع على ساقه، و ببطالين المعاملات و تعطل الأسواق تبطل حياه المجتمع، و بنسبه ما لها من الركود و الوقوف تقف و تضعف.

لست أريد خزنهما في مخازن تختص بهما فإن حفظ نفائس الأموال و كرائم الأمتعه

من الضيعه من الواجبات التي تهدي إليه الغريزه الإنسانية و يستحسنه العقل السليم فكلما جرت وجوه النقد في سبيل المعاملات كيفما كان فهو و إذا رجعت فمن الواجب أن تختزن و تحفظ من الضيعه و ما يهددها من أيادي الغصب و السرقة و الغيله و الخيانه.

و إنما أعنى به كنزهما و جعلهما في معزل عن الجريان في المعاملات السوقيه و الدوران لإصلاح أى شأن من شئون الحياه و رفع الحوائج العاكفه على المجتمع كإشباع جائع و إرواء عطشان و كسوه عريان و ربح كاسب و انتفاع عامل و نماء مال و علاج مريض و فك أسير و إنجاء غريم و الكشف عن مكروب و التفريغ عن مهموم و إجابته مضطر و الدفع عن بيضه المجتمع الصالح و إصلاح ما فسد من الجو الاجتماعى.

و هى موارد لا تحصى واجبه أو مندوبه أو مباحه لا يتعدى فيها حد الاعتدال إلى جانبى الإفراط و التفريط و البخل و التبذير، و المندوب من الإنفاق و إن لم يكن فى تركه مآثم و لا إجرام شرعا و لا عقلا غير أن التسبب إلى إبطال المندوبات من رأس و الاحتيال لرفع موضوعها من أشد الجرم و المعصيه.

اعتبر ذلك فيما بين يديك من الحياه اليوميه بما يتعلق به من شئون المسكن و المنكح و المأكل و المشرب و الملبس تجد أن ترك النفل المستحب من شئون الحياه و المعاش و الاقتصار دقيقا على الضرورى منها-الذى هو بمنزله الواجب الشرعى-يوجب اختلال أمر الحياه اختلالا لا يجبره جابر و لا يسد طريق الفساد فيه ساد.

و بهذا البيان يظهر أن قوله تعالى: «**وَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَ الفِضَّةَ وَ لَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**» ليس من البعيد أن يكون مطلقا يشمل الإنفاق المندوب بالعنايه التى مرت فإن فى كنز الأموال رفعا لموضوع الإنفاق المندوب كالإنفاق الواجب لا مجرد عدم الإنفاق مع صلاحيه الموضوع لذلك.

و بذلك يتبين أيضا معنى ما خاطب به أبو ذر عثمان بن عفان لما دخل عليه على ما تقدم فى روايه الطبرى حيث قال له: «لا ترضوا من الناس بكف الأذى حتى يبذلوا المعروف، و قد ينبغى لمؤدى الزكاه أن لا- يقتصر عليها حتى يحسن إلى الجيران و الإخوان و يصل القربات».

فإن لفظه كالصريح أو هو صريح فى أنه لا يرى كل إنفاق فيما يفضل من المئونه

بعد الزكاه واجبا، وأنه يقسم الإنفاق في سبيل الله إلى ما يجب و ما ينبغي غير أنه يعترض بانقطاع سبيل الإنفاق من غير جهة الزكاه و انسداد باب الخيرات بالكليه و في ذلك إبطال غرض التشريع و إفساد المصلحه العامه المشرعه.

يقول: ليست هي حكومه استبداديه قيصرانيه أو كسروانيه، لا وظيفه لها إلا بسط الأمن و كف الأذى بالمنع عن إيذاء بعض الناس بعضا ثم الناس أحرار فيما فعلوا غير ممنوعين عن ما اشتهاوا من عمل أفرطوا أو فرطوا، أصلحوا أو أفسدوا، اهتدوا أو ضلوا و تاهوا، و المتقلد لحكومتهم حر فيما عمل و لا يسأل عما يفعل.

و إنما هي حكومه اجتماعيه دينيه لا ترضى عن الناس بمجرد كف الأذى بل تسوق الناس في جميع شؤون معيشتهم إلى ما يصلح لهم و يهيئ لكل من طبقات المجتمع من أميرهم و مأمورهم و رئيسهم و مرءوسهم و مخدومهم و خادمهم و غنيهم و فقيرهم و قويهم و ضعيفهم ما يسع له من سعادته حياتهم فترفع حاجه الغنى بإمداد الفقير و حاجه الفقير بمال الغنى و تحفظ مكانه القوى باحترام الضعيف و حياه الضعيف برأفه القوى و مراقبته، و مصدرية العالى بطاعه الدانى و طاعه الدانى بنصفه العالى و عدله، و لا يتم هذا كله إلا بنشر المبررات و فتح باب الخيرات، و العمل بالواجبات على ما يليق بها و المندوبات على ما يليق بها و أما القصر على القدر الواجب، و ترك الإنفاق المندوب من رأس فإن فيه هدماً لأساس الحياه الدينيه، و إبطالا لغرض الشارع، و سيراً حثيثاً إلى نظام مختل و هرج و مرج و فساد عريق لا يصلحه شيء كل ذلك عن المسامحه في إحياء غرض الدين، و المداهنه مع الظالمين إلا تفعلوه تكن فتنه في الأرض و فساد كبير.

و كذلك قول أبى ذر لمعاويه فيما تقدم من روايه الطبرى: «ما يدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله؟ قال: يرحمك الله يا أبا ذر ألسنا عباد الله و المال ماله و الخلق خلقه و الأمر أمره قال: فلا تقله».

فإن الكلمه التى كان يقولها معاويه و عماله و من بعده من خلفاء بنى أميه و إن كانت كلمه حق و قد رويت عن النبى ص و يدل عليها كتاب الله لكنهم كانوا يستنتجون منه خلاف ما يريد الله سبحانه فإن المراد به أن المال لا يختص به أحد بعزه أو قوه أو سيطره و إنما هو لله ينفق في سبيله على حسب ما عينه من موارد

إنفاقه فإن كان مما اقتناه الفرد بكسب أو إرث أو نحوهما فله حكمه، وإن كان مما حصلت له الحكومه الإسلاميه من غنيمه أو جزيه أو خراج أو صدقات أو نحو ذلك فله أيضا موارد إنفاق معينه فى الدين، وليس فى شىء من ذلك لوالى الأمر أن يخص نفسه أو واحدا من أهل بيته بشىء يزيد على لازم مئونه فضلا أن يكثر الكنوز و يرفع به القصور و يتخذ الحجاب و يعيش عيشه قيصر و كسرى.

و أما هؤلاء فإنما كانوا يقولونه دفعا لاعتراض الناس عليهم فى صرف مال المسلمين فى سبيل شهواتهم و بذله فيما لا يرضى الله، و منعه أهليه و مستحقه أن المال للمسلمين تصرفونه فى غير سبيلهم! فيقولون: إن المال مال الله و نحن أمناءه نعمل فيه بما نراه فيستبيحون بذلك اللعب بمال الله كيف شاءوا و يستتجون به صحه عملهم فيه بما أرادوا و هو لا ينتج إلا خلافة، و مال الله و مال المسلمين بمعنى واحد، و قد أخذوهما لمعنيين اثنين يدفع أحدهما الآخر.

و لو كان مراد معاويه بقوله: «المال مال الله» هو الصحيح من معناه لم يكن معنى لخروج أبى ذر من عنده و ندائه فى الملا من الناس: بشر الكائزين بكى فى الجباه و كى فى الجنوب و كى فى الظهور.

على أن معاويه قد قال لأبى ذر إنه يرى أن آيه الكنز خاصه بأهل الكتاب و ربما كان من أسباب سوء ظنه بهم إصرارهم عند كتابه مصحف عثمان أن يحدفوا الواو من قوله: «و الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ» إلخ حتى هددهم أبى بالقتال إن لم يلحقوا الواو فألحقوها و قد مرت الروايه.

فالقصة فى حديث الطبرى عن سيف عن شعيب و إن سيقى بحيث تقضى على أبى ذر بأنه كان مخطئا فى ما اجتهد به كما اعترف به الطبرى فى أول كلامه غير أن أطراف القصة تقضى بإصابته.

و بالجمله فالآيه تدل على حرمه كنز الذهب و الفضه فيما كان هناك سبيل لله يجب إنفاقه فيه و ضروره داعيه إليه لمستحقى الزكاه مع الامتناع من تأديتها، و الدفاع الواجب مع عدم النفقه و انقطاع سبيل البر و الإحسان بين الناس.

و لا فرق فى تعلق وجوب الإنفاق بين المال الظاهر الجارى فى الأسواق و بين

الكنز المدفون في الأرض غير أن الكنز يختص بشيء زائد و هو خيانه ولى الأمر في ستر المال و غروره كما تقدم ذكره في البيان المتقدم.

[سوره التوبه (٩): الآيات ٣٦ الى ٣٧]

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) إِنَّمَا النِّسْيُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنٌ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)

(بيان)

في الآيتين بيان حرمة الأشهر الحرم ذى القعدة و ذى الحجة و المحرم و رجب الفرد و تثبيت حرمتها و إلغاء نسيء الجاهلية، و فيها الأمر بقتال المشركين كافة.

قوله تعالى: «إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ» الشهر كالسنه و الأسبوع مما يعرفه عامه الناس منذ أقدم أعصار الإنسانية، و كان لبعضها تأثيرا في تنبيههم لبعض فقد كان الإنسان يشاهد تحول السنين و مرورها بمضى الصيف و الشتاء و الربيع و الخريف و تكررها بالعود ثم العود ثم تنبهوا لانقسامها إلى أقسام هي أقصر منها مده حسب ما ساقهم إليه مشاهده اختلاف أشكال القمر من الهلال إلى الهلال، و ينطبق على ما يقرب من ثلاثين يوما و تنقسم بذلك السنه إلى اثني عشر شهرا.

و السنه التي ينالها الحس شمسيه تتألف من ثلاثمائة و خمسه و ستين يوما و بعض

يوم لا- تنطبق على اثني عشر شهرا قمريا هي ثلاثمائة و أربعة و خمسون يوما تقريبا إلا برعايه حساب الكبيسه غير أن ذلك هو الذى يناله الحس و ينتفع به عامه الناس من الحاضر و البادى و الصغير و الكبير و العالم و الجاهل.

ثم قسموا الشهر إلى الأسابيع و إن كان هو أيضا لا ينطبق عليها تمام الانطباق لكن الحس غلب هناك أيضا الحساب الدقيق، و هو الذى أثبت اعتبار الأسبوع و أبقاه على حاله من غير تغيير مع ما طرأ على حساب السنه من الدقه من جهه الإرصاء، و على حساب الشهور من التغيير فبدلت الشهور القمرية شمسيه تنطبق عليها السنه الشمسيه تمام الانطباق.

و هذا بالنسبه إلى النقاط الاستوائيه و ما يليها من النقاط المعتدله أو ما يتصل بها من الأرض إلى عرض سبع و ستين الشمالى و الجنوبى تقريبا، و فيها معظم المعموره و أما ما وراء ذلك إلى القطبين الشمالى و الجنوبى فيختل فيها حساب السنه و الشهر و الأسبوع، و السنه فى القطبين يوم و ليله، و قد اضطر ارتباط بعض أجزاء المجتمع الإنسانى ببعض سكان هذه النقاط- و هم شردمه قليلون- أن يراعوا فى حساب السنه و الشهر و الأسبوع و اليوم ما يعتبره عامه سكان المعموره فحساب الزمان الدائر بيننا إنما هو بالنسبه إلى جل سكان المعموره من الأرض.

على أن هذا إنما هو بالنسبه إلى أرضنا التى نحن عليها، و أما سائر الكواكب فالسنه- و هى زمان الحركه الانتقاليه من الكوكب حول الشمس دوره واحده كامله- فيها تختلف و تتخلف عن سنتنا نحن، و كذلك الشهر القمري فيما كان له قمر أو أقمار منها على ما فصلوه فى فن الهيئه.

فقوله تعالى: «إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا» إلخ ناظر إلى الشهور القمرية التى تتألف منها السنون و هى التى لها أصل ثابت فى الحس و هو التشكلات القمرية بالنسبه إلى أهل الأرض.

و الدليل على كون المراد بها الشهور القمرية-أولا-قوله بعد: «مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ» لقيام الضروره على أن الإسلام لم يحرم إلا أربعة من الشهور القمرية التى هى ذو القعدة و ذو الحجة و المحرم و رجب، و الأربعة من القمرية دون الشمسيه.

و ثانيا: قوله: «عِنْدَ اللَّهِ» وقوله: «فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» فإن هذه القيود تدل على أن هذه العده لا سبيل للتغير والاختلاف إليها لكونها عند الله كذلك ولا يتغير علمه، و كونها في كتاب الله كذلك يوم خلق السماوات والأرض فجعل الشمس تجرى لمستقر لها، والقمر قدره منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار و كل في فلك يسبحون فهو الحكم المكتوب في كتاب التكوين، ولا معقب لحكمه تعالى.

و من المعلوم أن الشهور الشمسيه وضعيه اصطلاحيه و إن كانت الفصول الأربعة و السنه الشمسيه على غير هذا النعت فالشهور الاثنا عشر التي هي ثابتة ذات أصل ثابت هي الشهور القمرية.

فمعنى الآية إن عده الشهور اثنا عشر شهرا تتألف منها السنون، و هذه العده هي التي في علم الله سبحانه، و هي التي أثبتها في كتاب التكوين يوم خلق السماوات والأرض و أجرى الحركات العامه التي منها حركة الشمس و حركة القمر حول الأرض و هي الأصل الثابت في الكون لهذه العده.

و من هنا يظهر فساد ما ذكره بعض المفسرين أن المراد بكتاب الله في الآية القرآن أو كتاب مكتوب فيه عده الشهور على حد الكتب و الدفاتر التي عندنا المؤلفه من قراطيس و أوراق يضبط فيها الألفاظ بخطوط خاصه وضعيه.

قوله تعالى: «مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ» الحرم جمع حرام و هو الممنوع منه، و القيم هو القائم بمصلحه الناس المهيمن على إداره أمور حياتهم و حفظ شئونهم.

و قوله: «مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ» هي الأشهر الأربعة: ذو القعدة و ذو الحجه و المحرم و رجب بالنقل القطعي، و الكلمه كلمه تشريع بدليل قوله: «ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» إلخ.

و إنما جعل الله هذه الأشهر الأربعة حرما ليكف الناس فيها عن القتال و ينسبط عليهم بساط الأمن، و يأخذوا فيها الأهبه للسعاده، و يرجعوا إلى ربهم بالطاعات و القربات.

و كانت حرمتها من شريعه إبراهيم، و كانت العرب تحترمها حتى في الجاهليه

حينما كانوا يعبدون الأوثان غير أنهم ربما كانوا يحولون الحرمه من شهر إلى شهر سنه أو أزيد منها بالنسيء الذى تتعرض له الآيه التاليه.

و قوله: «ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» ،الإشاره إلى حرمه الأربعة المذكوره،و الدين كما تطلق على مجموع ما أنزله الله على أنبيائه تطلق على بعضها فالمعنى أن تحريم الأربعة من الشهور القمرية هو الدين الذى يقوم بمصالح العباد. كما يشير إليه فى قوله: «جَعَلَ اللَّهُ الْكُفْرَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ فَيَأْتِيهِمَا لِنَاسٍ وَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ» Xالآيه X:المائده:-97 و قد تقدم الكلام فيه فى الجزء السادس من الكتاب.

و قوله: «فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسِكُمْ» الضمير إلى الأربعة إذ لو كان راجعا إلى «إِثْنَا عَشَرَ» المذكور سابقا لكان الظاهر أن يقال «فيها» كما نقل عن الفراء،و أيضا لو كان راجعا إلى «إِثْنَا عَشَرَ» و هى تمام السنه لكان قوله: «فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسِكُمْ» كما قيل فى معنى قولنا: فلا تظلموا أبدا أنفسكم،و كان الكلام متفرعا على كون عده الشهور عند الله اثنى عشر شهرا،و لا تفرع له عليه ظاهرا فالمعنى لما كانت هذه الأربعة حرما تفرع على حرمتها عند الله أن تكفوا فيها عن ظلم أنفسكم رعايه لحرمتها و عظم منزلتها عند الله سبحانه.

فالنهى عن الظلم فيها يدل على عظم الحرمه و تأكدها لتفرعها على حرمتها أولا و لأنها نهى خاص بعد النهى العام كما يفيدته قولنا: لا تظلم أبدا و لا تظلم فى زمان كذا.

و الجمله أعنى قوله: «فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسِكُمْ» و إن كانت بحسب إطلاق لفظها نهيا عن كل ظلم و معصيه لكن السياق يدل على كون المقصود الأهم منها النهى عن القتال فى الأشهر الحرم.

قوله تعالى: «وَ قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» قال الراغب فى المفردات: الكف كف الإنسان و هى ما بها يقبض و يبسط،و كففته أصبت كفه،و كففته أصبته بالكف و دفعته بها،و تعورف الكف بالدفع على أى وجه كان،بالكف كان أو غيرها حتى قيل: رجل مكفوف لمن قبض بصره.

و قوله: «وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ أَى كَافَا لَهُمْ عَنِ الْمَعَاصَى،و الهاء فيه للمبالغه كقولهم: راويه و علامه و نسابه،و قوله: «وَ قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ»

«قيل: معناه كافين لهم كما يقاتلونكم كافين و قيل معناه جماعة كما يقاتلونكم جماعه، و ذلك أن الجماعة يقال لهم: الكافه كما يقال لهم: الوازعه لقوتهم باجتماعهم، و على هذا قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّهُ﴾ انتهى.

و قال فى المجمع: كافه بمعنى الإحاطه مأخوذ من كفه الشيء و هى طرفه و إذا انتهى الشيء إلى ذلك كف عن الزيادة، و أصل الكف المنع. انتهى.

و قوله: «كَافَّهُ» فى الموضوعين حال عن الضمير الراجع إلى المسلمين أو المشركين أو فى الأول عن الأول و فى الثانى عن الثانى أو بالعكس فهناك وجوه أربعة، و المتبادر إلى الذهن هو الوجه الرابع للقرب اللفظى الذى بين الحال و ذى الحال حينئذ، و معنى الآية على هذا: و قاتلوا المشركين جميعهم كما يقاتلونكم جميعكم.

فالآيه توجب قتال جميع المشركين فتصير نظيره قوله تعالى: «فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» الآية ينسخ هذه ما ينسخ تلك و تتخصص أو تنقيد بما تخصص أو تنقيد به هى.

و الآية مع ذلك إنما تتعرض لحال القتال مع المشركين و هم عبده الأوثان غير أهل الكتاب فإن القرآن و إن كان ربما نسب الشرك تصريحا أو تلويحا إلى أهل الكتاب لكنه لم يطلق المشركين على طريق التوصيف إلا على عبده الأوثان، و أما الكفر فعلا أو وصفا فقد نسب إلى أهل الكتاب و أطلق عليهم كما نسب و أطلق إلى عبده الأوثان.

فالآيه أعنى قوله: «وَ قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّهُ» الآية لا هى ناسخه لآيه أخذ الجزيه من أهل الكتاب، و لا هى مخصصه أو مقيدة بها. و قد قيل فى الآية بعض وجوه آخر تركناه لعدم جدوى فى التعرض له.

و قوله: «وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» تعليم و تذكير و فيه حث على الاتصاف بصفه التقوى يترتب عليه من الفائدة: أولاً- الوعد الجميل بالنصر الإلهى و الغلبه و الظفر فإن حزب الله هم الغالبون.

و ثانيا: منعهم أن يتعدوا حدود الله فى الحروب و المغازى بقتل النساء و الصبيان و من ألقى إليهم السلام كما قتل خالد فى غزوه حنين مرأه فأرسل إليه النبى ص ينهاه عن ذلك و قتل رجالا من بنى جذيمه و قد أسلموا فوداهم النبى ص و تبرأ إلى

الله من فعله ثلاثاً (١)، و قتل أسامه يهودياً أظهر له الإسلام فنزل قوله تعالى: «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ:النساء:-٩٤ وقد تقدم.

قوله تعالى: «إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ» إلى آخر الآيه يقال: نسأ الشيء ينسؤه نسأ و منسأه و نسيئاً إذا أخره تأخيراً، وقد يطلق النسيء على الشهر الذى أخر تحريمه على ما كانت العرب تفعله فى الجاهليه فإنهم ربما كانوا يؤخرون حرمة بعض الأشهر الحرم إلى غيره و أما أنه كيف كان ذلك فقد اختلف فيه كلام المفسرين كأهل التاريخ.

و الذى يظهر من خلال الكلام المسرود فى الآيه أنه كانت لهم فيما بينهم سنه جاهليه فى أمر الأشهر الحرم و هى المسماه بالنسيء، و هو يدل بلفظه على تأخير الحرمة من شهر حرام إلى بعض الشهور غير المحرمة الذى بعده، و أنهم إنما كانوا يؤخرون الحرمة و لا يبطلونها برفعها من أصلها لإرادتهم بذلك أن يتحفظوا على سنه قومية و رثوها عن أسلافهم عن إبراهيم (ع).

فكانوا لا يتركون أصل التحريم لغى و إنما يؤخرونه إلى غير الشهر سنه أو أزيد ليواطئوا عده ما حرم الله، و هى الأربعة ثم يعودون و يعيدون الحرمة إلى مكانها الأول.

و هذا نوع تصرف فى الحكم الإلهى بعد كفرهم بالله باتخاذ الأوثان شركاء له تعالى و تقدس، و لذا عده الله سبحانه فى كلامه زياده فى الكفر.

و قد ذكر الله سبحانه من الحكم الخاص بحرمة الأشهر الحرم النهى عن ظلم الأنفس حيث قال: «فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسِكُمْ» و أظهر مصاديقه القتال كما أنه المصداق الوحيد الذى استفتوا فيه النبى ص فحكاه الله سبحانه بقوله: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ» X الآيه X:البقره:-٢١٧ و كذا ما فى معناه من قوله: «لَا تُجْلُوا شِعَابَ اللَّهِ وَ لَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ»: المائدة:-٢ و قوله: «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَ الْهَدْيَ وَ الْقَلَائِدَ»: المائدة:-٩٧.

و كذلك الأثر الظاهر من حرمة البيت أو الحرم هو جعل الأمن فيه كما قال:

«وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا»: آل عمران:-٩٧ و قال: «أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا:القصص:-٥٧.

فالظاهر أن النسيء الذى تذكره الآيه عنهم إنما هو تأخير حرمة الشهر الحرام.

ص: ٢٧١

للتوسل بذلك إلى قتال فيه لا لتأخير الحج الذى هو عباده دينيه مختصه ببعضها.

و هذا كله يؤيد ما ذكره أن العرب كانت تحرم هذه الأشهر الحرم، و كان ذلك مما تمسكت به من مله إبراهيم و إسماعيل(ع)، و هم كانوا أصحاب غارات و حروب فربما كان يشق عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر متواليه لا يغزون فيها فكانوا يؤخرون تحريم المحرم إلى صفر فيحرمونه و يستحلون المحرم فيمكثون بذلك زمانا ثم يعود التحريم إلى المحرم، و لا يفعلون ذلك أى إنساء حرمة المحرم إلى صفر إلا فى ذى الحجه.

و أما ما ذكره بعضهم أن النسب هو ما كانوا يؤخرون الحج من شهر إلى شهر فمها لا ينطبق على لفظ الآية البتة، و سيجىء تفصيل الكلام فيه فى البحث الروائى الآتى إن شاء الله. و لرجع إلى ما كنا فيه.

فقوله تعالى: «إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ» أى تأخير الحرمة التى شرعها الله لهذه الأشهر الحرم من شهر منها إلى شهر غير حرام زياده فى الكفر لأنه تصرف فى حكم الله المشروع و كفر بآياته بعد الكفر بالله من جهه الشرك فهو زياده فى الكفر.

و قوله: «يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا» أى ضلوا فيه بإضلال غيرهم إياهم بذلك، و فى الكلام إشعار أو دلالة على أن هناك من يحكم بالنسب، و قد ذكروا أن المتصدى لذلك كان بعض بنى كنانة، و سيجىء تفصيله فى البحث الروائى إن شاء الله.

و قوله: «يُحِلُّونَهُ عَامًا وَ يُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤْطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ» فى موضع التفسير للإنساء، و الضمير للشهر الحرام المعلوم من سياق الكلام أى و هو أنهم يحلون الشهر الحرام الذى نسئوه بتأخير حرمة عامما و يحرمونه عامما، أى يحلونه عامما بتأخير حرمة إلى غيره، و يحرمونه عامما بإعاده حرمة إليه.

و إنما يعملون على هذه الشاكلة بالتأخير سنه و الإثبات أخرى ليواطئوا و يوافقوا عده ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله فى حال حفظهم أصل العدد أى إنهم يريدون التحفظ على حرمة الأشهر الأربعة بعددها مع التغيير فى محل الحرمة ليتمكنوا مما يريدونه من الحروب و الغارات مع الاستئان بالحرمة.

و قوله: «زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» المزين هو الشيطان كما وقع فى آيات من الكتاب، و ربما نسب إلى الله سبحانه كما فى آيات أخر،

ولا ينسب الشر إليه سبحانه إلا- ما قصد به الجزاء على الشر كما قال تعالى: «يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ» البقره:-٢٦.

و ذلك بأن يفسق العبد فيمنعه الله الهدايه فيكون ذلك إذنا لداعي الضلال و هو الشيطان أن يزين له سوء عمله فيغويه و يضلّه، و لذلك قال تعالى: «زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ» ثم عقبه بقوله: «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» كأنه لما قيل: زين لهم سوء أعمالهم قيل: كيف أذن الله فيه و لم يمنع ذلك قيل: إن هؤلاء كافرون و الله لا يهدي القوم الكافرين.

(بحث روائى)

فى تفسير العياشى، عن أبى خالد الواسطى فى حديث ثم قال-يعنى أبا جعفر(ع)- حدثنى أبى عن على بن الحسين عن أمير المؤمنين(ع): أن رسول الله ص لما ثقل فى مرضه-قال: أيها الناس إن السنه اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم-ثم قال بيده:

رجب مفرد-و ذو القعدة و ذو الحجه و المحرم ثلاث متواليات.

أقول: و قد ورد فى عدّه روايات تأويل الشهور الاثني عشر، بالأئمه الاثني عشر، و تأويل الأربعة الحرم بعلى أمير المؤمنين و على بن الحسين و على بن موسى و على بن محمد(ع)، و تأويل السنه برسول الله ص، و انطباقها على الآيه بما لها من السياق لا يخلو عن خفاء.

و فى الدر المنثور، أخرج أحمد و البخارى و مسلم و أبو داود و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقى فى شعب الإيمان عن أبى بكره: أن النبى ص خطب فى حجته فقال: ألا إن الزمان قد استدار كهيئته-يوم خلق الله السماوات و الأرض السنه اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم-ثلاثه متواليات ذو القعدة و ذو الحجه و المحرم، و رجب مفرد الذى بين جمادى و شعبان.

أقول: و هى من خطب النبى ص المشهوره، و قد رويت بطرق أخرى عن أبى هريره و ابن عمر و ابن عباس و عن أبى حمزه الرقاشى عن عمه و كانت له صحبه و غيرهم.

و المراد باستداره الزمان كهيئته يوم خلق الله السماوات و الأرض استقرار الأحكام الدينيه على ما تقتضيه الفطره و الخلقه و تمكن الدين القيم من الرقابه فى أعمال الناس، و من

ذلك حرمة الأشهر الأربعة الحرم و إلغاء النسيء الذى هو زياده فى الكفر.

وفيه، أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن ابن عمر قال: وقف رسول الله ص بالعقبه-فقال: إن النسيء من الشيطان زياده فى الكفر-يضل به الذين كفروا يحلون عامًا-و يحرمونه عامًا فكانوا يحرمون المحرم عامًا-و يحرمون صفر عامًا و يستحلون و هو النسيء.

وفيه، أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال: " كان جناده بن عوف الكناني يوفى الموسم كل عام-و كان يكنى أبا ثماده فينادى:

ألا إن أبا ثماده لا يخاف و لا يعاب-ألا إن صفر الأول حلال-.

و كان طوائف من العرب-إذا أرادوا أن يغيروا على بعض عدوهم أتوه-فقالوا: أحل لنا هذا الشهر يعنون صفر، و كانت العرب لا تقاتل فى الأشهر الحرم فيحله لهم عامًا، و يحرمه عليهم فى العام الآخر، و يحرم المحرم فى قابل ليواطئوا عداه ما حرم الله يقول:

ليجعلوا الحرم أربعة-غير أنهم جعلوا صفر عامًا حلالًا و عامًا حرامًا.

وفيه، أخرج ابن المنذر عن قتاده: " فى قوله: «إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ» الآية قال:

عمد أناس من أهل الضلاله فزادوا صفر فى الأشهر الحرم، و كان يقوم قائمهم فى الموسم فيقول: إن آلهتكم قد حرمت صفر فيحرمونه ذلك العام-و كان يقال لهما الصفران.

و كان أول من نسا النسيء بنو مالك من كنانه، و كانوا ثلاثه أبو ثمامه صفوان بن أميه-و أحد بنى فقيم بن الحارث، ثم أحد بنى كنانه.

وفيه، أخرج ابن أبى حاتم عن السدى: " فى الآية قال: كان رجل من بنى كنانه- يقال له جناده بن عوف يكنى أبا أمامه ينسئ الشهر، و كانت العرب يشتد عليهم أن يمكثوا ثلاثه أشهر-لا يغير بعضهم على بعض-فإذا أراد أن يغير على أحد قام يوما بمنى- فخطب فقال: إنى قد أحللت المحرم-و حرمت صفر مكانه فيقاتل الناس فى المحرم- فإذا كان صفر عمدوا و وضعوا الأسنة-ثم يقوم فى قابل فيقول: إنى قد أحللت صفر و حرمت المحرم-فيواطئوا أربعة أشهر فيحلوا المحرم.

وفيه، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس: " فى قوله: «يُحِلُّونَهُ عَامًا وَ يُحَرِّمُونَهُ عَامًا» قال: هو صفر كانت هوازن و غطفان يحلونه سنه و يحرمونه سنه.

أقول: محصل الروايات- كما ترى- أن العرب كانت تدين بحرمة الأشهر الحرم الأربعة رجب و ذى القعدة و ذى الحجة و المحرم ثم إنهم ربما كانوا يتخرجون من القعود عن الحروب و الغارات ثلاثة أشهر متواليات فسألوا بعض بنى كنانة أن يحل لهم ثالث الشهور الثلاثة فقام فيهم بعض أيام الحج بمنى و أحل لهم المحرم و نساء حرمة إلى صفر فذهبوا لوجههم عامهم ذلك يقاتلون العدو ثم رد الحرمه إلى مكانه فى قابل و هذا هو النسىء.

و كان يسمى المحرم صفر الأول و صفر الثانى و هما صفران كالربيعين و الجماديين و النسىء إنما ينال صفر الأول و لا يتعدى صفر الثانى فلما أقر الإسلام الحرمه لصفر الأول عبروا عنه بشهر الله المحرم ثم لما كثر الاستعمال خفت و قيل: المحرم، و اختص اسم صفر بصفر الثانى فالمحرم من الألفاظ الإسلاميه كما ذكره السيوطى فى المزهرة.

و فيه، أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد: " فى قوله:

« إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ » قال: فرض الله الحج فى ذى الحجة، و كان المشركون يسمون الأشهر ذا الحجة و المحرم و صفر و ربيع و ربيع و جمادى و جمادى و رجب و شعبان و رمضان و شوال و ذا القعدة و ذا الحجة ثم يحجون فيه-.

ثم يسكتون عن المحرم فلا- يذكرونه- ثم يعودون فيسمون صفر صفر- ثم يسمون رجب جمادى الآخرة- ثم يسمون شعبان رمضان و رمضان شوال، و يسمون ذا القعدة شوال ثم يسمون ذا الحجة ذا القعدة- ثم يسمون المحرم ذا الحجة- ثم يحجون فيه و اسمه عندهم ذو الحجة-.

ثم عادوا إلى مثل هذه القصة فكانوا يحجون فى كل شهر عاما- حتى وافق حجه أبى بكر الآخرة من العام فى ذى القعدة- ثم حج النبى ص حجه التى حج فيها فوافق ذو الحجة- فذلك حين يقول (ص) فى خطبته: إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات و الأرض.

أقول: و محصله على ما فيه من التشويش و الاضطراب أن العرب كانت قبل الإسلام يحج البيت فى ذى الحجة غير أنهم أرادوا أن يحجوا كل عام فى شهر فكانوا يدورون بالحج الشهور شهرا بعد شهر و كل شهر وصلت إليه النوبة عامهم ذلك سموه ذا الحجة و سكتوا عن اسمه الأصلى.

و لازم ذلك أن يتألف كل سنة فيها حجه من ثلاثه عشر شهرا و أن يتكرر اسم بعض الشهور مرتين أو أزيد كما يشعر به الروايه، و لذا ذكر الطبرى أن العرب كانت تجعل السنه ثلاثه عشر شهرا، و فى روايه اثنى عشر شهرا و خمسه و عشرين يوما.

و لازم ذلك أيضا أن تتغير أسماء الشهور كلها، و أن لا يواطئ اسم الشهر نفس الشهر إلا فى كل اثنتى عشره سنه مره إن كان التأخير على نظام محفوظ، و ذلك على نحو الدوران.

و مثل هذا لا يقال له الإنشاء و التأخير فإن أخذ السنه ثلاثه عشر و تسميه آخرها ذا الحجه تغيير لأصل التركيب لا تأخير لبعض الشهور بحسب الحقيقه.

على أنه مخالف لسائر الأخبار و الآثار المنقوله و لا مأخذ لذلك إلا هذه الروايه و ما ضاهاها

كروايه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كانت العرب يحلون عاما شهرا و عاما شهرين، و لا يصيبون الحج إلا فى كل سته و عشرين سنه مره - و هو النسيء الذى ذكر الله تعالى فى كتابه - فلما كان عام الحج الأكبر - ثم حج رسول الله ص من العام المقبل - فاستقبل الناس الأمله فقال رسول الله ص - إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات و الأرض، و هو فى الاضطراب كخبر مجاهد.

على أن الذى ذكره من حجه أبى بكر فى ذى القعدة هو الذى ورد من طرق أهل السنه أن النبى ص جعل أبا بكر أميرا للحج عام تسع فحج بالناس، و قد ورد فى بعض روايات أخر أيضا أن الحجه عامئذ كانت فى ذى القعدة.

و هذه الحجه على أى نعت فرضت كانت بأمر من النبى ص و إمضائه، و لا يأمر بشىء و لا يمضى أمرا إلا ما أمر به ربه تعالى، و حاشا أن يأمر الله سبحانه بحجه فى شهر نسيء ثم يسميها زياده فى الكفر.

فالحق أن النسيء هو ما تقدم أنهم كانوا يتخرجون من توالى شهور ثلاثه محرمة فينسئون حرمة المحرم إلى صفر ثم يعيدونها مكانها فى العام المقبل.

و أما حجهم فى كل شهر سنه أو فى كل شهر سنتين أو فى شهر سنه و فى شهر سنتين فلم يثبت عن مأخذ واضح يوثق به، و ليس من البعيد أن تكون عرب الجاهليه مختلفين فى ذلك لكونهم قبائل شتى و عشائر متفرقه كل متبع لهوى نفسه غير أن الحج كان عباده ذات موسم لا يتخلفون عنه لحاجتها إلى أمن لنفوسهم و حرمة لدمائهم،

و ما كانوا يتمكنون من ذلك لو كان أحل الشهر بعضهم و حرمة آخرون على اختلاف في شاكله التحريم، و هو ظاهر.

[سوره التوبه (٩): الآيات ٣٨ الى ٤٨]

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِثْقَالْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَتَفَرَّغُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلَّا تَضَيَّرُوهُ فَقَدْ تَضَيَّرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا - وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) لَوْ كَانِ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبْغُوكَ وَ لَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّفْعَةُ وَ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعِنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمُ الْكَاذِبِينَ (٤٣) لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَ اللَّهِ عَلَيْهِمُ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ ارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) وَ لَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَ لَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا - وَ لَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَ فِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدْ ابْتِغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَ قَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَ ظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَ هُمْ كَارِهُونَ (٤٨)

ص: ٢٧٧

تعرض للمنافقين و فيه بيان لجمل أوصافهم و علائهم، و شرح ما لقي الإسلام و المسلمون من كيدهم و مكرهم و ما قاسوه من المصائب من جهه نفاقهم، و فى مقدمها عتاب المؤمنين فى ثقافتهم عن الجهاد، و حديث خروج النبى ص من مكه و ذكر الغار.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ الآية اثَّاقَلْتُمْ أصله ثقألتم على وزن ادأركوا و غيره، و كأنه أشرب معنى الميل و نحوه فعدى يالى و قيل: اثأقلتكم إلى الأرض أى ملتم إلى الأرض متأقلين أو ثقألتكم مائلين إلى الأرض و المراد بالنفر فى سبيل الله الخروج إلى الجهاد.

و قوله: «أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ» كان الرضا أشرب معنى القناعه فعدى بمن كما يقال: رضيت من المال بطيبه، و رضيت من القوم بخله فلان، و على هذا ففى الكلام نوع من العنايه المجازيه كأن الحياه الدنيا نوع حقير من الحياه الآخره قنعوا بها منها، و يشعر بذلك قوله بعده: «فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ».

فمعنى الآية: يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قال لكم النبى ص -لم يصرح باسمه صونا و تعظيما- اخرجوا إلى الجهاد أبطأتم كأنكم لا تريدون الخروج أفنعتم بالحياه الدنيا راضين بها من الآخره فما متاع الحياه الدنيا بالنسبه إلى الحياه الآخره إلا قليل.

و فى الآيه و ما يتلوها عتاب شديد للمؤمنين و تهديد عنيف و هى تقبل الانطباق على غزوه تبوك كما ورد ذلك فى أسباب النزول.

قوله تعالى: «إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ» إلى آخر الآيه العذاب الذى أُنذروا به مطلق غير مقيد فلا وجه لتخصيصه بعذاب الآخرة بل هو على إبهامه، و ربما أيد السياق كون المراد به عذاب الدنيا أو عذاب الدنيا و الآخرة جميعا.

و قوله: «يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ» أى يستبدل بكم قوما غيركم لا- يتشاقلون فى امتثال أوامر الله و النفر فى سبيل الله إذا قيل لهم: انفروا، و الدليل على هذا المعنى قرينه المقام.

و قوله: «وَ لَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا» إشاره إلى هوان أمرهم على الله سبحانه لو أراد أن يذهب بهم و يأتى بآخرين فإن الله لا ينتفع بهم بل نفعهم لأنفسهم فضررهم على أنفسهم، و قوله:

«وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» تعليل لقوله: «يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ».

قوله تعالى: «إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ» ثانى اثنين أى أحدهما، و الغار الثقبه العظيمه فى الجبل، و المراد به غار جبل ثور قرب منى و هو غير غار حراء الذى ربما كان النبى ص يأوى إليه قبل البعثة للأخبار المستفيضة، و المراد بصاحبه هو أبو بكر للنقل القطعى.

و قوله: «إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا» أى لا تحزن خوفا مما تشاهده من الوحده و الغربه و فقد الناصر و تظاهر الأعداء و تعقيبهم إياى فإن الله سبحانه معنا ينصرنى عليهم.

و قوله: «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا» أى أنزل الله سكينته على رسوله و أيد رسوله بجنود لم تروها يصرفون القوم عنهم بوجوه من الصرف بجميع العوامل التى عملت فى انصراف القوم عن دخول الغار و الظفر به (ص)، و قد روى فى ذلك أشياء ستأتى فى البحث الروائى إن شاء الله تعالى.

و الدليل على رجوع الضمير فى قوله: «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ» إلى النبى ص أولا- رجوع الضمائر التى قبله و بعده إليه (ص) كقوله: «إِلَّا تَنْصُرُوهُ» و «نَصَرَهُ» و «أَخْرَجَهُ» و «يَقُولُ» و «لِصَاحِبِهِ» و «أَيَّدَهُ» فلا سبيل إلى رجوع ضمير «عَلَيْهِ» من بينها وحده إلى غيره من غير قرينه قاطعه تدل عليه.

و ثانياً: أن الكلام في الآيه مسوق لبيان نصر الله تعالى نبيه ص حيث لم يكن معه أحد ممن يتمكن من نصرته إذ يقول تعالى: «إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ» الآية و إنزال السكينه و التقويه بالجنود من النصر فذاك له (ص) خاصه.

و يدل على ذلك تكرار «إِذْ» و ذكرها في الآيه ثلاث مرات كل منها بيان لما قبله بوجه فقوله «إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا» بيان لوقت قوله: «فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ» و قوله:

«إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ» بيان لتشخيص الحال الذي هو قوله: «ثَانِي اثْنَيْنِ» و قوله:

«إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ» بيان لتشخيص الوقت الذي يدل عليه قوله: «إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ».

و ثالثاً: أن الآيه تجرى في سياق واحد حتى يقول: «وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَ كَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا» و لا ريب أنه بيان لما قبله، و أن المراد بكلمه الذين كفروا هي ما قضاوا به في دار الندوه و عزموا عليه من قتله (ص) و إطفاء نور الله، و بكلمه الله هي ما وعده من نصره و إتمام نوره، و كيف يجوز أن يفرق بين البيان و المبين و جعل البيان راجعاً إلى نصره تعالى إياه (ص)، و المبين راجعاً إلى نصره غيره.

فمعنى الآيه: إن لم تنصروه أنتم أيها المؤمنون فقد أظهر الله نصره إياه في وقت لم يكن له أحد ينصره و يدفع عنه و قد تظاهرت عليه الأعداء و أحاطوا به من كل جهه و ذلك إذ هم المشركون به و عزموا على قتله فاضطر إلى الخروج من مكه في حال لم يكن إلا- أحد رجلين اثنين، و ذلك إذ هما في الغار إذ يقول النبي ص لصاحبه و هو أبو بكر: لا تحزن مما تشاهده من الحال إن الله معنا بيده النصر فنصره الله.

حيث أنزل سكينته عليه و أيده بجنود غائبه عن أبصاركم، و جعل كلمه الذين كفروا- هي قضاؤهم بوجوب قتله و عزيמתهم عليه- كلمه مغلوبه غير نافذه و لا مؤثره، و كلمه الله- هي الوعد بالنصر و إظهار الدين و إتمام النور- هي العليا العاليه القاهره و الله عزيز لا يغلب حكيم لا يجهل و لا يغلط في ما شاءه و فعله.

و قد تبين مما تقدم أولاً- أن قوله: «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِ عَلَيْهِ» متفرع على قوله: «فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ» في عين أنه متفرع على قوله: «إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ» فإن الظرف ظرف للنصره على ما تقدم، و الكلام مسوق لبيان نصره تعالى إياه (ص) لا غيره فالتفريع تفريع على الظرف بمظروفه الذي هو قوله: «فَقَدْ نَصَرَهُ»

«لا على قوله: «يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ».

و ربما استدل لذلك بأن النبي ص لم يزل على سكينه من ربه فإِنزال السكينه فى هذا الظرف خاصه يكشف عن نزوله على صاحبه.

و يدفعه أولاً قوله تعالى: «ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ» فى قصه حين، والقول بأن نفسه الشريفه اضطربت بعض الاضطراب فى وقعه حين فناسب نزول السكينه بخلاف الحال فى الغار. يدفعه أنه من الافتعال بغير علم فالآيه لا تذكر منه (ص) حزنا ولا اضطرابا ولا غير ذلك إلا ما تذكر من فرار المؤمنين.

على أنه يبطل أصل الاستدلال أن النبي ص لم يزل على سكينه من ربه لا يتجدد له شىء منها فكيف جاز له أن يضطرب فى حين فتزل عليه سكينه جديده اللهم إلا أن يريدوا به أنه لم يزل فى الغار كذلك.

و نظيرتها الآيه الناطقه بنزول السكينه عليه (ص) و على المؤمنين فى سورة الفتح: «إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ» الفتح: ٢٦.

و يدفعه ثانيا: لزوم تفرع قوله: «وَ أَيْدُهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا» على أثر تفرع قوله: «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ» لأنهما فى سياق واحد، و لازمه عدم رجوع التأيد بالجنود إليه (ص) أو التفكيك فى السياق الواحد من غير مجوز يجوز.

و ربما التزم بعضهم فرارا من شناعه لزوم التفكيك - أن الضمير فى قوله تعالى: «وَ أَيْدُهُ» أيضا راجع إلى صاحبه، و لازمه كون إنزال السكينه و التأيد بالجنود عائدین إلى أبى بكر دون النبى ص.

و ربما أیده بعض آخر بأن الوقائع التى تذكر الآيات فيها نزول جنود لم يروها كوقعه حين و الأحزاب و كذا نزول الملائكه لوقعه بدر و إن لم تذكر نزولهم على المؤمنين و لم تصرح بتأييدهم بهم لكنهم حيث كانوا إنما نزلوا للنصر و فيه نصر المؤمنين و إمدادهم فلا - مانع من القول بأن الجنود التى لم يروها إنما أيدت أبى بكر، و تأييدهم المؤمنين جميعا أو أبى بكر خاصه تأييد منهم فى الحقيقه للنبي ص.

و الأولى على هذا البيان أن يجعل الفرع الثالث الذى هو قوله: «وَ جَعَلَ كَلِمَةً

«الآية مترتبا على ما تقدمه من الفرعين لئلا يلزم التفكيك في السياق.

و لا يخفى عليك أن هذا الذى التزموا به يخرج الآية عن مستقر معناها الوجدانى إلى معنى متهافت الأطراف يدفع آخره أوله، و ينقض ذيله صدره فقد بدئت الآية بأن النبى ص أكرم على الله و أعز من أن يستذله و يحوجه إلى نصره هؤلاء بل هو تعالى وليه القائم بنصره حيث لم يكن أحد من هؤلاء الحافين حوله المتبعين أثره ثم إذا شرعت فى بيان نصره تعالى إياه بين نصره غيره بإنزال السكينة عليه و تأييده بجنود لم يروها إلى آخر الآية.

هب أن نصره تعالى بعض المؤمنين به (ص) أو جميعهم نصر منه له بالحقيقه لكن الآية فى مساق يدفعه البتة فإن الآية السابقه يجمع المؤمنين فى خطاب واحد- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا - و يعاتبهم و يهددهم على الثاقل عن إجابة النبى ص إلى ما أمرهم به من النفر فى سبيل الله و الخروج إلى الجهاد ثم الآية الثانيه تهددهم بالعذاب و الاستبدال إن لم ينفروا و تبين لهم أن الله و رسوله فى غنى عنهم و لا يضرونه شيئا، ثم الآية الثالثه توضح أن النبى ص فى غنى عن نصرهم لأن ربه هو وليه الناصر له، و قد نصره حيث لم يكن لأحد منهم صنع فيه و هو نصره إياه إذ أخرجه الذين كفروا ثانياً اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا.

و من البين الذى لا مريه فيه أن مقتضى هذا المقام بيان نصره (ص) الخاص به المتعلق بشخصه من الله سبحانه خاصه من دون صنع لأحد من المؤمنين فى ذلك لا بيان نصره إياه بالمؤمنين أو ببعضهم و قد جمعهم فى خطاب المعاتبه، و لا بيان نصره بعض المؤمنين به ممن كان معه.

و لا- أن المقام مقام يصلح لأن يشار بقوله: «إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا اثْنَيْنِ» إشاره إجماليه إلى نصره العزيز لنيبه (ص) ثم يؤخذ فى تفصيل ما خص به صاحبه من الخصيصه بإنزال السكينة و التأييد بالجنود فإن المقام على ما تبين لك يابى ذلك.

و يدفعه ثالثاً: أن فيه غفله عن حقيقه معنى السكينة و قد تقدم الكلام فيها فى ذيل قوله تعالى: «ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ:» توبه:- ٢٦.

و الأمر الثانى: أن المراد بتأييده (ص) بجنود لم يروها تأييده بذلك يومئذ على

ما يفيد السياق، وأما قول بعضهم: إن المراد به ما أيده بالجنود يوم الأحزاب و يوم حنين على ما نطقت به الآيات فمما لا دليل عليه من اللفظ البتة.

و الأمر الثالث: أن المراد بالكلمه فى قوله: « وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى »، هو ما قضاوا به فى دار الندوه و عزموا عليه من قتله (ص) و إبطال دعوته الحقه بذلك، و بقوله:

« وَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا » هو ما وعد الله نبيه ص من النصر و إظهار دينه على الدين كله.

و ذلك أن هذه الآيه بما تتضمنه من قوله: « فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا » تشير إلى ما يقصه قوله تعالى: « وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ أَوْ يُقْتُلُوكَ أَوْ يُنْفِثُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ »: الأنفال: -٣٠، و الذى فى ذيل الآيه من إبطال كلمتهم و إحقاق الكلمه الإلهيه مرتبط بما فى صدر الآيه من حديث الإخراج أى الاضطرار إلى الخروج لا محاله، و الذى اضطره (ص) إلى الخروج هو عزمهم على قتله حسب ما اتفقوا عليه من القضاء بقتله فهذه هى الكلمه التى أبطلها الله سبحانه و جعلها السفلى و تقابلها كلمه الله و ليست إلا النصر و الإظهار.

و من هنا يظهر أن قول بعضهم إن المراد بكلمه الذين كفروا الشرك و الكفر، و بكلمه الله تعالى التوحيد و الإيمان غير سديد فإن الشرك و إن كان كلمه لهم، و التوحيد كلمه لله لكنه لا يستلزم كونهما المرادين كلما ذكرت الكلمتان حتى مع وجود القرينه على الخلاف.

قوله تعالى: « انْفِرُوا خِفَافًا وَ ثِقَالًا وَ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » الخفاف و الثقال جمعاً خفيف و ثقيل، و الثقل بقرينه المقام كناية عن وجود الموانع الشاغله الصارفه للإنسان عن الخروج إلى الجهاد نظير كثره المشاغل المالىه و حب الأهل و الولد و الأقرباء و الأصدقاء الذى يوجب كراهه مفارقتهم، و فقد الزاد و الراحله و السلاح و نحو ذلك، و الخفه كناية عن خلاف ذلك.

فالأمر بالنفر خفافاً و ثقلاً و هما حالان متقابلان فى معنى الأمر بالخروج على أى حال، و عدم اتخاذ شىء من ذلك عذراً يعتذر به لترك الخروج كما أن الجمع بين الأموال و الأنفس فى الذكر فى معنى الأمر بالجهاد بأى وسيله أمكنت.

و قد ظهر بذلك أن الأمر فى الآيه مطلق لا يأبى التقييد بالأعذار التى يسقط

معها وجوب الجهاد كالمرض و العمى و العرج و نحو ذلك فإن المراد بالخفه و الثقل أمر وراء ذلك.

قوله تعالى: «لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَ سَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ» إلى آخر الآية.

العرض ما يسرع إليه الزوال و يطلق على المال الدنيوى و هو المراد فى الآية بقربينه السياق، و المراد بقربه كونه قريبا من تناول، و القاصد من القصد و هو التوسط فى الأمر، و المراد بكون السفر قاصدا كونه غير بعيد المقصد سهلا على المسافر، و الشقه: المسافه لما فى قطعها من المشقه.

و الآية كما يلوح من سياقها تعبير و ذم للمنافقين المتخلفين عن الخروج مع النبى ص إلى الجهاد فى غزوه تبوك إذ الغزوه التى خرج فيها النبى ص و تخلف عنه المنافقون و هى على بعد من المسافه هى غزوه تبوك لا غيرها.

و معنى الآية: لو كان ما أمرتهم به و دعوتهم إليه عرضا قريب التناول و غنيمه حاضره و سفرا قاصدا قريبا هينا لاتبعوك يا محمد و خرجوا معك طمعا فى الغنيمه و لكن بعدت عليهم الشقه و المسافه فاستصعبوا السير و ثاقلوا فيه.

و سيحلفون بالله إذا رجعت إليهم و لمتموهم على تخلفهم: لو استطعنا الخروج لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم بما أخذوه من الطريقه: من الخروج إلى القتال طمعا فى عرض الدنيا إذا استيسروا القبض عليه، و التخلف عنه إذا شق عليهم ثم الاعتذار بالعدر الكاذب على نبيهم و الحلف فى ذلك بالله كاذبين، أو يهلكون أنفسهم بهذا الحلف الكاذب، و الله يعلم إنهم لكاذبون.

قوله تعالى: «عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لِمَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ» الجملة الأولى دعاء للنبي ص بالعفو نظير الدعاء على الإنسان بالقتل فى قوله: «قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ:» عبس: -١٧، و قوله: «فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ:» المدثر: -١٩ و قوله: «قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ:» التوبه: -٣٠.

و الجملة متعلقه بقوله: «لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ» أى فى التخلف و القعود، و لما كان الاستفهام للإنكار أو التوبيخ كان معناه: كان ينبغى أن لا تأذن لهم فى التخلف و القعود، و يستقيم به تعلق الغايه التى يشتمل عليها قوله: «حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ

«الآية. بقوله: «لَمْ أَذْنَتْ لَهُمْ» فالتعلق إنما هو بالمستفهم عنه دون الاستفهام وإلا أفاد خلاف المقصود، والكلام مسوق لبيان ظهور كذبهم وأن أدنى الامتحان كالكف عن إذنه في القعود يكشف عن فصاحتهم.

ومعنى الآية: عفا الله عنك لم أذنت لهم في التخلف والقعود؟ ولو شئت لم تأذن لهم -و كانوا أحق به- حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين فيتميز عندك كذبهم ونفاقهم.

والآية -كما ترى و تقدمت الإشارة إليه- في مقام دعوى ظهور كذبهم ونفاقهم وأنهم مفتضحون بأدنى امتحان يمتحنون به، ومن مناسبات هذا المقام إلقاء العتاب إلى المخاطب وتوبيخه والإنكار عليه كأنه هو الذى ستر عليهم فضائح أعمالهم وسوء سريرتهم، وهو نوع من العناية الكلامية يتبين به ظهور الأمر و وضوحه لا- يراد مزيد من ذلك فهو من أقسام البيان على طريق: «إياك أعنى واسمعى يا جاره».

فالمراد بالكلام إظهار هذه الدعوى لا- الكشف عن تقصير النبى ص و سوء تدبيره فى إحياء أمر الله، و ارتكابه بذلك ذنبا- حاشاه- وأولويه عدم الإذن لهم معناها كون عدم الإذن أنسب لظهور فضيحتهم وأنهم أحق بذلك لما بهم من سوء السريره و فساد النيه لأنه كان أولى و أخرى فى نفسه و أقرب و أمس بمصلحه الدين.

و الدليل على هذا الذى ذكرنا قوله تعالى بعد ثلاث آيات: «لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَ لَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَنفَعُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَ فِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ» إلى آخر الآيتين، فقد كان الأصلح أن يؤذن لهم فى التخلف ليصان الجمع من الخبال و فساد الرأى و تفرق الكلمه، و المتعين أن يقعدوا فلا يفتنوا المؤمنين بإلقاء الخلاف بينهم و التفتين فيهم و فيهم ضعفاء الإيمان و مرضى القلوب و هم سماعون لهم يسرعون إلى المطاوعه لهم و لو لم يؤذن لهم فأظهروا الخلاف كانت الفتنة أشد و التفرق فى كلمه الجماعه أوضح و أبين.

و يؤكد ذلك قوله تعالى بعد آيتين: «وَ لَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَ لَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَ قِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ» فقد كان تخلفهم و نفاقهم ظاهرا لائحنا من عدم إعدادهم العده يتوسمه فى وجوههم كل ذى لب، و لا يخفى مثل ذلك على مثل النبى ص و قد نبأه الله بأخبارهم قبل نزول هذه السوره كرارا فكيف

يصح أن يعاتب هاهنا عتاباً جدياً بأنه لم يكف عن الإذن و لم يستعلم حالهم حتى يتبين له نفاقهم و يميز المنافقين من المؤمنين، فليس المراد بالعتاب إلا ما ذكرناه.

و مما تقدم يظهر فساد قول من قال: إن الآية تدل على صدور الذنب عنه (ص) لأن العفو لا يتحقق من غير ذنب، و إن الإذن كان قبيحاً منه (ص) و من صغائر الذنوب لأنه لا يقال في المباح لم فعلته؟ انتهى.

و هذا من لعبهم بكلام الله سبحانه، و لو اعترض معترض على ما يهجون به في مثل المقام الذي سقت الآية فيه لم يرضوا بذلك، و قد أوضحنا أن الآية مسوقة لغرض غير غرض الجد في العتاب.

على أن قولهم: إن المباح لا - يقال فيه: لم فعلت؟ فاسد فإن من الجائر إذا شوهد من رجح غير الأولى على الأولى أن يقال له: لم فعلت ذلك و رجحته على ما هو أولى منه؟ على أنك قد عرفت أن الآية غير مسوقة لعتاب جدي.

و نظيره ما ذكره بعض آخر حيث قال: إن بعض المفسرين و لا سيما الزمخشري قد أساءوا الأدب في التعبير عن عفو الله تعالى عن رسوله ص في هذه الآية، و كان يجب أن يتعلموا أعلى الأدب معه (ص) إذ أخبره ربه و مؤدبه بالعفو قبل الذنب، و هو منتهى التكريم و اللطف.

و بالغ آخرون كالرازي في الطرف الآخر فأرادوا أن يثبتوا أن العفو لا يدل على الذنب، و غاية أن الإذن الذي عاتبه الله عليه هو خلاف الأولى.

و هو جمود مع الاصطلاحات المحدثه و العرف الخاص في معنى الذنب و هو المعصيه، و ما كان ينبغي لهم أن يهربوا من إثبات ما أثبتته الله في كتابه تمسكاً باصطلاحاتهم و عرفهم المخالف له و المدلول اللغه أيضاً.

فالذنب في اللغه كل عمل يستتبع ضرراً أو فوت منفعه أو مصلحة، مأخوذ من ذنب الدابه، و ليس مرادفاً للمعصيه بل أعم منها. و الإذن المعفو عنه قد استتبع فوت المصلحه المنصوصه في الآية و هى تبين الذين صدقوا و العلم بالكاذبين، و قد قال تعالى:

« إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ » X الآية X: الفتح: - ٢.

ثم ذكر في كلام له طويل أن ذلك كان اجتهاداً منه (ص) فيما لا وحى فيه من

الله و هو جائز و واقع من الأنبياء(ع) و ليسوا بمعصومين من الخطيأ فيه و إنما العصمه المتفق عليها خاصة بتبليغ الوحي بيانه و العمل به فيستحيل على الرسول أن يكذب أو يخطئ فيما يبلغه عن ربه أو يخالفه بالعمل.

و منه ما تقدم في سورة الأنفال من عتابه تعالى لرسوله(ص) في أخذ الفديه من أسارى بدر حيث قال: «مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسِيرٌ حَتَّى يُثَخَّنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ:» الأنفال: -٦٧ ثم بين أنه كان مقتضيا لنزول عذاب أليم لو لا كتاب من الله سبق فكان مانعا انتهى كلامه بنوع من التلخيص.

و ليث شعري ما الذي زاد في كلامه على ما تفصلي به الرازي و غيره حيث ذكروا أن ذلك من ترك الأولى، و لا يسمونه ذنبا في عرف المتشرعين و هو الذي يستتبع عقابا، و ذكر هو أنه من ترك الأصلح و سماه ذنبا لغه.

على أنك قد عرفت فيما تقدم أنه لم يكن ذنبا لا عرفا و لا لغه بدلاله ناصه من الآيات على أن عدم خروجهم كان هو الأصلح لحال جيش المسلمين لتخلصهم بذلك عن غائله و وقوع الفتنه و اختلاف الكلمه، و كانت هذه العله بعينها موجوده لو لم يأذن لهم النبي ص و ظهر منهم ما كانوا أبطنوه من الكفر و الخلاف و أن الذي ذكره الله بقوله: «وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً» إن عدم إعدادهم العده كان يدل على عدم إرادتهم الخروج، كان رسول الله ص أجل من أن يخفى عليه ذلك و هم بمرأى منه و مسمع.

مضافا إلى أنه(ص) كان يعرفهم في لحن القول كما قال تعالى: «وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ:» سورة محمد: -٣٠ و كيف يخفى على من سمع من أحدهم مثل قوله: «إِنذَنْ لِي وَ لَا تَفْتِنِّي» أو يقول للنبي ص: «هُوَ أُذُنٌّ» أو يلزمه في الصدقات و لا ينصح له(ص) إن ذلك من طلائع النفاق يطلع منهم و ما وراءه إلا كفر و خلاف.

فقد كان النبي ص يتوسم منهم النفاق و الخلاف و يعلم بما في نفوسهم، و مع ذلك فعتابه(ص) بأنه لم يكف عن الإذن و لم يستعلم حالهم و لم يميزهم من غيرهم؟ ليس إلا عتابا غير جدى للغرض الذي ذكرناه.

و أما قوله: «إن الإذن المعفو عنه قد استتبع فوت المصلحه المنصوصه في

الآيه و هي تبين الذين صدقوا و العلم بالكاذبين»ففيه أن الذي تشتمل عليه الآيه من المصلحه هو تبين الذين صدقوا للنبي ص و علمه هو بالكاذبين لا مطلق تبينهم و لا مطلق العلم بالكاذبين، و قد ظهر مما تقدم أنه(ص)لم يكن يخفى عليه ذلك، و أن حقيقه المصلحه إنما كانت في الإذن و هي سد باب الفتنة و اختلاف الكلمه فإنه(ص) كان يعلم من حالهم أنهم غير خارجين البتة سواء أذن لهم في القعود أم لم يأذن فبادر إلى الإذن حفظا على ظاهر الطاعه و وحده الكلمه.

و ليس لك أن تتصور أنه لو بان نفاقهم يومئذ و ظهر خلافهم بعدم إذن النبي لهم بالقعود لتخلص الناس من تفتينهم و إلقائهم الخلاف لما في الإسلام يومئذ- و هو يوم خروج النبي ص إلى غزوه تبوك-من الشوكه و القوه، و له(ص)من نفوذ الكلمه.

فإن الإسلام يومئذ إنما كان يملك القوه و المهابه في أعين الناس من غير المسلمين كانوا يرتاعون شوكته و يعظمون سواد أهله و يخافون حد سيوفهم، و أما المسلمون في داخل مجتمعهم و بين أنفسهم فلم يخلصوا بعد من النفاق و مرض القلوب، و لم يستول عليهم بعد وحده الكلمه و جد الهمة و العزيمه، و الدليل على ذلك نفس هذه الآيات و ما يتلوها إلى آخر السوره تقريبا.

و قد كانوا تظاهروا بمثل ذلك يوم أحد و قد هجم عليهم العدو في عقر دارهم فرجع ثلث الجيش الإسلامي من المعركه و لم يؤثر فيهم عظه و لا إلحاح حتى قالوا:

لو نعلم قتالا لاتبعناكم، فكان ذلك أحد الأسباب العامله في انهزام المسلمين.

و أما قوله: و من عتابه تعالى لرسوله(ص)في خطئه في اجتهاده ما تقدم في سوره الأنفال من عتابه في أخذ الفديه من أسارى بدر حيث قال: «مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ» الآيه.

ففيه أولا:- أنه من سوء الفهم فمن البين الذي لا- يرتاب فيه أن الآيه بلفظها لا تعاتب على أخذ الفديه من الأسرى و إنما تعاتب على نفس أخذ الأسرى- ما كان لنبي أن يكون له أسرى- و لم تنزل آيه و لا وردت روايه في أن النبي ص كان أمرهم بالأسر بل روايات القصة تدل على أن النبي ص لما أمر بقتل بعض الأسرى خاف الناس أن يقتلهم عن آخرهم فكلموه و ألحوا عليه في أخذ الفديه منهم ليتقوا بذلك على

أعداء الدين و قد رد الله عليهم ذلك بقوله: «تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ».

و هذا من أحسن الشواهد على أن العتاب في الآية متوجه إلى المؤمنين خاصة من غير أن يختص به النبي ص أو يشاركهم فيه و أن أكثر ما ورد من الأخبار في هذا المعنى موضوعه أو مدسوسه.

و ثانيا: أن العتاب في الآية لو اختص بالنبي ص أو شمله و غيره لم يكن من العتاب على ما ذكره على الذنب بمعناه اللغوي و هو تفويت المصلحه بوجه فإن هذا العتاب مذيّل بقوله تعالى في الآية التاليه: «لَوْ لَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَيَبِقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» الأنفال: ٦٨- فلا يرتاب ذو لب في أن التهديد بالعذاب العظيم لا يتأتى إلا مع كون المهتد عليه من المعصيه المصطلحه بل و من كبائر المعاصي، و هذا أيضا من الشواهد على أن العتاب في الآية متوجه إلى غير النبي ص.

قوله تعالى: «لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ» إلى آخر الآيتين تذكر الآيتان أحد ما يعرف به المنافق و يتميز به من المؤمن و هو الاستيذان في التخلف عن الجهاد في سبيل الله.

و قد بين الله سبحانه ذلك بأن الجهاد في سبيل الله بالأموال و الأنفس من لوازم الإيمان بالله و اليوم الآخر بحقيقه الإيمان لما يورثه هذا الإيمان من صفه التقوى، و المؤمن لما كان على تقوى من قبل الإيمان بالله و اليوم الآخر كان على بصيره من وجوب الجهاد في سبيل الله بماله و نفسه. و لا يدعه ذلك أن يتناقل عنه فيستأذن في القعود لكن المنافق لعدم الإيمان بالله و اليوم الآخر فقد صفه التقوى فارتاب قلبه و لا يزال يتردد في ربه فيجب التطرف، و يستأذن في التخلف و القعود عن الجهاد.

قوله تعالى: «وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً» إلى آخر الآية، العده الأهبه، و الانبعاث -على ما في المجمع،- الانطلاق بسرعه في الأمر، و التثييط التوقيف عن الأمر بالترهيد فيه.

و الآية معطوفه على ما تقدم من قوله: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» بحسب المعنى أى هم كاذبون في دعواهم عدم استطاعتهم الخروج بل ما كانوا يريدونه و لو

أرادوه لأعدوا له عدوه لأن من آثار من يريد أمرا من الأمور أن يتأهب له بما يناسبه من العده و الأهبه و لم يظهر منهم شىء من ذلك.

و قوله: «وَ لَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ» أى جزاء بنفاقهم و امتنانا عليك و على المؤمنين لئلا يفسدوا جمعكم، و يفرقوا كلمتكم بالتفتين و إلقاء الخلاف.

و قوله: «وَ قِيلَ أَفَعُدُّوا مَعَ الْقَاعِدِينَ» أمر غير تشريعى لا ينافى الأمر التشريعى بالنفر و الخروج، فقد أمرهم الله بلسان نبيه ص بالنفر و الخروج- و هو أمر تشريعى- و أمرهم من ناحيه سريرتهم الفاسده و الريب المتردد فى قلوبهم و سجاياهم الباطنيه الخبيثه بالعود- و هو أمر غير تشريعى- و لا تنافى بينهما.

و لم ينسب قول: «أَفْعُدُّوا مَعَ الْقَاعِدِينَ» إلى نفسه تنزيها لنفسه عن الأمر بما لا- يرتضيه و هناك أسباب متخلله أمره بذلك كالشيطان و النفس، و إنما ينسب إليه تعالى بالواسطه لانطباق معنى الجزاء و الامتتان على المؤمنين عليه.

و ليتوافق الأمران المتخالفان صورته فى السياق أعنى قوله: «قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» و قوله: «قِيلَ أَفَعُدُّوا مَعَ الْقَاعِدِينَ».

قوله تعالى: «لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خِلَالًا وَ لَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ» الآيه الخبال هو الفساد و اضطراب الرأى، و الإيضاح: الإسراع فى الشر، و الخلال: البين! و البغى هو الطلب فمعنى يبغونكم الفتنة أى يطلبون لكم أو فيكم الفتنة على ما قيل، و الفتنة هى المحنة كالفرقه و اختلاف الكلمه على ما يناسب الآيه من معانيها، و السماع السريع الإجابه و القبول.

و الآيه فى مقام التعليل لقوله: «وَ لَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ» امتنانا، و لذا جىء بالفصل من غير عطف، و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: «لَقَدْ انبَغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَ قَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَ ظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَ هُمْ كَارِهُونَ» أى أقسم لقد طلبوا المحنة و اختلاف الكلمه و تفرق الجماعه من قبل هذه الغزوه- و هى غزوه تبوك- كما فى غزوه أحد حين رجع عبد الله بن أبى بن سلول بثلاث القوم و خذل النبي ص، و قلبوا لك الأمور بدعوه الناس إلى الخلاف و تحريضهم على المعصيه و خذلانهم عن الجهاد و بعث اليهود و المشركين

على قتال المؤمنين و التجسس و غير ذلك حتى جاء الحق - و هو الحق الذى يجب أن يتبع - و ظهر أمر الله - و هو الذى يريد من الدين - و هم كارهون لجميع ذلك.

و الآيه تستشهد على الآيه السابقه بذكر الأمثال كما يستدل على الأمر بمثله، و توجيه الخطاب إلى النبي ص خاصه بعد عمومه فى الآيه السابقه لاختصاص الأمر فيه بالنبي ص أعنى تقليب الأمور عليه بخلاف ما فى الآيه السابقه من خروجهم فى الناس.

(بحث روائى)

فى الدر المنثور: فى قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ الآية: أخرج ابن مردويه و أبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس قال: لما خرج رسول الله ص من الليل لحق بغار ثور - قال: و تبعه أبو بكر - فلما سمع رسول الله ص حسه خلفه - خاف أن يكون الطلب فلما رأى ذلك أبو بكر تنحج - فلما سمع ذلك رسول الله ص عرفه - فقام له حتى تبعه فأتيا الغار -.

فأصبحت قريش فى طلبه فبعثوا إلى رجل من قافه بنى مدلج - فتبع الأثر حتى انتهى إلى الغار - و على باب شجره فبال فى أصلها القائف - ثم قال: ما جاز صاحبكم الذى تطلبون هذا المكان - قال فعند ذلك حزن أبو بكر - فقال له رسول الله ص:

لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا

-

قال: فمكث هو و أبو بكر فى الغار ثلاثه أيام - يختلف إليهم بالطعام عامر بن فهيره و على يجهزهم - فاشترى ثلاثه أباعر من إبل البحرين - و استأجر لهم دليلا - فلما كان بعض الليل من الليله الثالثه - أتاهم على بالإبل و الدليل فركب رسول الله ص راحلته - و ركب أبو بكر أخرى فتوجهوا نحو المدينه، و قد بعثت قريش فى طلبه.

و فيه، أخرج ابن سعد عن ابن عباس و على و عائشه بنت أبى بكر و عائشه بنت قدامه و سراقه بن جعشم - دخل حديث بعضهم فى بعض - قالوا: "خرج رسول الله ص و القوم جلوس على باب - فأخذ حفته من البطحاء فجعل يذرها على رءوسهم - و يتلو: «يس و القرآن الحكيم» الآيات و مضى -.

فقال لهم قائل ما تنتظرون؟ قالوا: محمدا. قال: قد و الله مر بكم قالوا:

و الله ما أبصرناه و قاموا ينفضون التراب من رءوسهم، و خرج رسول الله (ص) و أبو بكر إلى غار ثور-فدخلاه و ضربت العنكبوت على بابه بعشاش بعضها على بعض-.

و طلبته قريش أشد الطلب-حتى انتهوا إلى باب الغار فقال بعضهم: إن عليه لعنكبوتا قبل ميلاد محمد.

و فى إعلام الورى،-:"فى حديث سراقه بن جعشم مع النبى ص-قال: الذى اشتهر فى العرب يتقاولون فيه الأشعار-و يتفاوضونه فى الديار أنه تبعه-و هو متوجه إلى المدينه طالبا لغرته(ص) ليحظى بذلك عند قريش، حتى إذا أمكنته الفرصه فى نفسه- و أيقن أن قد ظفر ببغيته ساخت قوائم فرسه-حتى تغيبت بأجمعها فى الأرض و هو بموضع جذب-و قاع صفصف فعلم أن الذى أصابه أمر سماوى-فنادى يا محمد: ادع ربك يطلق لى فرسى-و ذمه الله أن لا أدل عليك أحدا، فدعا له فوثب جواده كأنه أفلت من أنشوطه و كان رجلا داهيه، و علم بما رأى أنه سيكون له نبأ فقال: اكتب لى أمانا فكتب له و انصرف-.

قال محمد بن إسحاق: إن أبا جهل قال فى أمر سراقه أبياتا فأجابته سراقه نظما:

أبا حكم و اللات (1) لو كنت شاهدا

لأمر جوادى إذ تسيخ قوائمه

عجبت و لم تشكك بأن محمدا

نبى ببرهان فمن ذا يكاتمه؟

عليك بكف الناس عنه فإننى

أرى أمره يوما ستبدو معالمه":

أقول: و رواه فى الكافى، بإسناده عن معاوية بن عمار عن أبى عبد الله (ع)، و فى الدر المنثور، بعده طرق، و أورده الزمخشري فى ربيع الأبرار.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن سعد و ابن مردويه عن ابن مصعب قال:" أدركت أنس بن مالك و زيد بن أرقم-و المغيرة بن شعبه فسمعهم يتحدثون: أن النبى ص ليله الغار أمر الله شجره-فنبئت فى وجه النبى ص فسترته، و أمر الله العنكبوت فנסجت فى وجه النبى ص فسترته-و أمر الله حمامتين وحشيتين فوقفتا بفم الغار-.

و أقبل فتیان قريش من كل بطن رجل-بعصيهم و أسيافهم و هراويهم-حتى إذا

ص: ٢٩٢

كانوا من النبي ص قدر أربعين ذراعا-فعجل بعضهم فنظر في الغار فرجع إلى أصحابه- فقالوا: ما لك لم تنظر في الغار؟ فقال: رأيت حمامتين بقم الغار- فعرفت أن ليس فيه أحد. الحديث.

و في الدر المنثور، أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر عن الزهري " : في قوله: « إِذْ هَمَّ بِاَلْغَارِ » قال: الغار الذى فى الجبل الذى يسمى ثورا.

أقول: و قد استفاضت الروايات بكون الغار المذكور فى القرآن الكريم هو غار جبل ثور، و هو على أربعة فراسخ من مكة تقريبا.

و فى إعلام الورى، و قصص الأنبياء، " : و بقى رسول الله ص فى الغار ثلاثة أيام- ثم أذن الله تعالى له بالهجرة، و قال: اخرج من مكة يا محمد- فليس لك بها ناصر بعد أبى طالب فخرج رسول الله ص-.

و أقبل راع لبعض قريش يقال له: ابن أريقط- فدعاه رسول الله ص فقال له: يا ابن أريقط آتمنك على دمي؟ فقال: إذن و الله أحرصك و أحفظك و لا أدل عليك، فأين تريد يا محمد؟ قال: يثرب. قال: لأسلكن بك مسلكا لا يهتدى فيها أحد- فقال له رسول الله ص: ائت عليا- و بشره بأن الله قد أذن لى فى الهجرة فهبي لى زادا و راحله-.

و قال له أبو بكر: ائت أسماء ابنتى- و قل لها: تهبي لى زادا و راحلتين، و أعلم عامر بن فهيره أمرنا، و كان من موالى أبى بكر و كان قد أسلم،- و قل له:

ائتنا بالزاد و الراحلتين-.

فجاء ابن أريقط إلى على (ع) فأخبره بذلك- فبعث على بن أبى طالب إلى رسول الله ص بزاد و راحله، و بعث ابن فهيره بزاد و راحلتين، و خرج رسول الله ص من الغار- و أخذ به ابن أريقط على طريق نخله بين الجبال- فلم يرجعوا إلى الطريق إلا- بقديد فنزلوا على أم معبد هناك-.

قال: و قد كانت الأنصار بلغهم خروج رسول الله ص إليهم- و كانوا يتوقعون قدومه إلى أن وافى مسجد قبا- و نزل فخرج الرجال و النساء يستبشرون بقدومه.

أقول: و الأخبار فى تفاصيل قصص الهجرة بالغه فى الكثرة رواها أصحاب

النقل و أرباب السير من الشيعة و أهل السنه، و هى على كثرتها متدافعه مضطربه لا يسع نقدها و استخراج الصافى منها مجال هذا الكتاب، و للدلاله على إجمال القصة فيما أوردناه كفايه و هو كالمتمفق عليه بين أخبار الفريقين.

و فى الدر المنثور، أخرج خيثمه بن سليمان الطرابلسى فى فضائل الصحابه و ابن عساكر عن على بن أبى طالب قال: إن الله ذم الناس كلهم و مدح أبا بكر فقال:

إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ—إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ—إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا

أقول: نقد البحث فى مضامين الآيات الحافه بالقصه و ما ينضم إليها من النقل الصحيح يوجب سوء الظن بهذه الروايه فإن الآيات التى تدم المؤمنين—أو الناس كلهم كما فى الروايه—و إليها تشير آيه الغار بما فيها من قوله: «إِلَّا تَنْصُرُوهُ» هى قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِمَّا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّا قَدْ أَخَذْنَا مِنَ الْأَرْضِ» الآية، و النقل القطعى يدل على أن التناقل المذكور لم يكن من عامه المؤمنين و جميعهم، و إن كثيرا منهم سارع إلى إجابته الرسول ص فيما أمر به من النفر، و إنما تناقل جماعه من الناس من مؤمن و منافق.

فخطاب «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» الشامل لجميع المؤمنين، و الذم المتعقب له إنما هو من خطاب الجماعه بشأن بعضهم كخطاب اليهود بقوله: «فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ:» البقره: ٩١—و غيره، و هو كثير فى القرآن غير أن ديدن القرآن فى مثل هذه الموارد أن لا يضع حق الصالحين و لا أجر المحسنين أعنى الأقلين الذين تعممهم أمثال هذه الخطابات العامه بالذم و التوبيخ فيتدارك أمرهم و يستثيهم و يذكرهم بالجميل كما فعل ذلك فيما سياتى فى هذه السوره من الآيات المادحه للمؤمنين الشاكره لجميل مساعيهم بقوله:

«وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» الآية، و غيره.

و إذا كانت الآيات—و قد نزلت فى غزوه تبوك—تعم المؤمنين جميعا المسارعين فى الخروج و المتناقلين فيه من غير استثناء فهى تشمل عامه الصحابه و المؤمنين و فيهم أبو بكر نفسه غير أنه تعالى تدارك ما لحق بالمسارعين فى الطاعه و الإجابه منهم فى آيات تاليه و شكر سعيهم.

فلو كان قوله فى الآية: «إِلَّا تَنْصُرُوهُ» و هو يشير إلى ما تقدم من حديث

التثاقل و يومئ إليه ذما للناس كلهم كان ذما لأبي بكر كما هو ذم لغيره بعدم نصرتهم للنبي (ص) أو تثاقلهم في نصره، ومع ذلك لا تسمح الآية بالدلالة على نصر أبي بكر له ((ص)) بما فيها من قوله: «فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا» بل لو دل لدل على نصر النبي (ص) لأبي بكر حيث طيب قلبه و سلاه بقوله: «لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا».

على أنك قد عرفت في البيان السابق أن الآية بمقتضى المقام لا تتعرض إلا لنصر الله سبحانه وحده نبيه (ص) بعينه و شخصه، قبال ما يفرض من عدم نصر كافة المؤمنين له و خذلانهم إياه فدلاله الآية على أن النبي (ص) يوم الغار لم ينصره إلا الله سبحانه وحده دلالة قطعية.

و هذا المعنى في نفسه أدل شاهد على أن الضمائر في تتمه جمل الآية: «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيْدِيَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا» للنبي (ص)، و الجمل مسوقه لبيان قيامه تعالى وحده بنصره نصرا عزيزا غيبيا لا صنع فيه لأحد من الناس، و هو إنزال السكينة عليه و تأييده بجنود غائبة عن الأبصار، و جعل كلمه الذين كفروا السفلى و إعلاء كلمه الحق و الله عزيز حكيم.

و أما غير نصره النبي ص من المناقب التي يمدح الإنسان عليها فلو كان هناك شيء من ذلك لكان هو ما في قوله: «ثَانِيًا إِثْنَيْنِ» و ما في قوله: «لِصَاحِبِهِ» فلنسلم أن كون الإنسان ثانيا لا-ثنين أحدهما النبي ص، و كونه صاحبا للنبي ص مذكورا في القرآن بالصحة من المفاخر التي يتنافس لها لكنها من المناقب الاجتماعية التي تقدر لها في المجتمعات قيمه و نفاسه، و أما القرآن الكريم فللقيمه فيه ملاك آخر، و للفضل و الشرف في منطقته معنى آخر متكئ على حقيقه هي أعلى من المقاصد الوضعيه الاجتماعيه، و هي كرامه العبوديه و درجات القرب و الزلفى.

و مجرد الصحابه الجسمانيه و الدخول في العدد لا يدل على شيء من ذلك، و قد تكرر في كلامه تعالى أن التسمي بمختلف الأسماء و التلبس بما يتنافس فيه عامه الناس و يستعظمه النظر الاجتماعى لا قيمه له عند الله سبحانه، و أن الحساب على ما فى القلوب دون ما يترأى من ظواهر الأعمال و تقدمه الأحساب و الأنساب.

و قد أفصح عنه فى مورد أصحاب النبي ص و ملازميه خاصه بأبلغ الإفصاح

قوله تعالى: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا -X إلى أن قال X- وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا»: الفتح: -٢٩ فانظر إلى ما في صدر الآيه من المدح و ما في ذيله من القيد و تدبر.

هذه نبذه مما يتعلق بالآيه و الروايه من البحث، و الزائد على هذا المقدار يخرجنا من البحث التفسيري إلى البحث الكلامي الذي هو خارج عن غرضنا.

و في الدر المنثور^١ أخرج ابن أبي حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقي في الدلائل و ابن عساكر في تاريخه عن ابن عباس: " في قوله: «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ» قال: علي أبي بكر لأن النبي (ص) لم يزل السكينة معه.

و فيه، أخرج الخطيب في تاريخه عن حبيب بن أبي ثابت: " «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ» قال: علي أبي بكر فأما النبي (ص) فقد كانت عليه السكينة.

أقول: قد حقق فيما تقدم أن الضمير راجع إلى النبي ص على ما يهدى إليه السياق، و الروايتان على ما بهما من الوقف ضعيفتان، و لا حجية لقول ابن عباس و لا حبيب لغيرهما.

و أما الحجه التي أورداهما فيهما و هي أن النبي (ص) لم تزل السكينة معه فمدخوله يدفعها قوله تعالى في قصه حين: «ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ» X الآيه X: التوبه: -٢٦ و نظيرته آيه سوره الفتح المشيره إلى قصه الحديدية و هما تصرحان بنزول السكينة عليه ((ص)) في خصوص المورد فليكن الأمر على تلك الوتيره في الغار.

و كان بعضهم (١) أحس بالإشكال فحمل قولهما في الروايتين: أن السكينة لم تزل مع النبي (ص) على معنى آخر و هو كون السكينة ملازمه للنبي (ص) في الغار فيكون قرينه على كون التي نزلت فيه إنما نزلت على صاحبه دونه، و لعل روايه حبيب أقرب دلالة على ما ذكره.

قال بعد إيراد روايه ابن عباس ثم روايه حبيب: و قد أخذ بهذه الروايه بعض مفسري اللغة و المعقول و وضحوا ما فيها من التعليل بأنه (ص) لم يحدث له وقتئذ

ص: ٢٩٦

اضطراب و لا خوف و لا حزن، و قواها بعضهم بأن الأصل فى الضمير أن يعود إلى أقرب مذكور. و ليس هذا بشيء.

و ذهب آخرون إلى أن الضمير يعود إلى النبى (ص) و أن إنزال السكينه عليه لا يقتضى أن يكون خائفا أو مضطربا أو متزججا. و هذا ضعيف لعطف إنزال السكينه على ما قبلها الدال على وقوعه بعده و ترتبه عليه، و أن نزولها وقع بعد قوله لصاحبه: لا تحزن. انتهى.

أما ما ذكره من عدم طرو خوف و اضطراب عليه ((ص)) وقتئذ فإن كانوا استفادوه من عدم ذكر شيء من ذلك فى الآيه أو فى روايه معتمد عليها فكلامه تعالى فى قصه حنين و الحديبيه أيضا خال عن ذكر النبى (ص) بخوف أو حزن أو اضطراب، و لم ترد روايه معتمد عليها تدل على ذلك فكيف استقام ذكر نزول السكينه عليه (ص) فيهما؟.

و إن قالوا باستلزام إنزال السكينه الاضطراب و الخوف و الحزن فهو ممنوع كما تقدم كيف؟ و نزول نعمه من النعم الإلهيه لا يتوقف على سبق الاتصاف بحاله مضاده لها و نغمه مقابله لها كنزول الرحمه بعد الرحمه و النعمه بعد النعمه و الإيمان و الهدايه بعد الإيمان و الهدايه و غير ذلك، و قد نص القرآن الكريم بأمر كثيره من هذا القبيل.

و أما قوله: إن رجوع الضمير إلى النبى (ص) ضعيف لعطف إنزال السكينه على ما قبلها الدال على وقوعه بعده و ترتبه عليه و أن نزولها وقع بعد قوله لصاحبه:

لا تحزن. انتهى.

ففيه: أنه لا- ريب أن فاء التفریع تدل على ترتب ما بعدها على ما قبلها و وقوعه بعده لكن بعديه رتبه لا بعديه زمانيه و لم يقل أحد بوجوب كونها زمانيه دائما.

□
فمن الواجب فيما نحن فيه أن يترتب قوله: «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيْدَهُ» على ما تقدم عليه من الكلام لا على ما هو أقرب إليه من غيره إلا على القول بأن الأصل فى الضمير أن يعود إلى أقرب مذكور، و قد ضعفه فى سابق كلامه.

و الذى يصلح من سابق لیتعلق به التفریع المذكور هو قوله: فقد نصره الله فى كذا و كذا وقتا و تفرع هذه الفروع عليه من قبيل تفرع التفصيل على الإجمال و السياق على استقامته: «فقد نصره الله فى وقت كذا فأنزل سكينته عليه و أيده

بجنود لم تروها و جعل كلمه الذين كفروا السفلى.

فظهر أن ما أجاب به أخيرا هو عين ما ضعفه أولا من حديث أصل قرب المرجع من الضمير- ذاك الأصل الذى لا أصل له- كرهه
ثانيا بتغيير ما فى اللفظ.

و من هنا يظهر جهه المناقشه

فى روايه أخرى رواها فى الدر المنثور، عن ابن مردويه عن أنس بن مالك «قال: دخل النبى (ص) و أبو بكر غار حراء- فقال أبو
بكر للنبى (ص) لو أن أحدهم يبصر موضع قدمه لأبصرنى و إياك- فقال: ما ظنك باثنين الله ثالثهما- إن الله أنزل سكينته عليك و
أيدنى بجنود لم تروها.

على أن الروايه تذكر غار حراء و قد ثبت بالمستفيض المتكاثر من الأخبار أن الغار كان غار ثور لا غار حراء.

على أن الروايه مشتمله على تفكيك السياق صريحا بما فيها من قوله: أنزل سكينته عليك و أيدنى بجنود، إلخ.

و قد أورد الآلوسى فى روح المعانى، الروايه هكذا: «إن الله أنزل سكينته عليك و أيدك بجنود لم تروها، فأرجع الضميرين إلى
أبى بكر دون النبى (ص).

و لا ندرى أى اللفظين هو الأصل و أيهما المحرف غير أنه يضاف على روايه «و أيدك بجنود لم تروها» إلى ما ذكر من الإشكال
آنفا إشكالات أخرى تقدمت فى البيان السابق مضافا إلى إشكال آخر جديد من جهه قوله: «لم تروها» بخطاب الجمع و لا
مخاطب يومئذ جمعا.

و فى تفسير القمى، فى قوله تعالى: «لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا» فى روايه أبى الجارود عن أبى جعفر (ع): فى قوله: «لَوْ
كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا» يقول: غنيمه قريبه «لَاتَّبَعُوكَ».

و فى تفسير العياشى، عن زراره و حمران و محمد بن مسلم، عن أبى جعفر و أبى عبد الله (ع): فى قول الله: «لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَ
سَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ» الآية- إنهم يستطيعون و قد كان فى علم الله- أنه لو كان عرضا قريبا و سفرا قاصدا لفعلوا:

أقول: و رواه الصدوق فى المعانى، بإسناده عن عبد الأعلى بن أعين عن أبى عبد الله (ع) مثله .

و فى تفسير القمى، " فى قوله تعالى: «و لَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ» يعنى إلى

تبوك و سبب ذلك-أن رسول الله ص لم يسافر سفرا أبعد منه و لا أشد منه-.

و كان سبب ذلك أن الصيافه كانوا يقدمون المدينة من الشام-و معهم الدرموك و الطعام.و هم الأنباط فأشاعوا بالمدينة أن الروم قد اجتمعوا-يريدون غزو رسول الله ص فى عسكر عظيم،و أن هرقل قد سار فى جمع جنوده،و جلب معهم غسان و جذام و بهراء و عامله،و قد قدم عساكره البلقاء و نزل هو حمص-.

فأرسل رسول الله ص أصحابه إلى تبوك و هى من بلاد البلقاء،و بعث إلى القبائل حوله،و إلى مكه،و إلى من أسلم من خزاعه و مزينه و جهينه فحثهم على الجهاد-.

و أمر رسول الله ص بعسكره فضرب فى ثنيه الوداع،و أمر أهل الجده أن يعينوا من لا- قوه به،و من كان عنده شىء أخرجه،و حملوا و قووا و حثوا على ذلك-.

و خطب رسول الله ص و قال بعد حمد الله و الثناء عليه:أيها الناس إن أصدق الحديث كتاب الله.و أولى القول كلمه التقوى،و خير الملل مله إبراهيم، و خير السنن سنه محمد،و أشرف الحديث ذكر الله،و أحسن القصص هذا القرآن، و خير الأمور عزائمها و شر الأمور محدثاتها،و أحسن الهدى هدى الأنبياء،و أشرف القتلى الشهداء،و أعمى العمى الضلاله بعد الهدى،و خير الأعمال ما نفع،و خير الهدى ما اتبع،و شر العمى عمى القلب و اليد العليا خير من اليد السفلى،و ما قل و كفى خير مما كثر و ألهى،و شر المعذره محضر الموت،و شر الندامه يوم القيامه، و من الناس من لا يأتى الجمعه إلا نذرا.و منهم من لا يذكر الله إلا هجرا،و من أعظم الخطايا اللسان الكذب،و خير الغنى غنى النفس،و خير الزاد التقوى،و رأس الحكمه مخافه الله،و خير ما ألقى فى القلب اليقين،و الارتياب من الكفر،و التباعد من عمل الجاهليه،و الغلول من قيح جهنم،و السكر جمر النار،و الشعر من إبليس، و الخمر جماع الإثم،و النساء حبائل إبليس،و الشباب شعبه من الجنون،و شر المكاسب كسب الربا،و شر الأكل أكل مال اليتيم،و السعيد من وعظ بغيره،و الشقى من شقى فى بطن أمه،و إنما يصير أحدكم إلى موضع أربعه أذرع،و الأمر إلى آخره و ملاك الأمر خواتيمه،و أربى الربا الكذب،و كلما هو آت قريب،و سباب المؤمن فسوق،و قتال المؤمن كفر،و أكل لحمه من معصيه الله،و حرمة ماله كحرمة دمه، و من توكل على الله كفاه،و من صبر ظفر،و من يعف يعف الله عنه،و من كظم الغيظ

آجره الله، و من يصبر على الرزية يعوضه الله، و من تبع السمعه يسمع الله به، و من يصم يضاعف الله له، و من يعص الله يعذبه، اللهم اغفر لى و لأمتى. اللهم اغفر لى و لأمتى أستغفر الله لى و لكم-.

قال: فرغب الناس فى الجهاد لما سمعوا هذا من رسول الله، و قدمت القبائل من العرب ممن استنفرهم، و قعد عنه قوم من المنافقين و غيرهم، و لقى رسول الله ص الجد بن قيس فقال له: يا أبا وهب ألا تنفر معنا فى هذه الغزاه؟ لعلك إن تحتفد من بنات الأصفر فقال يا رسول الله: و الله إن قومى ليعلمون أن ليس فيهم أشد عجباً بالنساء منى- و أخاف إن خرجت معك أن لا أصبر إذا رأيت بنات الأصفر- فلا تفتنى و ائذن لى أن أقيم. و قال للجماعه من قومه: لا تخرجوا فى الحر-.

فقال ابنه: ترد على رسول الله و تقول له ما تقول- ثم تقول لقومك: لا تنفروا فى الحر- و الله لينزلن الله فى هذا قرآنا يقرؤه الناس إلى يوم القيامة- فأنزل الله على رسوله ص فى ذلك: «و مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لى وَ لَا- تَفْتِنى- أَلَا- فى الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمْحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ».

ثم قال الجد بن قيس: أ يطمع محمد أن حرب الروم مثل حرب غيرهم. لا يرجع من هؤلاء أحد أبدا.

أقول: و قد روى هذه المعانى فى روايات أخرى كثيرة من طرق الشيعة و أهل السنه.

و فى العيون، بإسناده عن على بن محمد بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون و عنده الرضا على بن موسى (ع)- فقال له: يا ابن رسول الله أ ليس من قولك: إن الأنبياء معصومون؟ قال: بلى، فقال له المأمون- فيما سأله- يا أبا الحسن فأخبرنى عن قول الله تعالى: «عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ».

قال الرضا (ع): «- هذا مما نزل: إياك أعنى و اسمعى يا جاره، خاطب الله تعالى بذلك نبيه و أراد به أمته، و كذلك قوله عز و جل: «لئن أشركت ليحبطن عملك و لتكونن من الخاسرين» و قوله تعالى: «و لو لا- أن تبنت آك لقد كذبت توكن إليهم شيئاً قليلاً» قال: صدقت يا ابن رسول الله.

أقول: و مضمون الروايه ينطبق على ما قدمناه فى بيان الآيه، دون ما ذكره

من كون إذنه (ص) لهم في القعود من قبيل ترك الأولى فإنه لا يستقيم معه كون الآية من قبيل «إياك أعنى و اسمعى يا جاره».

و في الدر المنثور، أخرج عبد الرزاق في المصنف؛ و ابن جرير، عن عمرو بن ميمون الأودي قال: "اثنتان فعلهما رسول الله ص لم يؤمر فيهما بشيء: إذنه للمنافقين، و أخذه من الأسارى-فأنزل الله: «عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَبْتَ لَهُمْ» الآية.

أقول: و قد تقدم الكلام على مضمون الرواية.

و في تفسير القمى، " في قوله تعالى: «و لَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً» الآية- و ما بعدها قال: و تخلف عن رسول الله ص أهل نيات- و بصائر لم يكن يلحقهم شك و لا ارتياب- و لكنهم قالوا: نلحق برسول الله ص-.

منهم أبو خيثمه و كان قويا و كان له زوجتان و عريشان، و كانتا زوجته قد رشتا عريشيه، و بردتا له الماء، و هيأتا له طعاما فأشرف على عريشيه- فلما نظر إليهما قال: لا و الله ما هذا بإنصاف، رسول الله قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر- قد خرج في الفيح و الريح، و قد حمل السلاح يجاهد في سبيل الله، و أبو خيثمه قوى قاعد في عريشه و امرأتين حسناوين- لا و الله ما هذا بإنصاف-.

ثم أخذ ناقته فشد عليها رحله و لحق برسول الله ص- فنظر الناس إلى راكب على الطريق- فأخبروا رسول الله ص بذلك- فقال رسول الله ص: كن أبا خيثمه فأقبل، و أخير النبي بما كان منه فجزاه خيرا و دعا له-.

و كان أبو ذر تخلف عن رسول الله ثلاثة أيام- و ذلك أن جملة كان أعجف، فلحق بعد ثلاثة أيام به و وقف عليه جملة في بعض الطريق- فتركه و حمل ثيابه على ظهره فلما ارتفع النهار نظر المسلمون إلى شخص مقبل- فقال رسول الله ص: كن أبا ذر فقالوا:

هو أبو ذر فقال رسول الله ص: أدر كوه فإنه عطشان فأدر كوه بالماء-.

و وافى أبو ذر رسول الله ص و معه إداوه فيها ماء- فقال رسول الله ص:

يا أبا ذر معك ماء و عطشت؟ قال: نعم يا رسول الله- بأبى أنت و أمى انتهيت إلى صخره عليها ماء السماء فذقته- فإذا هو عذب بارد فقلت: لا أشربه حتى يشرب رسول الله-.

فقال رسول الله ص: يا أبا ذر رحمك الله، تعيش وحدك، و تموت وحدك،

و تبعث وحدك،و تدخل الجنه وحدك،يسعد بك قوم من أهل العراق-يتولون غسلك و تجهيزك و الصلاة عليك و دفنك-.

ثم قال:و قد كان تخلف عن رسول الله ص قوم من المنافقين-و قوم من المؤمنين مستبصرين لم يعثر عليهم فى نفاق:منهم كعب بن مالك الشاعر-و مراره بن الربيع و هلال بن أميه الرافعى-فلما تاب الله عليهم قال كعب.ما كنت قط أقوى منى فى ذلك الوقت الذى خرج رسول الله ص إلى تبوك،و ما اجتمعت لى راحتان قط إلا فى ذلك اليوم،و كنت أقول:أخرج غدا بعد غد فإنى مقوى،و توانيت و ثقلت بعد خروج النبى ص أياما أدخل السوق-و لا أقضى حاجه فلقيت هلال بن أميه و مراره بن الربيع- و قد كانا تخلفا أيضا فتوافقنا أن ن بكر إلى السوق؛فلم نقض حاجه فما زلنا نقول:نخرج غدا و بعد غد حتى بلغنا إقبال رسول الله(ص)فندمنا-.

فلما وافى رسول الله ص استقبلناه نهئته السلامه-فسلمنا عليه فلم يرد علينا السلام و أعرض عنا،و سلمنا على إخواننا فلم يردوا علينا السلام-فبلغ ذلك أهلونا فقطعوا كلامنا؛و كنا نحضر المسجد فلا- يسلم علينا أحد و لا- يكلمنا-فجاءت نساؤنا إلى رسول الله(ص)فقلن:قد بلغنا سخطك على أزواجنا أ فنعزلهم؟فقال رسول الله(ص):لا تعزلنهم و لكن لا يقربوكن-.

فلما رأى كعب بن مالك و صاحبه ما قد حل بهم قالوا:ما يقعدنا بالمدينه و لا- يكلمنا رسول الله(ص)و لا- إخواننا و لا أهلونا؟فهللوا نخرج إلى هذا الجبل- فلا نزال فيه حتى يتوب الله علينا أو نموت-.

فخرجوا إلى ذباب-جبل بالمدينه-فكانوا يصومون و كان أهلوهم يأتونهم بالطعام فيضعونه ناحيه ثم يولون عنهم و لا يكلمونهم-.

فبقوا على هذا أياما كثيره يبكون بالليل و النهار-و يدعون الله أن يغفر لهم فلما طال عليهم الأمر-قال لهم كعب:يا قوم قد سخط الله علينا و رسوله،و قد سخط علينا أهلونا، و إخواننا-قد سخطوا علينا فلا يكلمنا أحد-فلم لا يسخط بعضنا على بعض؟فتفرقوا فى الجبل-و حلفوا أن لا- يكلم أحد منهم صاحبه حتى يموت-أو يتوب الله عليه فبقوا على ذلك ثلاثه أيام،و كل واحد منهم فى ناحيه من الجبل-لا يرى أحد منهم صاحبه و لا يكلمه.

فلما كان في الليلة الثالثة، ورسول الله ص في بيت أم سلمه-نزلت توبتهم على رسول الله ص قوله: «لقد تاب الله بالنبي على المهاجرين والأنصار-الذين اتبعوه في ساعه العسره» قال الصادق (ع): هكذا نزلت و هو أبو ذر و أبو خيثمه و عمير بن وهب-الذين تخلفوا ثم لحقوا برسول الله ص-.

ثم قال في هؤلاء الثلاثة: «وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا» فقال العالم (ع): إنما أنزل:

على الثلاثة-الذين خالفوا و لو خلفوا لم يكن عليهم عيب «حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ» حيث لا يكلمهم رسول الله ص-ولا-إخوانهم و لا-أهلهم فضاقت عليهم المدينة-حتى خرجوا منها «وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ» حيث حلفوا أن لا-يكلم بعضهم بعضا-فتفرقوا و تاب الله عليهم لما عرف من صدق نياتهم.

أقول: و سياتى الكلام فى الآيتين و ما ورد فيهما من الروايات.

و فى تفسير العياشى، عن المغيرة قال: سمعته يقول: فى قول الله عز و جل: «وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً» قال: يعنى بالعهده النيه «يقول:» لو كان لهم نيه لخرجوا.

أقول: الروايه على ضعفها و إرسالها و إضمارها لا تنطبق على لفظ الآية و الله أعلم.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن إسحاق و ابن المنذر عن الحسن البصرى قال: "كان عبد الله بن أبى و عبد الله بن نبتل-و رفاعه بن زيد بن تابوت من عظماء المنافقين، و كانوا ممن يكيد الإسلام و أهله، و فيهم أنزل الله: «لَقَدْ ابْتِغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَ قَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ» إلى آخر الآية.

[سوره التوبه (٩): الآيات ٤٩ الى ٦٣]

إشارة

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ إِنَّمَا نَزَّلْنَا لِي وَ لَا تَفْتِنِي إِلَّا- فِى الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩) إِنْ تُصِيبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَ إِنْ تُصِيبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلِهِ وَ يَتَوَلَّوْا وَ هُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنْ مَا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥٢) قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) وَ مَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا- أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ وَ لَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَ هُمْ كَسَالَى وَ لَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَ هُمْ كَارِهُونَ (٥٤) فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَ لَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كَافِرُونَ (٥٥) وَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْهُمْ لَمِنْكُمْ وَ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَ لَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مَدَاجِلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَ هُمْ يَجْمَعُونَ (٥٧) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِى الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَ إِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسِيحُطُونَ (٥٨) وَ لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ قَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ رَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩) إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَ الْمَسْكِينِ وَ الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَ فِى الرِّقَابِ وَ الْعَارِمِينَ وَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) وَ مِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ

النَّبِيِّ وَيَقُولُونَ هُوَ أَذُنٌ قُلٌّ أَذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ بِإِلَهِهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) يَخْلِفُونَ بِإِلَهِهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ
اللَّهُ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣)

الآيات تعقب القول فى المنافقين و بيان حالهم و فيها ذكر أشياء من أقوالهم و أفعالهم، و البحث عما يكشف عنه من خباياث أو صافهم الباطنه و اعتقاداتهم المبنيه على الضلال.

قوله تعالى: « وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَ لَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا » الآية الفتنه هاهنا-على ما يهدى إليه السياق- إما الإلقاء إلى ما يفتتن و يغربه، و إما الإلقاء فى الفتنه و البليه الشامله.

و المراد على الأول: ائذن لى فى القعود و عدم الخروج إلى الجهاد، و لا تلقنى فى الفتنه بتوصيف ما فى هذه الغزوه من نفائس الغنائم و مشتبهات الأنفس فافتتن بها و اضطر إلى الخروج، و على الثانى ائذن لى و لا تلقنى إلى ما فى هذه الغزوه من المحنه و المصيبه و البليه.

فأجاب الله عن قولهم بقولهم: « أَلَا- فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا » و معناه أنهم يحترزون بحسب زعمهم عن فتنه مترقبه من قبل الخروج، و قد أخطوا فإن الذى هم عليه من الكفر و النفاق و سوء السريره، و من آثاره هذا القول الذى تفوهوا به هو بعينه فتنه سقطوا فيها فقد فتنهم الشيطان بالغرور، و وقعوا فى مهلكه الكفر و الضلال و فتنته.

هذا حالهم فى هذه النشأه الدينويه و أما فى الآخره فإن جهنم لمحيطه بالكافرين على حذو إحاطه الفتنه بهم فى الدنيا و سقوطهم فيها فقوله: « أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا » و قوله: « وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ » كأنهما معا يفيدان معنى واحدا و هو أن هؤلاء واقعون فى الفتنه و التهلكه أبدا فى الدنيا و الآخره.

و يمكن أن يفهم من قوله: «وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ» الإحاطه بالفعل دون الإحاطه الاستقباليه كما تهدي إليه الآيات الداله على تجسم الأعمال.

قوله تعالى: «إِنْ تُصِيبْكَ حَسَبٌ مِّنْهُ تَسْؤُهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ» المراد بالحسنه و السيئه بقرينه السياق ما تتعقبه الحروب و المغازى لأهلها من حسنه الفتح و الظفر و الغنيمه و السبي، و من سيئه القتل و الجرح و الهزيمه.

و قوله: «يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ» كناية عن الاحتراز عن الشر قبل وقوعه كأن أمرهم كان خارجا من أيديهم فأخذوه و قبضوا و تسلطوا عليه فلم يدعوه يفسد و يضيع.

فمعنى الآية إن هؤلاء المنافقين هواهم عليك: إن غنمت و ظفرت في وجهك هذا ساءهم ذلك، و إن قتلت أو جرحت أو أصبت بأى مصيبه أخرى قالوا قد احترزنا عن الشر من قبل و تولوا و هم فرحون.

و قد أجاب الله سبحانه عن ذلك بجوابين اثنين في آيتين: قوله: «قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا» إلخ و قوله: «قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ» إلخ.

قوله تعالى: «قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ» محصله أن ولايه أمرنا إنما هي لله سبحانه فحسب-على ما يدل عليه قوله: «هُوَ مَوْلَانَا» من الحصر-لا إلى أنفسنا و لا إلى شىء من هذه الأسباب الظاهره، بل حقيقه الأمر لله وحده و قد كتب كتابه حتم ما سيصينا من خير أو شر أو حسنه أو سيئه، و إذا كان كذلك فعلينا امتثال أمره و السعى لإحياء أمره و الجهاد في سبيله و لله المشيه فيما يصينا في ذلك من حسنه أو سيئه فما على العبيد إلا- ترك التدبير و امتثال الأمر و هو التوكل.

و بذلك يظهر: أن المراد بقوله: «وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ» ليس كلاما مستأنفا بل معطوف على ما قبله متمم له، و المعنى أن ولايه أمرنا لله و نحن مؤمنون به، و لازمه أن نتوكل عليه و نرجع الأمر إليه من غير أن نختار لأنفسنا شيئا من الحسنه و السيئه فلو أصابتنا حسنه كان المن له و إن أصابتنا سيئه كانت المشيه و الخيره له، و لا لوم علينا و لا شماتة تتعلق بنا، و لا حزن و لا مساءه يطرأ على قلوبنا.

وقد قال تعالى: «مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لِكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ» الحديد: ٢٣، وقال: «مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ:» التغابن: ١١ وقال: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا:» سورة محمد: ١١، وقال: «وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ:» آل عمران: ٦٨، وقال: «فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ:» الشورى: ٩.

و الآيات- كما ترى- تتضمن أصول هذه الحقيقة التي تنبئ عنه الآيه التي نتكلم فيها جوابا عن وهم المنافقين، وهي أن حقيقة الولايه لله سبحانه ليس إلى أحد من دونه من الأمر شيء فإذا آمن الإنسان به و عرف مقام ربه علم ذلك و كان عليه أن يتوكل على ربه و يرجع إليه حقيقه المشيه و الخيره فلا يفرح بحسنه أصابته، و لا يحزن لسيئه أصابته.

و من الجهل أن يسوء الإنسان ما أصابت عدوه من حسنه أو يسره ما أصابته من سيئه فليس له من الأمر شيء، و هذا هو الجواب الأول عن مساءتهم بما أصاب المؤمنين من الحسنه و فرحهم بما أصابتهم من السيئه.

و ظاهر كلام بعض المفسرين أن المولى في الآيه بمعنى الناصر، و كذا ظاهر كلام بعضهم: أن قوله: «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ» جملة مستأنفه أمر الله فيها المؤمنين بالتوكل عليه، و السياق المشهود من الآيتين لا يساعد عليه.

قوله تعالى: «قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ» الآيه الحسينيان هما الحسنه و السيئه على ما يدل عليه الآيه الأولى الحاكيه أنهم يسوؤهم ما أصاب النبي ص من حسنه، و تسرههم ما أصابه من سيئه فيقولون قد أخذنا أمرنا من قبل فهم على حال تربص ينتظرون ما يقع به و بالمؤمنين من الحسنه أو السيئه.

و الحسنه و السيئه كلتاهما حسنيان بحسب النظر الديني فإن في الحسنه حسنه الدنيا و عظيم الأجر عند الله، و في السيئه التي هي الشهاده أو أى تعب و عناء أصابهم مرضاه الله و ثواب خالد دائم.

و معنى الآيه أنا نحن و أنتم كل يتربص بصاحبه غير أنكم تتربصون بنا إحدى خصلتين كل واحده منهما خصله حسنى و هما: الغلبه على العدو مع الغنيمه، و الشهاده

فى سبيل الله، و نحن نتربص بكم أن يعذبكم الله بعذاب من عنده كالعذاب السماوى أو بعذاب يجرى بأيدىنا كأن يأمرنا بقتالكم و تطهير الأرض من قذاره وجودكم فنحن فائزون على أى حال، إن وقع شىء مما تربصتم سعدنا، و إن وقع ما تربصنا سعدنا فتربصوا إنا معكم متربصون، و هذا جواب ثان عن المنافقين.

و قد ذكر فى الآيه الأولى إصابه الحسنه و السيئه النبى ص، و فى مقام الجواب فى الآيتين الثانيه و الثالثه إصابتهما النبى و المؤمنين جميعا لملازمتهم إياه و مشاركتهم إياه فيما أصابه من حسنه أو سيئه.

قوله تعالى: « قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ كُفْرًا فَاسِقِينَ » لفظ أمر فى معنى الشرط. و الترديد للتعميم و لفظ الأمر فى هذه الموارد كناية عن عدم النهى و سد السبيل إيماء إلى أن الفعل لغو لا يترتب عليه أثر، و قوله: « لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ » تعليل للأمر كما أن قوله تعالى: « إِنْ كُنْتُمْ كُفْرًا فَاسِقِينَ » تعليل لعدم القبول.

و معنى الآيه: لا- نمنعكم عن الإنفاق فى حال من طوع أو كره فإنه لغو غير مقبول لأنكم فاسقون، و لا يقبل عمل الفاسقين، قال تعالى: « إِنْ كُنْتُمْ كُفْرًا فَاسِقِينَ » المائدة: ٢٧ و التقبل أبلغ من القبول.

قوله تعالى: « وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ » إلخ الآيه تعليل تفصيلى لعدم تقبل نفقاتهم، و عبارته أخرى بمنزله الشرح لفسقهم، و قد عدت الكفر بالله تعالى و رسوله و الكسل فى إقامة الصلاة و الكره فى الإنفاق أركاناً لنفاقهم.

قوله تعالى: « فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَ لَا أَوْلَادُهُمْ إِنْ مَاتُوا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا » إلى آخر الآيه، الإعجاب بالشىء السرور بما يشاهد فيه من جمال أو كمال أو نحوهما، و الزهوق خروج الشىء بصعوبه و أصله الهلاك على ما قيل.

و قد نهى الله سبحانه نبيه ص عن الإعجاب بأموال المنافقين و أولادهم أى بكثرتها على ما يعطيه السياق، و علل ذلك بأن هذه الأموال و الأولاد- و هى شاغله للإنسان لا محاله- ليست من النعمة التى تهتف لهم بالسعادة بل من النعمة التى تجرهم إلى الشقاء فإن الله و هو الذى خولهم إياها إنما أراد بها تعذيبهم فى الحياه الدنيا، و توفيقهم و هم كافرون.

فإن الحياه التي يعدها الموجود الحي سعادته لنفسه و راحه لذاته إنما تكون سعادته فيها الراحة و البهجه إذا جرت على حقيقه مجراها و هو أن يتلبس الإنسان بواقع آثارها من العلم النافع و العمل الصالح من غير أن يشتغل بغير ما فيه خيره و نفعه، فهذه هي الحياه التي لا- موت فيها، و الراحة التي لا تعب معها، و اللذته التي لا ألم دونها، و هي الحياه في ولايه الله، قال تعالى: «أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» يونس:- ٦٢.

و أما من اشتغل بالدنيا و جذبته زيناتها من مال و بنين إلى نفسها و غرته الآمال و الأمانى الكاذبه التي تتراءى له منها و استهوته الشياطين فقد وقع في تناقضات القوى البدنيه و تراحمات اللذائذ الماديه، و عذب أشد العذاب بنفس ما يرى فيه سعادته و لذته فمن المشاهد المعاین أن الدنيا كلما زادت إقبالا على الإنسان، و متعته بكثره الأموال و الأولاد أبعدته عن موقف العبوديه و قربته إلى الهلا- كه و عذاب الروح فلا- يزال يتقلب بين هذه الأسباب الموافقه و المخالفه، و الأوضاع و الأحوال الملائمه و المزاحمه، فالذى يسميه هؤلاء المغفلون سعه العيش هو بالحقيقه ضنك كما قال تعالى: «وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى». قال رب لم حشرتني أعمى و قد كنت بصيرا. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها و كذلك اليوم تنسى:» طه:- ١٢٦.

فغايه إعراض الإنسان عن ذكر ربه، و انكبابه على الدنيا يبتغى به سعادته الحياه و راحه النفس و لذته الروح أن يعذب بين أطباق هذه الفتن التي يراها نعماء، و يكفر بربه بالخروج عن زى العبوديه كما قال: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ تَزَهَّقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كَافِرُونَ» و هو الإملاء و الاستدراج الذين يذكرهما في قوله: «سَنَسِيحٌ تَدْرِيحُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ» الأعراف:- ١٨٣.

قوله تعالى: «وَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَ مَا هُمْ مِنْكُمْ» إلى آخر الآيتين، الفرق انزعاج النفس من ضرر متوقع، و الملجأ الموضع الذى يلتجأ إليه و يتحصن فيه، و المغار المحل الذى يغور فيه الإنسان فيستره عن الأنظار، و يطلق على الغار و هو الثقب الذى يكون فى الجبال، و المدخل من الافتعال الطريق الذى يتدسس بالدخول فيه، و الجماع مضى المار مسرعا على وجهه لا يصرفه عنه شىء، و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: «وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ

«اللمز العيب، وإنما كانوا يعيبنه فيها إذا لم يعطهم منها لعدم استحقاقهم ذلك أو لأسباب أخر كما يدل عليه ذيل الآية.

قوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، لَوُ» للتمنى وقوله: «رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ» كأن الرضى ضمن معنى الأخذ ولذا عدى بنفسه أى أخذوا ذلك راضين به أو رضوا آخذين ذلك، والإيتاء الإعطاء، وحسبنا الله أى كفانا فيما نرغب إليه ونأمله.

وقوله: «سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ» بيان لما يرغب إليه ويطمع فيه وليس إخبارا عما سيكون، وقوله: «إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ» كالتعليل لقوله:

«سَيُؤْتِينَا اللَّهُ» إلى آخر الآية.

والمعنى و كان مما يتمنى لهم أن يكونوا أخذوا ما أعطاهم الله و رسوله بأمر منه من مال الصدقات أو غيره، وقالوا كفانا الله سبحانه من سائر الأسباب و نحن راغبون فى فضله و نطمع أن يؤتينا من فضله و يؤتينا رسوله.

و فى الآية ما لا يخفى من لطيف البيان حيث نسب الإيتاء إلى الله و إلى رسوله و خص الكفايه و الفضل و الرغبة بالله على ما هو لازم دين التوحيد.

قوله تعالى: «إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَ الْمَسْكِينِ وَ الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَ فِي الرِّقَابِ وَ الْغَارِمِينَ وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ» الآية، بيان لموارد تصرف إليها الصدقات الواجبه و هى الزكوات بدليل قوله فى آخر الآية: «فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ» و هى ثمانيه. و ارد على ظاهر ما يعطيه سياق الآية و لازمه أن يكون الفقير و المسكين موردين أحدهما غير الآخر.

و قد اختلفوا فى الفقير و المسكين أنهما صنف واحد أو صنفان، ثم على الثانى فى معناهما على أقوال كثيره لا ينتهى أكثرها إلى حجه بينه، و الذى يعطيه ظاهر لفظهما أن الفقير هو الذى اتصف بالعدم و فقدان ما يرفع حوائجه الحيويه من المال قبال الغنى الذى اتصف بالغنى و هو الجده و اليسار.

و أما المسكين فهو الذى حلت به المسكنه و الذله مضافه إلى فقدان المال و ذلك إنما يكون بأن يصل فقره إلى حد يستذله بذلك كمن لا يجد بدا من أن يبذل ماء

وجهه و يسأل كل كريم و لثيم من شدة الفقر و كالأعمى و الأعرج فالمسكين أسوأ حالا من الفقير.

و الفقير و المسكين و إن كانا بحسب النسبه أعم و أخص فكل مسكين من جهه الحاجه الماليه فقير و لا عكس غير أن العرف يراهما صنفين متقابلين لمكان مغايره الوصفين فى نفسهما فلا يرد أن ذكر الفقير على هذا المعنى مغن عن ذكر المسكين لمكان أعميته و ذلك أن المسكنه هى وصف الذله كالزمانه و العرج و العمى و إن كان بعض مصاديقه نهايه الذله من جهه فقد المال.

و أما العاملون عليها أى على الصدقات فهم الساعون لجمع الزكوات و جباتها.

و أما المؤلفه قلوبهم فهم الذين يؤلف قلوبهم بإعطاء سهم من الزكاه ليسلموا أو يدفع بهم العدو أو يستعان بهم على حوائج الدين.

و أما قوله: «و فى الرقاب» فهو متعلق بمقدر و التقدير: و المصرف فى الرقاب أى فى فكها كما فى المكاتب الذى لا يقدر على تأديه ما شرطه لمولاه على نفسه لعتقه أو الرق الذى كان فى شده.

و قوله: «و الغارمين» أى و للصراف فى الغارمين الذين ركبتهم الديون فيقضى ديونهم بسهم من الزكاه.

و قوله: «و فى سبيل الله» أى و للصراف فى سبيل الله، و هو كل عمل عام يعود عائده إلى الإسلام و المسلمين و تحفظ به مصلحه الدين و من أظهر مصاديقه الجهاد فى سبيل الله، و يلحق به سائر الأعمال التى تعم نفعه و تشمل فائده كإصلاح الطرق و بناء القناطر و نظائر ذلك.

و قوله: «و ابن السبيل» أى و للصراف فى ابن السبيل و هو المنقطع عن وطنه الفاقد لما يعيش به و إن كان غنيا ذا يسار فى بلده فيرفع حاجته بسهم من الزكاه.

و قد اختلف سياق العد فيما ذكر فى الآيه من الأصناف الثمانية فذكرت الأربعة الأول باللام: «للفقراء و المساكين و العاملين عليهما و المؤلفه قلوبهم» ثم غير السياق فى الأربعة الباقية فقيل: «و فى الرقاب و الغارمين و فى سبيل الله و ابن السبيل» فإن ظاهر السياق الخاص بهذه الأربعة أن التقدير: و فى الرقاب و فى الغارمين و فى سبيل الله و فى ابن السبيل.

أما الأربعة الأول: «للفقراء و المساكين و العاملين عليهما و المؤلفه قلوبهم» فاللام

فيها للملك بمعنى الاختصاص في التصرف فإن الآيه بحسب السياق كالجواب عن المنافقين الذين كانوا يطمعون في الصدقات وهم غير مستحقين لها و كانوا يلمزون النبي ص في حرمانهم منها فأجيبوا بالآيه أن للصدقات مواضع خاصه تصرف فيها ولا تتعداها، و الآيه ليست بظاهره في أزيد من هذا المقدار من الاختصاص.

و أما كون ملكهم للصدقات هو الملك بمعناه المعروف فقها؟ و كذا حقيقه هذا الملك مع كون المالين أصنافا بعناوينهم الصنفية لا ذوات شخصيه؟ و نسبه سهم كل صنف إلى بقيه السهام؟ فإنما هي مسائل فقهيه خارجه عن غرضنا، و قد اختلفت أقوال الفقهاء فيها اختلافا شديدا فليرجع إلى الفقه.

و أما الأربعة الباقية: « وَ فِي الرُّقَابِ وَ الْغَارِمِينَ وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ » فقد قيل في تغيير السياق فيها و في تأخيرها عن الأربعة الأول ووجه:

منها: أن الترتيب لبيان الأحق فالأحق من الأصناف، فأحق الأصناف بها الفقراء ثم المساكين و هكذا على الترتيب، و لكون الأربعة الأخيره بحسب ترتيب الأحقيه واقعه في المراتب الأربع الأخيره وضع كل في موضعه الخاص، و لو لا هذا الترتيب لكان الأنسب أن يذكر الأصناف ثم تذكر موارد المصالح فيقال: للفقراء و المساكين و العاملين عليها و المؤلفه قلوبهم و الغارمين و ابن السبيل ثم يقال: و في الرقاب و سبيل الله.

و الحق أن دلالة الترتيب بما فيه من التقديم و التأخير على أهميه الملاك و قوه المصلحه في أجزاء الترتيب لا ريب فيه فإن كان مراده بالأحق فالأحق الأهم ملاكا فالأهم فهو، و لو كان المراد التقدم و التأخر من حيث الإعطاء و الصرف و ما يشبه ذلك فلا دلالة من جهه اللفظ عليه البتة كما لا يخفى و الذي أيده به من الوجه لا جدوى فيه.

و منها: أن العدول عن اللام في الأربعة الأخيره إلى « في » للإيدان بأنهم أرسخ في استحقاق التصديق عليهم ممن سبق ذكره لأن « في » للوعاء فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات و يجعلوا مظنه لها و مصبا، و ذلك لما في فك الرقاب من الكتابه أو الرق و الأسر، و في فك الغارمين من الغرم و التخليص و الإنقاذ، و لجمع الغازي الفقير أو المنقطع في الحج بين الفقر و العباده، و كذلك ابن السبيل جامع بين الفقر و الغربه عن الأهل و المال.

و تكرير « في » في قوله: « وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ » فيه فضل ترجيح

لهذين على الرقاب والغارمين. كذا ذكره في الكشف.

و فيه: أنه معارض بكون الأربعة الأول مدخوله للام الملك فإن المملوك أشد لزوما و اتصالا بالنسبه إلى مالكة من المظروف بالنسبه إلى ظرفه، و هو ظاهر.

و منها: أن الأصناف الأربعة الأوائل ملاك لما عساه يدفع إليهم، و إنما يأخذونه ملكا فكان دخول اللام لائقا بهم، و أما الأربعة الأواخر فلا يملكون ما يصرف نحوهم بل و لا يصرف إليهم و لكن في مصالح تتعلق بهم.

فالمال الذي يصرف في الرقاب إنما يتناوله الساده المكاتبون و البائعون فليس نصيبهم مصروفا إلى أيديهم حتى يعبر عن ذلك باللام المشعره بتملكهم لما يصرف نحوهم، و إنما هم محال لهذا الصرف و المصلحه المتعلقة به، و كذلك الغارمون إنما يصرف نصيبهم لأرباب ديونهم تخليصا لدمهم لا لهم، و أما سبيل الله فواضح ذلك فيه، و أما ابن السبيل فكأنه كان مندرجا في سبيل (1) الله، و إنما أفرد بالذكر تنبيها على خصوصيته مع أنه مجرد من الحرفين جميعا و عطفه على المجرور باللام ممكن و لكنه على القريب منه أقرب.

و هذا الوجه لا- يخلو عن وجه غير أن إجراء في ابن السبيل لا- يخلو عن تكلف، و ما ذكر من دخوله في سبيل الله هو وجه مشترك بينه و بين غيره.

و لو قال قائل بكون الغارمين و ابن السبيل معطوفين على المجرور باللام ثم ذكر الوجه الأول بالمعنى الذي ذكرناه وجها للترتيب و الوجه الأخير وجها لاختصاص الرقاب و سبيل الله بدخول « في » لم يكن بعيدا عن الصواب.

و قوله في ذيل الآيه: «فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» إشارة إلى كون الزكاه فريضة واجبه مشرعه على العلم و الحكمة لا تقبل تغيير المغير، و لا يبعد أن يتعلق الفرض بتقسما إلى الأصناف الثمانية كما ربما يؤيده السياق فإن الغرض في الآيه إنما تعلق ببيان مصارف الصدقات لا بفرض أصلها فالأنسب أن يكون قوله: «فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ» إشارة إلى أن تقسما إلى الأصناف الثمانية أمر مفروض من الله لا يتعدى عنه على خلاف ما كان يطمع فيه المنافقون في لمزهم النبي ص.

ص: ٣١٣

١- ١) بل هو أيضا كالغارمين و الرقاب لا يدفع إليه نصيبه و إنما يصرف في المصلحه المتعلقة به من الزاد و اكتراء الراحله حتى يصل إلى وطنه (ب).

و من هنا يظهر أن الآية لا تخلو عن إشعار بكون الأصناف الثمانية على سهمها من غير اختصاص بزمان دون زمان خلافا لما ذكره بعضهم: أن المؤلفه قلوبهم كانوا جماعه من الأشراف فى زمن النبى ص ألف قلوبهم بإعطاء سهم من الصدقات إياهم، و أما بعده (ص) فقد ظهر الإسلام على غيره، و ارتفعت الحاجه إلى هذا النوع من التآليفات، و هو وجه فاسد و ارتفاع الحاجه ممنوع.

قوله تعالى: «و مِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ» الأذن جارحه السمع المعروفه، و قد أطلقوا عليه (ص) الأذن و سموه بها إشاره إلى أنه يصغى لكل ما قيل له و يستمع إلى كل ما يذكر له فهو أذن.

و قوله: «قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ» من الإضافه الحقيقيه أى سماع يسمع ما فيه خيركم حيث يسمع من الله سبحانه الوحي و فيه خير لكم، و يسمع من المؤمنين النصيحه و فيها خير لكم و يمكن أن يكون من إضافه الموصوف إلى الصفه أى أذن هى خير لكم لأنه لا يسمع إلا ما ينفعكم و لا يضركم.

و الفرق بين الوجهين أن اللازم على الأول أن يكون مسموعه خيرا لهم كالوحي من الله و النصيحه من المؤمنين، و اللازم على الثانى أن يكون استماعه استماع خير و إن لم يكن مسموعه خيرا كأن يستمع إلى بعض ما ليس خيرا لهم لكنه يستمع إليه فيحترم بذلك قائله ثم يحمل ذلك القول منه على الصحه فلا يهتك حرمة و لا يسىء الظن به ثم لا يرتب أثر الخبر الصادق المطابق للواقع عليه فلا يؤاخذ من قيل فيه بما قيل فيه فيكون قد احترم إيمانه كما احترم إيمان القائل الذى جاءه بالخبر.

و من هنا يظهر أن الأنسب بسياق الآية هو الوجه الثانى لما عقبه بقوله: «يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ» الآية.

و ذلك أن الإيمان هو التصديق، و قد ذكر متعلق الإيمان فى قوله: «يُؤْمِنُ بِاللَّهِ» و أما قوله: «وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ» فلم يذكر متعلقه و إنما ذكر أن هذا التصديق لنفع المؤمنين لمكان اللام، و التصديق الذى يكون فيه نفع المؤمنين حتى فى الخبر الذى يتضمن ما يضرهم إنما هو التصديق بمعنى إعطاء الصدق المخبرى دون الخبرى أى فرض أن المخبر

صَادِقٌ بِمَعْنَى أَنَّهُ مَعْتَقِدٌ بِصِدْقِ خَبْرِهِ وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا لَا يَطَابِقُ الْوَاقِعَ.

وَهَذَا كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ المتافقون: ١- فالله سبحانه يكذب المنافقين لا- من حيث خبرهم برسالة النبي ص بل من حيث إخبارهم بخلاف ما يعتقدونه وهذا بخلاف قول المؤمنين فيما حكى الله سبحانه: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ الأحزاب: ٢٢- فهم يصدقون الله ورسوله في الخبر لا في الاعتقاد.

وَبِالْجُمْلَةِ ظَاهِرٌ قَوْلُهُ: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ إنه يصدق الله فيما أخبره به من الوحي، و يصدق لنفع المؤمنين كل من ألقى إليه منهم خبرا بحمل فعله على الصحة و عدم رميه بالكذب و سوء النية من غير أن يرتب أثرا على كل ما يسمعه و يستمع إليه و إلا لم يكن تصديقه لنفع المؤمنين و اختل الأمر، و هذا المعنى كما ترى يؤيد الوجه الثاني المذكور.

وَكَأَنَّ الْمُرَادَ بِالْمُؤْمِنِينَ الْمَجْتَمِعَ الْمُنْسُوبَ إِلَيْهِمْ وَإِنْ اشْتَمَلَ عَلَى أَفْرَادٍ مِنْ غَيْرِهِمْ كَالْمُتَافِقِينَ وَ عَلَى هَذَا كَانَ الْمُرَادَ بِالَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ قَوْمِهِمْ حَقًّا فَمَعْنَى الْكَلَامِ أَنَّهُ يَصْدُقُ رَبَّهُ وَ يَصْدُقُ كُلَّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ مَجْتَمِعِهِمْ احْتِرَامًا لظَاهِرِ حَالِهِ مِنَ الْإِنْتِسَابِ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ هُوَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ حَقًّا لِأَنَّهُ يَهْدِيهِمْ إِلَى مُسْتَقِيمِ الصِّرَاطِ.

وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا فِي أَوَّلِ الْبَعْثَةِ قَبْلَ الْفَتْحِ - كَمَا تَقَدَّمَ سَابِقًا أَنْ «الَّذِينَ آمَنُوا» اسْمٌ تَشْرِيْفِي فِي الْقُرْآنِ لِلْمُؤْمِنِينَ الْأَوَّلِينَ فِي الْإِسْلَامِ - كَانَ الْمُرَادُ بِالْمُؤْمِنِينَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الْمُؤْمِنُونَ مِنْهُمْ حَقًّا كَمَا أُطْلِقَ بِهَذَا الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ:

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ الأحزاب: ٢٢.

وَ رِبْمَا قِيلَ: إِنْ اللَّامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ لِلتَّعْدِيَةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ فَالْإِيمَانُ يَتَّعَدَى بِالْحَرْفَيْنِ جَمِيعًا كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَمَا مَنَّ لَهُ لُوطٌ﴾ العنكبوت: ٢٦ و قَوْلِهِ: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾ يونس: ٨٣ و قَوْلِهِ: ﴿أَتُؤْمِنُ لِمَكِّ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ﴾ الشعراء: ١١١.

وَ رِبْمَا قِيلَ: إِنْ اللَّفْظُ جَارٍ عَلَى طَرِيقِهِ التَّضْمِينِ بِتَضْمِينِ الْإِيمَانِ مَعْنَى الْجَنُوحِ الْمَتَّعَدَى بِاللَّامِ وَ الْمَعْنَى يَجْنَحُ لِلْمُؤْمِنِينَ مَوْمِنًا بِهِمْ أَوْ يُؤْمِنُ جَانِحًا لَهُمْ.

و الوجهان و إن كانا لا بأس بهما في نفسيهما لكن يبعد ذلك لزوم التفكيك في قوله: «يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ» بين «يُؤْمِنُ» الأول و الثاني من غير نكته ظاهره إلا- أن يحمل على التفنن في التعبير و مع ذلك فالنتيجة هي النتيجة السابقة فإن إيمانه بالمؤمنين لا يختص بالمخبرين خاصة حتى يصدق خبرهم و يؤخذ آخرين إذا أخبر بما يضرهم بل إيمان يعم جميع المؤمنين فيصدق المخبر في خبره بمعنى إعطاء الصدق المخبري و يصدق المخبر عنه بحمل فعله على الصحة فافهم ذلك.

و عده تعالى نبيه في قوله: «وَ رَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ» رحمه لقوم خاص في هذه الآية مع عده رحمه للناس كلهم في قوله عز و جل: «وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ»: الأنبياء:- ١٠٧ إنما هو لاختلاف المراد بالرحمة في الآيتين فالمراد بها هاهنا الرحمة الفعلية و هناك الرحمة الشأنية.

و بعباره أخرى هو(ص) رحمه لمن آمن به حقا بمعنى أن الله سبحانه أنقذه به من الضلالة و ختم له بالسعادة و الكرامة، و رحمه للناس كلهم مؤمنهم و كافرهم، من معاصريه و ممن يأتي بعده بمعنى أن الله بعثه ((ص)) بمله بيضاء و سنه طيبة فحول المجتمع البشري و صرفه عن مسيره المنحرف عن الاستقامة إلى طريق الشقاوة و الهلاك، و أثار بمشعلته صراط الفطرة الإلهية فمن راكب على السبيل فائز بالغايه المطلوبه، و من خارج عن مسير الردى و الهلكه و لما يركب متن الصراط الفطرى، و من قاصد للخروج و الورود و لما يخرج و هذا حال المجتمع العام البشرى بعد طلوع الإسلام و بسطه معارفه بين الناس و إيصاله إلى سمع كل سامع و تأثيره في كل من السنن الاجتماعيه بما في وسعه أن يتأثر به، و هذا مما لا يرتاب فيه باحث عن طبيعه المجتمع الإنسانى، و هذا الوجه قريب المأخذ من الوجه السابق أو راجع إليه بالحقيقه.

قوله تعالى: «يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنَّ كَانُوا مُؤْمِنِينَ» قال في المجمع: «الفرق بين الأحق و الأصلح أن الأحق قد يكون من غير صفات الفعل كقولك: زيد أحق بالمال، و الأصلح لا يقع هذا الموقع لأنه من صفات الفعل و تقول: الله أحق بأن يطاع و لا تقول أصلح». انتهى.

و السبب الأصلي فيه أن الصلاحيه و الصلوح يحمل معنى الاستعداد و التهيؤ، و الحق يحمل معنى الثبوت و اللزوم، و الله سبحانه لا يتصف بشيء من معنى الاستعداد

و القبول المستلزم لتأثير الغير فيه و تأثيره عنه.

□
و قد حول الله الخطاب في الآيه عن نبيه(ص) إلى المؤمنين التفاتا و كأن الوجه فيه التلويح لهم بما يشتمل عليه قوله: « وَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ » من الحكم و هو أن من الواجب على كل مؤمن أن يرضى الله و رسوله، و لا يحاد الله و رسوله فإن فيه خزيا عظيما نار جهنم خالدا فيها.

و من أدب التوحيد في الآيه ما في قوله: « أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ » من إفراد الضمير و لم يقل: أحق أن يرضوهما صونا لمقامه تعالى من أن يعدل به أحد فإن أمثال هذه الحقوق و كذا الأوصاف التي يشاركه تعالى غيره من حيث الإطلاق و الإجراء، له تعالى بالذات و لنفسه و لغيره بالتبع أو بالعرض و من جهته كوجوب الإرضاء و التعظيم و الطاعة و غيرها، و كالاتصاف بالعلم و الحياه و الإحياء و الإمامته و غيرها.

و قد روعى نظير هذا الأدب في القرآن في موارد كثيرة فيما يشارك النبي(ص) غيره من الأمة من الشئون فأخرج النبي(ص) من بينهم و أفرد بالذكر كما في قوله:

□ □ □
« يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا: » التحريم:- ٨ و قوله: « فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ: » الفتح:- ٢٦ و قوله: « آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ: » البقره:- ٢٨٥ و غير ذلك.

□ □ □
قوله تعالى: « أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ » إلى آخر الآيه قال في المجمع: المحاده مجاوزه الحد بالمشاقه، و هي و المخالفه و المجانبه و المعاداه نظائر، و أصله المنع و المحاده ما يلحق الإنسان من النزق لأنه يمنعه من الواجب و قال:

و الخزي الهوان و ما يستحي منه. انتهى.

و الاستفهام في الآيه للتعجب، و الكلام مسوق لبيان كونه تعالى و كون رسوله أحق بالإرضاء و محصله أنهم يعلمون أن محاده الله و رسوله و المشاقه و المعاداه مع الله و رسوله و الإسخاط يوجب خلود النار، و إذا حرم إسخاط الله و رسوله و جب إرضاءه و إرضاء رسوله على من كان مؤمنا بالله و رسوله.

فى تفسير القمى، عن أبى الجارود عن أبى جعفر (ع): فى قوله تعالى: «إِنْ تُصِيبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكَ مُصِيبَةٌ» الآية-أما الحسنه فهى الغنيمه والعافيه، و أما المصيبه فالبلاء والشده.

وفى الدر المنثور، أخرج ابن أبى حاتم عن جابر بن عبد الله قال: "جعل المنافقون الذين تخلفوا بالمدينه-يخبرون عن النبى ص أخبار السوء، ويقولون: إن محمدا وأصحابه قد جهدوا فى سفرهم-وهلكوا فبلغهم تكذيب حديثهم-وعافيه النبى (ص) وأصحابه-فساءهم ذلك فأنزل الله تعالى: «إِنْ تُصِيبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ» الآية.

وفى الكافى، بإسناده عن أبى حمزه عن أبى جعفر (ع) قال: قلت له: قول الله عز وجل «هَيْلٌ تَرَبَّصُونَ بِهَا أَلَّا إِيْحِدَى الْحُسَيْنِ» قال: إما موت فى طاعه الإمام أو إدراك ظهور إمام «وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ» مع ما نحن فيه من المشقه «أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ» قال: هو المسخ «أَوْ بِأَيْدِينَا» وهو القتل، قال الله عز وجل لنبية: «فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ».

أقول: وهو من الجرى دون التفسير.

فى المحاسن، بإسناده عن يوسف بن ثابت عن أبى عبد الله (ع) قال: لا يضر مع الإيمان عمل، ولا ينفع مع الكفر عمل-.

ثم قال: أ لا ترى أن الله تبارك وتعالى قال: «وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ-إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ».

أقول: ورواه العياشى والقمى عنه وكذا الكلينى فى الكافى، عنه فى حديث مفصل

و الروايه تبينها آيات و روايات أخرى فالإيمان ما دام باقيا لا يضره معصيه بإيجاب خلود النار، والكفر ما دام كفرا لا ينفع معه حسنه.

وفى المجمع: فى قوله تعالى: «مُدَّخَلًا» الآية قال: سريا: عن أبى جعفر (ع).

وفى الكافى، بإسناده عن إسحاق بن غالب قال: قال أبو عبد الله (ع): يا إسحاق كم ترى أهل هذه الآية: فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رِضْوَانًا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ

«قال: هم أكثر من ثلثي الناس:

أقول: ورواه العياشي في تفسيره و الحسين بن سعيد في كتاب الزهد عن إسحاق عنه (ع).

و في الدر المنثور، أخرج البخاري و النسائي و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: بينما النبي ص يقسم قسما إذ جاءه ذو الخويصرة التميمي فقال: اعدل. يا رسول الله فقال: ويلك و من يعدل إذا لم أعدل.

فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله ائذن لي فأضرب عنقه-فقال رسول الله ص دعه-فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم و صيامه-مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية-فينظر في قذذه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر في نضيه فلا يرى فيه شيء، ثم ينظر في رصافه فلا يرى فيه شيء، ثم ينظر في نصله فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث و الدم آيتهم رجل أسود إحدى ثديه-أو قال: ثدييه-مثل ثدي المرأة-أو مثل البضعة تدر در يخرجون على حين فرقه من الناس-قال: فنزلت فيهم: «و مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ» الآية.

قال أبو سعيد: أشهد أني سمعت هذا من رسول الله ص، و أشهد أن عليا حين قتلهم-و أنا معه جيء بالرجل على النعت الذي نعت رسول الله ص.

و في تفسير القمي، " في الآية: أنها نزلت لما جاءت الصدقات-و جاء الأغنياء و ظنوا أن الرسول يقسمها بينهم-فلما وضعها رسول الله ص في الفقراء-تغامزوا رسول الله ص و لمزوه، و قالوا: نحن الذين نقوم في الحرب و نغزو معه و نقوى أمره- ثم يدفع الصدقات إلى هؤلاء الذين لا يعينونه و لا يغنون عنه شيئا-فأنزل الله: «و لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ-وَ قَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ رَسُولُهُ-إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ».

ثم فسر الله عز و جل الصدقات لمن هي و على من يجب؟ فقال: «إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَ الْمَسَاكِينِ وَ الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَ فِي الرِّقَابِ وَ الْعَارِمِينَ- وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» فأخرج الله من

الصدقات جميع الناس-إلا هذه الثمانية الأصناف الذين سماهم-.

و بين الصادق(ع) من هم؟ فقال: الفقراء هم الذين لا يسألون و عليهم مئونات من عيالهم، و الدليل على أنهم لا يسألون قول الله تعالى فى سورة البقره: «لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْيَاءً مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا» .

و المساكين هم أهل الزمانه من العميان و العرجان و المجذومين-و جميع أصناف الزمنى من الرجال و النساء و الصبيان-.

و العاملين عليها هم السعاه و الجباه فى أخذها و جمعها و حفظها-حتى يؤديها إلى من يقسمها-.

و المؤلفه قلوبهم قوم و وحدوا الله و لم يدخل المعرفه قلوبهم-أن محمدا رسول الله فكان رسول الله ص يتألفهم و يعلمهم-كيما يعرفوا فجعل الله لهم نصيبا فى الصدقات كى يعرفوا و يرغبوا.

أقول:وقد وردت فى تأييد هذا الذى أرسله من الروايه روايات كثيره مسنده من طرق أهل البيت(ع).و فى بعض الروايات تعارض ما،و ليرجع فى تفصيل الروايات على كثرتها و تنقيح المطلب إلى جوامع الحديث و كتب الفقه.

و فى الدر المنثور،أخرج البخارى و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال:" بعث على بن أبى طالب من اليمن إلى النبى ص-بذهبيه فيها تربتها فقسمها بين أربعة من المؤلفه:الأقرع بن حابس الحنظلى و علقمه بن علاثه العامرى- و عينه بن بدر الفزارى و زيد الخيل الطائى،فقال قريش و الأنصار:أ تقسم بين صناديد أهل نجد و تدعنا؟فقال النبى ص:إنما أتألفهم.

و فى الدر المنثور،أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن يحيى بن أبى كثير قال:" المؤلفه قلوبهم من بنى هاشم-أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب،و من بنى أميه أبو سفيان بن حرب،و من بنى مخزوم الحارث بن هشام و عبد الرحمن بن يربوع-و من بنى أسد حكيم بن حزام،و من بنى عامر سهيل بن عمرو و حويطب بن عبد العزى،و من بنى جمح صفوان بن أميه،و من بنى سهم عدى بن

قيس، و من ثقيف العلاء بن جاريه أو حارثه، و من بنى فزاره عينه بن حصن، و من بنى تميم الأقرع بن حابس، و من بنى نصر مالك بن عوف، و من بنى سليم العباس بن مرداس.

أعطى النبي ص كل رجل منهم مائه ناقه -إلا- عبد الرحمن بن يربوع و حويطب بن عبد العزى -فإنه أعطى كل واحد منهما خمسين.

و فى تفسير القمى، فى روايه أبى الجارود عن أبى جعفر (ع) قال: المؤلفه قلوبهم:

أبو سفيان بن حرب بن أميه، و سهيل بن عمرو و هو من بنى عامر بن لؤى -و هشام ابن عمرو أخوه- -أخو بنى عامر بن لؤى- و صفوان بن أميه بن خلف القرشى - ثم الجمحى، و الأقرع بن حابس التميمى أحد بنى حازم -و عينه بن حصن الفزارى و مالك بن عوف و علقمه بن علاثه-.

بلغنى أن رسول الله ص كان يعطى الرجل منهم مائه من الإبل -و رعاتها و أكثر من ذلك و أقل.

أقول: و هؤلاء هم المؤلفه قلوبهم الذين أعطاهم النبي ص تأليفا لقلوبهم، و ليس المراد حصر المؤلفه قلوبهم و هم صنف من الأصناف الثمانية المذكور فى الآيه فى هؤلاء الأشخاص بأعيانهم.

و فى تفسير العياشى، عن ابن إسحاق عن بعض أصحابنا عن الصادق (ع) قال:

سئل عن مكاتب عجز عن مكاتبته و قد أدى بعضها، قال: يؤدى من مال الصدقه إن الله يقول فى كتابه: « وَ فِي الرَّقَابِ »

و فيه، عن زراره قال: قلت لأبى عبد الله (ع): عبد زنى؟ قال: يجلد نصف الحد، قال: قلت: فإن هو عاد؟ قال: يضرب مثل ذلك، قال: قلت: فإن هو عاد؟ قال: لا يزد على نصف الحد. قال: قلت: فهل يجب عليه الرجم فى شىء من فعله؟ قال: نعم يقتل فى الثامنة إن فعل ذلك ثمان مرات-.

قال: قلت: فما الفرق بينه و بين الحر و إنما فعلهما واحد؟ فقال له: إن الله

رحمه أن يجمع عليه ربق الرق و حد الحر. قال: ثم قال: و على إمام المسلمين أن يدفع ثمنه إلى مولاه من سهم الرقاب.

و فيه، عن الصباح بن سيابة قال: "أيا مسلم مات و ترك ديناً لم يكن فى فساد و على إسراف - فعلى الإمام أن يقضيه فإن لم يقض فعليه إثم ذلك - إن الله يقول: «إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَ الْمَسْكِينِ وَ الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَ فِي الرِّقَابِ وَ الْغَارِمِينَ» فهو من الغارمين و له سهم عند الإمام فإن حبسه فإثمه عليه.

و فيه، عن محمد بن القسرى عن أبي عبد الله (ع) قال: سألته عن الصدقة فقال: أقسمها فيمن قال الله - لا يعطى من سهم الغارمين - الذين يغرمون فى مهور النساء - و لا الذين ينادون نداء الجاهلية قال: قلت: و ما نداء الجاهلية؟ قال:

الرجل يقول: يا آل بنى فلان فيقع بينهم القتل - و لا يؤدى ذلك من سهم الغارمين، و لا الذين لا يبألون ما صنعوا بأموال الناس.

و فيه، عن الحسن بن محمد قال: قلت: لأبي عبد الله (ع) - إن رجلاً أوصى لى فى السبيل قال: فقال لى: اصرف فى الحج قال: قلت: إنه أوصى فى السبيل! قال: اصرفه فى الحج فإنى لا أعلم سبيلاً من سبله أفضل من الحج.

أقول: و الروايات فى الباب أكثر من أن تحصى، و إنما أوردنا منها ما يجرى مجرى الأنموذج.

و فى الدر المنثور، "فى قوله تعالى: «وَ مِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ» الآية: "أخرج ابن إسحاق و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: "كان نبتل بن الحارث يأتى رسول الله ص فيجلس إليه فيسمع - ثم ينقل حديثه إلى المنافقين، و هو الذى قال لهم: إنما محمد أذن من حدثه شيئاً صدقه، فأنزل الله فيه: «وَ مِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ» الآية.

و فى تفسير القمى، "فى الآية قال: سبب نزولها - أن عبد الله بن نبتل كان منافقاً و كان يقعد إلى رسول الله ص - فيسمع كلامه و ينقله إلى المنافقين فينم عليه - فنزل جبرئيل على رسول الله ص فقال: يا محمد - إن رجلاً من المنافقين ينم و ينقل حديثك إلى المنافقين، فقال رسول الله ص: من هو؟ قال: الرجل الأسود الوجه الكثير

شعر الرأس-ينظر بعينين كأنهما قدران،و ينطق بلسان شيطان-.

فدعاه رسول الله ص فأخبره فحلف أنه لم يفعل-فقال رسول الله ص:

قد قبلت منك فلا- تفعل فرجع إلى أصحابه-فقال:إن محمدا أذن.أخبره الله أنى أنم عليه و أنقل أخباره فقبله،و أخبرته أنى لم أقل و لم أفعل فقبله!.

فأنزل الله على نبيه:« وَ مِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ «أى يصدق الله فيما يقول له،و يصدقكم فيما تعتذرون إليه و لا يصدقكم فى الباطن،و يؤمن للمؤمنين يعنى المقرين بالإيمان من غير اعتقاد.

أقول:و روى ما يقرب منه فى نهج البيان،عن الصادق(ع).

و فى الدر المنثور،أخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال:" اجتمع ناس من المنافقين فيهم جلاس بن سويد بن صامت-و جحش بن حمير و وديعه بن ثابت-فأرادوا أن يقعوا فى النبى ص فنهى بعضهم بعضا،و قالوا:إنا نخاف أن يبلغ محمدا فيقع بكم،و قال بعضهم:إن محمدا أذن نحلف له فيصدقنا-فزل:« وَ مِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ «الآيه.

و فى تفسير العياشى،عن حماد بن سنان عن أبى عبد الله(ع)قال: إنى أردت أن أستبضع فلانا بضاعه إلى اليمن-فأتيت إلى أبى جعفر(ع) فقلت:إنى أريد أن أستبضع فلانا فقال لى.أما علمت أنه يشرب الخمر؟فقلت:قد بلغنى من المؤمنين إنهم يقولون ذلك،فقال:صدقهم إن الله عز و جل يقول:« يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ «فقال:يعنى يصدق الله و يصدق للمؤمنين-لأنه كان رءوفا رحيما بالمؤمنين.

[سوره التوبه (٩): الآيات ٦٤ الى ٧٤]

اشاره

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَهِزُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ قُلْ أَبِ اللَّهِ وَ آيَاتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَشْتَهِيهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكٰفِرِينَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ يُعَذِّبُ طَائِفَةٌ بَآئِنَةٌ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦) الْمُنَافِقُونَ وَ الْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفٰسِقُونَ (٦٧) وَ عِندَ اللَّهِ الْمُنَافِقِينَ وَ الْمُنَافِقَاتِ وَ الْكُفٰرَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَ لَعْنَةُ اللَّهِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٦٨) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوَالًا وَ أَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَ خُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ أُولٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ (٦٩) أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عَادٍ وَ ثَمُودَ وَ قَوْمِ إِبْرٰهِيمَ وَ أَصْحَابِ مِدْيَنَ وَ الْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنٰتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلَمَهُمْ وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠) وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ يُطِيعُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَ عِندَ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ جَنٰتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ مَسٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنٰتٍ عِدْنٍ وَ

رِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَأَعْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَا أُوهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ
الْمَصِيرُ (٧٣) يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَخْلِفُونَ وَمَا يَتَلَوَّنَا إِلَّا أَن آعَانَهُمْ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَ
لَا نَصِيرٍ (٧٤)

تذكر الآيات شأنا آخر من شئون المنافقين، وتكشف عن سوءه أخرى من سوءاتهم ستروا عليها بالنفاق، وكانوا يحذرون أن تظهر عليهم وتزل فيها سورة تقص ما هموا به منها.

والآيات تنبئ عن أنهم كانوا جماعة ذوى عدد كما يدل عليه قوله: «إِنْ نَعَفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً» وأنه كان لهم بعض الاتصال والتوافق مع جماعه آخرين من المنافقين كما فى قوله: «الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ» الآية وأنهم كانوا على ظاهر الإسلام والإيمان حتى اليوم وإنما نافقوا يومئذ أى تفوهوا بكلمه الكفر فيما بينهم وأسروا بها يومئذ كما فى قوله: «قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ».

وأنهم تواطئوا على أمر دبروه فيما بينهم فأظهروا عند ذلك كلمه الكفر وهموا على أمر عظيم فحال الله بينهم وبينه فخاب سعيهم ولم يؤثر كيدهم كما فى قوله: «وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا».

وأنه ظهر مما هموا به بعض ما يستدل عليه من الآثار والقرائن فسألوا عن ذلك فاعتذروا بما هو مثله قبحا وشناعه كما فى قوله: «وَلَيْسَ سِيَئَتُهُمْ لِيَقُولَنَّ إِنَّهُمْ كُنَّا نَحُوضُ وَنَلْعَبُ» والآيات التاليه لهذه الآيات فى سياق متصل منسجم تدل على أن هذه الوقعه أيا ما كانت وقعت بعد خروج النبى ص إلى غزوه تبوك ولما يرجع إلى المدينه كما يدل عليه قوله: «فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ» X الآية X: توبه ٨٣ و قوله:

«سَيُخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ» X الآية ٩٥-: X من السوره.

فيتلخص من الآيات أن جماعه ممن خرج مع النبي ص تواطئوا على أن يمكروا بالنبي ص، و أسروا عند ذلك فيما بينهم بكلمات كفروا بها بعد إسلامهم ثم هموا أن يفعلوا ما اتفقوا عليه بفتك أو نحوه فأبطل الله كيدهم و فضحهم و كشف عنهم فلما سئلوا عن ذلك قالوا: إنما كنا نخوض و نلعب فعاتبهم الله بلسان رسوله ص بأنه استهزاء بالله و آياته و رسوله، و هددهم بالعذاب إن لم يتوبوا، و أمر نبيه ص أن يجاهدهم و يجاهد الكافرين.

فالآيات- كما ترى- أوضح انطباقا على حديث العقبه منها على غيره من القصص التي تتضمنها الروايات الآخر الوارده في بيان سبب نزول الآيات، و سنورد جملها في البحث الروائي الآتي إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: «يَخِذِرُ الْمُتَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ» إلى آخر الآية. كان المنافقون يشاهدون أن جل ما يستسرون به من شئون النفاق؛ و يناجى به بعضهم بعضا من كلمه الكفر و وجوه الهمز و اللمز و الاستهزاء أو جميع ذلك لا يخفى على الرسول، و يتلى على الناس في آيات من القرآن يذكر النبي ص أنه من وحى الله، و لا- محاله كانوا لا- يؤمنون بأنه وحى نزل به الروح الأمين على رسول الله ص، و يقدرون أن ذلك مما يتجسسها المؤمنون فيخبرون به النبي ص فيخرجه لهم في صوره كتاب سماوى نازل عليهم و هم مع ذلك كانوا يخافون ظهور نفاقهم و خروج ما خبوه في سرائرهم الخبيثه لأن السلطنه و الظهور كانت للنبي ص عليهم يجرى فيهم ما يأمر به و يحكم عليه.

فهم كانوا يحذرون نزول سوره يظهر بها ما أضمروه من الكفر و هموا به من تقليب الأمور على النبي ص و قصده بما يبطل به نجاح دعوته و تمام كلمته فأمر الله نبيه ص أن يبلغهم أن الله عالم بما في صدورهم مخرج ما يحذرون خروجه و ظهوره بنزول سوره من عنده أى يخبرهم بأن الله منزل سوره هذا نعتها.

و بهذا يستنير معنى الآية فقوله: «يَخِذِرُ الْمُتَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ» الخطاب للنبي ص و وجه الكلام إليه، و هو يعلم بتعليم الله أن هذا الكلام الذى

يتلوه على الناس كلام إلهي و قرآن منزل من عنده فيصف سبحانه الكلام الذى يخاف منه المنافقون بما له من الوصف عند النبي ص و هو أنه سورة منزله من الله على الناس و منهم المنافقون لا- على ما يراه المنافقون أنه كلام بشرى يدعى كونه كلام الله.

فهم كانوا يحذرون أن يتلو النبي ص عليهم و على الناس كلاما هذا نعتة الواقعى و هو أنه سورة منزله عليهم بما أنها متوجهه بمضمونها إليهم قاصده نحوهم ينبئهم هذه السوره النازله بما فى قلوبهم فيظهر على الناس و يفشو بينهم ما كانوا يسرونه من كفرهم و سوء نياتهم، و هذا الظهور فى الحقيقه هو الذى كانوا يحذرونه من نزول السوره.

□ و قوله: « قُلِ اسْتَهْزِؤُا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَخْتَذِرُونَ » كَأَنَّ الْمَرَادَ بِالاسْتَهْزَاءِ هُوَ نِفَاقُهُمْ وَ مَا يَلْحَقُ بِهِ مِنَ الْآثَارِ فَإِنَّ اللَّهَ سَمَّى نِفَاقَهُمْ اسْتَهْزَاءً حَاكِياً فِي ذَلِكَ قَوْلَهُمْ حَيْثُ قَالَ: « وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ » البقره: -١٤ فالمراد بالاستهزاء هو ستر ما يحذرون ظهوره، و الأمر تعجيزى أى دوموا على نفاقكم و ستركم ما تحذرون خروجه من عندكم إلى مرأى الناس و مسمعهم فإن الله مخرج ذلك و كاشف عن وجهه الغطاء، و مظهر ما أخفيتموه فى صدوركم.

فصدر الآيه و إن كان يذكر أنهم يحذرون تنزيل سوره كذا و كذا لكنهم إنما كانوا يحذرونها لما فيها من الأنباء التى يحذرون أن يطلع عليها النبي ص و تنجلي للناس، و هذا هو الذى يذكر ذيلها أنهم يحذرونه فالكلام بمنزله أن يقال: يحذر المنافقون تنزيل سوره قل إن الله منزلها، أو يقال: يحذر المنافقون انكشاف باطن أمرهم و ما فى قلوبهم قل استهزءوا إن الله سيكشف ذلك و ينبئ عما فى قلوبكم.

و بما تقدم يظهر سقوط ما أشكل على الآيه أولاً: بأن المنافقين لكفرهم فى الحقيقه لم يكونوا يرون أن القرآن كلام منزل من عند الله فكيف يصح القول أ يحذرون أن تنزل عليهم سوره؟.

و ثانياً: أنهم لما لم يكونوا مؤمنين فى الواقع فكيف يصح أن يطلق أن سوره قرآنيه نزلت عليهم و لا- تنزل السوره إلا على النبي ص أو على المؤمنين؟.

و ثالثاً: أن حذرهم نزول السوره و هو حال داخلى جدى فيهم لا يجامع كونه استهزاء.

و رابعاً: أن صدر الآيه يذكر أنهم يحذرون أن تنزل سورة و ذيلها يقول: إن الله مخرج ما تحذرون فهو فى معنى أن يقال: إن الله مخرج سورة أو مخرج تنزيل سورة.

و قد يجاب عن الإشكال الأول بأن قوله: **يَحْذَرُ الْمُتَنَافِقُونَ** «إلخ» إنشاء فى صوره خبر أى ليحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة «إلخ».

و هو ضعيف إذ لا دليل عليه أصلاً على أن ذيل الآيه لا يلائم ذلك إذ لا معنى لقولنا: ليحذر المنافقون كذا قل استهزاءوا إن الله مخرج ما تحذرون أى ما يجب عليكم حذره. و هو ظاهر.

و قد يجاب عنه بأنهم إنما كانوا يظهرن الحذر استهزاء لا جداً و حقيقه. و فيه أن لازمه أنهم كانوا على ثقه بأن ما فى قلوبهم من الأبناء و ما أبطنوه من الكفر و الفسوق لا سبيل للظهور و الانجلاء إليه، و لا طريق لأحد إلى الاطلاع عليه، و يكذبه آيات كثيره فى القرآن الكريم تقص ما عقدوا عليه القلوب من الكفر و الفسوق و هموا به من الخدعه و المكيدته كآيات من سورة البقره و سورة المنافقين و غيرهما، إذ كانوا شاهدوا ظهور أنبائهم و مطويات قلوبهم عياناً مره بعد مره فلا معنى لثقتهم بأنها لا تنكشف أصلاً و إظهارهم الحذر استهزاء لا جداً، و قد قال تعالى: **«يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ»** المنافقون: ٤.

و قد يجاب عنه بأن أكثر المنافقين كانوا على شك من صدق المدعوه النبويه من غير أن يستيقنوا كذبه، و هؤلاء كانوا يجوزون تنزيل سورة تنبئهم بما فى قلوبهم احتمالاً- عقلياً، و هذا الحذر و الإشفاق كما ذكروه أثر طبعى للشك و الارتياب فلو كانوا موقنين بكذب الرسول ص لما خطر لهم هذا الخوف على بال، و لو كانوا موقنين بصدقه لما كان هناك محل لهذا الخوف و الحذر لأن قلوبهم مطمئنه بالإيمان.

و هذا الجواب- و هو الذى اعتمد عليه جمهور المفسرين- و إن كان بظاهره لا- يخلو عن وجه غير أن فيه أنه إنما يحسم ماده الإشكال لو كان الواقع من التعبير فى الآيه نحواً من قولنا: يخاف المنافقون أن تنزل عليهم سورة، و لذا قرروا الجواب بأن الخوف يناسب الشك دون اليقين.

لكن الآيه تعبر عن شأنهم بالحذر، و يخبر أنهم يحذرون أن تنزل عليهم سورة

«إلخ» والحذر فيه شىء من معنى الاحتراز و الاتقاء، ولا يتم ذلك إلا بالتوسل إلى أسباب و وسائل تحفظ الحاذر مما يحذره و يحترز منه، و تصونه من شر مقبل إليه من ناحيه ما يخافه.

و لو كان مجرد شك من غير مشاهدته أثر من الآثار و إصابه شىء مما يتقونه إياهم لما صح الاحتراز و الاتقاء، فحذرهم يشهد أنهم كانوا يخافون أن يقع بهم هذه المره نظير ما وقع بهم قبل ذلك من جهه آيات البقره و غيرها، فهذا هو الوجه لحذرهم دون الشك و الارتياب فالمعتمد فى الجواب ما قدمناه.

و قد يجاب عن الإشكال الثانى بأن «على» فى قوله: «أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ» بمعنى: فى كما فى قوله: «وَ اتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِكُمْ سُورَةُ البقره: - ١٠٢، و المعنى: يحذر المنافقون أن تنزل فيهم أى فى شأنهم و بيان حالهم سورة تكشف عما فى ضمائرهم.

و فيه أنه لا بأس به لو لا قوله بعده: «تُبَيِّنُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ» على ما سنوضحه.

و قد يجاب عنه بأن الضمير فى قوله: «عَلَيْهِمْ» راجع إلى المؤمنين دون المنافقين و المعنى: يحذر المنافقون أن تنزل على المؤمنين سورة تنبئ المنافقين بما فى قلوب المنافقين أو تنبئ المؤمنين بما فى قلوب المنافقين.

ورد عليه بأنه يستلزم تفكيك الضمائر. و دفع بأن تفكيك الضمائر غير ممنوع و لا أنه مناف للبلاغه إلا إذا كان المعنى معه غير مفهوم، و ربما أيد بعضهم هذا الجواب بأنه ليس هاهنا تفكيك للضمائر فإنه قد سبق أن المنافقين يحلفون للمؤمنين ليرضوهم ثم وبخهم الله بأن الله و رسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين فقد بين هاهنا بطريقه الاستئناف أنهم يحذرون أن تنزل على المؤمنين سورة تنبئهم بما فى قلوبهم فتبطل ثقتهم بهم فأعيد الضمير إلى المؤمنين لأن سياق الكلام فيهم فلا أثر من التفكيك.

و فيه أن من الواضح الذى لا- يرتاب فيه أن موضوع الكلام فى هذه الآيات و آيات كثيره مما يتصل بها من قبل و من بعد، هم المنافقون، و السياق سياق الخطاب للنبي ص لا غيره، و إنما كان خطاب المؤمنين فى قوله: «يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ ليرضوكم خطابا التفاتيا للتنبيه على غرض خاص أو مانأنا إليه ثم عاد الكلام إلى سياقها الأسمى

من خطاب النبي ص بتبدل خطابهم إلى خطابه فلا معنى لقوله: إن سياق الكلام في المؤمنين.

و لو كان السياق هو الذى ذكره لكان من حق الكلام أن يقال: أن تنزل عليكم سوره تنبئكم بما فى قلوبهم، فما معنى العدول إلى ضمير الغيبه، و لم يتقدم فى سابق الكلام ذكر لهم على هذا النعت؟.

على أن قوله: إن الآيه- يَخِذْرُ الْمُتَأَفِقُونَ -بيان من طريق الاستئناف لسبب حلفهم للمؤمنين ليرضوهم، إخراج لهذه الطائفة من الآيات من استقلال غرضها الأصلي الذى بحثنا عنه فى أول الكلام، و يختل بذلك ما يترأى من فقرات الآيات من الاتصال و الارتباط.

فالآيه- يَخِذْرُ الْمُتَأَفِقُونَ إلخ-ليست بيانا لسبب حلفهم المذكور سابقا بل استئناف مسوق لغرض آخر يهدى إليه مجموع الآيات الإحدى عشره.

و بالجمله الآيات السابقه على هذه الآيه خاليه عن ذكر المؤمنين ذكرا يوجب انعطاف الذهن إليه حينما يلقى ضميرا يمكن عوده إليهم و هذا هو التفكيك المذكور، و هو مع ذلك تفكيك ممنوع لإيجابه إبهاما فى البيان ينافى بلاغته.

و الحق أن الضمير فى قوله: «أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ» للمنافقين-كما تقدمت الإشارة إليه-و لا بأس بأن يسمى تنزِيل سوره لبيان حالهم و ذكر مثالبهم و توبيخهم على نفاقهم تنزيلا-للسوره عليهم و هم فى جماعه المؤمنين غير متميزين منهم كما عبر بنظير التعبير فى مورد المؤمنين حيث قال: «وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ مَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَ الْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ:» البقره:- ٢٣١.

و قد أتى سبحانه بنظير هذا التعبير فى أهل الكتاب حيث قال: «يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ:» النساء:- ١٥٣، و فى المشركين حيث حكى عنهم قولهم: «وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُؤْيَاكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ:» إسرائ:- ٩٣، و ليست نسبه المنافقين و هم فى المؤمنين إلى نزول القرآن عليهم بأبعد من نسبه المشركين و أهل الكتاب إلى نزوله عليهم، و النزول و الإنزال و التنزيل يقبل التعدى بالى بعنايه الانتهاء و بعلى بعنايه الاستعلاء و الإتيان من العلو، و التعديه بكل واحد منهما كثير

فى تعبيرات القرآن،و المراد بنزول الكتاب إلى قوم و على قوم تعرضه لشئونهم و بيانه لما ينفعمهم فى دنياهم و آخراهم.

و قد يجاب عن الإشكال الثالث بأن قوله تعالى: «قُلِ اسْتَهْزِؤْا» دليل على أنهم كانوا يستهزئون بالحدز و لم يكن من جد الحدز فى شىء.

و فيه أن الآيات الكثيره النازله فى سوره البقره و النساء و غيرها-و كل ذلك قبل هذه الآيات نزولا-المخرجه لكثير من خبايا قلوبهم الكاشفه عن أسرارهم تدل على أن هذا الحدز كان منهم على حقيقته من غير استهزاء و سخرية.

على أنه تعالى وصفهم فى سوره المنافقون بمثل قوله: «يَخْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ» المنافقون:-٤، و قال فى مثل ضربه لهم و فيهم: «يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ» البقره:-١٩ و قد ذكر فى الآيه التاليه.

و الحق أن استهزاءهم إنما هو نفاقهم و قولهم فى الظاهر خلاف ما فى باطنهم كما يؤيده قوله تعالى: «وَ إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَ إِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ» البقره:-١٤.

و الجواب عن الإشكال الرابع أن الشىء الذى كانوا يحذرونه فى الحقيقه هو ظهور نفاقهم و انكشاف ما فى قلوبهم،و إنما كانوا يحذرون نزول السوره لأجل ذلك فالمحذور الذى ذكر فى صدر الآيه و الذى فى ذيل الآيه أمر واحد،و معنى قوله «إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَخَذِرُونَ» إنه مظهر لما أخفيتموه من النفاق و منبئ لما فى قلوبكم.

قوله تعالى: «وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ قُلْ أَسْأَلُكُمْ بِاللَّهِ وَ آيَاتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ» الخوض -على ما فى المجمع-،دخول القدم فيما كان مائعا من الماء و الطين ثم كثر حتى استعمل فى غيره.

و قال الراغب فى المفردات:، الخوض هو الشروع فى الماء و المرور فيه،و يستعار فى الأمور،و أكثر ما ورد فى القرآن ورد فيما يذم الشروع فيه.انتهى.

و لم يذكر الله سبحانه متعلق السؤال و أن المسئول عنه الذى إن سأل النبى ص سأل عنه ما هو؟غير أن قوله: «لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ» بما له من السياق

المصدر وإنما يدل على أنه كان فعلا صادرا منهم له نوع تعلق بالنبى ص، و كان أمرا مرثيا يسىء الظن بهم، و لم يكن فى وسعهم أن يعتذروا منه بعد ما تبين و انكشف للنبي ص إلا بأنه إنما كان منهم خوضا و لعبا لم يريدوا به غير ذلك.

و الخوض و اللعب الذين اعتذروا بهما من الأعمال السيئه التى لا يعترف بهما الناس فى حالهم العادى و خاصه المؤمنون و سائر المتظاهرين بالإيمان و خاصه إذا كان ذلك فى أمر يرجع إلى الله و رسوله غير أنهم لم يجدوا وصفا يصفون به فعلهم لإخراجه عن ظاهر ما يدل عليه، دون أن يعنونوه بأنه كان خوضا و لعبا.

و لذا أمر نبيه ص أن يوبخهم على ما اعتذروا به فقال: «قُلْ أ بِاللّهِ وَ آيَاتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ» ثم فسر عملهم فى آخر الآيات بقوله: «يَخْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُوا وَ لَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَ هُمَا بِمَا لَمْ يَنَالُوا» الآية.

و يتحصل من مجموع هذه القرائن أن المنافقين كانوا أرادوا النبى ص بسوء كالفتكك به و مفاجأته بما يهلكه و أقدموا على ما قصدوه و تكلموا عند ذلك بشىء من الكلام الردى لكنهم أخطئوا فى ما أوقعوه عليه و اندفع الشر عنه، و لم يصب السهم هدفه فلما خاب سعيهم و بان أمرهم سألهم النبى ص عن ذلك و ما تصدوه به اعتذروا بأنهم كانوا يخوضون و يلعبون فوبخهم النبى ص بقوله: «أ بِاللّهِ وَ آيَاتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ» و رد الله سبحانه إليهم عذرهم الذى اعتذروا به و بين حقيقه ما قصدوا بذلك.

و بالجمله معنى الآية: و أقسم لئن سألتهم عن فعلهم الذى شوهده منهم: ما الذى أرادوا به؟ و كان ظاهره أنهم هموا بأمر فيك ليقولن: لم يكن قصد سوء و لا- بالذى ظننت فأسأت الظن بنا، و إنما كنا نخوض و نلعب خوض الركب فى الطريق لا على سبيل الجد و لكن لعبا.

و هذا اعتذار منهم بالاستهزاء بالله و آياته و رسوله فإنهم يعترفون بأنهم فعلوا فيك ما فعلوه خوضا و لعبا فقد استهزءوا بالله و رسوله فقل: أ بالله و آياته و رسوله كنتم تستهزءون أى أ تعتذرون عن سىء فعلكم بسيئه أخرى هى الاستهزاء بالله و آياته و رسوله، و هو كفر؟.

و ليس من البعيد أن يكون الغرض الأصيل بيان كونه استهزاء بالرسول، و إنما

ذكر الله و آياته للدلالة على معنى الاستهزاء بالرسول، وأنه لما كان من آيات الله كان الاستهزاء به استهزاء بآيات الله، والاستهزاء بآيات الله استهزاء بالله العظيم فالاستهزاء برسول الله استهزاء بالله و آياته و رسوله.

قوله تعالى: «لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ يُعَذِّبُ طَائِفَةٌ» الآية، قال الراغب في المفردات: الطوف المشى حول الشيء و منه الطائف لمن يدور حول البيوت حافظا-إلى أن قال-و الطائفه من الناس جماعه منهم و من الشيء القطعه منه.

و قوله تعالى: «فَلَوْ لَا نَفَرْنَا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لَيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ» قال بعضهم: قد يقع ذلك على الواحد فصاعدا، و على ذلك قوله: «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ».

و الطائفه إذا أريد بها الجمع فجمع طائف، «و إذا أريد بها الواحد فيصح أن يكون جمعا و يكنى به عن الواحد، و يصح أن يجعل كراويه و علامه و نحو ذلك. انتهى.

و قد خطأ بعضهم القول بجواز صدق الطائفه على الواحد و الاثنين من الناس كما تصدق على الثلاثة فصاعدا، و بالغ في ذلك حتى عد غلطا و لا دليل له على ما ذكره، و ماده اللفظ لا يستوجب شيئا معينا من العدد، و إطلاقها على القطعه من الشيء يؤيد استعمالها في الواحد.

و قوله: «لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ» نهى عن الاعتذار بدعوى أنه لغو كما يدل عليه قوله: «قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ» فإن الاعتذار لا فائده تترتب عليه بعد الحكم بكفرهم بعد إيمانهم.

و المراد بإيمانهم هو ظاهر الإيمان الذى كانوا يتظاهرون به لا حقيقه الإيمان الذى هو من الهدايه الإلهيه التى لا يعقبها ضلال، و يؤيده قوله تعالى فى آخر هذه الآيات:

«وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ» فبدل الإيمان إسلاما و هو ظاهر الشهادتين.

و يمكن أن يقال: إن من مراتب الإيمان ما هو اعتقاد و إذعان ضعيف غير آب عن الزوال كإيمان الذين فى قلوبهم مرض و قد عداهم الله من المؤمنين و ذكرهم مع

المنافقين لأمنهم، ولا مانع من أن ينسلخوا هذا الإيمان.

و كيف لا؟ وقد سلخ الله الإيمان ممن هو أرسخ إيماناً منهم كالذى يقصه فى قوله: «وَ ائْتَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَ لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَ لَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ:» الأعراف:- ١٧٦.

و قال أيضاً: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا:» و قد أكثر القرآن الكريم من ذكر الكفر بعد الإيمان فلا مانع من زوال الاعتقاد القلبي قبل رسوخه و هو اعتقاد.

نعم الإيمان المستقر و الاعتقاد الراسخ لا سبيل إلى عروض الزوال له قال تعالى:

« مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ:» الأعراف:- ١٧٨ و قال: « فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ:» النحل:- ٣٧.

و قوله: «إِنْ نَعَفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً» يدل على أن هؤلاء المنافقين المذكورين فى الآيات كانوا ذوى عدد و كثره، و أن كلمه العذاب وقعت عليهم لا بد لهم من العذاب فلو شمل بعضهم عفو إلهى لمصلحه فى ذلك وقع العذاب على الباقين فهذا معنى الجملة: «إِنْ نَعَفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً» بحسب ما يفهم من نظمه و سياقه.

و بعبارة أخرى رابطة اللزوم بين الشرط و الجزاء بترتب الجزاء و تفرعه على الشرط إنما هى بالتبع و أصله ترتب الجزاء هاهنا على أمر يتعلق به الشرط و هو أن العذاب و جب على جماعتهم فإن عفى عن بعضهم تعين الباقون من غير تخلف.

و قد ظهر بما قدمناه أولاً: وجه ترتب قوله: «نُعَذِّبْ طَائِفَةً» على قوله:

«إِنْ نَعَفُ عَنْ طَائِفَةٍ» و اندفع ما استشكله بعضهم على الآية أنه لا- ملازمه بين العفو عن البعض و عذاب البعض فما معنى الاشتراط؟.

و الجواب: أن اللزوم بحسب الأصل بين وجوب نزول العذاب على الجماعه و بين نزوله على بعضهم ثم انتقل إلى ما بين العفو عن البعض و بين نزوله على بعضهم كما قرناه.

و ثانياً: أن المراد بالعفو هو ترك العذاب لمصلحه من مصالح الدين دون العفو

بمعنى المغفرة المستنده إلى التوبه إذ لا- وجه ظاهرا لمثل قولنا: إن غفرنا لطائفه منكم لتوبتهم نعدب طائفه لجرمهم مع أنهم لو تابوا جميعا لم يعدبوا قطعا.

وقد ندب الله إليهم جميعا أن يتوبوا حيث قال في آخر الآيات: «فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

و ثالثا: أن العفو في الآيه بل و العذاب المذكور فيها هو العفو عن العذاب الديوى و تركها و كذا القول في العذاب فإن العفو من العذاب الأخرى على ما تنص عليه الآيات القرآنيه إنما يكون لتوبه أو شفاعه، و لا تحقق لواحد منهما فيما نحن فيه أما التوبه فلما تبين أنها غير مراده في الآيه، و أما الشفاعه فلما ثبت بآيات الشفاعه أن الشفاعه لا ينالها في الآخره إلا مؤمن مرضى الإيمان، و قد استوفينا البحث عنها في الجزء الأول من الكتاب.

و رابعا: أنه لا مانع من كون الآيه أعنى قوله: «لَا تَعْتَدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ» الآيه من تتمه كلام النبي ص فإن المراد بالعفو و العذاب هو العذاب الديوى بالسياسه و تركه، و لا مانع من نسبتها إلى النبي ص.

لكن ظاهر الآيات التاليه هو كونه من قول الله سبحانه خطابا للمنافقين فيكون التفاتا من خطاب النبي ص إلى خطابهم و النكته فيه إظهار كمال الغضب و اشتداد السخط من صنعهم حتى كأنه لا يفي بإيدانه و إعلامه رساله فواجههم بنفسه و خاطبهم بشخصه فهددهم بعذاب واقع لا مرد له و لا مفر منه.

قوله تعالى: «الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ» إلى آخر الآيتين، ذكروا أنه استئناف يتعرض لحال عامه المنافقين بذكر أوصافهم العامه الجامعه و تعريفهم بها و ما يجازيهم الله في عاقبه أمرهم ثم يتعرض لحال عامه المؤمنين و يعرفهم بصفاتهم الجامعه و يذكر ما ينبتهم الله به على سبيل المقابله استتماما للقسمه، و من الدليل على هذا الاستيفاء ذكر جزاء الكفار مع المنافقين في قوله: «وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ» الآيه.

و الظاهر أن الآيه في مقام التعليل لقوله في الآيه السابقه: «إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبُ طَائِفَةً» و سياق مخاطبه المنافقين جار لم ينقطع بعد.

فالآيه السابقه لما دلت على أنه تعالى لا يترك المنافقين حتى يعدبهم بأجرامهم

فإن ترك بعضا منهم لحكمه و مصلحه أخذ آخرين منهم بالعذاب كان هناك مظنه أن يسأل فيقال: ما وجه أخذ البعض إذا ترك غيره؟ و هل هو إلا كأخذ الجار بجرم الجار فأجيب ببيان السبب و هو أن المنافقين جميعا بعضهم من بعض لا اشتراكهم فى خباثت الصفات و الأعمال، و اشتراكهم فى جزاء أعمالهم و عاقبه حالهم.

و لعله ذكر المنافقات مع المنافقين مع عدم سبق لذكرهن للدلاله على كمال الاتحاد و الاتفاق بينهم فى نفسيتهم، و ليكون تلويحا على أن من النساء أيضا أجزاء مؤثره فى هذا المجتمع النفاقي الفاسد المفسد.

فمعنى الآيه لا- ينبغى أن يستغرب أخذ بعض المنافقين إذا ترك البعض الآخر لأن المنافقين و المنافقات يحكم عليهم نوع من الوحده النفسيه يوحد كثرتهم فيرجع بعضهم إلى بعض، فيشركهم فى الأوصاف و الأعمال و ما يجازون به بوعد من الله تعالى.

فهم يأمرن بالمنكر و ينهون عن المعروف و يمسون عن الإنفاق فى سبيل الله و بعبارة أخرى نسوا الله تعالى بالإعراض عن ذكره لأنهم فاسقون خارجون عن زى العبوديه فنسيهم الله فلم يشبههم بما أثنى عباده الذاكرين مقام ربهم.

ثم ذكر ما وعدهم على ذلك فقال: «وَعِدَ اللَّهُ الْمُتَّفِقِينَ وَ الْمُتَّفِقَاتِ وَ الْكُفَّارَ» - و عطف عليهم الكفار لأنهم جميعا سواء - نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَشِيْبُهُمْ» من الجزاء لا يتعدى فيهم إلى غيرها «و لَعَنَهُمُ اللَّهُ» و أبعدهم «و لَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ» ثابت لا يزول عنهم البتة.

و قد ظهر بذلك أن قوله تعالى: «نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ» (إلخ؟ بيان لما تقدمه من قوله:

«يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ».

و يتفرع على ذلك أن الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و الإنفاق فى سبيل الله من الذكر.

قوله تعالى: «كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوَالًا - وَ أَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ» إلخ، قال الراغب: الخلاق ما اكتسبه الإنسان من الفضيله بخلقه قال تعالى: «وَ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ» انتهى و فسره غيره بمطلق النصيب.

و الآيه من تتمه مخاطبه المنافقين التى فى قوله: «لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ»

الآيه فى سياق واحد متصل و فى الآيه تشبیه حال المنافقين بحال من كان قبلهم من الكفار و المنافقين و قیاسهم إلیهم لیستشهد بذلك على ما قیل: إن المنافقين و المنافقات بعضهم من بعض و أنهم جمیعا و الكفار ذوو طبیعه واحده فى الإعراض عن ذكر الله و الإقبال على الاستمتاع بما أوتوا من أعراض الدنيا من أموال و أولاد و الخوض فى آیات الله ثم فى حبط أعمالهم فى الدنيا و الآخره و الخسران.

و معنى الآیه-و الله أعلم-أنتم كالذین من قبلکم كانت لهم قوه و أموال و أولاد بل أشد و أكثر فى ذلك منكم، فاستمتعوا بنصیبهم و قد تفرع على هذه المماثله أنکم استمتعتم كما استمتعوا و خضتم كما خاضوا أولئک حبطت أعمالهم فى الدنيا و الآخره و أولئک هم الخاسرون و أنتم أيضا أمثالهم فى الحبط و الخسران و لذا وعدکم النار الخالده و لعنکم.

و ذكر كون قوه من قبلهم أشد و أموالهم و أولادهم أكثر للإیماء إلى أنهم لم یعجزوا الله بذلك، و لم یدفع ذلك عنهم غائله الحبط و الخسران فكیف بکم و أنتم أضعف قوه و أقل أموالا و أولادا؟.

قوله تعالى: «أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عَادٍ وَ ثَمُودَ وَ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَ أَصْحَابِ مَدْيَنَ وَ الْمُؤْتَفِكَاتِ» الآیه رجوع إلى السياق الأول و هو سياق مخاطبه النبى ص مع افتراض الغیبه فى المنافقين، و تذكیر لهم بما قص علیهم القرآن من قصص الأمم الماضین.

فذاک قوم نوح عمهم الله سبحانه بالغرق، و عاد و هم قوم هود أهلکهم بریح صرصر عاتیه، و ثمود و هم قوم صالح عذبهم بالرجفه، و قوم إبراهیم أهلکک ملکهم نمروود و سلب عنهم النعمه، و المؤتفکات و هى القرى المنقلبات على وجهها-من ائتفکت الأرض إذا انقلبت قرى قوم لوط جعل عالیها سافلها.

و قوله: «أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ» أى بالواضحات من الآيات و الحجج و البراهین و هو بیان إجمالی لنبتهم أى كان نبؤهم أن أتتهم رسلهم بالآيات البینه فكذبوها فانتهى أمرهم إلى الهلاك، و لم یکن من شأن السنه الإلهیه أن یظلمهم لأنه بین لهم الحق و الباطل، و میز الرشد من الغی، و الهدى من الضلال، و لكن كان أولئک الأقوام

و الأمم أنفسهم يظلمون بالاستمتاع من نصيب الدنيا و الخوض في آيات الله و تكذيب رسله.

قوله تعالى: « وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » إلى آخر الآية. ثم وصف الله سبحانه حال المؤمنين عامه محاذاه لما وصف به المنافقين فقال: « وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » ليدل بذلك على أنهم مع كثرتهم و تفرقهم من حيث العدد و من الذكور و الأنثى ذوو كينونه واحده متفقه لا تشعب فيها و لذلك يتولى بعضهم أمر بعض و يدبره.

و لذلك كان يأمر بعضهم بعضا بالمعروف و ينهى بعضهم بعضا عن المنكر فلولايه بعض المجتمع على بعض ولايه ساريه في جميع الأبعاض دخل في تصديهم الأمر بالمعروفه و النهى عن المنكر فيما بينهم أنفسهم.

ثم وصفهم بقوله: « وَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ » و هما الركنان الوثيقان في الشريعة فالصلاه ركن العبادات التي هن الرابطه بين الله و بين خلقه، و الزكاه في المعاملات التي هي رابطه بين الناس أنفسهم.

ثم وصفهم بقوله: « وَ يُطِيعُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ » فجمع في إطاعه الله جميع الأحكام الشرعيه الإلهيه و جمع في إطاعه رسوله جميع الأحكام الولائيه التي يصدرها رسوله في إداره أمور الأمه و إصلاح شئونهم كفرامينه في الغزوات، و أحكامه في القضايا و إجراء الحدود و غير ذلك.

على أن إطاعه شرائع الله النازله من السماء من جهه أخرى منظويه في إطاعه الرسول فإن الرسول هو الصادع بالحق القائم بالدعوه إلى أصول الدين و فروعه.

و قوله: « أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ » إخبار عما في القضاء الإلهي من شمول الرحمه الإلهيه لهؤلاء القوم الموصوفين بما ذكر، و كان في هذه الجملة محاذاه لما سرد في المنافقين من قوله تعالى: « نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ » و الظاهر أيضا أن قوله: « إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » تعليل لما ذكر من الرحمه فلا مانع من رحمته لعزته، و لا اختلال أو وهنا و جزافا في حكمته.

قوله تعالى: « وَعِيدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » إلى آخر الآية، العدن مصدر بمعنى الإقامة و الاستقرار يقال: عدن بالمكان أى أقام فيه و استقر و منه المعدن للأرض التي تستقر فيه الجواهر و الفلزات المعدنيه، و على هذا فمعنى جنات عدن جنات إقامة و استقرار و خلود.

وقوله: «وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ» أى رضى الله سبحانه عنهم أكبر من ذلك كله-على ما يفيدته السياق-وقد نكر «رِضْوَانٌ» إيماء إلى أنه لا يقدر بقدر ولا يحيط به وهم بشر أو لأن رضوانا ما منه و لو كان يسيرا أكبر من ذلك كله لا لأن ذلك كله مما يتفرع على رضاه تعالى و يترشح منه و إن كان كذلك فى نفسه -بل لأن حقيقه العبوديه التى يندب إليها كتاب الله هى عبوديته تعالى حباله:

لا طمعا فى جنه، أو خوفا من نار، و أعظم السعاده و الفوز عند المحب أن يستجلب رضى محبوبه دون أن يسعى لإرضاء نفسه.

و كأنه للإشاره إلى ذلك ختم الآيه بقوله: «ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» و تكون فى الجملة دلالة على معنى الحصر أى إن هذا الرضوان هو حقيقه كل فوز عظيم حتى الفوز العظيم بالجنه الخالده إذ لو لا شىء من حقيقه الرضى الإلهى فى نعيم الجنه كان نقمه لا نعمه.

قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَاوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَاوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» جهاد القوم و مجاهدتهم بذل غايه الجهد فى مقاومتهم و هو يكون باللسان و باليد حتى ينتهى إلى القتال، و شاع استعماله فى الكتاب فى القتال و إن كان ربما استعمل فى غيره كما فى قوله: «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا» الآيه.

و استعماله فى قتال الكفار على رسله لكونهم متجاهرين بالخلاف و الشقاق، و أما المنافقون فهم الذين لا يتظاهرون بكفر و لا يتجاهرون بخلاف، و إنما يبطنون الكفر و يقبلون الأمور كيدا و مكرا و لا معنى للجهاد معهم بمعنى قتالهم و محاربتهم؟ و لذلك ربما يسبق إلى الذهن أن المراد بجهادهم مطلق ما تقتضيه المصلحه من بذل غايه الجهد فى مقاومتهم فإن اقتضت المصلحه هجروا و لم يخالطوا و لم يعاشروا، و إن اقتضت و عظوا باللسان، و إن اقتضت أخرجوا و شردوا إلى غير الأرض أو قتلوا إذا أخذ عليهم الرده، أو غير ذلك.

و ربما شهد لهذا المعنى أعى كون المراد بالجهاد فى الآيه مطلق بذل الجهد تعقيب قوله: «جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ» بقوله: «وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ» أى شدد عليهم و عاملهم بالخشونه.

و أما قوله: «وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» فهو عطف على ما قبله من الأمر، و لعل الذى هون الأمر فى عطف الإخبار على الإنشاء هو كون الجملة السابقه فى معنى قولنا: «إن هؤلاء الكفار و المنافقين مستوجبون للجهاد». و الله أعلم.

قوله تعالى: «يَخْلِقُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَ لَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ»

«الآية. سياق الآية يشعر بأنهم أتوا بعمل سيئ وشفعوه بقول تفوهوا به عند ذلك، وأن النبي ص عاتبهم على قولهم مؤاخذا لهم فحلفوا بالله ما قالوا كما تقدم في قوله: «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ» إلى آخر الآية إنهم كانوا يعتذرون بذلك عن عملهم أنه كان خوضا ولعبا لا غير ذلك.

و الله سبحانه يكذبهم في الأمرين جميعا: أما في إنكارهم القول بقوله: «وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ» وفسره ثانيا بقوله: «وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ» للدلالة على جد القول فيتفرع عليه الكفر بعد الإسلام.

ولعله قال هاهنا: «وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ» و قد قيل سابقا: «قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ» لأن القول السابق للنبي ص الجارى على ظاهر حالهم و هو الإيمان الذى كانوا يدعونه و يتظاهرون به، و القول الثانى لله العالم بالغيب و الشهاده فيشهد بأنهم لم يكونوا مؤمنين و لم يتعدوا الشهادتين بلسانهم فهم كانوا مسلمين لا مؤمنين، و قد كفروا بقولهم و خرجوا عن الإسلام إلى الكفر، و فى هذا إيماء إلى أن قولهم كان كلمه فيه الرد على الشهادتين أو إحداهما.

أو لأن القول الأول فى قبال عملهم الذى أرادوا إيقاع الشر بالنبي ص، و العمل الخالى من القول و هو لم يصب الغرض لا يضر بالإسلام الذى هو نصيب اللفظ و الشهاده، و إنما يضر بالإيمان الذى هو نصيب الاعتقاد، و القول الثانى فى قبال قولهم الذى تفوهوا به، و هو ينافى الإسلام الذى يكتسب باللفظ دون الإيمان الذى هو نوع من الاعتقاد القلبى.

و أما فى إنكارهم العمل السيئ الذى أتوا به و تأويلهم إياه إلى الخوض و اللعب بقوله: «وَهُمْوَا بِمَا لَمْ يَنَالُوا».

ثم قال فى مقام ذمهم و تعييرهم: «وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ» أى بسبب أن أغناهم الله و رسوله، أى كان سبب نعمتهم هذه أن الله أغناهم من فضله بما رزقهم من الغنائم و بسط عليهم الأمن و الرفاهيه فمكنتهم من توليد الثروه و إنماء المال من كل جهه، و كذا رسوله حيث هداهم إلى عيشه صالحه تفتح عليهم أبواب بركات السماء و الأرض، و قسم بينهم الغنائم و بسط عليهم العدل.

فهو من قبيل وضع الشيء موضع ضده: وضع فيه الإغناء و هو بحسب الطبع

سبب للرضى و الشكر موضع سبب النقمه و السخطه كالظلم و الغضب و إن شئت قلت: وضع فيه الإحسان موضع الإساءه، ففيه نوع من التهكم المشوب بالذم نظير ما فى قوله تعالى: « وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ:» الواقعة:- ٨٢ أى تجعلون رزقكم سببا للتكذيب بآيات الله و هو سبب بحسب الطبع لشكر النعمه و الرضا بالموهبه على ما قيل: إن المعنى: و تجعلون بدل شكر رزقكم أنكم تكذبون.

و الضمير فى قوله: « مِنْ فَضْلِهِ » راجع إلى الله سبحانه، قال فى المجمع، و إنما لم يقل: من فضلها لأنه لا يجمع بين اسم الله و اسم غيره فى الكنايه تعظيما لله، و لذلك قال النبى ص لمن سمعه يقول: «من أطاع الله و رسوله فقد اهتدى و من عصاهما فقد غوى»: بنس خطيب القوم أنت فقال: كيف أقول يا رسول الله؟ قال: قل:

و من يعص الله و رسوله، و هكذا القول فى قوله سبحانه: « وَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ » و قيل: إنما لم يقل من فضلها لأن فضل الله منه و فضل رسوله من فضله، انتهى كلامه.

و هناك وراء التعظيم أمر آخر قدمنا القول فيه فى تفسير قوله تعالى: « لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثٌ:» المائده:- ٧٣ فى الجزء السادس من الكتاب، و هو أن وحدته تعالى ليست من سنخ الوحده العديديه حتى يصح بذلك تأليفها مع وحده غيره و استنتاج عدد من الأعداد منه.

ثم بين الله سبحانه لهؤلاء المنافقين أن لهم مع هذه الذنوب المهلكه و صريح كفرهم بالله و همهم بما لم ينالوا أن يرجعوا إلى ربهم، و بين عاقبه أمر هذه التوبه و عاقبه التولى و الإعراض عنها فقال: « فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ » لأدائه إلى المغفره و الجنه « وَ إِنْ يَتَوَلَّوْا » و يعرضوا عن التوبه « يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا » بالسياسه و النكال أو بإغراء النبى ص عليهم أو بالمكر و الاستدراج، و لو لم يكن من عذابهم إلا- أنهم مخالفون بنفاقهم نظام الأسباب المبني على الصدق و الإيمان فتقادمهم سلسله الأسباب و تحطمهم و تفضحهم لكان فيه كفايه، و قد قال الله: « وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ:» التوبه:- ٢٤ « وَ الْآخِرَهُ » بعذاب النار.

و قوله تعالى: « وَ مَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ » معناه أن هؤلاء لا ولى لهم فى الأرض يتولى أمرهم و يصرف العذاب عنهم، و لا- نصير ينصرهم و يمددهم بما يدفعون به العذاب الموعود عن أنفسهم لأن سائر المنافقين أيضا منهم و كلمه الفساد يجمعهم

و أصلهم الفاسد منقطع عن سائر الأسباب الكونية فلا ولى لهم يتولى أمرهم و لا ناصر لهم ينصرهم و لعل هذه الجملة من الآيه إشاره إلى ما أوأنا إليه فى معنى عذاب الدنيا.

(بحث روائى)

فى المجمع،: فى قوله تعالى: «يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ» الآيه، قيل:

نزلت فى اثنى عشر رجلا وقفوا على العقبه-ليفتكوا برسول الله ص عند رجوعه من تبوك-فأخبر جبرئيل رسول الله ص بذلك، و أمره أن يرسل إليهم و يضرب وجوه رواحلهم-.

و عمار كان يقود دابه رسول الله ص و حذيفه يسوقها-فقال لحذيفه: اضرب وجوه رواحلهم، فضربها حتى نجاهم-فلما نزل قال لحذيفه: من عرفت من القوم؟ قال: لم أعرف منهم أحدا فقال رسول الله ص: إنه فلان و فلان حتى عدهم كلهم- فقال حذيفه: ألا تبعث إليهم فتقتلهم؟ فقال: أكره أن تقول العرب: لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم: عن ابن كيسان.

و روى عن أبى جعفر الباقر(ع): مثله إلا- أنه قال: ائتمروا بينهم ليقتلوه و قال بعضهم لبعض: إن فطن نقول: إنما كنا نخوض و نلعب، و إن لم يفظن نقتله.

و قيل: إن جماعه من المنافقين قالوا فى غزوه تبوك: يظن هذا الرجل أن يفتح قصور الشام و حصونها هيهات هيهات، فأطلع الله نبيه ص على ذلك فقال: احبسوا على الركب، فدعاهم فقال لهم: قلت كذا و كذا. فقالوا: يا نبي الله إنما كنا نخوض و نلعب و حلفوا على ذلك فنزلت الآيه: «وَلَيْنُ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ» إلخ، عن الحسن و قتاده.

و قيل: كان ذلك عند منصرفه من غزوه تبوك إلى المدينه و كان بين يديه أربعة نفر أو ثلاثة يستهزءون و يضحكون، و أحدهم يضحك و لا- يتكلم فنزل جبرئيل و أخبر رسول الله ص بذلك فدعا عمار بن ياسر و قال: إن هؤلاء يستهزءون بى و بالقرآن أخبرنى جبرئيل بذلك، و لئن سألتهم ليقولن: كنا نتحدث بحديث الركب فأتبعهم عمار و قال: مم تضحكون؟ قالوا: نتحدث بحديث الركب فقال عمار: صدق الله و رسوله احترقتم أحرقتكم الله، فأقبلوا إلى النبي ص يعتذرون فأنزل الله تعالى الآيات. عن الكلبي و على بن إبراهيم و أبى حمزه.

وقيل: إن رجلا قال في غزوه تبوك: ما رأيت أكذب لسانا ولا أجبن عند اللقاء من هؤلاء يعني رسول الله ص وأصحابه، فقال له عوف بن مالك: كذبت ولكنك منافق، وأراد أن يخبر رسول الله بذلك فجاء وقد سبقه الوحي فجاء الرجل معتذرا، وقال: إنما كنا نخوض ونلعب ففيه نزلت الآية، عن ابن عمر و زيد بن أسلم و محمد بن كعب.

وقيل: إن رجلا من المنافقين قال: يحدثنا محمد أن ناقة فلان بوادي كذا وكذا وما يدريه ما الغيب؟ فنزلت الآية، عن مجاهد.

وقيل: نزلت في عبد الله بن أبي و رهطه، عن الضحاك.

و في المجمع، أيضا: في قوله تعالى: «يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا» الآية، اختلف في من نزلت فيه هذه الآية - فقيل: إن رسول الله ص كان جالسا في ظل شجره - فقال:

إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم بعيني الشيطان، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعاه رسول الله ص - فقال: علام تشتمني أنت وأصحابك؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله: ما قالوا فأنزل الله هذه الآية: عن ابن عباس.

وقيل: خرج المنافقون مع رسول الله ص إلى تبوك فكانوا إذا خلا بعضهم ببعض سبوا رسول الله ص وأصحابه و طعنوا في الدين فنقل ذلك حذيفه إلى رسول الله ص فقال لهم: ما هذا الذي بلغني عنكم فحلفوا بالله: ما قالوا شيئا من ذلك.

عن الضحاك.

وقيل: نزلت في جلاس بن سويد بن الصامت، وذلك أن رسول الله ص خطب ذات يوم بتبوك و ذكر المنافقين فسامهم رجسا و عابهم، فقال الجلاس: والله لئن كان محمد صادقا فيما يقول فنحن شر من الحمير فسمعه عامر بن قيس فقال: أجل والله إن محمدا لصادق و أنتم شر من الحمير، فلما انصرف رسول الله ص إلى المدينة أتاه عامر بن قيس فأخبره بما قال الجلاس، فقال الجلاس: كذب يا رسول الله.

فأمرهما رسول الله ص أن يحلفا عند المنبر فقام الجلاس عند المنبر فحلف بالله ما قال ثم قام عامر فحلف بالله: لقد قال، ثم قال: اللهم أنزل على نبيك الصادق منا الصدق، فقال رسول الله ص و المؤمنون: آمين، فنزل جبرئيل (ع) قبل أن يتفرقا بهذه الآية حتى بلغ: «فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ».

فقام الجلاس فقال: يا رسول الله أسمع الله قد عرض على التوبه صدق عامر بن قيس فيما قال لك لقد قلت و أنا أستغفر الله و أتوب إليه، فقبل رسول الله ص ذلك منه. عن الكلبي و محمد بن إسحاق و مجاهد.

و قيل: نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول حين قال: «لئن رجعتنا إلى المدينه لئخرجننا الأعرض منها الأذل» عن قتاده.

و قيل: نزلت في أهل العقبه فإنهم ائتمروا في أن يغتالوا رسول الله ص في عقبه عند مرجعهم من تبوك، و أرادوا أن يقطعوا أنساع راحلته ثم ينخسوا به فأطلع الله على ذلك، و كان من جمله معجزاته لأنه لا يمكن معرفه مثل ذلك إلا بوحي من الله تعالى.

فسار رسول الله ص في العقبه، و عمار و حذيفه معه، أحدهما يقود ناقته و الآخر يسوقها و أمر الناس كلهم بسلوك بطن الوادي، و كان الذين هموا بقتله اثني عشر رجلا أو خمسة عشر رجلا على الخلاف فيه عرفهم رسول الله ص و سماهم واحدا واحدا، عن الزجاج و الواقدي و الكلبي، و القصه مشروحه في كتاب الواقدي.

و قال الباقر(ع): كانت ثمانيه منهم من قريش و أربعة من العرب.

أقول: و الذي ذكره رحمه الله مما جمعه و اختاره من الروايات مرويه في كتب التفسير بالمأثور و جوامع الحديث من كتب الفريقين و هناك روايات أخرى تركها و أخرى بها أن تترك فتركنا أكثرها كما ترك.

و أما الذي أورده من الروايات فشيء منها لا ينطبق على الآيات غير حديث العقبه الذي أورده تاره في تفسير الآيه الأولى: «يَحْذَرُ الْمُتَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ مِنَ الْآيَةِ، وَ تاره في تفسير الآيه: «يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا» الآيه.

و أما سائر الروايات الواردة فإنما هي روايات تتضمن من متفرقات القصص و الوقائع ما لو صحت و ثبتت كانت من قصص المنافقين من غير أن ترتبط بهذه الآيات و هي كما عرفت في البيان السابق إحدى عشره آيه متصل بعضها ببعض مسروده لغرض واحد، و هو الإشاره إلى قصه من قصص المنافقين هموا فيها باغتيال رسول الله ص، و تكلموا عند ذلك بكلمه الكفر فحال الله سبحانه بينهم و بين أن ينالوا ما هموا به فسألهم رسول الله ص عن أمرهم و ما تفوهوا به فأولوا فعلهم و أنكروا قولهم و حلفوا على ذلك فكذبهم الله تعالى فيه.

فهذا إجمال ما يلوح من خلال الآيات، ولا ينطبق من بين الروايات إلا على الروايات المشتملة على قصه العقبة في الجمله دون سائرهما.

ولا- مسوغ للاستناد إليها في تفسير الآيات إلا- على مسلك القوم من تحكيم الروايات بحسب مضمونها على الآيات سواء ساعدت على ذلك ألفاظ الآيات أو لم تساعد على ما فيها- أعنى الروايات- من الاختلاف الفاحش الذى يوجب سوء الظن بها كما يظهر لمن راجعها.

على أن في الروايات مغمزا آخر و هو ظهورها في تقطع الآيات و تشتت بعضها و انفصاله عن بعض بنزول كل لسبب آخر و تعقيبها غرضا آخر، و قد عرفت أن الآيات ذات سياق واحد متصل ليس من شأنه إلا أن يعقب غرضا واحدا.

و فى الدر المنثور، أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و أبو الشيخ عن الكلبي: أن رسول الله ص لما أقبل من غزوه تبوك و بين يديه ثلاثه رهط- استهزءوا بالله و رسوله و بالقرآن- قال: كان رجل منهم لم يمالئهم فى الحديث- يسير مجانبا لهم يقال له: يزيد بن وديعه- فنزلت: «إِنَّ نَعْفَ عَن طَائِفِهِ مِنْكُمْ نَعْدَبُ طَائِفَهُ» فسمى طائفه و هو واحد.

أقول: و هذا هو منشأ قول بعضهم: إن الطائفه تطلق على الواحد كما تطلق على الكثير مع أن الآيه جاريه مجرى الكنايه دون التسميه و نظير ذلك كثير فى الآيات القرآنيه كما تقدمت الإشاره إليه.

و فيه، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: "نزلت هذه الآيه فى رهط من المنافقين من بنى عمرو بن عوف- فيهم وديعه بن ثابت، و رجل من أشجع حليف لهم يقال له:

مخشى بن حمير (1) كانوا يسرون مع رسول الله ص و هو منطلق إلى تبوك- فقال بعضهم لبعض: أ تحسبون قتال بنى الأصفر كقتال غيرهم- و الله لكأنا بكم غدا تقادون فى الجبال-.

قال مخشى بن حمير- لوددت أنى أقاضى على أن يضرب كل رجل منكم مائه- على أن ينجو من أن ينزل فىنا قرآن- فقال رسول الله ص لعمار بن ياسر: أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فسلهم عما قالوا- فإن هم أنكروا و كتموا فقل: بلى قد قلمت كذا و كذا- فأدركهم فقال لهم فجاءوا يعتذرون فأنزل الله:

ص: ٣٤٥

(١- ١) و قد مر فى ص ٣٢٣ نقلا عن المصدر نفسه جحش بن حمير و هو مصحف (ب).

«لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ»

الآية- فكان الذي عفا الله عنه مخشى بن حمير- فتسمى عبد الرحمن، و سأل الله أن يقتل شهيدا لا يعلم بمقتله- فقتل باليمامة لا يعلم مقتله و لا من قتله- و لا يرى له أثر و لا عين.

أقول: وقصه مخشى بن حمير وردت في عدة روايات غير أنها على تقدير صحتها لا تستلزم نزول الآيات فيها على ما بينها و بين مضامين الآيات من البون البعيد.

و ليس من الواجب علينا إذا عثرنا على شىء من القصص الواقعة في زمن النبي ص أى قصه كانت أن نلجم بها آية من آيات القرآن الكريم ثم نعود فنفسر الآية بالقصه و نحكمها عليها.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ عن ابن عباس قال: " ما أشبه الليله بالبارحه: « كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً - إِلَى قَوْلِهِ - وَ خُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا » هؤلاء بنو إسرائيل أشبهناهم، و الذى نفسى بيده لتبعنهم- حتى لو دخل رجل جحر ضب لدخلتموه:

أقول: و رواه فى المجمع، أيضا عنه.

و فى المجمع، عن تفسير الثعلبى عن أبى هريره عن أبى سعيد الخدرى عن النبي ص قال: لتأخذن كما أخذت الأمم من قبلكم ذراعا بذراع- و شبرا بشبر و باعا بباع- حتى لو أن أحدا من أولئك دخل جحر ضب لدخلتموه. قالوا: يا رسول الله كما صنعت فارس و الروم و أهل الكتاب؟ قال: فهل الناس إلا هم؟

و فيه، أيضا عن تفسير الثعلبى عن حذيفه قال: المنافقون الذين فيكم اليوم- شر من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ص. قلنا: و كيف؟ قال: أولئك كانوا يخفون نفاقهم و هؤلاء أعلنوه.

و فى العيون، بإسناده عن القاسم بن مسلم عن أخيه عبد العزيز بن مسلم قال:

سألت الرضا(ع) عن قول الله عز و جل: « نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ » فقال: إن الله تبارك و تعالى لا ينسى و لا يسهو، و إنما ينسى و يسهو المخلوق المحدث- ألا- تسمعه عز و جل يقول: « وَ مَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا »، و إنما يجازى من نسيه و نسى لقاء يومه أن ينسيهم أنفسهم- كما قال عز و جل: « وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ

أَوْلَيْكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» [وقوله عز وجل «فَالْيَوْمَ نَسَاهُمْ كَلِمًا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا» أي نتركهم كما تركوا الاستعداد للقاء يومهم هذا.

□
و في تفسير العياشي، عن جابر عن أبي جعفر (ع): «نَسُوا اللَّهَ» قال: تركوا طاعه الله «فَنَسِيَهُمْ» قال: فتركهم.

□
و فيه، عن أبي معمر السعداني قال: قال علي (ع): في قوله: «نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ» فإنما يعنى أنهم نسوا الله في دار الدنيا فلم يعملوا له بالطاعة—و لم يؤمنوا به و برسوله فنسيهم في الآخرة—أي لم يجعل لهم في ثوابه نصيبا فصاروا منسيين من الخير:
أقول: و رواه الصدوق في المعاني، بإسناده عن أبي معمر عنه (ع).

□
و في الكافي، بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله (ع): في حديث—قلت: «و الْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمُ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ» قال: أولئك قوم لوط اتتفكت عليهم—أي انقلبت و صارت عاليها سافلها.

و في التهذيب، بإسناده عن صفوان بن مهران قال: قلت لأبي عبد الله (ع)—تأتيني المرأه المسلمه قد عرفتني بعملى—و أعرفها بإسلامها ليس لها محرم فأحملها، قال:

فأحملها فإن المؤمن محرم للمؤمنه. ثم تلا هذه الآية: «و الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ»:

أقول: و رواه العياشى في تفسيره عن صفوان الجمال عنه (ع).

و في تفسير العياشى، عن ثوير عن علي بن الحسين (ع) قال: إذا صار أهل الجنة في الجنة—و دخل ولي الله إلى جناته و مساكنه، و اتكأ، كل مؤمن على أريكته حفته خدامه، و تهدلت عليه الأثمار، و تفجرت حوله العيون، و جرت من تحته الأنهار، و بسطت له الزرابى، و وضعت له النمارق، و أته الخدام بما شاءت هواه من قبل أن يسألهم ذلك—قال: و تخرج عليه الحور العين من الجنان فيمكنون بذلك ما شاء الله.

ثم إن الجبار يشرف عليهم فيقول لهم: أوليائي و أهل طاعتي و سكان جنتي في جوارى الأهل أنبئكم بخير مما أنتم فيه؟ فيقولون: ربنا و أى شىء خير مما نحن فيه: فيما اشتهدت أنفسنا و لذت أعيننا من النعم في جوارى الكريم؟.

قال: فيعود عليهم القول فيقولون ربنا نعم—فأتنا بخير مما نحن فيه فيقول تبارك و تعالى لهم: رضاي عنكم و محبتى لكم خير و أعظم مما أنتم فيه—قال: فيقولون: نعم يا ربنا رضاك عنا—و محبتك لنا خير و أطيب لأنفسنا—.

ثم قرأ علي بن الحسين (ع) هذه الآية: «وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ - خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ - وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

و في الدر المنثور، أخرج ابن مردويه عن جابر قال: قال رسول الله ص: إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله: هل تشتهون شيئاً فأزيدكم؟ قالوا: يا ربنا و هل بقي شيء؟ إلا قد أنلتناه؟ فيقول: نعم رضائي فلا أسخط عليكم أبداً.

أقول: وهذا المعنى وارد في روايات كثيرة من طرق الفريقين.

و في جامع الجوامع، عن أبي الدرداء عن النبي ص: عدن دار الله التي لم ترها عين - و لم تخطر على قلب بشر لا - يسكنها غير ثلاثة: النبيون و الصديقون و الشهداء يقول الله: طوبى لمن دخلك.

أقول: و لا - ينافي خصوص سكنه الجنة في الرواية عمومهم في الآية لدلاله قوله تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ»: الحديد: - ١٩ على أن الله سبحانه سيلحق عامه المؤمنين بالصدقين و الشهداء.

و في تفسير القمي، في قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ» الآية:

قال حدثني أبي عن أبي عمير عن أبي بصير عن أبي جعفر (ع) قال: جاهد الكفار و المنافقين بالزام الفرائض.

و في الدر المنثور، أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود قال: "لما نزلت:

«يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ» أمر رسول الله ص أن يجاهد بيده فإن لم يستطع فبقلمه - فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فليلقه بوجه مكفهراً.

أقول: و في الرواية تشويش من حيث ترتب أجزائها فالجهاد بالقلب بعد الجميع و قد تخلل بينها.

[سوره التوبه (٩): الآيات ٧٥ الى ٨٠]

اشاره

و مِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعَقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سَرَّهُمْ وَ نَجْوَاهُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨) الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) اسْتَغْفِرُوا لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُوا لَهُمْ إِنَّ تَسْتَغْفِرُوا لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠)

تذكر الآيات طائفه أخرى من المنافقين تخلفوا عن حكم الصدقات فامتنعوا عن إيتاء الزكاه، وقد كانوا فقراء فعاهدوا الله إن أغناهم و آتاهم من فضله ليصدقن و ليكونن من الصالحين فلما آتاهم مالا بخلوا به و امتنعوا.

و تذكر آخرين من المنافقين يعيرون أهل السعه من المؤمنين بإيتاء الصدقات و كذلك يلمزون أهل العسر منهم و يسخرون منهم و الله سبحانه يسمى هؤلاء جميعا منافقين، و يقضى فيهم بعدم المغفره البته.

قوله تعالى: « وَ مِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ » إلى آخر الآيتين. الإيتاء الإعطاء، و قد كثر إطلاق الإيتاء من الفضل على إعطاء المال، و من القرائن عليه في الآية قوله « لَنَصَّدَّقَنَّ » أى لتتصدقن مما آتانا من المال و كذلك ما في الآية التاليه من ذكر البخل به.

و السياق يفيد أن الكلام متعرض لأمر واقع، و الروايات تدل على أن الآيات نزلت في ثعلبه في قصه سيأتى نقلها في البحث الروائى التالى إن شاء الله تعالى، و معنى الآيتين ظاهر.

قوله تعالى: «فَأَعْقَبْتُهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ» الآية. الأعتاب الإيراث قال في المجمع، و أعقبه و أورثه و أداه نظائر و قد يكون أعقبه بمعنى جازاه. انتهى و هو مأخوذ من العقب، و معناه الإتيان بشيء عقيب شيء.

و الضمير في قوله: «فَأَعْقَبْتُهُمْ» راجع إلى البخل أو إلى فعلهم الذى منه البخل، و على هذا فالمراد بقوله: «يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ» يوم لقاء البخل أى جزاء البخل بنحو من العناية.

و يمكن أن يرجع الضمير إليه تعالى و المراد بيوم يلقونه يوم يلقون الله و هو يوم القيامة على ما هو المعروف من كلامه تعالى من تسميه يوم القيامة بيوم لقاء الله أو يوم الموت كما هو الظاهر من قوله تعالى: «مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ» العنكبوت: ٥.

و هذا الثانى هو الظاهر على الثانى لأن الأنسب عند الذهن أن يقال: فهم على نفاقهم إلى أن يموتوا. دون أن يقال: فهم على نفاقهم إلى أن يبعثوا إذ لا تغير لحالهم فيما بعد الموت على أى حال.

و قوله: «بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ» الباء فى الموضوعين منه للسببيه أى إن هذا البخل أورثهم نفاقا بما كان فيه من الخلف فى الوعد و الاستمرار على الكذب الموجبين لمخالفه باطنهم لظاهرهم و هو النفاق.

و معنى الآية: فأورثهم البخل و الامتناع عن إيتاء الصدقات نفاقا فى قلوبهم يدوم لهم ذلك و لا يفارقهم إلى يوم موتهم و إنما صار هذا البخل و الامتناع سببا لذلك لما فيه من خلف الوعد لله و الملازمه و الاستمرار على الكذب.

أو المعنى: جازاهم الله نفاقا فى قلوبهم إلى يوم لقائه و هو يوم الموت لأنهم أخلفوه ما وعدوه و كانوا يكذبون.

و فى الآية دلالة أولاً: على أن خلف الوعد و كذب الحديث من أسباب النفاق و أماراته.

و ثانياً: أن من النفاق ما يعرض الإنسان بعد الإيمان كما أن من الكفر ما هو كذلك و هو الرده، و قد قال الله سبحانه: «ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوْىَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ كَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ» الروم: ١٠ فذكر أن الإساءه ربما أدى بالإنسان إلى تكذيب آيات الله، و التكذيب ربما كان ظاهراً و باطناً معاً و هو الكفر، أو باطناً فحسب و هو النفاق.

قوله تعالى: «أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ» الآية النجوى الكلام الخفى و الاستفهام للتوبيخ و التائب.

قوله تعالى: «الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ» الآية التطوع الإتيان بما لا تكرهه النفس و لا تحسبه شاقا و لذلك يستعمل غالبا فى المندوبات لما فى الواجبات من شائبه التحميل على النفس بعدم الرضى بالترك.

و مقابله المطوعين من المؤمنين فى الصدقات بالذين لا يجدون إلا جهدهم قرينه على أن المراد بالمطوعين فيها الذين يؤتون الزكاه على السعه و الجده كأنهم لسعتهم و كثره مالهم يؤتونها على طوع و رغبه من غير أن يشق ذلك عليهم بخلاف الذين لا يجدون إلا جهدهم أى مبلغ جهدهم و طاقتهم أو ما يشق عليهم القنوع بذلك.

و قوله: «الَّذِينَ يَلْمِزُونَ» الآية كلام مستأنف أو هو وصف للذين ذكروا بقوله:

«وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ» الآية كما قالوا. و المعنى:الذين يعيبون الذين يتطوعون بالصدقات من المؤمنين الموسرين و الذين لا يجدون من المال إلا جهد أنفسهم من الفقراء المعسرين فيعيبون المتصدقين موسرهم و معسرهم و غنيهم و فقيرهم و يسخرون منهم سخر الله منهم و لهم عذاب أليم، و فيه جواب لاستهزائهم و إيعاد بعذاب شديد.

قوله تعالى: «إِسْتَعْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» الترديد بين الأمر و النهى كناية عن تساوى الفعل و الترك أى لغويه الفعل كما مر نظيره فى قوله: «أَنْفَقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ» التوبه: -٥٣.

فالمعنى أن هؤلاء المنافقين لا تنالهم مغفره من الله و يستوى فيهم طلب المغفره و عدمها لأن طلبها لهم لغو لا أثر له.

و قوله: «إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» تأكيد لما ذكر قبله من لغويه الاستغفار لهم، و بيان أن طبيعه المغفره لا تنالهم البته سواء سألت المغفره فى حقهم أو لم تسأل، و سواء كان الاستغفار مره أو مرات قليلا أو كثيرا.

فذكر السبعين كناية عن الكثره من غير أن يكون هناك خصوصيه للعدد حتى يكون الواحد و الاثنان من الاستغفار حتى يبلغ السبعين غير مؤثر فى حقهم فإذا جاوز السبعين أثر أثره، و لذلك علله بقوله: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ» أى إن

المانع من شمول المغفرة هو كفرهم بالله ورسوله، ولا يختلف هذا المانع بعدم الاستغفار.

ولا وجوده واحداً أو كثيراً فهم على كفرهم.

و من هنا يظهر أن قوله: «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» متمم لسابقه و الكلام مسوق سوق الاستدلال القياسى و التقدير: أنهم كافرون بالله و رسوله فهم فاسقون خارجون عن عبوديه الله، و الله لا يهدى القوم الفاسقين، لكن المغفرة هدايه إلى سعادته القرب و الجنة فلا تشملهم المغفرة و لا تنالهم البتة.

و استعمال السبعين فى الكثرة المجردة عن الخصوصيه كاستعمال المائه و الألف فيها كثير فى اللغة.

(بحث روائى)

فى المجمع، قيل: نزلت فى ثعلبه بن حاطب، و كان من الأنصار فقال للنبي ص: ادع الله أن يرزقنى مالا فقال: يا ثعلبه قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه-أ ما لك فى رسول الله أسوه حسنه؟ و الذى نفسى بيده لو أردت أن تسير الجبال معى ذهباً و فضه لسارت-.

ثم أتاه بعد ذلك فقال: يا رسول الله- ادع الله أن يرزقنى مالا- و الذى بعثك بالحق، لئن رزقنى الله مالا- لأعطين كل ذى حق حقه، فقال (ص): اللهم ارزق ثعلبه مالا- فاتخذ غنما- فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة- فتنحى عنها فنزل واديا من أوديتها- ثم كثرت نموا حتى تباعد من المدينة- فاشتغل بذلك عن الجمعه و الجماعة، و بعث رسول الله ص إليه المصدق ليأخذ الصدقه فأبى و بخل- و قال:

ما هذه إلا- أخت الجزية فقال رسول الله ص: يا ويح ثعلبه يا ويح ثعلبه، و أنزل الله الآيات:.. عن أبى أمامه الباهلى و روى ذلك مرفوعا .

و قيل: إن ثعلبه أتى مجلسا من الأنصار فأشهدهم فقال: لئن آتانى الله من فضله تصدقت منه و آتيت كل ذى حق حقه و وصلت منه القرابه فابتلاه الله فمات ابن عم له فورثه مالا فلم يف بما قال فنزلت. عن ابن عباس و سعيد بن جبير و قتاده.

و قيل: نزلت فى ثعلبه بن حاطب و معتب بن قشير و هما من بنى عمرو بن عوف

قالا: لئن رزقنا الله مالا لنصدقن فلما رزقهما الله المال بخلا به. عن الحسن و مجاهد.

أقول: ما ذكروه من الروايات لا يدفع بعضها البعض فمن الجائز أن يكون ثعلبه عاهد النبي ص بذلك ثم أشهد عليه جماعه من الأنصار، و أن يكون معه في ذلك غيره فتأيد الروايات بعضها ببعض.

و تتأيد أيضا بما روى عن الضحاك أن الآيات نزلت في رجال من المنافقين:

نبتل بن الحارث، و جد بن قيس، و ثعلبه بن حاطب، و معتب بن قشير.

و أما ما

رواه في المجمع، عن الكلبي: " أنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعه كان له مال بالشام- فأبطأ عنه و جهد لذلك جهدا شديدا- فحلف لئن آتاه الله ذلك المال ليصدقن- فأتاه الله تعالى ذلك فلم يفعل؛ فهو بعيد الانطباق على الآيات- لأن إيصال المال إلى صاحبه لا يسمى إيتاء من الفضل، و إنما هو الإعطاء و الرزق.

و في تفسير القمي، قال: و في روايه أبي الجارود عن أبي جعفر (ع): في الآية- قال: هو ثعلبه بن حاطب بن عمرو بن عوف- كان محتاجا فعاهد الله فلما آتاه بخل به.

و في الدر المنثور، أخرج البخارى و مسلم و الترمذى و النسائى عن أبي هريره عن النبي ص قال: آيه المنافق ثلاث: إذا حدث كذب- و إذا وعد أخلف و إذا أؤتمن خان.

أقول: و هو مروى بغير واحد من الطرق عن أئمه أهل البيت (ع)، و قد تقدم بعضها.

و فيه، " في قوله تعالى: «الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ» الآية: " أخرج البخارى و مسلم و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و أبو نعيم في المعرفه عن ابن مسعود قال: " لما نزلت آيه الصدقه كنا نتحامل على ظهورنا- فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا:

مراء، و جاء أبو عقيل بنصف صاع فقال المنافقون: إن الله لغنى عن صدقه هذا فنزلت:

«الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ- وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ» الآية.

أقول: و الروايات في سبب نزول الآية كثيره و أمثلها ما أوردناه، و في قريب من معناه روايات أخرى، و ظاهرها أن الآية مستقلة عما قبلها مستأنفه في نفسها.

و في الدر المنثور، أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم عن عروه: أن عبد الله بن أبي قال لأصحابه: لو لا أنكم تنفقون على محمد و أصحابه لانفضوا من حوله، و هو القائل:

ليخرجن الأعز منها الأذل-فأنزل الله عز و جل: «إِسْتَعْفِرُوا لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُوا لَهُمْ إِنَّ تَسْتَعْفِرُوا لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» قال النبي ص: لأزيدن على السبعين فأنزل الله: «سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ .

و فيه، أخرج ابن أبي شيبه و ابن جرير و ابن المنذر عن مجاهد قال:- لما نزلت:

«إِنَّ تَسْتَعْفِرُوا لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» قال النبي ص: سأزيد على سبعين- فأنزل الله في السوره التي يذكر فيها المنافقون «فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» .

و فيه، أخرج ابن جرير عن ابن عباس: أن رسول الله ص قال:- لما نزلت هذه الآية-أسمع ربي قد رخص لي فيهم-فوالله لأستغفرن أكثر من سبعين مره-لعل الله أن يغفر لهم فقال الله من شدة غضبه عليهم: «سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» .

أقول: مما لا ريب فيه أن هذه الآيات مما نزلت في أواخر عهد النبي (ع) و قد سبقتها في النزول السور المكيه عامه و أكثر السور و الآيات المدنيه قطعاً، و مما لا ريب فيه لمن يتدبر كتاب الله أنه لا رجاء في نجاه الكفار و المنافقين و هم أشد منهم إذا ماتوا على كفرهم و نفاقهم، و لا مطمع في شمول المغفره الإلهيه لهم فهناك آيات كثيره مكيه و مدنيه صريحه قاطعه في ذلك.

و النبي ص أجل من أن يخفى عليه ما أنزله الله إليه أو أن لا يثق بما وعدهم الله من العذاب المخلد و عدا حتماً فيطمع في نقض القضاء المحتوم بالإصرار عليه تعالى و الإلحاح في طلب الغفران لهم.

أو أن يخفى عليه أن التردد في الآيه لبيان اللغويه و أن لا خصوصيه لعدد السبعين حتى يطمع في مغفرتهم لو زاد على السبعين.

و ليت شعري ما ذا يزيد قوله تعالى في سوره المنافقون: «سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» على قوله تعالى في هذه الآيه «إِسْتَعْفِرُوا لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُوا لَهُمْ إِنَّ تَسْتَغْفِرُوا لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ

اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ

«و قد علل الله سبحانه نفى المغفرة نفيا مؤبدا فيهما بأنهم فاسقون و الله لا يهدى القوم الفاسقين.

فقد تلخص أن هذه الروايات و ما فى معناها موضوعه يجب طرحها.

و فى الدر المنثور، أخرج أحمد و البخارى و الترمذى و النسائى و ابن أبى حاتم و النحاس و ابن حبان و ابن مردويه و أبو نعيم فى الحليه عن ابن عباس قال: سمعت عمر يقول: لما توفى عبد الله بن أبى دعى رسول الله ص للصلاه عليه-فقام عليه فلما وقف قلت: أ على عدو الله عبد الله بن أبى القائل كذا و كذا-و القائل كذا و كذا؟ أعدد أيامه و رسول الله ص يتبسم حتى إذا أكثرت- قال: يا عمر أخرج عنى إني قد خيرت قد قيل لى: «إِسْتِغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً» فلو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها-.

ثم صلى عليه رسول الله ص و مشى معه حتى قام على قبره-حتى فرغ منه فعجبت لى و لجرأتى على رسول الله ص و الله و رسوله أعلم-فوالله ما كان إلا يسيرا حتى نزلت هاتان الآيتان: «و لَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا و لَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ» فما صلى رسول الله ص على منافق بعده-حتى قبضه الله عز و جل.

أقول:

قوله (ص) فى الروايه: «فلو أعلم أنى إن زدت على السبعين» إلخ صريح فى أنه كان آتسا من شمول المغفرة له، و هو يشهد بأن المراد من قوله: «إني قد خيرت قد قيل لى إسْتِغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ» إن الله قد ردد الأمر و لم ينهه عن الاستغفار لا أنه خيره بين الاستغفار و عدمه تخيرا حقيقيا حتى ينتج تأثير الاستغفار فى حصول المغفرة أو رجاء ذلك.

و من ذلك يعلم أن استغفاره (ص) لعبد الله و صلاته عليه و قيامه على قبره إن ثبت شىء من ذلك لم يكن شىء من ذلك لطلب المغفرة و الدعاء له جدا كما سيأتى فى روايه القمى، و فى الروايات كلام سيأتى.

وفيه، عن ابن أبى حاتم عن الشعبى أن عمر بن الخطاب قال: لقد أصبت فى الإسلام هفوه ما أصبت مثلها قط-أراد رسول الله ص أن يصلى على عبد الله بن أبى- فأخذت بثوبه فقلت: و الله ما أمرك الله بهذا-لقد قال الله: «إِسْتِغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ-إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» فقال رسول الله ص:

ص: ٣٥٥

قد خيرنى ربي فقال: استغفر لهم أو لا تستغفر لهم فقعد رسول الله على شفير القبر- فجعل الناس يقولون لابنه:- يا حباب افعل كذا يا حباب افعل كذا- فقال رسول الله ص: الحباب اسم شيطان أنت عبد الله.

و فى تفسير القمى:، فى قوله تعالى: «اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ» الآية- أنها نزلت لما رجع رسول الله ص المدينة- و مرض عبد الله بن أبى و كان ابنه عبد الله بن عبد الله مؤمنا- فجاء إلى رسول الله ص و أبوه وجود بنفسه- فقال: يا رسول الله بأبى أنت و أمى- إنك إن لم تأت أبى كان ذلك عارا علينا- فدخل إليه رسول الله ص و المنافقون عنده- فقال ابنه عبد الله بن عبد الله استغفر له فاستغفر له-.

فقال عمر:- أ لم ينهك الله يا رسول الله أن تصلى على أحد أو تستغفر له؟ فأعرض عنه رسول الله ص فأعاد عليه فقال له: ويلك إني قد خيرت فاخترت إن الله يقول: «اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ- إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ».

فلما مات عبد الله جاء ابنه إلى رسول الله ص فقال: بأبى أنت و أمى يا رسول الله- إن رأيت أن تحضر جنازته فحضر رسول الله ص فقام على قبره- فقال له عمر: يا رسول الله- أ لم ينهك الله أن تصلى على أحد منهم مات أبدا- و أن تقيم على قبره؟ فقال رسول الله ص: ويلك و هل تدري ما قلت؟ إنما قلت: اللهم احش قبره نارا و جوفه نارا و أصله النار- فبدا من رسول الله ص ما لم يكن يحب.

أقول: و فى الروايات تتمه كلام سيوافيك فى ذيل الآيات التالية.

[سورة التوبة (٩): الآيات ٨١ الى ٩٦]

إشارة

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعِدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَ كَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَ لِيُنْكَرَ كَثِيرًا وَجَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَ لَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عِدْوًا إِنْ كُمْ رَضِيْتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) وَ لَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَ لَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ مَا تَوَّأ وَ هُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَ لَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَ أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كَافِرُونَ (٨٥) وَ إِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ جَاهَدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَ طَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧) لَكِنَّ الرُّسُلَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩) وَ جَاءَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْمَاعْرَبِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَ قَعِدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠) لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَ لَا عَلَى الْمَرْضَى وَ لَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَّحُوا لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١) وَ لَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَ هُمْ أَغْيَاءٌ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣) يَعْذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَجْبَارِكُمْ وَ سَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ

رَسُولُهُ ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَى الْعَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُبَيِّنُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ
فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا
يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦)

ص: ٣٥٦

الآيات تقبل الاتصال بالآيات التي قبلها و هي تعقب غرضا يعقبه ما تقدمها.

قوله تعالى: «فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ» الآية الفرح و السرور خلاف الغم و هما حالتان نفسيتان وجدانيتان ملذه و مؤلمه، و المخلفون اسم مفعول من قولهم خلفه إذا تركه بعده و المقعد كالقعود مصدر قعد يقعد و هو كناية عن عدم الخروج إلى الجهاد.

و الخلاف كالمخالفه مصدر خالف يخالف، و ربما جاء بمعنى بعد كما قيل و لعل منه قوله: «وَ إِذَا لَا يَلْبُثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا» و كان قياس الكلام أن يقال: «خِلَافَكَ» لأن الخطاب فيه للنبي ص و إنما قيل: «خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ» للدلاله على أنهم إنما يفرحون على مخالفه الله العظيم فما على الرسول إلا البلاغ.

و المعنى فرح المنافقون الذين تركتهم بعدك بعدم خروجهم معك خلافا لك

-أو بعدك-و كرهوا أن يجاهدوا بأموالهم و أنفسهم فى سبيل الله.

وقوله تعالى: « وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ » خاطبوا بذلك غيرهم ليخذلوا النبي ص و يبطلوا مسعاه فى تنفير الناس إلى الغزوه، و لذلك أمره الله تعالى أن يجيب عن قولهم ذلك بقوله: « قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا » أى إن الفرار عن الحر بالقعود إن أنجاكم منه لم ينجكم مما هو أشد منه و هو نار جهنم التى هى أشد حرا فإن الفرار عن هذا الهين يوقعكم فى ذاك الشديد. ثم أفاد بقوله: « لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ » المصدر بلو التمنى اليأس من فقهم و فهمهم.

قوله تعالى: « فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَ لْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » تفرغ على تخلفهم عن الجهاد بالأموال و الأنفس و فرحهم بالقعود عن هذه الفريضة الإلهية الفطرية التى لا سعادته للإنسان فى حياته دونها.

وقوله: « جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » و الباء للمقابلة أو السببه دليل على أن المراد بالضحك القليل هو الذى فى الدنيا فرحا بالتخلف و القعود و نحو ذلك، و بالبكاء الكثير ما كان فى الآخرة فى نار جهنم التى هى أشد حرا فإن الذى فرع عليه الضحك و البكاء هو ما فى الآيه السابقه، و هو فرحهم بالتخلف و خروجهم من حر الهواء إلى حر نار جهنم.

فالمعنى: فمن الواجب بالنظر إلى ما عملوه و اكتسبوه أن يضحكوا و يفرحوا قليلا فى الدنيا و أن يبكوا و يحزنوا كثيرا فى الآخرة فالأمر بالضحك و البكاء للدلاله على إيجاب السبب و هو ما كسبوه من الأعمال لذلك.

و أما حمل الأمر فى قوله: « فَلْيَضْحَكُوا » و قوله: « وَ لْيَبْكُوا » على الأمر المولوى لينتج تكليفا من التكليف الشرعيه فلا يناسبه قوله: « جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ».

و يمكن أن يكون المراد الأمر بالضحك القليل و البكاء الكثير معا ما هو فى الدنيا جزاء لسابق أعمالهم فإنها هدتهم إلى راحه وهميه فى أيام قلائل و هى أيام قعودهم خلاف رسول الله ص ثم إلى هوان و ذله عند الله و رسوله و المؤمنين ما داموا أحياء فى الدنيا ثم إلى شديد حر النار فى الآخرة بعد موتهم.

قوله تعالى: « فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذِنُوكَ لِلْخُرُوجِ » إلى آخر

الآية المراد بالقعود أول مره التخلف عن الخروج فى أول مره كان عليهم أن يخرجوا فيها فلم يخرجوا، ولعلها غزوه تبوك كما يهدى إليه السياق.

و المراد بالخالفين المتخلفون بحسب الطبع كالنساء و الصبيان و المرضى و الزمنى و قيل: المتخلفون من غير عذر، و قيل: الخالفون هم أهل الفساد، و الباقي واضح.

و فى قوله: «فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ» الآية دلالة على أن هذه الآية و ما فى سياقها المتصل من الآيات السابقة و اللاحقة نزلت و رسول الله ص فى سفره و لما يرجع إلى المدينة، و هو سفره إلى تبوك.

قوله تعالى: «وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ» نهى عن الصلاة لمن مات من المنافقين و القيام على قبره و قد علل النهى بأنهم كفروا و فسقوا و ماتوا على فسقهم، و قد علل لغويه الاستغفار لهم فى قوله تعالى: السابق: «اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ:» آيه - ٨٠ من السوره، و كذا فى قوله «سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفِرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ:» المنافقون: - ٦ بالكفر و الفسق أيضا.

و يتحصل من الجميع أن من فقد الإيمان بالله باستيلاء الكفر على قلبه و إحاطته به فلا سبيل له إلى النجاه يهتدى به، و أن الآيات الثلاث جميعا تكشف عن لغويه الاستغفار للمنافقين و الصلاة على موتاهم و القيام على قبورهم للدعاء لهم.

و فى الآية إشارة إلى أن النبى ص كان يصلى على موتى المسلمين و يقوم على قبورهم للدعاء.

قوله تعالى: «وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ» الآية تقدم بعض ما يتعلق بالآيه من الكلام فى الآية ٥٥ من السوره.

قوله تعالى: «وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِهَا لِلَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ» إلى آخر الآيتين. الطول القدره و النعمه، و الخوالف هم الخالفون و الكلام فيه كالكلام فيه، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: «لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ» لما ذم المنافقين فى الآيتين السابقتين بالرضا بالقعود مع الخوالف و الطبع على قلوبهم

استدرك بالنبي ص و الذين آمنوا معه-و المراد بهم المؤمنون حقا الذين خلصت قلوبهم من رين النفاق بدليل المقابله مع المنافقين-ليمدحهم بالجهاد بأموالهم و أنفسهم أى إنهم لم يرضوا بالعودة و لم يطبع على قلوبهم بل نالوا سعادته الحياه و النور الإلهى الذى يهتدون به فى مشيهم كما قال تعالى: «أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ»: الأنعام:-١٢٢.

و لذلك عقب الكلام بقوله: «وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» فلهم جميع الخيرات-على ما يقتضيه الجمع المحلى باللام-من الحياه الطيبه و نور الهدى و الشهاده و سائر ما يتقرب به إلى الله سبحانه،و هم المفلحون الفائزون بالسعاده.

قوله تعالى: «أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمُ جَنَاتٍ تَجْرِي» الآيه الإعداد هو التهيئه و قد عبر بالإعداد دون الوعد لأن الأمور بخواتيمها و عواقبها فلو كان وعدا و هو وعد لجميع من آمن معه لكان قضاء حتميا واجب الوفاء سواء بقى الموعودون على صفاء إيمانهم و صلاح أعمالهم أو غيروا و الله لا يخلف الميعاد.

و الأصول القرآنيه لا-تساعد على ذلك،و لا-القطره السليمه ترضى أن ينسب إلى الله سبحانه أن يطبع بطابع المغفره و الجنه الحتميه على أحد لعمل عمله من الصالحات ثم يخلى بينه و بين ما شاء و أراد.

و لذلك نجده سبحانه إذا وعد وعدا علقه على عنوان من العناوين العامه كالإيمان و العمل الصالح يدور معه الوعد الجميل من غير أن يخص به أشخاصا بأعيانهم فيفيد التناقض بالجمع بين التكليف و التأمين كما قال تعالى: «وَعِدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ جَنَاتٍ» الآيه-٧٢ من السوره،و قال تعالى: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ»-X إلى أن قال X- وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْرًا عَظِيمًا»: الفتح:-٢٩.

قوله تعالى: «وَأَجَاءَ الْمُعَذَّبُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ» الآيه.الظاهر أن المراد بالمعذرين هم أهل العذر كالذى لا يجد نفقه و لا سلاحا بدليل قوله: «وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا» الآيه،و السياق يدل على أن فى الكلام قياسا لإحدى الطائفتين إلى الأخرى ليظهر به لؤم المنافقين و خستهم و فساد قلوبهم و شقاء نفوسهم،حيث إن فريضه الجهاد الدينيه و النصره لله و رسوله هيح لذلك المعذرين من الأعراب و جاءوا

إلى النبي ص يستأذنون، ولم يؤثر في هؤلاء الكاذبين شيئا.

قوله تعالى: «لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ» المراد بالضعفاء بدلاله سياق الآيه: الذين لا قوة لهم على الجهاد بحسب الطبع كالزمنى كما أن المرضى لا قوة لهم عليه بحسب عارض مزاجى، والذين لا يجدون ما ينفقون لا قوة لهم عليه من جهة فقد المال و نحوه.

فهؤلاء مرفوع عنهم الحرج والمشقه أى الحكم بالوجوب الذى لو وضع كان حكما حرجيا، وكذا ما يستتبعه الحكم من الدم والعقاب على تقرير المخالفه.

وقد قيد الله تعالى رفع الحرج عنهم بقوله: «إِذَا نَصَّيْحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ» وهو ناظر إلى الدم والعقاب على المخالفه و القعود فإنما يرفع الدم والعقاب عن هؤلاء المعذورين إذا نصحوا لله ورسوله، وأخلصوا من الغش والخيانه ولم يجرؤا فى قعودهم على ما يجرى عليه المنافقون المتخلفون من قلب الأُمور و إفساد القلوب فى مجتمع المؤمنين، وإلا- فيجرى عليهم ما يجرى على المنافقين من الدم والعقاب.

وقوله: «مَّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ» فى مقام التعليل لئفى الحرج عن الطوائف المذكورين بشرط أن ينصحوا لله ورسوله أى لأنهم يكونون حينئذ محسنين و ما على المحسنين من سبيل فلا سبيل يتسلط عليهم يؤتون منه فيصابون بما يكرهونه.

ففى السبيل كناية عن كونهم فى مأمن مما يصيبهم من مكروه كأنهم فى حصن حصين لا طريق إلى داخله يسلكه الشر إليهم فيصيبهم، والجمله عامه بحسب المعنى و إن كان مورد التطبيق خاصا.

قوله تعالى: «وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ» الآية قال فى المجمع:

الحمل إعطاء المركوب من فرس أو بعير أو غير ذلك تقول: حملة يحمله حملا إذا أعطاه ما يحمل عليه قال:

ألا فتى عنده خفان يحملنى

عليهما إننى شيخ على سفر

قال: و الفيض الجرى عن امتلاء من قولهم: فاض الإناء بما فيه، و الحزن ألم فى القلب لفوت أمر مأخوذ من حزن الأرض و هى الأرض الغليظه المسلك. انتهى.

وقوله: «وَلَا عَلَى الَّذِينَ» الآية. موصول صلته قوله: «تَوَلَّوْا» الآية، وقوله:

«إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ» كالشرك و الجزاء و المجموع ظرف لقوله: «تَوَلَّوْا» و حزنا

مفعول له، و«أَلَا يَجِدُوا» منصوب بنزع الخافض.

و المعنى: و لا- حرج على الفقراء الذين إذا ما أتوك لتعطيهم مركوبا يركبونه و تصلح سائر ما يحتاجون إليه من السلاح و غيره قلت لا- أجد ما أحملكم عليه تولوا و الحال أن أعينهم تمتلئ و تسكب دموعا للحزن من أن لا- يجدوا-أو لأن لا يجدوا- ما ينفقونه في سبيل الله للجهاد مع أعدائه.

و عطف هذا الصنف على ما تقدمه من عطف الخاص على العام عناه بهم لأنهم في أعلى درجه من النصح و إحسانهم ظاهر.

قوله تعالى: «إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَ هُمْ أَغْيَاءٌ» الآية، القصر للإفراد و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: «يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ» إلى آخر الآية. خطاب الجمع للنبي ص و المؤمنين جميعا، و قوله: «لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ» أي لن نصدقكم على ما تعتذرون به بناء على تعديه الإيمان باللام كالباء- أو لن نصدق تصديقا ينفعكم- بناء على كون اللام للنفع- و الجملة تعليل لقوله: «لَا تَعْتَذِرُوا» كما أن قوله: «قَدْ تَبَّأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ» تعليل لهذه الجملة.

و المعنى يعتذر المنافقون إليكم عند رجوعكم من الغزوه إليهم قل يا محمد لهم: لا تعتذروا إلينا لأننا لن نصدقكم فيما تعتذرون به لأن الله قد أخبرنا ببعض أخباركم مما يظهر به نفاقكم و كذبكم فيما تعتذرون به، و سيظهر عملكم ظهور شهود لله و رسوله ثم تردون إلى الله الذي يعلم الغيب و الشهاده يوم القيامة فيخبركم بحقائق أعمالكم.

و في قوله: «وَ سَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ» إلخ في إيضاحه كلام سيمر بك عن قريب.

قوله تعالى: «سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ» الآية أي لتعرضوا عنهم فلا تعرضوا لهم بالعتاب و التفرع و ما يتعقب ذلك فأعرضوا عنهم لا تصديقا لهم فيما يحلفون له من الأعدار بل لأنهم رجس ينبغى أن لا يقترب منهم و مأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون.

قوله تعالى: «يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ» أي هذا الحلف منهم كما كان للتوسل إلى صرفكم عنهم ليأمنوا

الذم و التفریح كذلك هو للتوسل إلى رضاكم عنهم أما الإعراض فافعلوه لأنهم رجس لا ينبغي لنزاهة الإيمان و طهارته أن تتعرض لرجس النفاق و الكذب و قذاره الكفر و الفسق، و أما الرضى فاعلموا أنكم إن رضوا عنهم فإن الله لا يرضى عنهم لفسقهم و الله لا يرضى عن القوم الفاسقين.

فالمراد أنكم إن رضيتم عنهم فقد رضيتم عن من لم يرض الله عنه أى رضيتم بخلاف رضى الله، و لا ينبغي لمؤمن أن يرضى عما يسخط ربه فهو أبلغ كناية عن النهى عن الرضا عن المنافقين.

(بحث روائى)

فى الدر المنثور: فى قوله تعالى: «فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ» الآية: أخرج ابن أبى حاتم عن جعفر بن محمد عن أبىه (ع) -قال: كانت غزوه تبوك آخر غزوه غزاها رسول الله ص، و هى غزوه الحر «قَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ» و هى غزوه العسره.

وفيه، أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس: أن رسول الله ص أمر الناس أن ينبعثوا معه -و ذلك فى الصيف فقال رجال.

يا رسول الله إن الحر شديد و لا نستطيع الخروج -فلا- تنفروا فى الحر فقال الله «قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ» فأمره بالخروج.

أقول: ظاهر الآية أنهم إنما قالوه ليخدلوا الناس عن الخروج، و ظاهر الحديث أنهم إنما قالوه إشاره فلا يتطابقان.

وفيه، أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى و غيره قالوا: "خرج رسول الله ص فى حر شديد إلى تبوك -فقال رجل من بنى سلمه: لا تنفروا فى الحر- فأنزل الله: «قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا» الآية.

أقول: تقدمت أخبار فى قوله تعالى: «و مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْتِدَنْ لِي وَ لَا تَفْتِنِّي» الآية أن القائل لقوله: «لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ» هو جد بن قيس.

وفى الدر المنثور، أيضا: فى قوله تعالى: «و لَا تَصَلِّ عَلَيَّ أَحَدٍ مِنْهُمْ» الآية: أخرج البخارى و مسلم و ابن أبى حاتم و ابن المنذر و أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل

عن ابن عمر قال: لما توفي عبد الله بن أبي بن سلول-أتى ابنه عبد الله رسول الله ص- يسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه فأعطاه- ثم سأله أن يصلى عليه فقام رسول الله ص-.

فقام عمر بن الخطاب فأخذ ثوبه فقال: يا رسول الله- أتصلى عليه وقد نهاك الله أن تصلى على المنافقين؟ فقال: إن ربي خيرني و قال: اِسْتَعْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ- اِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ، و سأزيد على السبعين فقال: إنه منافق فصلى عليه-فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ فترك الصلاة عليهم.

أقول: و في هذا المعنى روايات أخرى رواها أصحاب الجوامع و رواه الحديث عن عمر بن الخطاب و جابر و قتاده، و في بعضها أنه كفنه في قميصه و نفث في جلده و نزل في قبره.

و فيه، أخرج أحمد و البخارى و الترمذى و النسائى و ابن أبى حاتم و النحاس و ابن حبان و ابن مردويه و أبو نعيم فى الحليه عن ابن عباس قال: سمعت عمر يقول: لما توفي عبد الله بن أبى دعى رسول الله ص للصلاه عليه-فقام عليه فلما وقف قلت: أتصلى على عدو الله عبد الله بن أبى-القائل كذا و القائل كذا و القائل كذا و كذا-أعدد أيامه-و رسول الله يتبسم حتى إذا أكثرت-قال: يا عمر آخر عنى إني قد خيرت-قد قيل لى. اِسْتَعْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ اِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً، فلو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها-ثم صلى عليه رسول الله ص و مشى معه-حتى قام على قبره حتى فرغ منه-.

فعجبت لى و لجرأتى على رسول الله ص، و الله و رسوله أعلم-فوالله ما كان إلا-يسيرا حتى نزلت هاتان الآيتان: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ فما صلى رسول الله ص على منافق بعده حتى قبضه الله عز و جل.

و فيه، أخرج ابن أبى حاتم عن الشعبى أن عمر بن الخطاب قال: لقد أصبت فى الإسلام هفوه ما أصبت مثلها قط-أراد رسول الله ص أن يصلى على عبد الله بن أبى- فأخذت بثوبه فقلت: و الله ما أمرك الله بهذا. لقد قال الله: ﴿اِسْتَعْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ-اِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ فقال رسول الله ص: قد خيرنى ربي فقال ﴿اِسْتَعْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾.

فقعد رسول الله ص على شفير القبر فجعل الناس يقولون لابنه، يا حباب افعل

كذا يا حباب افعل كذا-فقال رسول الله ص:الحباب اسم شيطان أنت عبد الله.

وفيه،أخرج الطبرانى و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس:" أن ابن عبد الله بن أبى قال له أبوه،اطلب لى ثوبا من ثياب النبى ص-فكفنى فيه و مره أن يصلى على قال:فأتاه-فقال:يا رسول الله قد عرفت شرف عبد الله-و هو يطلب إليك ثوبا من ثيابك نكفنه فيه و تصلى عليه-.

فقال عمر:يا رسول الله قد عرفت عبد الله و نفاقه أ تصلى عليه-و قد نهاك الله أن تصلى عليه؟فقال:و أين؟فقال:«إِسْتَعْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ-إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ»قال:فإنى سأزيد على سبعين فأنزل الله:«و لَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَ لَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ»الآيه-قال:فأرسل إلى عمر فأخبره بذلك-و أنزل الله سَوَاءً عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ».

أقول:وقد ورد استغفار النبى ص لعبد الله بن أبى و صلاته عليه فى بعض المراسيل من روايات الشيعة أيضا أوردتها العياشى و القمى فى تفسيريهما،و قد تقدم خبر القمى.

و هذه الروايات على ما فيها من بعض التناقض و التمداف و اشتمالها على التعارض فيما بينها يدفعها الآيات الكريمة دفعا بينا لا مريه فيه:

أما أولا فلظهور قوله تعالى:«إِسْتَعْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ-إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ»ظهورا بينا فى أن المراد بالآيه بيان لغويه الاستغفار للمنافقين دون التخيير،و أن العدد جىء به لمبالغه الكثره لا-لخصوصيه فى السبعين بحيث ترجى المغفره مع الزائد على السبعين.

و النبى ص أجل من أن يجهل هذه الدلاله فيحمل الآيه على التخيير ثم يقول سأزيد على سبعين ثم يذكره غيره بمعنى الآيه فيصر على جهله حتى ينهائ الله عن الصلاه و غيرها بآيه أخرى ينزلها عليه.

على أن جميع هذه الآيات المتعرضه للاستغفار للمنافقين و الصلاه عليهم كقوله:

«إِسْتَعْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ»و قوله:«سَوَاءً عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ»و قوله:«و لَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا»تعلل النهى و اللغويه بكفرهم و فسقهم،حتى قوله تعالى فى النهى عن الاستغفار للمشركين:«مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ

آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ: آية-١١٣ من السورة ينهى عن الاستغفار معللا ذلك بالكفر و خلود النار، و كيف يتصور مع ذلك جواز الاستغفار لهم و الصلاة عليهم؟.

و ثانيا: أن سياق الآيات التي منها قوله: «و لَا تُصَلِّ عَلَيَّ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا» الآية صريح في أن هذه الآية إنما نزلت و النبي ص في سفره إلى تبوك و لما يرجع إلى المدينة، و ذاك في سنة ثمان، و قد وقع موت عبد الله بن أبي بالمدينة سنة تسع من الهجرة كل ذلك مسلم من طريق النقل.

فما معنى قوله في هذه الروايات: أن النبي ص صلى على عبد الله و قام على قبره ثم أنزل الله عليه: «و لَا تُصَلِّ عَلَيَّ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا» الآية؟.

و أعجب منه ما وقع في بعض الروايات السابقة أن عمر قال للنبي ص:

أ تصلى عليه و قد نهاك عن الصلاة للمنافقين فقال: إن ربي خيرني ثم أنزل الله:

«و لَا تُصَلِّ عَلَيَّ أَحَدٍ مِنْهُمْ» الآية.

و أعجب منه ما في الرواية الأخيرة من نزول قوله: «سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ» الآية، و الآية من سورة المنافقون و قد نزلت بعد غزاه بنى المصطلق و كانت في سنة خمس و عبد الله بن أبي حى عندئذ و قد حكى في السورة قوله: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرض منها الأذل.

و قد اشتمل بعض هذه الروايات و تعلق به بعض من انتصر لها على أن النبي ص إنما استغفر و صلى على عبد الله ليستميل قلوب رجال منافقين من الخزرج إلى الإسلام، و كيف يستقيم ذلك؟ و كيف يصح أن يخالف النبي ص النص الصريح من الآيات استماله لقلوب المنافقين و مداهنه معهم؟ و قد هدده الله على ذلك بأبلغ التهديد في مثل قوله:

«إِذَا لَأَذْنُكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَ ضِعْفَ الْمَمَاتِ» X الآية X:إسراء-٧٥. فالوجه أن هذه الروايات موضوعه يجب طرحها بمخالفه الكتاب.

و في الدر المنثور، في قوله: «رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ» الآية: أخرج ابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص: أن على بن أبي طالب خرج مع النبي ص -حتى جاء ثنيه الوداع يريد تبوك، و على يبكى- و يقول: تخلفني مع الخوالف؟ فقال رسول الله ص: أ لا ترضى أن تكون منى بمنزله هارون من موسى إلا النبوه.

أقول: و الروايه مرويه بطرق كثيره من طرق الفريقين.

و فى تفسير العياشى عن جابر عن أبى جعفر (ع): فى قوله: «رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ» قال: مع النساء.

و فى الدر المنثور، أخرج عبد الرزاق فى المصنف و ابن أبى شيبه و أحمد و البخارى و أبو الشيخ و ابن مردويه عن أنس: أن رسول الله ص لما قفل من غزوه تبوك - فأشرف على المدينة قال: لقد تركتم بالمدينه رجالا- ما سرتهم فى مسير و لا أنفقتم من نفقه- و لا قطعتم واديا إلا كانوا معكم فيه. قالوا: يا رسول الله و كيف يكونون معنا و هم بالمدينه؟ قال: حسبهم العذر.

و فى المجمع،": فى قوله تعالى: «لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى» الآيتين- قيل: إن الآيه الأولى نزلت فى عبد الله بن زائده- و هو ابن أم مكتوم و كان ضرير البصر- جاء إلى رسول الله ص فقال: يا نبي الله- إني شيخ ضرير خفيف الحال نحيف الجسم- و ليس لى قائد فهل لى رخصه فى التخلف عن الجهاد؟ فسكت النبي ص فأنزل الله الآيه. عن الضحاک، و قيل: نزلت فى عائذ بن عمرو و أصحابه، عن قتاده-.

و الآيه الثانيه نزلت فى البكاءين و هم سبعة نفر: منهم عبد الرحمن بن كعب و علبه بن زيد- و عمرو بن ثعلبه بن غنمه و هؤلاء من بنى النجار، و سالم بن عمير و هرمى بن عبد الله و عبد الله بن عمرو بن عوف [أو] عبد الله بن مغفل من مزينه- جاءوا إلى رسول الله فقالوا يا رسول الله- احملنا فإنه ليس لنا ما نخرج عليه فقال.

لا أجد ما أحملكم عليه عن أبى حمزه الثمالى-.

و قيل: نزلت فى سبعة من قبائل شتى أتوا النبي ص فقالوا له: احملنا على الخفاف و النعال. عن محمد بن كعب و ابن إسحاق-.

و قيل: كانوا جماعه من مزينه. عن مجاهد، و قيل: كانوا سبعة من فقراء الأنصار- فلما بكوا حمل عثمان منهم رجلين، و العباس بن عبد المطلب رجلين، و يامين بن كعب النضرى ثلاثة عن الواقدى قال: و كان الناس بتبوك- مع رسول الله ص ثلاثين ألفا منهم عشره آلاف فارس.

أقول: و الروايات فى أسماء البكاءين مختلفه اختلافا شديدا.

و فى تفسير القمى، قال:" قال: و إنما سأل هؤلاء البكاءون نعلا يلبسونها.

و فى المعانى، بإسناده عن ثعلبه عن بعض أصحابنا عن أبى عبد الله (ع): فى قول الله عز و جل: «لَعَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ» فقال: الغيب ما لم يكن و الشهاده ما قد كان.

أقول: و هو من باب إراءه بعض المصاديق و اللفظ أعم.

و فى تفسير القمى، قال: و لما قدم النبى ص من تبوك- كان أصحابه المؤمنون يتعرضون المنافقين و يؤذونهم- فأنزل الله: «سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعْرِضُوا عَنْهُمْ» إلى آخر الآيتين.

و فى المجمع، "قيل: نزلت الآيات- فى جد بن قيس و متعب بن قشير و أصحابهما من المنافقين- و كانوا ثمانين رجلا، و لما قدم النبى ص المدينة راجعا عن تبوك- قال:

لا تجالسوهم و لا تكلموهم" عن ابن عباس.

[سوره التوبه (٩): الآيات ٩٧ الى ١٠٦]

اشاره

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَ نِفَاقًا وَ أَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَ مِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَ يَتَرَبَّصُّ بِكُمْ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَ مِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَ صِيَالُاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٩) وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ الْأَمْهَجِينَ وَ الْأَنْصَارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَيْدِيًا ذَلِكِ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) وَ مِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَىٰ النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَيُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَ آخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِهَا وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صِيَالَتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَ يَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤) وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَىٰ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ سَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) وَ آخَرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦)

الكلام جار على الغرض السابق يبين به حال الأعراب في كفرهم و نفاقهم و إيمانهم و في خلال الآيات آيه الصدقه.

قوله تعالى: «الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَ نِفَاقًا وَ أَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ» الآية، قال الراغب في المفردات: العرب ولد إسماعيل، و الأعراب جمعها في الأصل، و صار ذلك اسما لسكان البادية: «قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا» و «الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَ نِفَاقًا . وَ مِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ»، و قيل في جمع الأعراب: أعراب، قال الشاعر:

أعراب ذوو فخر يافك

و ألسنه لطاف في المقال

و الأعرابي في التعارف صار اسما للمنسوب إلى سكان البادية، و العربي المفصح و الإعراب البيان، انتهى موضع الحاجه. يبين تعالى حال سكان البادية و أنهم أشد كفرا و نفاقا لأنهم لبعدهم عن المدنيه و الحضاره، و حرمانهم من بركات الإنسانيه من العلم و الأدب أفسى و أجفى، فهم أجدر و أحرى أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله من

المعارف الأصلية و الأحكام الشرعية من فرائض و سنن و حلال و حرام.

قوله تعالى: « وَ مِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ » الآية، قال فى المجمع:، المغرم الغرم و هو نزول نائبه بالمال من غير خيانه، و أصله لزوم الأمر، و منه قوله: إن عذابها كان غراما، و حب غرام أى لائزم و الغريم يقال لكل واحد من المتدائنين للزوم أحدهما الآخر و غرمته كذا أى ألزمته إياه فى ماله، انتهى.

و الدوائر الحادته و تغلب فى الحوادث السوء كأن الحوادث السوء تدور بين الناس فتنزى كل يوم بقوم فتربص الدوائر بالمؤمنين انتظار نزول الحوادث السوء عليهم للتخلص من سلطتهم و الرجوع إلى رسوم الشرك و الضلال.

و قوله: « يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا » أى يفرض الإنفاق غرما أو المال الذى ينفقه مغرما-على أن يكون ما مصدرية أو موصولة-و المراد الإنفاق فى الجهاد أو أى سبيل من سبل الخير على ما قيل، و يمكن أن يكون المراد الإنفاق فى خصوص الصدقات ليكون الكلام كالتوطئه لما سيجىء بعد عده آيات من حكم أخذ الصدقه من أموالهم، و يؤيده ما فى الآية التالىة من قوله: « وَ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَ صَلَوَاتِ الرَّسُولِ » فإنه كالتوطئه لقوله فى آية الصدقه: « وَ صَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ».

فمعنى الآية: و من سكان البادية من يفرض الإنفاق فى سبيل الخير أو فى خصوص الصدقات غرما و خساره و ينتظر نزول الحوادث السيئه بكم، عليهم دائره السوء -قضاء منه تعالى أو دعاء عليهم- و الله سميع للأقوال عليم بالقلوب.

قوله تعالى: « وَ مِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَ صَلَوَاتِ الرَّسُولِ » الخ، الظاهر أن قوله: « صَلَوَاتِ الرَّسُولِ » عطف على قوله: « مَا يُنْفِقُ » و أن الضمير فى قوله: « أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ » عائد إلى ما ينفق و صلوات الرسول.

و معنى الآية: و من الأعراب من يؤمن بالله فيوحده من غير شرك و يؤمن باليوم الآخر فيصدق الحساب و الجزاء و يتخذ إنفاق المال لله و ما يتبعه من صلوات الرسول و دعواته بالخير و البركه، كل ذلك قربات عند الله و تقربات منه إليه إلا أن هذا الإنفاق و صلوات الرسول قربه لهم، و الله يعدهم بأنه سيدخلهم فى رحمته لأنه غفور للذنوب رحيم بالمؤمنين به و المطيعين له.

قوله تعالى: « وَ السَّابِقُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ » إلخ القراء المشهوره « وَ الْأَنْصَارِ » بالكسر عطفًا على « الْمُهَاجِرِينَ » و التقدير: السابقون الأولون من المهاجرين و السابقون الأولون من الأنصار و الذين اتبعوهم بإحسان؛ و قرأ يعقوب: و الأنصار بالرفع فالمراد به جميع الأنصار دون السابقين الأولين منهم فحسب.

و قد اختلفت الكلمه فى المراد بالسابقين الأولين فقيل: المراد بهم من صلى إلى القبلتين، و قيل: من باع بيعه الرضوان و هى بيعه الحديبيه، و قيل: هم أهل بدر خاصه، و قيل: هم الذين أسلموا قبل الهجره، و هذه جميعا و جوه لم يوردوا لها دليلا من جهة اللفظ.

و الذى يمكن أن يؤيده لفظ الآيه بعض التأييد هو أن بيان الموضوع-السابقون الأولون-بالوصف بعد الوصف من غير ذكر أعيان القوم و أشخاصهم يشعر بأن الهجره و النصره هما الجهتان اللتان روعى فيهما السبق و الأوليه.

ثم الذى عطف عليهم من قوله: « وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ » يذكر قوما ينعتهم بالاتباع و يقيده بأن يكون بإحسان و الذى يناسب وصف الاتباع أن يترتب عليه هو وصف السبق دون الأوليه فلا- يقال: أول و تابع و إنما يقال: سابق و تابع، و تصديق ذلك قوله تعالى: « لِّلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَ أَمْوَالِهِمْ » X إلى أن قال: X « وَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَ الْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ » X إلى أن قال: X « وَ الَّذِينَ لَجَأُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ: رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَ لِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ » X الآيات X: الحشر: -١٠.

فالمراد بالسابقين هم السابقون إلى الإيمان من بين المسلمين من لدن طلوع الإسلام إلى يوم القيامة.

و لكون السبق و يقابله اللحق و الاتباع من الأمور النسبيه، و لانه كونه مسلمى كل عصر سابقين فى الإيمان بالقياس إلى مسلمى ما بعد عصرهم كما أنهم لاحقون بالنسبه إلى من قبلهم قيد « السَّابِقُونَ » بقوله: « الْأُولُونَ » ليدل على كون المراد بالسابقين هم الطبقة الأولى منهم.

و إذ ذكر الله سبحانه ثالث الأصناف الثلاثة بقوله: « وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ » و لم يقيده بتابعى عصر دون عصر و لا وصفهم بتقدم و أوليه و نحوهما و كان شاملا لجميع من يتبع السابقين الأولين كان لازم ذلك أن يصنف المؤمنون غير المنافقين من يوم البعث إلى يوم البعث فى الآيه ثلاثه أصناف: السابقون الأولون من المهاجرين، و السابقون

الأولون من الأنصار، و الذين اتبعوهم بإحسان، و الصنفان الأولان فاقدان لوصف التبعيه و إنما هما إمامان متبوعان لغيرهما و الصنف الثالث ليس متبوعا إلا بالقياس.

و هذا نعم الشاهد على أن المراد بالسابقين الأولين هم الذين أسسوا أساس الدين و رفعوا قواعده قبل أن يشيد بنيانه و يهتز راياته صنف منهم بالإيمان و اللحق بالنبى ص و الصبر على الفتنة و التعذيب، و الخروج من ديارهم و أموالهم بالهجرة إلى الحبشه و المدينه، و صنف بالإيمان و نصره الرسول و إيوائه و إيواء من هاجر إليهم من المؤمنين و الدفاع عن الدين قبل وقوع الوقائع.

و هذا ينطبق على من آمن بالنبى ص قبل الهجره ثم هاجر قبل وقعه بدر التى منها ابتدأ ظهور الإسلام على الكفر أو آمن بالنبى ص و آواه و تهيأ لنصرته عند ما هاجر إلى المدينه.

ثم إن قوله: «و الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ» قيد فيه اتباعهم بإحسان و لم يرد الاتباع فى الإحسان بأن يكون المتبوعون محسنين ثم يتبعهم التابعون فى إحسانهم و يقتدوا بهم فيه-على أن يكون الباء بمعنى فى-و لم يرد الاتباع بواسطة الإحسان-على أن يكون الباء للسببيه أو الآليه-بل جىء بالإحسان منكرًا، و الأنسب له كون الباء بمعنى المصاحبه فالمراد أن يكون الاتباع مقارنا لنوع ما من الإحسان مصاحبا له، و بعبارة أخرى يكون الإحسان وصفا للاتباع.

و إنا نجده تعالى فى كتابه لا يذم من الاتباع إلا ما كان عن جهل و هوى كاتباع المشركين آباءهم، و اتباع أهل الكتاب أحبارهم و رهبانهم و أسلافهم عن هوى و اتباع الهوى و اتباع الشيطان فمن اتبع شيئا من هؤلاء فقد أساء فى الاتباع و من اتبع الحق لا لهوى متعلق بالأشخاص و غيرهم فقد أحسن فى الاتباع، قال تعالى: «الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ» الزمر: ١٨ و من الإحسان فى الاتباع كمال مطابقه عمل التابع لعمل المتبوع و يقابله الإساءه فيه.

فالظاهر أن المراد بالذين اتبعوهم بإحسان أن يتبعوهم بنوع من الإحسان فى الاتباع و هو أن يكون الاتباع بالحق-و هو اتباعهم لكون الحق معهم- و يرجع إلى اتباع الحق بالحقيقه بخلاف اتباعهم لهوى فيهم أو فى اتباعهم، و كذا مراقبه التطابق.

هذا ما يظهر من معنى الاتباع بإحسان، و أما ما ذكره من أن المراد كون

الاتباع مقارنا لإحسان في المتبع عملا بأن يأتي بالأعمال الصالحة و الأفعال الحسنه فهو لا يلائم كل الملاءمه التنكير الدال على النوع في الإحسان، و على تقدير التسليم لا- مفر فيه من التقييد بما ذكرنا فإن الاتباع للحق و فى الحق يستلزم الإتيان بالأعمال الحسنه الصالحة دون العكس و هو ظاهر.

فقد تلخص أن الآيه تقسم المؤمنين من الأمه إلى ثلاثه أصناف:صنفان هما السابقون الأولون من المهاجرين و الأنصار، و الصنف الثالث هم الذين اتبعوهم بإحسان.

و ظهر مما تقدم أولا: أن الآيه تمدح الصنفين الأولين، بالسبق إلى الإيمان و التقدم فى إقامه صلب الدين و رفع قاعدته، و تفضيلهم على غيرهم على ما يفيداه السياق.

و ثانيا: أن «مَنْ» فى قوله: «مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ» تبعيضية لا بيانية لما تقدم من وجه فضلهم، و لما أن الآيه تذكر أن الله رضى عنهم و رضوا عنه، و القرآن نفسه يذكر أن منهم من فى قلبه مرض و منهم سماعون للمنافقين، و منهم من يسميه فاسقا، و منهم من تبرأ النبي ص من عمله و لا معنى لرضى الله عنهم، و الله لا يرضى عن القوم الفاسقين.

و ثالثا: أن الحكم بالفضل و رضى الله سبحانه فى الآيه مقيد بالإيمان و العمل الصالح على ما يعطيه السياق فإن الآيه تمدح المؤمنين فى سياق تدم فيه المنافقين بكفرهم و سيئات أعمالهم و يدل على ذلك سائر المواضع التى مدحهم الله فيها أو ذكرهم بخير و وعدهم وعدا جميلا فقد قيد جميع ذلك بالإيمان و العمل الصالح كقوله تعالى: «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَ أَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانًا وَ يَنْصُرُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ» X إلى آخر الآيات الثلاث X: الحشر: - ٨.

و قوله فيما حكاه من دعاء الملائكه لهم: «وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْمًا فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَ قِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَ أزْوَاجِهِمْ وَ ذُرِّيَّتِهِمْ»: المؤمن:- ٨.

و قوله: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ» -X إلى أن قال X- وَ عَيَّدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْرًا عَظِيمًا»: الفتح: - ٢٩.

و قوله: «وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ مَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ»: الطور:- ٢١ انظر إلى موضع قوله:

« بِإِيمَانٍ » و قوله: كُلُّ امْرِئٍ «إِلْخ».

و لو كان الحكم فى الآيه غير مقيد بقيد الإيمان و العمل الصالح و كانوا مرضيين عند الله مغفورا لهم أحسنوا أو أساءوا و اتقوا أو فسقوا كان ذلك تكديبا صريحا لقوله تعالى: « فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ » التوبه:- ٩٦، و قوله: « وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » التوبه:- ٨٠، و قوله: « وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ » آل عمران:- ٥٧ إلى غير ذلك من الآيات الكثيره الداله مطابقه أو التزاما أن الله لا يرضى عن الظالم و الفاسق و كل من لا يطيعه فى أمر أو نهى، و ليست الآيات مما يقبل التقييد أو النسخ و كذا أمثال قوله تعالى خطابا للمؤمنين: « لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَ لَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ: » النساء:- ١٢٣.

على أن لازم عدم تقييد الحكم فى هذه الآيه تقييد جميع الآيات الداله على الجزاء و المشتمله على الوعيد و التهديد، و هى آيات جمه فى تقييدها اختلال نظام الوعد و الوعيد و إلغاء معظم الأحكام و الشرائع، و بطلان الحكمه، و لا فرق فى ذلك بين أن نقول بكون « مِنْ » تبعيضية و الفضل لبعض المهاجرين و الأنصار أو بيانيه و الفضل للجميع و الرضى الإلهى للكل، و هو ظاهر.

و قوله تعالى: « رَضِيََ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ » الرضى منا موافقه النفس لفعل من الأفعال من غير تضاد و تدافع يقال: رضى بكذا أى وافقه و لم يمتنع منه، و يتحقق بعدم كراهته إياه سواء أحبه أو لم يحبه و لم يكرهه فرضى العبد عن الله هو أن لا يكره بعض ما يريده الله و لا يحب بعض ما يبغضه و لا يتحقق إلا إذا رضى بقضائه تعالى و ما يظهر من أفعاله التكوينييه، و كذا بحكمه و ما أراد منه تشريعا، و بعبارة أخرى إذا سلم له فى التكوين و التشريع و هو الإسلام و التسليم لله سبحانه.

و هذا بعينه شاهد آخر على ما تقدم أن الحكم فى الآيه مقيد بالإيمان و العمل الصالح بمعنى أن الله سبحانه إنما يمدح من المهاجرين و الأنصار و التابعين من آمن به و عمل صالحا، و يخبر عن رضاه عنه و إعداده له جنات تجرى تحتها الأنهار.

و ليس مدلول الآيه أن من صدق عليه أنه مهاجر أو أنصارى أو تابع فإن الله قد رضى عنه رضا لا سخط بعده أبدا و أوجب فى حقه المغفره و الجنه سواء أحسن بعد ذلك أو أساء، اتقى أو فسق.

و أما رضاه تعالى فإنما هو من أوصافه الفعلية دون الذاتيه فإنه تعالى لا يوصف لذاته بما يصير معه معرضا للتغيير و التبدل كأن يعرضه حال السخط إذا عصاه ثم الرضى إذا تاب إليه، وإنما يرضى و يسخط بمعنى أنه يعامل عبده معامله الراضى من إنزال الرحمه و إيتاء النعمه أو معامله الساخط من منع الرحمه و تسليط النقمه و العقوبه.

و لذلك كان من الممكن أن يحدث له الرضى ثم يتبدل إلى السخط أو بالعكس غير أن الظاهر من سياق الآيه أن المراد بالرضى هو الرضى الذى لا-سخط بعده فإنه حكم محمول على طبيعه أختيار الأمه من سابقهم و تابعهم فى الإيمان و العمل الصالح، و هذا أمر لا-مداخله للزمان فيه حتى يصح فرض سخط بعد رضى و هو بخلاف قوله تعالى: «لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ»: Xالآيه Xالفتح:- ١٨ فإنه رضى مقيد بزمان خاص يصلح لنفسه لأن يفرض بعده سخط.

قوله تعالى: «وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُدَافِقُونَ وَ مِّنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ» الآيه حول الشىء ما يجاوره من المكان من أطرافه و هو ظرف، و المراد العتو و الخروج عن الطاعه، و الممارسه و التميرين على الشر و هو المعنى المناسب لقوله فى الآيه: «مَرَدُّوا عَلَى النِّفَاقِ» أى مرنوا عليه و مارسوا حتى اعتادوه.

و معنى الآيه: و ممن فى حولكم أو حول المدينة من الأعراب الساكنين فى البوادي منافقون مرنوا على النفاق و من أهل المدينة أيضا منافقون معتادون على النفاق لا تعلمهم أنت يا محمد نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم.

و قد اختلفت كلماتهم فى المراد من تعذيبهم مرتين ما هما المرتان؟ فقيل: يعنى مره فى الدنيا بالسبى و القتل و نحوهما و مره بعذاب القبر، و قيل: فى الدنيا بأخذ الزكاه و فى الآخره بعذاب القبر، و قيل بالجوع مرتين و قيل مره عند الاحتضار و مره فى القبر و قيل: بإقامه الحدود و عذاب القبر، و قيل: مره بالفضيحه فى الدنيا و مره بالعذاب فى القبر، و قيل غير ذلك، و لا دليل على شىء من هذه الأقوال، و إن كان و لا بد فأولها أو لاها.

قوله تعالى: «وَ آخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَ آخَرَ سَيِّئًا» الآيه، أى و من الأعراب جماعه آخرون مذنبون لا ينافقون مثل غيرهم بل اعترفوا بذنوبهم لهم عمل صالح و عمل آخر سيئ خلطوا هذا بذلك من المرجو أن يتوب الله عليهم إن الله غفور رحيم.

و فى قوله: «عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» إيجاد الرجاء فى نفوسهم لتكون نفوسهم واقعه بين الخوف و الرجاء من غير أن يحيط بها اليأس و القنوط، و فى قوله:

«إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» ترجيح جانب الرجاء.

قوله تعالى: «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِهَا وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صِيْلَاتِكَ سَيَكُنْ لَهُمْ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» التطهير إزاله الأوساخ و القذارات من الشئ ليصفى وجوده و يستعد للنشوء و النماء و ظهور آثاره و بركاته، و التزكية إنماءه و إعطاء الرشد له بلحوق الخيرات و ظهور البركات كالشجر يقطع الزوائد من فروعها فتزيد فى حسن نموها و جوده ثمرتها فالجمع بين التطهير و التزكية فى الآيه من لطيف التعبير.

فقوله: «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً» أمر للنبي ص بأخذ الصدقه من أموال الناس و لم يقل: من مالهم ليكون إشاره إلى أنها مأخوذه من أصناف المال، و هى النقدان: الذهب و الفضة، و الأنعام الثلاثة: الإبل و البقر و الغنم، و الغلات الأربع:

الحنطة و الشعير و التمر و الزبيب.

و قوله: «تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِهَا» خطاب للنبي ص، و ليس وصفا لحال الصدقه، و الدليل عليه ضمير بها الراجع إلى الصدقه أى خذ يا محمد من أصناف أموالهم صدقه تطهرهم أنت و تزكيهم بتلك الصدقه أى أخذها.

و قوله: «وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ» الصلاه عليهم هى الدعاء لهم و السياق يفيد أنه دعاء لهم و لأموالهم بالخير و البركه و هو المحفوظ من سنه النبي ص فكان يدعو لمعطى الزكاه و لماله بالخير و البركه.

و قوله: «إِنَّ صِيْلَاتِكَ سَيَكُنْ لَهُمْ» السكن ما يسكن إليه الشئ و المراد به أن نفوسهم تسكن إلى دعائك و تثق به و هو نوع شكر لسعيهم فى الله كما أن قوله تعالى فى ذيل الآيه: «وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» سكن يسكن إليه نفوس المكلفين ممن يسمع الآيه أو يتلوها.

و الآيه تتضمن حكم الزكاه المالىة التى هى من أركان الشريعة و المله على ما هو ظاهر الآيه فى نفسها، و قد فسرتها بذلك أخبار متكاثره من طرق أئمه أهل البيت (ع) و غيرهم.

قوله تعالى: «أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَ يَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» استفهام إنكارى بداعى تشويق الناس إلى إيتاء الزكاه،

و ذلك أنهم إنما يؤتون الصدقه لله و إنما يسلمونها إلى الرسول أو إلى عامله و جابه بما أنه مأمور من قبل الله في أخذها فإيتاءه إيتاء لله، و أخذه أخذ من الله فالله سبحانه هو الأخذ لها بالحقيقه، و قد قال تعالى في أمثاله: «إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» الفتح:- ١٠ و قال: «وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَى:» الأنفال:- ١٣ و قال قولاً عاماً: «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ:» النساء:- ٨٠.

فإذا ذكر الناس بمثل قوله: «أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ» الآية، انبعثت رغباتهم و اشتاقوا أن يعاملوا ربهم فيصافحوه و يمسوا بأيديهم يده تنزه عن عوارض الأجسام و تعالى عن ملابسه الحدثان.

و مقارنته الصدقه بالتوبه لما أن التوبه تطهر و إيتاء الصدقه تطهر فالتصدق بصدقه توبه ماليه كما أن التوبه بمنزله الصدقه في الأعمال و الحركات، و لذلك عطف على صدر الآيه قوله ذيلاً: «وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» فذكر عباده باسميه التواب و الرحيم، و جمع فيهما التوبه و التصدق.

و قد بان من الآيه أن التصدق و إيتاء الزكاه نوع من التوبه.

قوله تعالى: «وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ» الآية، الآية على ظاهر اتصالها بما قبلها كأنها تخاطب المؤمنين و تسوقهم و تحرضهم إلى إيتاء الصدقات.

غير أن لفظها مطلق لا دليل على تخصيص خطابها بالمتصدقين من المؤمنين و لا بعامة المؤمنين بل هي تشمل كل ذى عمل من الناس من الكفار و المنافقين و المؤمنين و لا أقل من شمولها للمنافقين و المؤمنين جميعاً.

إلا أن نظير الآيه الذى مر أعنى قوله فى سياق الكلام على المنافقين: «وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ:» التوبه:- ٩٤ حيث ذكر الله و رسوله فى رؤيه عملهم و لم يذكر المؤمنين لا يخلو من إيماء إلى أن الخطاب فى الآيه التى نحن فيها للمؤمنين خاصه فإن ضم إحدى الآيتين إلى الأخرى يخطر بالبال أن حقيقه أعمال المنافقين أعنى مقاصدهم من أعمالهم لما كانت خفيه على ملائكة الناس فإنما يعلم بها الله و رسوله بوحي من الله تعالى، و أما المؤمنون فحقائق أعمالهم أعنى مقاصدهم منها و آثارها و فوائدها التى تنفرع عليها و هى شيوع التقوى و إصلاح شئون المجتمع الإسلامى و إمداد الفقراء فى معاشهم و زكاه الأموال و نماؤها يعلمها الله

تعالى و رسوله و يشاهدها المؤمنون فيما بينهم.

لكن ظهور الأعمال بحقائق آثارها و عامه فوائدها أو مضراتها في محيط كينونتها و تبدلها بأمثالها و تصورهما في أطوارها زمانا بعد زمان و عصرا بعد عصر مما لا يختص بعمل قوم دون عمل قوم، و لا مشاهدتها و التأثر بها بقوم دون قوم.

فلو كان المراد من رؤيه المؤمنين أعمالا- لعاملين ظهور آثارها و نتائجها و بعبارة أخرى ظهور أنفسها في ألبسه نتائجها لهم لم يختص المشاهده بقوم دون قوم و لا- بعمل قوم دون عمل قوم فما بال الأعمال يراها المؤمنون و لا يراها المنافقون و هم أهل مجتمع واحد؟ و ما بال أعمال المنافقين لا يشاهدها المؤمنون و قد كونت في مجتمعهم و داخلت أعمالهم؟.

و هذا مع ما في الآيه من خصوص السياق مما يقرب الذهن أن يفهم من الآيه معنى آخر فإنه قوله: «و سَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُبَيِّنُكُمْ لِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» يدل أولا على أن قوله: «فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ» الآيه ناظر إلى ما قبل البعث و هي الدنيا لمكان قوله: «و سَتُرَدُّونَ» فإنه يشير إلى يوم البعث و ما قبله هو الدنيا.

و ثانيا: أنهم إنما يوقفون على حقيقه أعمالهم يوم البعث و أما قبل ذلك فإنما يرون ظاهرها، و قد نبهنا على هذا المعنى كرارا في أبحاثنا السابقة، و إذ قصر علمهم بحقائق أعمالهم على إنبائه تعالى إياهم بها يوم القيامة و ذكر رؤيه الله و رسوله و المؤمنين أعمالهم قبل يوم البعث في الدنيا و قد ذكر الله مع رسوله و غيره و هو عالم بحقائقها و له أن يوحى إلى نبيه بها كان المراد بها مشاهده الله سبحانه و رسوله و المؤمنون حقيقه أعمالهم، و كان المراد بالمؤمنين شهداء الأعمال منهم لا عامه المؤمنين كما يدل عليه أمثال قوله تعالى «وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِدًا» البقره: -١٤٣ و قد مر الكلام فيه في الجزء الأول من الكتاب.

و على هذا فمعنى الآيه: و قل يا محمد اعملوا ما شئتم من عمل خيرا أو شرا فسيشهد الله سبحانه حقيقه عملكم و يشاهدها رسوله و المؤمنون- و هم شهداء الأعمال- ثم تردون إلى الله عالم الغيب و الشهاده يوم القيامة فيرىكم حقيقه عملكم.

و بعبارة أخرى: ما عملتم من عمل خير أو شر فإن حقيقته مرئيه مشهوده لله عالم الغيب و الشهاده ثم لرسوله و المؤمنين في الدنيا ثم لكم أنفسكم معاشر العاملين يوم القيامة.

فالآية مسوقة لندب الناس إلى مراقبه أعمالهم بتذكيرهم أن لأعمالهم من خير أو شر حقائق غير مستوره بستر، وإن لها رقباء شهداء سيطلعون عليها ويرون حقائقها وهم رسول الله و شهداء الأعمال من المؤمنين و الله من ورائهم محيط فهو تعالى يراها و هم يرونها، ثم إن الله سبحانه سيكشف عنها الغطاء يوم القيامة للعاملين أنفسهم كما قال:

«لَمَّا كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَ كَذِبِ يَوْمِكُمْ إِذِ الْيَوْمُ كَحَدِيدٍ» ق:-٢٢ ففرق عظيم بين أن يأتي الإنسان بعمل في الخلوه لا يطلع عليه أحد، و بين أن يعمل ذلك العمل بعينه بين ملا من الناظرين جلوه و هو يرى أنه كذلك.

هذا في الآية التي نحن فيها، و أما الآية السابقة: «يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَجْبَارِكُمْ وَ سَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» فإن وجه الكلام فيها إلى أشخاص من المنافقين بأعيانهم يأمر الله فيها نبيه ص أن يرد إليهم اعتذارهم، و يذكر لهم أولاً أن الله قد نبأهم أى النبي و الذين معه من المؤمنين فى جيش الإسلام أخبارهم بنزول هذه الآيات التي تقص أخبار المنافقين و تكشف عن مساوى أعمالهم.

ثم يذكر لهم أن حقيقه أعمالهم غير مستوره عن الله سبحانه و لا- خفيه عليه و كذلك رسوله وحده و لم يكن معه أحد من شهداء الأعمال ثم الله يكشف لهم أنفسهم عن حقيقه أعمالهم يوم القيامة.

فهذا هو الفرق بين الآيتين مع اتحادهما فى ظاهر السياق حيث ذكر فى الآية التي نحن فيها: الله و رسوله و المؤمنون، و فى الآية السابقة: الله و رسوله، و اقتصر على ذلك. فهذا ما يعطيه التدبر فى معنى الآية و من لم يقنع بذلك و لم يرض دون أن يصور للآية معنى ظاهرياً فليقل إن ذكره تعالى «الله و رسوله» فى خطاب المنافقين إنما هو لأجل أنهم إنما يريدون أن يكيدوا الله و رسوله و لا هم لهم فى المؤمنون، و أما ذكره تعالى: «الله و رسوله و المؤمنون» فى الخطاب العام فإنما الغرض فيه تحريضهم على العمل الصالح فى مشهد من الملا الصالح و لم يعأ بحال غيرهم من الكفار و المنافقين. فتدبر.

قوله تعالى: «وَ آخِرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» الإرجاء التأخير، و الآية معطوفه على قوله: «وَ آخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ» و معنى إرجائهم إلى أمر الله أنهم لا سبب عندهم يرجح لهم جانب العذاب أو جانب

المغفرة فأمرهم يئول إلى أمر الله ما شاء و أراد فيهم فهو النافذ في حقهم.

و هذه الآيه تنطبق بحسب نفسها على المستضعفين الذين هم كالبرزخ بين المحسنين و المسيئين، و إن ورد في أسباب النزول أن الآيه نازله في الثلاثة الذين خلفوا ثم تابوا فأنزل الله توبتهم على رسوله ص و سيجيء إن شاء الله تعالى.

و كيف كان فالآيه تخفى ما يئول إليه عاقبه أمرهم و تبقيتها على إبهامها حتى فيما ذيلت به من الاسمين الكريمين: العليم و الحكيم الدالين على أن الله سبحانه يحكم فيهم بما يقتضيه علمه و حكمته، و هذا بخلاف ما ذيل قوله: «وَ آخِرُونَ اغْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ» حيث قال: «عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

(بحث روائى)

□
في تفسير العياشى، عن داود بن الحصين عن أبى عبد الله (ع) قال: سألته عن قول الله: «وَ مِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ - وَ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ» أ يشبههم عليه؟ قال: نعم.

و فيه، عن أبى عمرو الزبيرى عن أبى عبد الله (ع) قال: إن الله سبق بين المؤمنين كما سبق بين الخيل يوم الرهان.

□
قلت: أخبرنى عما ندب الله المؤمن من الإسباقي إلى الإيمان. قال: قول الله تعالى: «لِلَّهِ أَتَّبِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ - وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ - أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ» و قال: «السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ».

□
و قال: «وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ - وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ» فبدأ بالمهاجرين الأولين على درجه سبقهم - ثم ثنى بالأنصار ثم ثلث بالتابعين و أمرهم بإحسان - فوضع كل قوم على قدر درجاتهم و منازلهم عنده.

و فى تفسير البرهان، عن مالك بن أنس عن أبى صالح عن ابن عباس قال:

□
«وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ» نزلت فى أمير المؤمنين (ع) - و هو أسبق الناس كلهم بالإيمان و صلى على القبليتين، و بايع البيعتين بيعه بدر و بيعه الرضوان، و هاجر الهجرتين مع جعفر من مكة إلى الحبشه و من الحبشه إلى المدينة.

أقول: و فى معناها روايات أخر.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن مردويه من طريق الأوزاعى حدثنى يحيى بن كثير و القاسم و مكحول و عبده بن أبى لبابه و حسان بن عطيه أنهم سمعوا جماعه من أصحاب النبى ص يقولون: لما أنزلت هذه الآيه: «[□] وَ السَّابِقُونَ[□] الْأَوَّلُونَ[□] - إلى قوله - وَ رَضُوا عَنْهُ[□]» قال رسول الله ص: هذا لأمتى كلهم، و ليس بعد الرضا سخط.

أقول: معناه أن من رضى الله عنهم و رضوا عنه هم الذين جمعتهم الآيه لا أن الآيه تدل على رضاه تعالى عن الأمه كلهم فهذا مما يدفعه الكتاب بالمخالفة القطعيه، و كذا قوله: «و ليس بعد الرضا سخط»، مراده ليس بعد الرضا المذكور فى الآيه سخط، و قد قررناه فيما تقدم لا أنه ليس بعد مطلق رضى الله سخط فهو مما لا يستقيم البتة.

و فيه، أخرج أبو الشيخ و ابن عساكر عن أبى صخر حميد بن زياد قال: "قلت لمحمد بن كعب القرظى: أخبرنى عن أصحاب رسول الله ص و إنما أريد الفتن: فقال:

إن الله قد غفر لجميع أصحاب النبى ص، و أوجب لهم الجنة فى كتابه محسنهم و مسيئهم. قلت: و فى أى موضع أوجب الله لهم الجنة فى كتابه؟ قال: أ لا تقرأ:

«[□] وَ السَّابِقُونَ[□] الْأَوَّلُونَ[□]» الآيه - أوجب لجميع أصحاب النبى ص الجنة و الرضوان، و شرط على التابعين شرطا لم يشترطه فيهم -.

قلت: و ما أشرت عليهم؟ قال: اشترط عليهم أن يتبعوهم بإحسان يقول:

يقتدوا بهم فى أعمالهم الحسنه، و لا - يقتدون بهم فى غير ذلك. قال أبو صخر: فوالله لكأنى لم أقرأها قبل ذلك، و ما عرفت تفسيرها حتى قرأها على محمد بن كعب.

أقول: هو - كما ترى - يسلم أن فى أعمالهم حسنه و سيئه و طاعه و فسقا غير أن الله رضى عنهم فى جميع ذلك و غفرها لهم فلا يجازيهم بالسيئه سيئه، و هو الذى ذكرنا فى البيان المتقدم أن مقتضاه تكذيب آيات كثيره قرآنيه تدل على أن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين و الظالمين و أنه لا يحبهم و لا يهديهم، و تقيد آيات أكثر من ذلك و هى أكثر الآيات القرآنيه الداله على عموم جزاء الحسنه بالحسنه و السيئه بالسيئه من غير مقيد و عليها تعتمد آيات الأمر و النهى و هى آيات الأحكام بجملتها.

و لو كان مدلول الآيه هذا الذى ذكره لكانت الصحابه على عريبتهم المحضه و اتصالهم بزمان النبوه و نزول الوحي أحق أن يفهموا من الآيه ذلك، و لو كانوا فهموا منها ذلك لما عامل بعضهم بعضا بما ضبطه النقل الصحيح.

و كيف يمكن أن يتحقق كلهم بمضمون قوله: «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ» و يفهموا ذلك منه ثم لا يرضى بعضهم عن بعض و قد رضى الله عنه، و الراضى عن الله راض عما رضى الله عنه، و لا يندفع هذا الإشكال بحديث اجتهادهم فإن ذلك لو سلم يكون عذرا فى مقام العمل لا مصححا للجمع بين صفتين متضادتين وجدانا و هما الرضا عن الله و عدم الرضا عما رضى الله عنه و الكلام طويل.

و فيه، أخرج أبو عبيد و سنيد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن حبيب الشهيد عن عمرو بن عامر الأنصارى: " أن عمر بن الخطاب قرأ « و السابقون الأولون من المهاجرين و الأنصار الذين اتبعوهم بإحسان » فرفع الأنصار و لم يلحق الواو فى الذين فقال له زيد بن ثابت: و الذين فقال عمر: الذين فقال زيد: أمير المؤمنين أعلم فقال عمر: اتونى بأبى بن كعب فأتاه فسأله عن ذلك- فقال أبى: و الذين فقال عمر:

فنعم إذن نتابع أبا.

أقول: و مقتضى قراءه عمر اختصاص المهاجرين بما يتضمنه قوله: « و السابقون الأولون » من المنقبة و منقبة أخرى و هى كونهم متبوعين للأنصار كما يشير إليه الحديث الآتى.

و فيه، أخرج ابن جرير و أبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظى قال: " مر عمر برجل يقرأ « و السابقون الأولون من المهاجرين و السابقون » فأخذ عمر بيده فقال:

من أقرأك هذا؟ قال: أبى بن كعب. قال: لا- تفارقنى حتى أذهب بك إليه- فلما جاءه قال عمر: أنت أقرأت هذا هذه الآيه هكذا؟ قال: نعم- قال: و سمعتها من رسول الله ص؟ قال: نعم. قال: كنت أرى أنا رفعنا رفعه لا يبلغها أحد بعدنا-.

فقال أبى: تصديق ذلك فى أول سورة الجمعة: « و آخريين منهم لما يلحقوا بهم » و فى سورة الحشر: « و الذين جاؤ من بعديهم- يقولون ربنا اغفر لنا و لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان » و فى الأنفال: « و الذين آمنوا من بعد و هاجروا و جاهدوا معكم فأولئك منكم ».

و فى الكافى، بإسناده عن موسى بن بكر عن رجل قال: قال أبو جعفر (ع):

«الذين خلطوا عملاً صالحاً و آخر سيئاً» فأولئك قوم مؤمنون يحدثون فى إيمانهم من الذنوب- التى يعيها المؤمنون و يكرهونها- فأولئك عسى الله أن يتوب عليهم.

أقول: ورواه العياشي عن زراره عنه (ع) إلا أن فيه «مذنبون» «مكان مؤمنون».

و في المجمع، "في قوله تعالى: «وَ آخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ» الآية - قال: أبو حمزه الثمالى: بلغنا أنهم ثلاثة نفر من الأنصار: أبو كنانة بن عبد المنذر و ثعلبه بن وديعه - و أوس بن حذام تخلفوا عن رسول الله ص - عند مخرجه إلى تبوك - فلما بلغهم ما أنزل الله فيمن تخلف عن نبيه ص أيقنوا بالهلاك - و أوثقوا أنفسهم بسوارى المسجد فلم يزالوا كذلك - حتى قدم رسول الله ص فسأل عنهم - فذكر له أنهم أقسموا أن لا يحلون أنفسهم - حتى يكون رسول الله يحلهم، و قال رسول الله ص: و أنا أقسم لا أكون أول من حلهم - إلا أن أوامر فيهم بأمر -.

□
فلما نزل: «عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» عمده رسول الله ص إليهم فحلهم فانطلقوا - فجاءوا بأموالهم إلى رسول الله ص فقالوا: هذه أموالنا التي خلفتنا عنك فخذها و تصدق بها عنا. قال: ما أمرت فيها، فنزل: «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً الْآيَاتِ».

أقول: و في هذا المعنى روايات أخرى رواها في الدر المنثور بينها اختلاف في أسامي الرجال، و فيها نزول آية الصدقة في خصوص أموالهم، و يضعفها تظافر الروايات في نزول الآية في الزكاة الواجبه.

و فيه، و روى عن أبي جعفر الباقر (ع): أنها نزلت في أبي لبابه و لم يذكر غيره معه - و سبب نزولها فيه ما جرى منه في بنى قريظه - حين قال: إن نزلتم على حكمه فهو الذبح.

و في الكافي، بإسناده عن عبد الله بن سنان قال: قال أبو عبد الله (ع): لما نزلت هذه الآية: «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِهَا» و أنزلت في شهر رمضان - فأمر رسول الله ص مناديه فنادى في الناس: أن الله فرض عليكم الزكاة كما فرض عليكم الصلاة - ففرض الله عز و جل عليهم من الذهب و الفضة - و فرض الصدقة من الإبل و البقر و الغنم، و من الحنطة و الشعير و التمر و الزبيب - فنادى بهم بذلك في شهر رمضان، و عفا لهم عما سوى ذلك -.

قال: ثم لم يفرض لشيء من أموالهم - حتى حال عليه الحول من قابل - فصاموا

و أظفروا فأمر مناديه فنأدى فى المسلمىن: أىها المسلمون زكوا أموالكم تقبل صلألكم.

قال: ثم وجه عمال الصدقه و عمال الطسوق.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن أبى شىبه و البخارى و مسلم و أبو داود و النسائى و ابن ماجه و ابن المنذر و ابن مردويه عن عبد الله بن أبى أوفى قال: كان رسول الله ص إذا أتى بصدقه قال: اللهم صل على آل فلان فأتاه أبى بصدقه فقال: اللهم صل على آل أبى أوفى.

و فى تفسير البرهان، عن الصدوق بإسناده عن سليمان بن مهران عن أبى عبد الله (ع): فى قوله تعالى: «وَ يَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ» قال: يقبلها من أهلها و يثيب عليها.

و فى تفسير العياشى، عن مالك بن عطيه عن أبى عبد الله (ع) قال: قال على بن الحسين (ع): ضمنت على ربه أن الصدقه لا تقع فى يد العبد-حتى تقع فى يد الرب، و هو قوله: «هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَ يَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ».

أقول: و فى معناه روايات أخرى مرويه عن النبى ص و على و أبى جعفر و أبى عبد الله (ع).

و فى بصائر الدرجات، بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبى جعفر (ع) قال:

سألت عن الأعمال هل تعرض على رسول الله ص؟ قال: ما فيه شك. قال:

أ رأيت قول الله «اعْمَلُوا فَنَسِيرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ» فقال: لله شهداء فى خلقه.

أقول: و فى معناه روايات متظافره متكاثره مرويه فى جوامع الشيعه عن أئمه أهل البيت (ع)، و فى أكثرها: أن «الْمُؤْمِنُونَ» فى الآيه هم الأئمه، و انطباقها على ما قدمناه من التفسير ظاهر.

و فى الكافى، بإسناده عن زراره عن أبى جعفر (ع): فى قول الله «وَ آخِرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ» قال: قوم كانوا مشركين فقتلوا مثل حمزه و جعفر-و أشباههما من المسلمىن-ثم إنهم دخلوا فى الإسلام فوحدوا الله و تركوا الشرك، و لم يعرفوا الإيمان بقلوبهم-فيكونوا من المؤمنىن فيجب لهم الجنة، و لم يكونوا على جحودهم فيكفروا-فيجب لهم النار فهم على تلك الحال مرجون لأمر الله-إما يعذبهم و إما يتوب عليهم:

أقول: و رواه العياشى فى تفسيره عن زراره عنه (ع)

و فى معناه روايات أخرى.

و فى تفسير العياشى، عن حمران قال: سألت أبا عبد الله (ع) عن المستضعفين قال: هم ليسوا بالمؤمنين و لا بالكفار فهم المرجون لأمر الله.

و فى الدر المشهور، أخرج ابن المنذر عن عكرمه: " فى قوله: « وَ آخِرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ » قال: هم الثلاثة الذين خلفوا: "

أقول: و روى مثله عن مجاهد و قتاده و أن أسماءهم هلال بن أميه، و مراره بن الربيع و كعب بن مالك من الأوس و الخزرج، و لا تنطبق قصتهم على هذه الآية و سيجىء إن شاء الله تعالى.

(كلام فى الزكاه و سائر الصدقه)

الأبحاث الاجتماعيه و الاقتصاديه و سائر الأبحاث المرتبطه بها جعلت اليوم حاجه المجتمع من حيث إنه مجتمع إلى مال يختص به و يصرف لرفع حوائجه العامه فى صف البديهيّات التى لا يشك فيها شاك و لا يداخلها ريب فكثير من المسائل الاجتماعيه و الاقتصاديه- و منها هذه المسأله- كانت فى الأعصار السالفه مما يغفل عنها عامه الناس و لا يشعرون بها إلا شعورا فطريا إجماليا و هى اليوم من الأبجديات التى يعرفها العامه و الخاصه.

غير أن الإسلام بحسب ما بين من نفسه الاجتماع و هويته و شرع من الأحكام المالىه الراجعه إليها، و الأنظمه و القوانين التى رتبها فى أطرافها و متونها له اليد العليا فى ذلك.

فقد بين القرآن الكريم أن الاجتماع يصيغ من عناصر الأفراد المجتمعين صيغه جديده فيكون منهم هويه جديده حيه هى المجتمع، و له من الوجود و العمر و الحياه و الموت و الشعور و الإراده و الضعف و القوه و التكليف و الإحسان و الإساءه و السعاده و الشقاوه أمثال أو نظائر ما للإنسان الفرد و قد نزلت فى بيان ذلك كله آيات كثيره قرآنيه كررنا الإشاره إليها فى خلال الأبحاث السابقه.

و قد عزلت الشريعه الإسلاميه سهما من منافع الأموال و فوائدها للمجتمع كالصدقه الواجبه التى هى الزكاه و كالخمس من الغنيمه و نحوها و لم يأت فى ذلك ببدع فإن القوانين و الشرائع السابقه عليها كشرعيه حمورابى و قوانين الروم القديم يوجد فيها

أشياء من ذلك بل سائر السنن القومية فى أى عصر، و بين أى طائفه دارت لا- يخلو عن اعتبار جهه ماليه لمجتمعها فالمجتمع كيفما كان يحس بالحاجه الماليه فى سبيل قيامه و رشده.

غير أن الشريعه الإسلاميه تمتاز فى ذلك من سائر السنن و الشرائع بأمر يجب إمعان النظر فيها للحصول على غرضها الحقيقى و نظرها المصيب فى تشريعها و هى:

أولاً: أنها اقتصرت فى وضع هذا النوع من الجهات الماليه على كينونه الملك و حدوثه موجودا و لم يتعد ذلك، و بعبارة أخرى إذا حدثت ماليه فى ظرف من الظروف كغله حاصله عن زراعه أو ربح عائد من تجاره أو نحو ذلك بادرت فوضعت سهما منها ملكا للمجتمع و بقيه السهام ملكا لمن له رأس المال أو العمل مثلا، و ليس عليه إلا أن يرد مال المجتمع و هو السهم إليه.

بل ربما كان المستفاد من أمثال قوله تعالى: «خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً» البقره:- ٢٩ و قوله: «وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً» النساء:- ٥ أن الثروه الحادثه عند حدوثها للمجتمع بأجمعها ثم اختص سهم منها للفرد الذى نسميه المالك أو العامل، و بقى سهم أعنى سهم الزكاه أو سهم الخمس فى ملك المجتمع كما كان فالمالك الفرد مالك فى طول مالك و هو المجتمع، و قد تقدم بعض البحث عن ذلك فى تفسير الآيتين.

و بالجملة فالذى وضعته الشريعه من الحقوق الماليه كالزكاه و الخمس مثلا إنما وضعت فى الثروه الحادثه عند حدوثها فشركت المجتمع مع الفرد من رأس ثم الفرد فى حريه من ماله المختص به يضعه حيث يشاء من أغراضه المشروعه من غير أن يعترضه فى ذلك معترض إلا أن يدهم المجتمع من المخاطر العامه ما يجب معه صرف شىء من رءوس الأموال فى سبيل حفظ حياته كعدو هاجم يريد أن يهلك الحرث و النسل، و المخصصه العامه التى لا تبقى و لا تذر.

و أما الوجوه الماليه المتعلقة بالنفوس أو الضياع و العقار أو الأموال التجاريه عند حصول شرائط أو فى أحوال خاصه كالعشر المأخوذ فى الثغور و نحو ذلك فإن الإسلام لا يرى ذلك بل يعده نوعا من الغصب و ظلما يوجب تحديدا فى حريه المالك فى ملكه.

فى الحقيقه لا يأخذ المجتمع من الفرد إلا مال نفسه الذى يتعلق بالغنيمه و الفائده عند أول حدوثه و يشارك الفرد فى ملكه على نحو يبينه الفقه الإسلامى

مشروحا، و أما إذا انعقد الملك و استقر لمالكة فلا اعتراض لمعترض على مالك في حال أو عند شرط، يوجب قصور يده و زوال حرите.

و ثانيا: أن الإسلام يعتبر حال الأفراد في الأموال الخاصه بالمجتمع كما يعتبر حال المجتمع بل الغلبه في ما يظهر من نظره لحالهم على حاله فإنه يجعل السهام في الزكاه ثمانيه لا يختص بسبيل الله منها إلا سهم واحد و باقى السهام للأفراد كالفقراء و المساكين و العاملين و المؤلفه قلوبهم و غيرهم، و في الخمس سته لم يجعل الله سبحانه إلا سهم واحد و الباقي للرسول و لذى القربى و اليتامى و المساكين و ابن السبيل.

و ذلك أن الفرد هو العنصر الوحيد لتكون المجتمع، و رفع اختلاف الطبقات الذى هو من أصول برنامج الإسلام، و إلقاء التعادل و التوازن بين قوى المجتمع المختلفه و تثبيت الاعتدال في مسيره بأركانه و أجزائه لا يتم إلا بإصلاح حال الأجزاء أعنى الأفراد و تقريب أحوالهم بعضهم من بعض.

و أما قصر مال المجتمع في صرفه في إيجاد الشوكه العامه و التريينات المشتركه و رفع القصور المشيده العاليه و الأبنيه الرفيعه الفاخره و تخليه القوى و الضعيف أو الغنى و الفقير على حالهما لا يزيدان كل يوم إلا ابتعادا فلتدل التجربه الطويله القطعيه أنه لا يدفع غائلا و لا يغنى طائلا.

و ثالثا: أن للفرد من المسلمين أن يصرف ما عليه من الحق المالى الواجب كالزكاه مثلا- في بعض أرباب السهام كالفقير و المسكين من دون أنه يؤديه إلى ولى الأمر أو عامله في الجملة فيرده هو إلى مستحقه.

و هذا نوع من الاحترام الاستقلالى الذى اعتبره الإسلام لأفراد مجتمعه نظير إعطاء الذمه الذى لكل فرد من المسلمين أن يقوم به لمن شاء من الكفار المحاربين و ليس للمسلمين و لا لولى أمرهم أن ينقض ذلك.

نعم لولى الأمر إذا رأى في مورد أن مصلحه الإسلام و المسلمين في خلاف ذلك أن ينهى عن ذلك فيجب الكف عنه لوجوب طاعته.

[سوره التوبه (٩): الآيات ١٠٧ الى ١١٠]

اشاره

وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِيًّا رِأً وَ كُفْرًا وَ تَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ إِزْوَاجًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَ لِيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسَيْنِ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) - لَأَقُومَ فِيهِ أَيْدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ (١٠٨) أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُيَاتُهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُيَاتُهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) - لَأَيُّالُ بُيَاتِهِمْ الَّذِي بَنُوا رَبِيهِ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا - أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)

تذكر الآيات طائفه أخرى من المنافقين بنوا مسجد الضرار و تقيس حالهم إلى حال جماعه من المؤمنين بنوا مسجدا لتقوى الله.
قوله تعالى: « وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضَيْرًا وَ كُفْرًا » إلى آخر الآيه، الضرار و المضاره إيصال الضرر، و الإرصاء اتخاذ الرصد و الانتظار و الترقب.

و قوله: « وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضَيْرًا » إن كانت الآيات نازله مع ما تقدمها من الآيات النازله فى المنافقين فالعطف على من تقدم ذكرهم من طوائف المنافقين المذكورين بقوله: و منهم، و منهم أى و منهم الذين اتخذوا مسجدا ضرارا.

و إن كانت مستقلة بالنزول فالوجه كون الواو استثنافيه و قوله: « الَّذِينَ اتَّخَذُوا » مبتدأ خبره قوله: « لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا » و يمكن إجراء هذا الوجه على التقدير السابق أيضا، و قد ذكر المفسرون فى إعراب الآيه وجوها أخرى لا تخلو عن تكلف تركاها.

و قد بين الله غرض هذه الطائفه من المنافقين فى اتخاذ هذا المسجد و هو الضرار بغيرهم و الكفر و التفريق بين المؤمنين و الإرصاء لمن حارب الله و رسوله، و الأغراض المذكوره خاصه ترتبط إلى قصه خاصه بعينها، و هى على ما اتفق عليه أهل النقل أن

جماعه من بنى عمرو بن عوف بنوا مسجد قبا و سألوا النبي أن يصلى فيه فصلى فيه فحسداهم جماعه من بنى غنم بن عوف و هم منافقون فبنوا مسجدا إلى جنب مسجد قبا ليضروا به و يفرقوا المؤمنين منه و ينتظروا لأبى عامر الراهب الذى وعدهم أن يأتيهم بجيش من الروم ليخرجوا النبي ص من المدينة، و أمرهم أن يستعدوا للقتال معهم.

و لما بنوا المسجد أتوا النبي ص و هو يتجهز إلى تبوك و سألوه أن يأتيه و يصلى فيه و يدعو لهم بالبركه فوعدهم إلى الفراغ من أمر تبوك و الرجوع إلى المدينة فنزلت الآيات.

فكان مسجدهم لمضاره مسجد قبا، و للكفر بالله و رسوله، و لتفريق المؤمنين المجتمعين فى قبا، و لإرصاد أبى عامر الراهب المحارب لله و رسوله من قبل، و قد أخبر الله سبحانه عنهم إنهم ليحلفن إن أردنا من بناء هذا المسجد إلا الفعله الحسنى و هو التسهيل للمؤمنين بتكثير معابد يعبد فيها الله، و شهد تعالى بكذبهم بقوله: «وَلَيَخْلِفَنَّ إِنَّ أَرْدْنَا إِلَّا الْحُسَيْنِيَّ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ».

قوله تعالى: «لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا» إلى آخر الآيه، بدأ بنهى النبي ص عن أن يقوم فيه ثم ذكر مسجد قبا و رجح القيام فيه بعد ما مدحه بقوله: «لَمَسَجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ» فمدحه بحسن نيه مؤسسيه من أول يوم و بنى عليه رجحان القيام فيه على القيام فى مسجد الضرار.

و الجملة و إن لم تفد تعين القيام فى مسجد قبا حيث عبر بقوله: «أحق، غير أن سبق النهى عن القيام فى مسجد الضرار يوجب ذلك، و قوله تعالى: «فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا» تعليل للرجحان السابق، و قوله: «وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ» متمم للتعليل المذكور، و هذا هو الدليل على أن المراد بقوله: «لَمَسَجِدٍ أُسِّسَ» إلخ هو مسجد قبا لا مسجد النبي أو غيره.

و معنى الآيه: لا تقم أى للصلاه فى مسجد الضرار أبدا، أقسم، لمسجد قبا الذى هو مسجد أسس على تقوى الله من أول يوم أحق و أحرى أن تقوم فيه للصلاه و ذلك أن فيه رجالا يحبون التطهر من الذنوب أو من الأرجاس و الأحداث و الله يحب المطهرين و عليك أن تقوم فيهم.

و قد ظهر بذلك أن قوله: «لَمَسَجِدٍ أُسِّسَ» إلخ، بمنزله التعليل لرجحان المسجد على المسجد و قوله: «فِيهِ رِجَالٌ» إلخ، لإفاده رجحان أهله على أهله، و قوله

الآتي: «أَفَمَنْ أَسَّسَ بُيَاتَهُ» إلخ، لبيان الرجحان الثاني.

قوله تعالى: «أَفَمَنْ أَسَّسَ بُيَاتَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ» إلى آخر الآيه شفا البئر طرفه، و جرف الوادى جانبه الذى انحفر بالماء أصله و هار الشىء يهار فهو هائر و ربما يقال: هار بالقلب و أنهار ينهار انهيارا أى سقط عن لين فقوله:

«عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ» استعاره تخيليه شبه فيها حالهم بحال من بنى بنيانا على نهايه شفير واد لا ثقه بثباتها و قوامها فتساقطت بما بنى عليه من البنيان و كان فى أصله جهنم فوقع فى نارهِ، و هذا بخلاف من بنى بنيانه على تقوى من الله و رضوان منه أى جرى فى حياته على اتقاء عذاب الله و ابتغاء رضاه.

و ظاهر السياق أن قوله: «أَفَمَنْ أَسَّسَ بُيَاتَهُ عَلَى تَقْوَىٰ» إلخ، و قوله:

«أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُيَاتَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ» إلخ، مثلان يمثل بهما بنيان حياه المؤمنين و المنافقين و هو الدين و الطريق الذى يجريان عليه فيها فدين المؤمن هو تقوى الله و ابتغاء رضوانه عن يقين به، و دين المنافق مبنى على التزلزل و الشك.

و لذلك أعقبه الله تعالى و زاد فى بيانه بقوله: «لَا يَزَالُ بُيَاتُهُمْ» يعنى المنافقين «الَّذِي بَنَوْا رِيْبَةً» و شكا «فِي قُلُوبِهِمْ» لا يتعدى إلى مرحله اليقين «إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ» فتتلاشى الربيه بتلاشيها «وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» و لذلك يضع هؤلاء و يرفع أولئك.

(بحث روائى)

فى المجمع، قال المفسرون: إن بنى عمرو بن عوف اتخذوا مسجد قبا، و بعثوا إلى رسول الله ص أن يأتيهم فأتاهم و صلى فيه- فحسداهم جماعه من المنافقين من بنى غنم بن عوف- فقالوا: نبى مسجدا فنصلى فيه و لا نحضر جماعه محمد، و كانوا اثنى عشر رجلا، و قيل: خمسه عشر رجلا، منهم: ثعلبه بن حاطب و معتب بن قشير- و نبتل بن الحارث فبنوا مسجدا إلى جنب مسجد قبا-

فلما بنوه أتوا رسول الله ص و هو يتجهز إلى تبوك- فقالوا: يا رسول الله إنا قد بنينا مسجدا- لذى العله و الحاجه و الليله الممطره و الليله الشاتيه،- و إنا نحب أن تأتينا فتصلى فيه لنا- و تدعو بالبركه فقال (ص): إني على جناح سفر- و لو قدمنا أتيناكم إن شاء الله فصلينا لكم فيه، فلما انصرف رسول الله ص من تبوك- نزلت

عليه الآيه في شأن المسجد-

قال: فوجه رسول الله ص عند قدومه من تبوك -عاصم بن عوف العجلاني و مالك بن الدخشم- و كان مالك من بنى عمرو بن عوف فقال لهما: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فأهدماه و حرقاه، و روى أنه بعث عمار بن ياسر و وحشيا فحرقاه، و أمر بأن يتخذ كناسه يلقي فيها الجيف.

أقول: و

في روايه القمي": أنه (ص) بعث لذلك مالك بن دخشم الخزاعي - و عامر بن عدى أخا بنى عمرو بن عوف - فجاء مالك و قال لعامر: انتظرنى حتى أخرج نارا من منزلى، فدخل و جاء بنار و أشعل فى سعف النخل - ثم أشعله فى المسجد فترقوا، و قعد زيد بن حارثه حتى احترقت البنيه - ثم أمر بهدم حائطه.

و القصة مرويه بطرق كثيره من طرق أهل السنه، و الروايات متقاربه إلا أن فى أسامى من بعثه النبى ص اختلافًا.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن ابن إسحاق قال": كان الذين بنوا مسجد الضرار اثنى عشر رجلا: خدام بن خالد بن عبيد بن زيد، و ثعلبه بن حاطب و هلال بن أميه، و معتب بن قشير، و أبو حبيبه بن الأزعر، و عباد بن حنيف، و جاريه بن عامر و ابنه مجمع و زيد، و نبتل بن الحارث، و بخدج بن عثمان (1) و وديعه بن ثابت.

و فى المجمع،": فى قوله: «وَإِزْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» قال: هو أبو عامر الراهب، قال و كان من قصته أنه كان قد ترهب فى الجاهليه - و لبس المسوح فلما قدم النبى ص المدينه حسده، و حزب عليه الأحزاب - ثم هرب بعد فتح مكه إلى الطائف - فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام، و خرج إلى الروم و تنصر و هو أبو حنظله غسيل الملائكه - الذى قتل مع النبى ص يوم أحد - و كان جنبًا فغسلته الملائكه -.

و سمى رسول الله ص أبا عامر الفاسق، و كان قد أرسل إلى المنافق أن استعدوا و ابنوا مسجدا - فإني أذهب إلى قيصر و آتى من عنده بجنود، و أخرج محمدا من المدينه - فكان هؤلاء المنافقون يتوقعون أن يجيئهم أبو عامر - فمات قبل أن يبلغ ملك الروم.

أقول: و فى معناه عده من الروايات.

ص: ٣٩٢

و في الكافي، بإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله (ع) قال: سألته عن المسجد الذي أسس على التقوى - فقال: مسجد قبا:

أقول: و رواه العياشي في تفسيره،

و روى هذا المعنى أيضا في الكافي، بإسناده عن معاوية بن عمار عنه (ع).

و قد روى في الدر المنثور، بغير واحد من الطرق عن النبي ص أنه قال: هو مسجدى هذا، و هو مخالف لظاهر الآية و خاصة - قوله: « فِيهِ رِجَالٌ » إلخ، فإن الكلام موضوع في القياس بين المسجدين: - مسجد قبا و مسجد الضرار و القياس بين أهليهما - و لا غرض يتعلق بمسجد النبي ص.

و في تفسير العياشي، عن الحلبي عن الصادق (ع) قال: سألته عن قول الله:

« فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا » قال: الذين يحبون أن يتطهروا نظف الوضوء - و هو الاستنجاء بالماء و قال: قال نزلت هذه في أهل قبا.

و في المجمع: في الآية قال: يحبون أن يتطهروا بالماء عن الغائط و البول: و هو المروى عن السيدين: الباقر و الصادق (ع)،

و روى عن النبي ص أنه قال:

لأهل قبا: ما ذا تفعلون في طهركم - فإن الله تعالى قد أحسن عليكم الشاء؟ قالوا:

نغسل أثر الغائط. فقال: أنزل الله فيكم: « وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ».

و فيه: في قراءه قوله: « إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ » و قرأ يعقوب و سهل: « إِلَى أَنْ » على أنه حرف الجر، و هو قراءه الحسن و قتاده و الجحدري و جماعه: و رواه البرقي عن أبي عبد الله (ع).

[سوره التوبه (٩): الآيات ١١١ الى ١٢٣]

اشاره

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ وَ عِدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَ الْإِنْجِيلِ وَ الْقُرْآنِ وَ مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمَتِ اللَّهِ الَّتِي بِمَا تَعْتَمِدُونَ بِهِ وَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ النَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ الْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَ بَشَرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢) مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَ مَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا - نَصِيرٍ (١١٦) لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ

الْعُسْرَةَ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (١١٧) وَ عَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا
 ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَ ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَ ظَنُّوا أَنَّ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ
 الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ
 أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَ لَا يُرِغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَ لَا نَصَبٌ وَ لَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لَا
 يَطُؤْنَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَ لَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَ لَا يُنْفِقُونَ
 نَفَقَةً صَغِيرَةً وَ لَا كَبِيرَةً وَ لَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) وَ مَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا
 كَافَّةً فَلَوْ لَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَ لِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
 آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَ لِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلظَةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣)

آيات فى أغراض متفرقة يجمعها غرض واحد مرتبط بغرض الآيات السابقة فإنها تتكلم حول القتال فمنها ما يمدح المؤمنين و يعدهم وعدا جميلا على جهادهم فى سبيل الله و منها ما ينهى عن التودد إلى المشركين و الاستغفار لهم، و منها ما يدل على توبته تعالى للثلاثة المخلفين عن غزوه تبوك، و منها ما يفرض على أهل المدينة و من حولهم من الأعراب أن يخرجوا مع النبى ص إذا أراد الخروج إلى قتال و لا يتخلفوا عنه، و منها ما يفرض على الناس أن يلازم بعضهم البيضة للتفقه فى الدين ثم تبليغه إلى قومهم إذا رجعوا إليهم و منها ما يقضى بقتال الكفار ممن يلى بلاد الإسلام.

قوله تعالى: « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ » إلى آخر الآيه، الاشتراء هو قبول العين المبيعه بنقل الثمن فى المبايعه.

و الله سبحانه يذكر فى الآيه وعده القطعى للذين يجاهدون فى سبيل الله بأنفسهم و أموالهم بالجنه، و يذكر أنه ذكر ذلك فى التوراه و الإنجيل كما يذكره فى القرآن.

و قد قلبه سبحانه فى قالب التمثيل فصور ذلك بيعا، و جعل نفسه مشترى

و المؤمنين بائعين، و أنفسهم و أموالهم سلعه و مبيعا، و الجنة ثمناء، و التوراه و الإنجيل و القرآن سندا للمبايعه، و هو من لطيف التمثيل ثم يبشر المؤمنين ببيعهم ذلك، و يهئهم بالفوز العظيم.

قوله تعالى: «الَّتَائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ الشَّاكِرُونَ» إلى آخر الآيه، يصف سبحانه المؤمنين بأجمل صفاتهم، و الصفات مرفوعه بالقطع أى المؤمنون هم التائبون العابدون إلخ، فهم التائبون لرجوعهم من غير الله إلى الله سبحانه العابدون له و يعبدونه بألستهم فيحمدونه بجميل الثناء، و بأقدامهم فيسيحون و يجولون من معهد من المعاهد الدينيه و مسجد من مساجد الله إلى غيره، و بأبدانهم فيركعون له و يسجدون له.

هذا شأنهم بالنسبه إلى حال الانفراد و أما بالنسبه إلى حال الاجتماع فهم آمرون بالمعروف فى السنه الدينيه و ناهون عن المنكر فيها ثم هم حافظون لحدود الله لا يتعدونه فى حالتى انفرادهم و اجتماعهم خلوتهم و جلوتهم، ثم يأمر النبى ص بأن يبشرهم و قد بشرهم تعالى نفسه فى الآيه السابقه، و فيه من كمال التأكيد ما لا يقدر قدره.

و قد ظهر بما قررنا أولا: وجه الترتيب بين الأوصاف التى عدها لهم فقد بدأ بأوصافهم منفردين و هى التوبه و العباده و السياحه و الركوع و السجود ثم ذكر ما لهم من الوصف الخاص بهم المنبعث عن إيمانهم مجتمعين و هو الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و ختم بما لهم من جميل الوصف فى حالتى انفرادهم و اجتماعهم و هو حفظهم لحدود الله، و فى التعبير بالحفظ مضافا إلى الدلاله على عدم التعدى لدلاله على الرقوب و الاهتمام.

و ثانيا: أن المراد بالسياحه-و معناه السير فى الأرض-على ما هو الأنسب بسياق الترتيب هو السير إلى مساكن ذكر الله و عبادته كالمساجد، و أما القول بأن المراد بالسياحه الصيام أو السياحه فى الأرض للاعتبار بعجائب قدره الله و ما جرى على الأمم الماضيه مما تحكيه ديارهم و آثارهم أو المسافره لطلب العلم أو المسافره لطلب الحديث خاصه فهى وجوه غير سديده.

أما الأول: فلا دليل عليه من جهه اللفظ البته، و أما الوجوه الأخر فإنها و إن كانت ربما استفيد الندب من مثل قوله تعالى: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ:» المؤمن:- ٨٢، و قوله: «فَلَوْ لَا نَفَرْنَا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لَيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ:» الآيه- ١٢٢ من السوره إلا أن إرادتها من قوله:

«السَّائِحُونَ» تبطل جوده الترتيب بين الصفات المنصوده.

و ثالثا: أن هذه الصفات الشريفه هي التي يتم بها إيمان المؤمن المستوجب للوعد القطعي بالجنه المستتبع للبارئه الإلهيه و النبويه و هي الملازمه للقيام بحق الله المستلزمه لقيام الله سبحانه بما جعله من الحق على نفسه.

قوله تعالى: «مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ» إلى آخر الآيتين، معنى الآية ظاهر غير أنه تعالى لما ذكر في الآية الثانيه التي تبين سبب استغفار إبراهيم لأبيه مع كونه كافرا أنه تبرأ منه بعد ذلك لما تبين له أنه عدو لله، فدل ذلك على أن تبين كون المشركين أصحاب الجحيم إنما يرشد إلى عدم جواز الاستغفار لكونه ملازما لكونهم أعداء لله فإذا تبين للنبي و الذين آمنوا أن المشركين أعداء لله كشف ذلك لهم عن حكم ضروري و هو عدم جواز الاستغفار لكونه لغوا لا يترتب عليه أثر و خضوع الإيمان مانع أن يلغو العبد مع ساحه الكبرياء.

و ذلك أنه تاره يفرض الله تعالى عدوا للعبد مبغضا له لتقصير من ناحيته و سوء من عمله فمن الجائر بالنظر إلى سعه رحمه الله أن يستغفر له و يسترحم إذا كان العبد متذلا غير مستكبر، و تاره يفرض العبد عدوا لله محاربا له مستكبرا مستعليا كأرباب الجحود و العناد من المشركين، و العقل الصريح حاكم بأنه لا ينفعه حينئذ شفاعه بمسأله أو استغفار إلا أن يتوب و يرجع إلى الله و ينسلخ عن الاستكبار و العناد و يتلبس بلباس الذله و المسكنه فلا معنى لسؤال الرحمه و المغفره لمن يأبى عن القبول، و لا للاستعطاء لمن لا يخضع للأخذ و التناول إلا الهزء بمقام الربويه و اللعب بمقام العبوديه و هو غير جائز بضروره من حكم الفطره.

و في الآية نفى الجواز بنفى الحق بدليل قوله: «مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا» أي ما كانوا يملكون الاستغفار بعد ما تبين لهم كذا و كذا، و قد تقدم في ذيل قوله تعالى: «مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ» الآية- ١٧ من السوره أن حكم الجواز مسبوق في الشرع بجعل الحق.

و المعنى أن النبي و الذين آمنوا بعد ما ظهر و تبين بتبيين الله لهم أن المشركين أعداء لله مخلدون في النار لم يكن لهم حق يملكون به أن يستغفروا للمشركين و لو كانوا أولى قربي منهم، و أما استغفار إبراهيم لأبيه المشرك فإنه ظن أنه ليس بعدو

معاند لله و إن كان مشركا فاستعطفه بوعده وعداها إياه فاستغفر له فلما تبين له أنه عدو لله معاند على شركه و ضلاله تبرأ منه.

وقوله: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ» تعليل لوعده إبراهيم و استغفاره لأبيه بأنه تحمل جفوه أبيه و وعده وعدا حسنا لكونه حليما و استغفر له لكونه أواها، و الأواه هو الكثير التأوه خوفا من ربه و طمعا فيه.

قوله تعالى: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِنِ الْمَتَصِلَاتِنِ بِالْآيَاتِنِ قَبْلَهُمَا الْمُسَوِّتِينَ لِلنَّهْيِ عَنِ الْاسْتِغْفَارِ لِلْمُشْرِكِينَ.

أما الآية الأولى أعنى قوله: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ» إلخ ففيه تهديد للمؤمنين بالإضلال بعد الهدايه إن لم يتقوا ما بين الله لهم أن يتقوه و يجتنبوا منه، و هو بحسب ما ينطبق على المورد أن المشركين أعداء لله لا يجوز الاستغفار لهم و التودد إليهم فعلى المؤمنين أن يتقوا ذلك و إلا فهو الضلال بعد الهدى، و عليك أن تذكر ما قدمناه فى تفسير قوله تعالى: «الْيَوْمَ نَبِّئِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ»: المائدة: - ٣ فى الجزء الخامس من الكتاب و فى تفسير آيات ولايه المشركين و أهل الكتاب الواقعه فى السور المتقدمه.

و الآية بوجه فى معنى قوله تعالى: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ»: الأنفال: - ٥٣ و ما فى معناه من الآيات، و هى جميعا تهتف بأن من السنه الإلهيه أن تستمر على العبد نعمته و هدايته حتى يغير هو ما عنده بالكفران و التعدى فيسلب الله منه النعمه و الهدايه.

و أما الآية الثانيه أعنى قوله: «إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَاَلْأَرْضِ يُحْيِي وَايْمِتُ وَا مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَا لَا نَصِيرٍ» فذيلها بيان لعله الحكم السابق المدلول عليه بالآيه السابقه و هو النهى عن تولى أعداء الله أو وجوب التبرى منهم إذ لا ولى و لا نصير حقيقه إلا الله سبحانه و قد بينه للمؤمنين فعليهم بدلاله من إيمانهم أن يقصروا التولى عليه تعالى أو من أذن فى توليهم له من أوليائه و ليس لهم أن تعتدوا ذلك إلى تولى أعدائه كائنين من كانوا.

و صدر الآية بيان لسبب هذا السبب و هو أن الله سبحانه هو الذى يملك كل شىء و بيده الموت و الحياه فإليه تدبير كل أمر فهو الولى لا ولى غيره.

وقد ظهر من عموم البيان و العله فى الآيات الأربع أن الحكم عام و هو وجوب التبرى أو حرمة التولى لأعداء الله سواء كان التولى بالاستغفار أو بغير ذلك و سواء كان العدو مشركا أو كافرا أو منافقا أو غيرهم من أهل البدع الكافرين بآيات الله أو المصرين على بعض الكبائر كالمرابى المحارب لله و رسوله.

قوله تعالى: «لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ، الساعه مقدار من الزمان فساعه العسره الزمان الذى تعسر فيه الحياه لابتلاء الإنسان بما تشق معه العيشه عليه كعطش أو جوع أو حر شديد أو غير ذلك، و الزيف هو الخروج من الطريق و الميل عن الحق، و إضافه الزيف إلى القلوب و ذكر ساعه العسره و سائر ما يلوح من سياق الكلام دليل على أن المراد بالزيف الاستنكاف عن امتثال أمر النبى ص و الخروج عن طاعته بالتثاقل عن الخروج إلى الجهاد أو الرجوع إلى الأوطان بقطع السير تحرجا من العسره و المشقه التى واجهتهم فى مسيرهم.

و التخليف -على ما فى المجمع،- تأخير الشىء عن مضى فأمأ تأخير الشىء عنك فى المكان فليس بتخليف، و هو من الخلف الذى هو مقابل لوجه الوجه يقال خلفه أى جعله خلفه فهو مخلف. انتهى و الرحب هو السعه التى تقابل الضيق، و بما رحبت أى برحبها فما مصدرية.

و الآيتان و إن كانت كل واحده منهما ناظره إلى جهه دون جهه الأخرى فالأولى تبين التوبه على النبى و المهاجرين و الأنصار و الثانية تبين توبه الثلاثة المخلفين مضافا إلى أن نوع التوبه على أهل الآيتين مختلف فأهل الآيه الأولى أو بعضهم تاب الله عليهم من غير معصيه منهم و أهل الآيه الثانية تيب عليهم و هم عاصون مذنبون.

و بالجملة الآيتان مختلفتان غرضا و مدلولوا غير أن السياق يدل على أنهما مسوقتان لغرض واحد و متصلتان كلاما واحدا تبين فيه توبته تعالى للنبى و المهاجرين و الأنصار و الثلاثة الذين خلفوا، و من الدليل عليه قوله: «لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ إِلَى أَنْ قَالَ:

«وَعَلَى الثَّلَاثَةِ» إلخ فالآيه الثانية غير مستقلة عن الأولى بحسب اللفظ و إن استقلت عنها فى المعنى، و ذلك يستدعى نزولهما معا و تعلق غرض خاص بهذا الاتصال و الامتراج.

و لعل الغرض الأصلى بيان توبه الله سبحانه لأولئك الثلاثة المخلفين و قد ضم إليها ذكر توبته تعالى للمهاجرين و الأنصار حتى للنبى ص لتطيب قلوبهم بخلطهم

بغيرهم و زوال تميزهم من سائر الناس و عفو أثر ذلك عنهم حتى يعود الجميع على نعت واحد و هو أن الله تاب عليهم برحمته فهم فيه سواء من غير أن يرتفع بعضهم عن بعض أو ينخفض بعضهم عن بعض.

و بهذا تظهر النكته فى تكرار ذكر التوبه فى الآيتين فإن الله سبحانه يبدأ بذكر توبته على النبى و المهاجرين و الأنصار ثم يقول: «تَابَ عَلَيْهِمْ» و على الثلاثة الذين خلفوا ثم يقول: «تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا» فليس إلا- أن الكلام مسوق على منهج الإجمال و التفصيل ذكر فيه توبته تعالى على الجميع إجمالاً ثم أشير إلى حال كل من الفريقين على حدته فذكرت عند ذلك توبته الخاصه به.

و لو كانت كل واحده من الآيتين ذات غرض مستقل من غير أن يجمعها غرض جامع لكان ذلك تكراراً من غير نكته ظاهره.

على أن فى الآيه الأولى دلالة واضحة على أن النبى ص لم يكن له فى ذلك ذنب و لا زيغ و لا كاد أن يزيغ قلبه فإن فى الكلام مدحا للمهاجرين و الأنصار باتباع النبى ص فلم يزيغ قلبه و لا كاد أن يزيغ حتى صار متبعاً يقتدى به و لو لا ما ذكرناه من الغرض لم يكن لذكره (ص) مع سائر المذكورين وجه ظاهر.

فيقول معنى الآيه إلى أن الله- أقسم لذلك- تاب و رجع برحمته رجوعاً إلى النبى و المهاجرين و الأنصار و الثلاثة الذين خلفوا فأما توبته و رجوعه بالرحمة على المهاجرين و الأنصار فإنهم اتبعوا النبى فى ساعه العسره و زمانها و هو أيام مسيرهم إلى تبوك- اتبعوه من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم و يميل عن الحق بترك الخروج أو ترك السير فبعد ما اتبعوه تاب الله عليهم إنه بهم لرءوف رحيم.

و أما الثلاثة الذين خلفوا فإنهم آل أمرهم إلى أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت و وسعت- و كان ذلك بسبب أن الناس لم يعاشروهم و لا- كلموهم حتى أهلهم فلم يجدوا أنيساً يأنسون به- و ضاقت عليهم أنفسهم- من دوام الغم عليهم- و أيقنوا أن لا ملجأ من الله إلا- إليه بالتوبه و الإنابه فلما كان ذلك كله تاب الله عليهم و انعطف و رجع برحمته إليهم ليتوبوا إليه فيقبل توبتهم أنه هو التواب- كثير الرجوع إلى عباده يرجع إليهم بالهدايه و التوفيق للتوبه إليه ثم بقبول تلك التوبه- و الرحيم بالمؤمنين.

و قد تبين بذلك كله أولاً: أن المراد بالتوبه على النبى ص محض الرجوع

إليه بالرحمة، و من الرجوع إليه بالرحمة، الرجوع إلى أمته بالرحمة فالتوبة عليهم توبه عليه فهو (ص) الواسطه فى نزول الخيرات و البركات إلى أمته.

و أيضا فإن من فضله تعالى على نبيه ص أن: كلما ذكر أمته أو الذين معه بخير أفرده من بينهم و صدر الكلام بذكره تشريفا له كما فى قوله: «آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ:» البقره:- ٢٨٥ و قوله: «ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ:» التوبه- ٢٦، و قوله: «لَكِنَّ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا:» التوبه- ٨٨ إلى غير ذلك من الموارد.

و ثانيا: أن المراد بما ذكر ثانيا و ثالثا من التوبه بقوله: «ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ» فى الموضوعين هو تفصيل ما ذكره إجمالا بقوله: «لَقَدْ تَابَ اللَّهُ.»

و ثالثا: أن المراد بالتوبه فى قوله: «ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ» فى الموضوعين رجوعه تعالى إليهم بالهدايه إلى الخير و التوفيق فقد ذكرنا مرارا فى الأبحاث السابقه أن توبه العبد محفوفه بتوبتين من الرب تعالى، و أنه يرجع إليه بالتوفيق و إفاضه رحمه الهدايه و هو التوبه الأولى منه فيهدى العبد إلى الاستغفار و هو توبته فيرجع تعالى إليه بقبول توبته و غفران ذنوبه و هو التوبه الثانيه منه تعالى.

و الدليل على أن المراد بها فى الموضوعين ذلك أما فى الآيه الأولى فلأنه لم يذكر منهم فيها ذنبا يستغفرون له حتى تكون توبته عليهم توبه قبول، و إنما ذكر أنه كان من المتوقع زيغ قلوب بعضهم و هو يناسب التوبه الأولى منه تعالى دون الثانيه، و أما فى الآيه الثانيه فلأنه ذكر بعدها قوله: «لِيُتُوبُوا» و هو الاستغفار، أخذ غايه لتوبته تعالى فتوبته تعالى قبل توبتهم ليست إلا التوبه الأولى منه.

و ربما أيد ذلك قوله تعالى فى مقام تعليل توبته عليهم: «إِنَّهُمْ بِهِمْ رُؤُفٌ رَحِيمٌ» حيث لم يذكر من أسمائه ما يدل بلفظه على قبول توبتهم كما لم يذكر منهم توبه بمعنى الاستغفار.

و رابعا: أن المراد بقوله فى الآيه الثانيه: «لِيُتُوبُوا» توبه الثلاثة الذين خلفوا المترتب على توبته تعالى الأولى عليهم، فالمعنى ثم تاب الله على الثلاثة ليتوب الثلاثة فيتوب عليهم و يغفر لهم إنه هو التواب الرحيم.

فإن قلت: فالآية لم تدل على قبول توبتهم و هذا مخالف للضرورة الثابتة من جهة النقل أن الآية نزلت في توبتهم.

قلت: القصة ثابتة نقلا غير أنه لا توجد دلالة في لفظ الآية إلا أن الآية تدل بسياقها على ذلك فقد قال تعالى في مقام الإجمال: «لَقَدْ تَابَ اللَّهُ» و هو أعم بإطلاقه من التوبة بمعنى التوفيق و بمعنى القبول، و كذا قوله بعد: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» و خاصه بالنظر إلى ما في الجملة من سياق الحصر الناظر إلى قوله: «وَ ظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ» فإذا كانوا أقدموا على التوبة ليأخذوا ملجأ من الله يأمنون فيه و قد هداهم الله إليه بالتوبة فتابوا فمن المحال أن يردهم الله من بابه خائبين و هو التواب الرحيم، و كيف يستقيم ذلك؟ و هو القائل عز من قائل: «إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ:» النساء: -١٧.

و ربما قيل: إن معنى «ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا» ثم سهل الله عليهم التوبة ليتوبوا. و هو سخيّف. و أسخف منه قول من قال: إن المراد بالتوبة في «لِيَتُوبُوا» الرجوع إلى حالتهم الأولى قبل المعصية. و أسخف منه قول آخرين: «إن الضمير في «لِيَتُوبُوا» راجع إلى المؤمنين و المعنى ثم تاب على الثلاثة و أنزل توبتهم على نبيه ص ليتوب المؤمنون من ذنوبهم لعلمهم بأن الله قابل التوب.

و خامسا: أن الظن يفيد في الآية مفاد العلم لا لدلاله لفظيه بل لخصوص المورد.

قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ» الصدق بحسب الأصل مطابقه القول و الخبر للخارج، و يوصف به الإنسان إذا طابق خبره الخارج ثم لما عد كل من الاعتقاد و العزم-الإرادة-قولا توسع في معنى الصدق فعد الإنسان صادقا إذا طابق خبره الخارج و صادقا إذا عمل بما اعتقده و صادقا إذا أتى بما يريد و يعزم عليه على الجذ.

و ما في الآية من إطلاق الأمر بالتقوى و إطلاق الصادقين و إطلاق الأمر بالكون معهم-و المعية هي المصاحبه في العمل و هو الاتباع-يدل على أن المراد بالصدق هو معناه الواسع العام دون الخاص.

فالآية تأمر المؤمنين بالتقوى و اتباع الصادقين في أقوالهم و أفعالهم و هو غير الأمر بالاتصاف بصفاتهم فإنه الكون منهم لا الكون معهم و هو ظاهر.

قوله تعالى: «مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ» إلى آخر الآيتين الرغبة ميل خاص نفساني و الرغبة في الشيء الميل إليه لطلب منفعه فيه، و الرغبة عن الشيء الميل عنه بتركه و الباء للسببية فقوله: «وَلَا يَزْعَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ» معناه و ليس لهم أن يشتغلوا بأنفسهم عن نفسه فيتركوه عند مخاطر المغازى و فى تعب الأسفار و دعائها و يقعدوا للتمتع من لذائد الحياه، و الظماً العطش، و النصب التعب و المخمصه المجاعه، و الغيظ أشد الغضب، و الموطأ الأرض التى توطأ بالأقدام.

و الآيه تسلب حق التخلف عن النبى ص من أهل المدينة و الأعراب الذين حولها ثم تذكر أن الله قابل هذا السلب منهم بأنه يكتب لهم فى كل مصيبه تصيبهم فى الجهاد من جوع و عطش و تعب و فى كل أرض يطئونها فيغيظون به الكفار أو نيل نالوه منهم عملاً صالحاً فإنهم محسنون و الله لا يضيع أجر المحسنين، و هذا معنى قوله:

«ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ» إلخ.

ثم ذكر أن نفقاتهم صغيره يسيره كانت أو كبيره خطيره و كذا كل واد قطعوه فإنه مكتوب لهم محفوظ لأجلهم ليجزوا به أحسن الجزاء.

و قوله: «لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» غايه متعلقه بقوله: «كُتِبَ لَهُمْ أَى غايه هذه الكتابه هى أن يجزيهم بأحسن أعمالهم، و إنما خص جزاء أحسن الأعمال بالذكر لأن رغبه العامل عاكفه عليه، أو لأن الجزاء بأحسنها يستلزم الجزاء بغيره، أو لأن المراد بأحسن الأعمال الجهاد فى سبيل الله لكونه أشقها و قيام الدعوه الدينيه به.

و هاهنا معنى آخر و هو أن جزاء العمل فى الحقيقه إنما هو نفس العمل عائداً إلى الله فأحسن الجزاء هو أحسن العمل فالجزاء بأحسن الأعمال فى معنى الجزاء بأحسن الجزاء و معنى آخر و هو أن يغفر الله سبحانه سيئاتهم المشوبه بأعمالهم الحسنه و يستر جهات نقصها فيكون العمل أحسن بعد ما كان حسناً ثم يجزيهم بأحسن ما كانوا يعملون فافهم ذلك و ربما رجع المعنيان إلى معنى واحد.

قوله تعالى: «وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْ لَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ» السياق يدل على أن المراد بقوله: «لِيَنْفِرُوا كَافَّةً» لينفروا و ليخرجوا إلى الجهاد جميعاً، و قوله: «فِرْقَةٍ مِنْهُمْ» الضمير للمؤمنين الذين ليس

لهم أن ينفروا كافه، و لازمه أن يكون النفر إلى النبي ص منهم.

فالآيه تنهى مؤمنى سائر البلاد غير مدينه الرسول أن ينفروا إلى الجهاد كافه بل يحضضهم أن ينفروا طائفه منهم إلى النبي ص للتفقه فى الدين و ينفروا إلى الجهاد غيرهم.

و الأنسب بهذا المعنى أن يكون الضمير فى قوله «رَجَعُوا» للطائفه المتفقهين، و فى قوله: «إِلَيْهِمْ» لقومهم و المراد إذا رجع هؤلاء المتفقهون إلى قومهم، و يمكن العكس بأن يكون المعنى: إذا رجع قومهم من الجهاد إلى هؤلاء الطائفه بعد تفقههم و رجوعهم إلى أوطانهم.

و معنى الآيه لا- يجوز لمؤمنى البلاد أن يخرجوا إلى الجهاد جميعا فهلا- نفر و خرج إلى النبي ص طائفه من كل فرقه من فرق المؤمنين ليتحققوا الفقه و الفهم فى الدين فيعملوا به لأنفسهم و لينذروا بنشر معارف الدين و ذكر آثار المخالفه لأصوله و فروعهم قومهم إذا رجعت هذه الطائفه إليهم لعلهم يحذرون و يتقون.

و من هنا يظهر أولا- أن المراد بالتفقه تفهم جميع المعارف الدينيه من أصول و فروع لا- خصوص الأحكام العمليه و هو الفقه المصطلح عليه عند المشرعه، و الدليل عليه قوله: «لِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ» فإن ذلك أمر إنما يتم بالتفقه فى جميع الدين و هو ظاهر.

و ثانيا: أن النفر إلى الجهاد موضوع عن طلبه العلم الدينى بدلاله من الآيه.

و ثالثا: أن سائر المعانى المحتملها التى ذكرها فى الآيه بعيده عن السياق كقول بعضهم: إن المراد بقوله: «لِيُنْفِرُوا كَافَّةً» نفرهم إلى النبي ص للتفقه، و قول بعضهم فى «فَلَوْ لَا- نَفَرَ» أى إلى الجهاد، و المراد بقوله: «لِيَتَفَقَّهُوا» أى الباكون المتخلفون فيندروا قومهم النافرين إلى الجهاد إذا رجعوا إلى أولئك المتخلفين. فهذه و نظائرها معان بعيده لا جدوى فى التعرض لها و الإطناب فى البحث عنها.

قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَ لِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» أمر بالجهاد العام الذى فيه توسع الإسلام حتى يشيع فى الدنيا فإن قتال كل طائفه من المؤمنين من يليهم من الكفار لا ينتهى إلا باتساع الإسلام اتساعا باستقرار سلطنته على الدنيا و إحاطته بالناس جميعا.

و المراد بقوله: «وَ لِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً» أى الشده فى ذات الله و ليس يعنى بها الخشونه و الفظاظه و سوء الخلق و القساوه و الجفاء فجميع الأصول الدينيه تدم ذلك

و تستقبحه، و لحن آيات الجهاد ينهى عن كل تعد و اعتداء و جفاء كما مر في سورة البقره.

و في قوله: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» و وعد إلهي بالنصر بشرط التقوى، و يتول معناه إلى إرشادهم إلى أن يكونوا دائما مراقبين لأنفسهم ذاكرين مقام ربهم منهم، و هو أنه معهم و مولاهم فهم الأعلون إن كانوا يتقون.

(بحث روائي)

في الدر المنثور، أخرج ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال:

نزلت هذه الآية على رسول الله ص و هو في المسجد: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ» الآية - فكبر الناس في المسجد - فأقبل رجل من الأنصار ثانيا طرفي رداءه على عاتقه - فقال: يا رسول الله أ نزلت هذه الآية؟ قال: نعم. فقال الأنصاري: بيع ربيع لا نقيلا و لا نستقبل.

و في الكافي، بإسناده عن سماعه عن أبي عبد الله (ع) قال: لقي عباد البصري علي بن الحسين (ع) في طريق مكة فقال له: يا علي بن الحسين تركت الجهاد و صعوبته - و أقلت على الحج و ليتها إن الله يقول: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى» إلخ، فقال علي بن الحسين (ع) - إذا رأينا هؤلاء الذين هذه صفتهم فالجهاد معهم أفضل من الحج.

أقول: يريد (ع) ما في الآية الثانية: «التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ» الآية من الأوصاف.

و عن النبي ص قال: سياحه أمتي في المساجد.

أقول:

و روى عن أبي هريره عن النبي ص: أن السائحين هم الصائمون.

و عن أبي أمامه عنه (ص): إن سياحه أمتي الجهاد في سبيل الله، و قد تقدم الكلام فيه.

و في المجمع، " : «التائين العابدين» إلى آخرها بالياء - عن أبي جعفر و أبي عبد الله (ع). پ

و في الدر المنثور، في قوله: «مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ» : أخرج ابن أبي شيبة و أحمد و البخاري و مسلم و النسائي و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقي في الدلائل عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاه دخل عليه النبي ص - و عنده أبو جهل

و عبد الله بن أبي أمية-فقال النبي ص: أى عم قل لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله-فقال أبو جهل و عبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ و جعل النبي ص يعرضها عليه-و أبو جهل و عبد الله يعانوانه (1)بتلك المقالة- فقال أبو طالب آخر ما كلمهم هو:على ملة عبد المطلب،و أبي أن يقول:لا إله إلا الله.

فقال النبي ص:لأستغفرن لك ما لم أنه عنك فنزلت:﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية،و أنزل الله فى أبي طالب فقال لرسول الله ص:﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۗ ﴾.

أقول:و فى معناه روايات أخرى من طرق أهل السنه،و فى بعضها أن المسلمين لما رأوا النبي ص يستغفر لعمه و هو مشرك استغفروا لآبائهم المشركين فنزلت الآية، و قد اتفقت الروايه عن أئمه أهل البيت(ع)أنه كان مسلما غير متظاهر بإسلامه ليتمكن بذلك من حمايه النبي ص،و فيما روى بالنقل الصحيح من أشعاره شىء كثير يدل على توحيدده و تصديقه النبوه،و قد قدمنا نبذه منها.

و فى الكافى،بإسناده عن زراره عن أبي جعفر قال: الأواه الدعاء.

و فى المجمع،": فى قوله تعالى:﴿ وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا ﴾ الآية-قيل:مات قوم من المسلمين على الإسلام-قبل أن تنزل الفرائض فقال المسلمون:يا رسول الله إخواننا المسلمون ماتوا قبل الفرائض ما منزلتهم؟فنزل:﴿ وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا ﴾ الآية":عن الحسن.

و فى الدر المنثور،أخرج ابن مردويه عن ابن عباس": فى الآية قال:نزلت حين أخذوا الفداء من المشركين يوم الأسارى (2)قال:لم يكن لكم أن تأخذوه حتى يؤذن لكم- و لكن ما كان الله ليعذب قوما بذنب أذنبوه-حتى يبين لهم ما يتقون.قال:حتى ينهاهم قبل ذلك.

أقول:ظاهر الروايتين أنهما من التطبيق دون النزول بمعناه المصطلح عليه، و اتصال الآية بالآيتين قبلها و دخولها فى سياقهما ظاهر،و قد تقدم توضيحه.

و فى الكافى،بإسناده عن حمزه بن محمد الطيار عن أبي عبد الله(ع): فى قول الله:

ص: ٤٠٦

١-١ (١) أى يفسرانه.

٢-٢ (٢) يعنى يوم بدر.

« وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ » قال: يعرفهم ما يرضيه و ما يسخطه. الحديث:

أقول: و رواه أيضا عن عبد الأعلى عنه (ع)، و رواه البرقي أيضا في المحاسن.

و في تفسير القمي: « لقد تاب الله بالنبى على المهاجرين و الأنصار-الذين اتبعوه فى ساعه العسره » قال الصادق (ع): هكذا نزلت- و هم أبو ذر و أبو خيثمه و عمير بن وهب-الذين تخلفوا ثم لحقوا برسول الله ص.

أقول: و قد استخرجناه من حديث طويل أورده القمى فى تفسيره فى قوله تعالى: « وَ لَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً: » الآية:- ٤٦ من السوره، و روى قراءه «بالنبى» فى المجمع، عنه و عن الرضا (ع).

و فى المجمع،": فى قوله: « وَ عَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا » و قرأ على بن الحسين زين العابدين و محمد بن على الباقر-و جعفر بن محمد الصادق (ع)-و أبو عبد الرحمن السلمى. خالفوا.

و فيه،": فى قوله: « لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ الْأَنْصَارِ » الآية-نزلت فى غزاه تبوك و ما لحق المسلمين فيها من العسر-حتى هم قوم بالرجوع ثم تداركهم لطف الله سبحانه-قال الحسن: كان العشره من المسلمين-يخرجون على بعير يعتقبونه بينهم يركب الرجل ساعه-ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك، و كان زادهم الشعير المسوس و التمر المدود و الإهاله السنخه-و كان النفر منهم يخرجون ما معهم من التميرات بينهم-فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمره فلاكها حتى يجد طعمها-ثم يعطيها صاحبه فيمصها-ثم يشرب عليها جرعه من ماء كذلك-حتى يأتى على آخرهم فلا يبقى من التمره إلا النواه.

و فيه،": فى قوله: « وَ عَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا » الآية-نزلت فى شأن كعب بن مالك و مراره بن الربيع و هلال بن أميه، و ذلك أنهم تخلفوا عن رسول الله ص-و لم يخرجوا معه لا عن نفاق و لكن عن توان-ثم ندموا فلما قدم النبى ص المدينة جاءوا إليه و اعتذروا-فلم يكلمهم النبى ص و تقدم إلى المسلمين-بأن لا يكلمهم أحد منهم فهجرهم الناس حتى الصبيان، و جاءت نساؤهم إلى رسول الله ص فقلن له: يا رسول الله نعتزلهم؟ فقال: و لكن لا يقربوكن-.

فضاقت عليهم المدينة فخرجوا إلى رءوس الجبال، و كان أهاليهم يجيئون لهم

بالطعام و لا يكلمونهم- فقال بعضهم لبعض: قد هجرنا الناس- و لا يكلمنا أحد منهم فهلا نتهاجر نحن أيضا؟ فتفرقوا و لم يجتمع منهم اثنان، و بقوا على ذلك خمسين يوما يتضرعون إلى الله تعالى و يتوبون إليه، فقبل الله تعالى توبتهم و أنزل فيهم هذه الآية.

أقول: و قد تقدمت القصة في حديث طويل نقلناه من تفسير القمى في الآية ٤٦ من السوره، و رويت القصة بطرق كثيره.

و فى تفسير البرهان، عن ابن شهر آشوب من تفسير أبى يوسف بن يعقوب بن سفيان حدثنا مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر قال: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ » قال: أمر الله الصحابه أن يخافوا الله. ثم قال: « وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ » يعنى مع محمد و أهل بيته (ع).

أقول: و فى هذا المعنى روايات كثيره عن أئمه أهل البيت (ع)

و قد روى فى الدر المنثور، عن ابن مردويه عن ابن عباس، و أيضا عن ابن عساكر عن أبى جعفر: فى قوله: « وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ » قال: مع على بن أبى طالب.

و فى الكافى، بإسناده عن يعقوب بن شعيب قال: قلت لأبى عبد الله (ع)- إذا حدث على الإمام حدث كيف يصنع الناس؟ قال: أين قول الله عز و جل: « فَلَوْ لَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ - وَ لِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ » قال: هم فى عذر ما داموا فى الطلب، و هؤلاء الذين ينتظرونهم فى عذر حتى يرجع إليهم أصحابهم.

أقول: و فى هذا المعنى روايات كثيره عن الأئمه (ع)، و هو مما يدل على أن المراد بالتفقه فى الآية أعم من تعلم الفقه بالمعنى المصطلح عليه اليوم.

و اعلم أن هناك أقوالا أخرى فى أسباب نزول بعض الآيات السابقه تركناها لظهور ضعفها و وهنها.

[سوره التوبه (٩): الآيات ١٢٤ الى ١٢٩]

أشاره

وَ إِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَ هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ (١٢٤) وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَ مَاتُوا وَ هُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) أَوْ لَا- يَرُونَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَ لَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) وَ إِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٢٧) لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)

هى آيات تختتم بها آيات براءه و هى تذكر حال المؤمنين و المنافقين عند مشاهدته نزول السور القرآنيه، يتحصل بذلك أيضا أماره من أمارات النفاق يعرف بها المنافق من المؤمن، و هو قولهم عند نزول القرآن: أيكم زادته هذه إيماناً؟ و نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد؟.

و فيها وصفه تعالى نبيه ص وصفا يحن به إليه قلوب المؤمنين، و أمره بالتوكل عليه إن أعرضوا عنه.

قوله تعالى: « وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا » إلى آخر الآيتين. نحو السؤال فى قولهم: هل يراكم من أحد؟! يدل على أن سائله لا يخلو من شىء فى قلبه فإن هذا السؤال بالطبع سؤال من لا يجد فى قلبه أثرا من نزول القرآن و كأنه يذعن أن قلوب غيره كقلبه فيما يتلقاه فيتفحص عن أثر فى قلبه نزول القرآن كأنه يرى أن النبى ص يدعى أن القرآن يصلح كل قلب سواء كان مستعدا مهيبا للصلاح أم لا و هو لا يذعن بذلك و كلما تليت عليه سوره جديده و لم يجد فى قلبه خشوعا لله و لا ميلا و حنانا إلى الحق زاد شكاً فبعثه ذلك إلى أن يسأل

سائر من حضر عند النزول عن ذلك حتى يستقر في شكه و يزيد ثباتا في نفاقه.

و بالجمله السؤال سؤال من لا يخلو قلبه من نفاق.

و قد فصل الله سبحانه أمر القلوب و فرق بين قلوب المؤمنين و الذين في قلوبهم مرض فقال: «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا» و هم الذين قلوبهم خالية عن النفاق بريئه من المرض و هم على يقين من دينهم بقربنه المقابله «فَزَادَتْهُمْ» السوره النازله «إِيمَانًا» فإنها يانارتها أرض القلب بنور هدايتها توجب اشتداد نور الإيمان فيه، و هذه زياده في الكيف، و باشمالها على معارف و حقائق جديده من المعارف القرآنيه و الحقائق الإلهيه، و بسطها على القلب نور الإيمان بها توجب زياده إيمان جديد على سابق الإيمان و هذه زياده في الكميّه و نسبه زياده الإيمان إلى السوره من قبيل النسبه إلى الأسباب الظاهره و كيف كان فالسوره تزيد المؤمنين إيمانا فتشرح بذلك صدورهم و تنهلل وجوههم فرحا «وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ».

«وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» و هم أهل الشك و النفاق «فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ» أى ضللا جديدا إلى ضلالهم القديم و قد سمي الله سبحانه الضلال رجسا في قوله: «وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ» الأنعام:- ١٢٥ و المقابله الواقعه بين «الَّذِينَ آمَنُوا» و «الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» يفيد أن هؤلاء ليس في قلوبهم إيمان صحيح و إنما هو الشك أو الجحد و كيف كان فهو الكفر و لذلك قال «وَمَا تَوْأَمَهُمْ كَافِرُونَ».

و الآيه تدل على أن السوره من القرآن لا تخلو عن تأثير في قلب من استمعه فإن كان قلبا سليما زادته إيمانا و استبشارا و سرورا، و إن كان قلبا مريضا زادته رجسا و ضللا نظير ما يفيدته قوله: «وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَ لَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا» إسرائ:- ٨٢.

قوله تعالى: «أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ» الآيه الاستفهام للتقرير أى ما لهم لا يتفكرون و لا يعتبرون و هم يرون أنهم يبتلون و يمتحنون كل عام مره أو مرتين فيعصون الله و لا يخرجون من عهده المحنه الإلهيه و هم لا يتوبون و لا يتذكرون و لو تفكروا في ذلك انتبهوا لواجب أمرهم و أيقنوا أن الاستمرار على هذا الشأن ينتهى بهم إلى تراكم الرجس على الرجس و الهلاك الدائم و الخسران المؤبد.

قوله تعالى: « وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ » الآية وهذه خصيصه أخرى من خصائصهم وهي أنهم عند نزول سورة قرآنيه-ولا محاله هم حاضرون-ينظر بعضهم إلى بعض نظر من يقول:هل يراكم من أحد، وهذا قول من يسمع حديثا لا يطيقه و يضيق بذلك صدره فيتغير لونه و يظهر القلق و الاضطراب في وجهه فيخاف أن يلتفت إليه و يظهر السر الذي طواه في قلبه فينظر إلى بعض من كان قد أودعه سره و أوقفه على باطن أمره كأنه يستفسره هل يطلع على ما بنا من القلق و الاضطراب أحد.

فقوله: « نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ » أى بعض المنافقين، وهذا من الدليل على أن الضمير فى قوله فى الآية السابقه: « فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ » أيضا للمنافقين، وقوله:

« نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ » أى نظر قلق مضطرب يحذر ظهور أمره و انتهاك ستره، وقوله: « هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ » فى مقام التفسير للنظر أى نظر بعضهم إلى بعض نظر من يقول:هل يراكم من أحد؟ و من للتأكيد و أحد فاعل يراكم.

وقوله: « ثُمَّ انصِرِفُوا صِرْفَ اللَّهِ قُلُوبُهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ » ظاهر السياق أن المعنى ثم انصرفوا من عند النبى ص فى حال صرف الله قلوبهم عن وعى الآيات الإلهيه و الإيمان بها بسبب أنهم قوم لا يفقهون الكلام الحق فالجمله حاله على ما يجوزه بعضهم.

و ربما احتمال كون قوله: « صِرْفَ اللَّهِ قُلُوبُهُمْ » دعاء منه تعالى على المنافقين، و له نظائر فى القرآن، و الدعاء منه تعالى على أحد إيعاد له بالشر.

قوله تعالى: « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ » العنت هو الضرر و الهلاك، و ما فى قوله: « مَا عَنِتُّمْ » مصدره التأويل عنكم، و المراد بالرسول على ما يشهد سياق الآيتين محمد ص، و قد وصفه بأنه من أنفسهم و الظاهر أن المراد به أنه بشر مثلكم و من نوعكم إذ لا دليل يدل على تخصيص الخطاب بالعرب أو بقریش خاصه، و خاصه بالنظر إلى وجود رجال من الروم و فارس و الحبشه بين المسلمين فى حال الخطاب.

و المعنى لقد جاءكم أيها الناس رسول من أنفسكم، من أوصافه أنه يشق عليه ضرركم أو هلاككم و أنه حريص عليكم جميعا من مؤمن أو غير مؤمن، و أنه رءوف رحيم بالمؤمنين

منكم خاصه فيحق عليكم أن تطيعوا أمره لأنه رسول لا يصدع إلا عن أمر الله، و طاعته طاعه الله، و أن تأنصوا به و تحنوا إليه لأنه من أنفسكم، و أن تجيبوا دعوته و تصغوا إليه كما ينصح لكم.

و من هنا يظهر أن القيود المأخوذه في الكلام من الأوصاف أعنى قوله «رَسُولٌ» و «مِنْ أَنْفُسِكُمْ» و «عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ» إلخ، جميعها مسوقه لتأكيد الندب إلى إجابته و قبول دعوته، و يدل عليه قوله في الآية التاليه: «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ».

قوله تعالى: «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ» أى و إن تولوا عنك و أعرضوا عن قبول دعوتك فقل حسبي الله لا إله إلا هو أى هو كافي لا إله إلا هو.

فقوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» في مقام التعليل لانقطاعه من الأسباب و اعتصامه بربه فهو كاف لا كافي سواه لأنه الله لا إله غيره، و من المحتمل أن تكون كلمه التوحيد جىء بها للتعظيم نظير قوله: «وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ»: البقره: -١١٦.

و قوله: «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ» و فيه معنى الحصر تفسير يفسر به قوله: «حَسْبِيَ اللَّهُ» الدال على معنى التوكل بالالتزام، و قد تقدم فى بعض الأبحاث السابقه أن معنى التوكل هو اتخاذ العبد ربه و كيلا يحل محل نفسه و يتولى تدبير أموره أى انصرافه عن التسبب بذيل ما يعرفه من الأسباب، و لا- محاله هو بعض الأسباب الذى هو عله ناقصه و الاعتصام بالسبب الحقيقى الذى إليه ينتهى جميع الأسباب.

و من هنا يظهر وجه تذليل الكلام بقوله: «وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ» أى الملك و السلطان الذى يحكم به على كل شىء و يدبر به كل أمر.

و إنما قال تعالى: «فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ» الآية و لم يقل: فتوكل على الله لإرشاده إلى أن يتوكل على ربه و هو ذاكر هذه الحقائق التى تنور حقيقه معنى التوكل، و أن النظر المصيب هو أن لا- يثق الإنسان بما يدركه من الأسباب الظاهره التى هى لا محاله بعض الأسباب بل يأخذ بما يعلمه منها على ما طبعه الله عليه و يثق بربه و يتوكل عليه فى حصول بغيته و غرضه.

و في الآيه من الدلاله على عجيب اهتمامه (ص) باهتداء الناس ما ليس يخفى فإنه تعالى يأمره بالتوكل على ربه فيما يهتم به من الأمر و هو ما تبينه الآيه السابقه من شده رغبته و حرصه في اهتداء الناس و فوزهم بالسعاده فافهم ذلك.

(بحث روائى)

في الكافي، بإسناده عن أبي عمرو الزبيرى عن أبي عبد الله (ع): - في حديث طويل يذكر فيه تمام الإيمان و نقصه، قال: قلت: قد فهمت نقصان الإيمان و تمامه - فمن أين جاءت زيادته؟ فقال: قول الله عز و جل: «وَ إِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ - وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ» و قال: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ - إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْنَاَهُمْ هُدًى».

و لو كان كله واحدا لا زياده فيه و لا نقصان - لم يكن لأحد منهم فضل على الآخر، و لاستوت النعم فيه، و لاستوى الناس و بطل التفضيل -، و لكن بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنه - و بالزياده في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله، و بالنقصان دخل المفرطون النار.

و في تفسير العياشى، عن زراره بن أعين عن أبي جعفر (ع): «وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ» يقول شكا إلى شكهم.

و في الدر المنثور، في قوله: «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ»: أخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال: قال رسول الله ص: لم يلتق أبواى قط على سفاح.

لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الطيبه إلى الأرحام الطاهره - مصفى مهذباً لا تنشعب شعبتان إلا كنت فى خيرهما.

أقول: و قد أورد فيه روايات كثيره فى هذا المعنى عن رجال من الصحابه و غيرهم كالعباس و أنس و أبى هريره و ربيعه بن الحارث بن عبد المطلب و ابن عمر و ابن عباس و على و محمد بن على الباقر و جعفر بن محمد الصادق (ع) و غيرهم عن النبى ص.

وفيه، أخرج ابن الضريس في فضائل القرآن و ابن الأنبارى فى المصاحف و ابن مردويه عن الحسن أن أبى بن كعب كان يقول: "إن أحدث القرآن عهدا بالله-و فى لفظ بالسما-هاتان الآيتان: «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ» إلى آخر الآية:

أقول: و الروايه مرويه من طريق آخر عن أبى بن كعب

و هى لا تخلو عن تعارض مع ما سياتى من الروايه و كذا مع ما تقدم من الروايات فى قوله تعالى:

« وَ اتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ » X الآية X: البقره:- ٢٨١ أنها آخر آيه نزلت من القرآن.

على أن لفظ الآيتين لا يلائم كونهما آخر ما نزلت من القرآن إلا أن يكون إشاره إلى بعض الحوادث الواقعه فى مرض النبى ص كحديث الدواه و القرطاس.

وفيه، أخرج ابن إسحاق و أحمد بن حنبل و ابن أبى داود عن عباد بن عبد الله بن الزبير قال: "أتى الحارث بن خزيمه بهاتين الآيتين من آخر براءه: «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ» - إلى قوله- « وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ » إلى عمر- فقال: من معك على هذا؟ فقال: لا أدري- و الله إلا أنى أشهد لسمعتها من رسول الله ص- و وعيتها و حفظتها- فقال عمر: و أنا أشهد لسمعتها من رسول الله ص- لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حده- فانظروا سورة من القرآن فألحقوها فألحقت فى آخر براءه.

أقول: و

فى روايه أخرى: أن عمر قال للحارث: لا- أسألك عليها بينه أبدا- كذلك كان رسول الله ص، ٩ و فى هذا المعنى أحاديث أخرى، و سنستوفى الكلام فى تأليف القرآن و ما يتعلق به من الأبحاث فى تفسير سورة الحجر إن شاء الله تعالى.

و قد كنا نرجو أن نفرّد كلاما فى آخر براءه نبحت فيه عن شأن المنافقين فى الإسلام و نستخرج ما يشرحه القرآن فى أمرهم مع تحليل فى تاريخهم و تبين لما أودعوه من الفساد و البلوى بين المسلمين لكن طول الكلام فى تفسير الآيات عاقنا عن ذلك فأخرناه إلى موضع آخر يناسبه و الله نسأل التوفيق فهو وليه.

تم و الحمد لله

ص: ٤١٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة (sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
اصبهان
الغمامية



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

